الطـريـق إلى الإسـلام

محمّد أسد

الطريق إلى الإسلام

نقله إلى العربية
عفيف البعلبكي

دار العلم للملايين

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أسد، محمد

الطريق إلى الإسلام. - الرياض

٣١٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم

ردمك X-٣٧٦-٢٠-٩٩٦٠

١- الإسلام أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٨/٠٢٨٣

ردمك X-٣٧٦-٢٠-٩٩٦٠

رقم الإيداع : ١٨/٠٢٨٣

الطبعة التاسعة

١٤١٨هـ/١٩٩٧م

طبعة خاصة طبعت في المملكة العربية السعودية

وتوزعها مكتبة العبيكان بإذن خاص من الناشر الأصلي

(دار العلم للملايين).

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٢٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤

برقياً: ملاليين - تلكس ٢٣١٦٦ ملاليين

بيروت - لبنان

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

سمعت وأنا في باكستان، أن صديقنا محمد أسد، يكتب في أميركا كتاباً يعرّف فيه الإسلام ويبيّن كيف عرف هو هذا الدين وكيف أعجب به حتى دخل فيه.

أملت في هذا الكتاب خيراً كثيراً، بما عرفت كاتبه وصاحَبته، وتبينت علمه بالإسلام، وحبه له وغيرته عليه.

ولبثت أرتقب الكتاب حتى حمل إليّ البريد نسخة منه أهداها إليّ المؤلف فإذا هو مكتوب بالإنكليزية واسمه «الطريق إلى مكة». فسارعت إلى قراءة عناوينه، وتصفح صوره، مرتقباً أن أفرغ له فأستوعبه قراءة. وتوالت أشغال فلم يُتَح لي الفراغ حتى عرض لي سفر إلى بلوخستان. فحملت الكتاب واتخذته سميراً حين آوي إلى فراشي خالياً إلى نفسي، مستريحاً من شواغل تصحبني أطراف النهار وزلفاً من الليل.

— ٢ —

قرأت المقدمة، وهي جديرة بعناية كل قارىء لتريه أين نحن من ظنون أهل الغرب، وماذا ورثه الفكر الغربي من الحروب الصليبية.

ثم شرعت في الفصل الأول، فصل الظمأ والتيه في صحراء النفود. فهالتني

الأحداث وراعني البيان حتى شركت الكاتب فيما عرض له من تيه وظمأ، وخوف ورجاء ثلاث ليال، وهو في صحبة الآكام الصامتة وخداع الصحراء الهائلة. وكأني كنت بجانبه حين خر مغشياً عليه، وبركت ناقته معه كلالاً وإعياء، وحين وقعت يده على المسدس فهمَّ أن يخلص من هذه الميتة البطيئة الطويلة فإذا هاتف من الإيمان يقرأ له الآية: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾. ولم يلبث قليلاً حتى نهضت ناقته تنشق رائحة الماء من بعد، وإذا رجلان يبحثان عنه يحملان قربة ماء.

وصحبته مستمتعاً مشوقاً، مرتاعاً أحياناً، في مسيره في بوادي الحجاز وتعريسه على موقد النار وزيد يهيء القهوة والطعام، وهو يقص من سيرته، أو يفكر في ماضيه. وصابرته طويلاً حين نزل بعد الغروب في بئر ليبترد، وعنت له وهو في البئر أفكار طوّفت به ملكوت السموات والأرض. انتظرته طويلاً وأنا متعجب ضاحك. واستمعت إليه وهو يحدث زيداً وغيره بسيرته الأولى، نشأته ونظراته في الأديان وسفره إلى بلاد العرب ليراسل بعض الصحف، وإعجابه بالعرب إعجاباً يزيد على مر الأيام، ويقوى كلما زادت معرفته بهم، ومخالطته إياهم. حتى فكر فيما وراء عيشتهم الراضية، وأخلاقهم الكريمةَ من دين، فشرع يتعرف الإسلام شيئاً فشيئاً، ويطيل التفكير فيه وفي المسلمين.

وصحبته في مخاطراته سائراً من فلسطين إلى سورية، وفي دمشق ومصر، وفي أسفاره في إيران وأفغانستان وفيها المعجب من ألوان المعيشة، وصنوف الناس، وفيها المخيف من الحادثات، والمضحك من الصور في قصص معجب، وبيان مطرب.

واستمعت إليه وهو يحدث عن الملك عبد العزيز رحمه الله وعن آل سعود وعيشه معهم، وصحبته إياهم، وسكونه إليهم، وثنائه عليهم، وثقتهم به، وتعويلهم عليه.

ولا أنسى رحيله إلى عمر المختار ولقاءه في ظلام الليل في غيلة من أحراج برقة، وكيف عبر إليه البحر الأحمر والنيل والصحارى، وكيف بلّغه رسالة السيد أحمد السنوسي رحمه الله، وكيف عاد عنه برسالة سطورها الغم والحزن، وفيها الجهاد المصمم ولقاء الموت دون مدد من سلاح ودواء:

سلاحهم عزيمة الجهادِ
وقوتهم ما سلبوا الأعادي

يصابرون الأكبد الصوادي
ويأكلون الجوع في البوادي
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب في الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد[1]

وما زلت مع أسد في بادية الحجاز وهو يحل ويرحل، ويقص من سيرته ويحدث عن سفره ومخاطراته في بلاد الإسلام، ويبيّن كيف آثر الإسلام فرضيه ديناً، ودخل في أخوّة المسلمين، ويصف العرب في باديتهم حتى وافيت معه عرفات فأستمع إليه يقول بعد الإفاضة من الموقف العظيم:

«ها نحن أولاء نمضي عجلين، طائرين على السهل يخيل إليّ أنا نطير مع الرياح مستسلمين لغبطة لا حدّ لها ولا نهاية. والريح تعصف في أذني صيحة الفرح: لن تعود بعد غريباً، لن تعود، لن تعود.

إخواني عن اليمين، وإخواني عن الشمال، ليس بينهم من أعرفه وليس فيهم من غريب، فنحن في الجذل المصطخب، في هذا السباق، جسد واحد يسير إلى غاية واحدة.

فسيح أمامنا العالم، وفي قلوبنا جذوة من النار التي وقدت في قلوب أصحاب رسول الله.

أجل، يعلم إخواني الذين عن يميني، وإخواني الذين عن شمالي، إنهم قصروا عما كان يرجى منهم، وأن قلوبهم، على مر العصور، قد تضاءلت، ولكنهم لا يزالون على العهد سينجزون الوعد، سننجزه.

وحاد واحد في هذا الجمع المتدفق، عن شعار القبيلة إلى شعار الإيمان صائحاً:

نحن إخوان من يشري نفسه في سبيل الله.
وتلاه آخر يصيح: الله أكبر.
اجتمعت فرق القبائل على هذا الشعار الواحد، ليسوا، هم الآن بداة نجديين

(١) هذه الأبيات من أرجوزة نظمتها قبيل مقتل عمر المختار.

يتفاخرون بعصبيات القبائل، بل هم أناس يوقنون أن لله أموراً في الغيب تنتظرهم.

في غابة من أرجل الإبل المتسابقة، وبين خفوق مئات من الرايات ترتفع أصواتهم إلى جؤار ظافر: الله أكبر.

تفيض في موجات عاتية فوق رؤوس آلاف الركبان الراكضين، فوق السهل الفسيح، إلى أقاصي الأرض: الله أكبر.

فيمَ يخفى الحنين بعد أو يتضاءل؟ لقد لقي يقظته، لقي إشراق الظفر يكاد سناه يغشي الأبصار. في هذا الظفر يوفض السائر، يوفض بكل ما وهبه الله، والإيفاض غبطته، والحرية معرفته، وعالمه فلك لا حدود له.

وحولي رائحة الإبل ووجيبها ونخيرها، وصياح الركبان، وقعقعة البنادق المعلقة في الرحال، والعجاج، والوجوه الناضرة الوالهة. وفي قلبي سكون فجائي بهيج.

ألتفت ورائي فأرى الأمواج، وانتفاض آلاف الركبان بيض الثياب، ووراءهم القنطرة التي عبرتها، فأما آخرها فقريب خلفي، وأما أولها فقد غاب في ضباب المسافات البعيدة»[١].

ولما فرغت من قراءة الكتاب كتبت على صفحته الأخيرة:

فرغت من قراءته والساعة عشر وخمسون دقيقة من ليلة الأربعاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هـ. ـ ٩ تشرين الثاني ١٩٥٤ م في دار السفارة المصرية ـ كراتشي.

أحسن كل الإحسان المؤلف محمد أسد. جزاه الله عن الإسلام والعرب خير الجزاء.

ـ ٣ ـ

إن كتاب أسد ليفيض على قارئه في كل فصل، حباً للعرب، وإكباراً لأخلاقهم، وإعجاباً بالإسلام وقدراً لعقائده وشرائعه وسننه وآدابه.

ولا يتهم محمد أسد بعصبية للعرب والمسلمين. فما نشأ عربياً ولا مسلماً،

(١) الترجمة ليست لفظية.

ولكنه أحب العرب وآثرهم وفضل الإسلام، واختاره ديناً، بعقله المستقل، وفكره الحر، ونفسه التي تكبر الأخلاق أنى وجدتها، وتقوّم الفضائل حيثما شهدتها. وببصره الثاقب، يجوز الظواهر إلى البواطن، والصور إلى الحقائق، ويقوم الإنسان بإنسانيته لا بثروته، وبفضائله لا بصناعاته، وبأصغريه قلبه ولسانه لا بأبهته وسلطانه.

إنها استجابة نفس طيبة لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وإعجاب قلب كبير بالفطرة السليمة، وإدراك عقل منير للحق والخير والجمال يتجلى في أناس صادقين مختصين، وإن بدوا في ثياب الفقراء وعدة الضعفاء.

— ٤ —

وكنت قرأت وأنا في الحجاز كتاباً لمحمد أسد اسمه «الإسلام على مفترق الطرق» فرأيت كتاباً ذا بصيرة يدعو المسلمين إلى الاستمساك بسننهم، والاقتداء بنبيّهم، ويحذرهم عاقبة التفريط والتقليد.

لقد لقيت محمد أسد في باكستان ـ وكان جاء إليها فأقام وتولى نشر مجلة «عرفات» وكتب أبحاثاً قيمة في الدستور الإسلامي، وتولى رياسة معهد الدراسات الإسلامية في لاهور ثم انتقل إلى وزارة الخارجية وكثر لقاؤنا في كراتشي، وطالت أحاديثنا في أمور إسلامية كثيرة، لا سيما جمع كلمة المسلمين في هذا العصر. وجمعتني به مجالس كثيرة فما زادني اللقاء والمعرفة إلا حباً للرجل، وإكباراً له وإعجاباً بعقله وعلمه ودينه وغيرته على الإسلام وحبه للعرب.

لبث أسد بين المسلمين يرى ما يسر وما يحزن، وما يعجب وما لا يعجب. ولكنه لبث مسروراً بإسلامه، معجباً بأخلاق العرب، لا يدع فرصة للتحدث إلا انتهزها، ولا يترك وسيلة للعلم والتعليم والمعرفة والتعريف في هذه السبيل إلا توسل بها.

وأشهد لقد شهدته في باكستان في مجالس كثيرة، دائم الأهبة للتحدث عن الإسلام، والدفاع عنه، نهازاً للفرص ليبيّن حكمة من حكمه، أو فضيلة من فضائله، أو يرد مسلماً جاهلاً بدينه، إلى الصواب، أو يهدي آخر ضالاً إلى سواء الصراط، أو يدعو المسلمين إلى الاستمساك بدينهم، وجمع كلمتهم وقلوبهم وأيديهم على العمل الصالح الذي يعود بهم إلى مجدهم الأول.

ـ ٥ ـ

طبع هذا الكتاب «الطريق إلى الإسلام» في أميركا. فاهتمت الصحف به، وكتبت المجلات الكبيرة عنه، ونشرت صورة المؤلف في زيه العربي، وقد اطلعت على بعض ما نشرته مجلات أميركا في هذا الشأن فرأيتها تثني على الكتاب والمؤلف وتشيد بكتابه، ويأخذ عليه بعضها الغلو في حب الإسلام والعرب.

ثم طبع الكتاب في بلاد الإنكليز. ثم ترجم إلى الألمانية فنشر بها فتلقاه الألمان بالاهتمام، وأكثرت الصحف من الحديث عنه، ووجد فيه القوم دعوة بليغة إلى دين لم يعرفوه حق معرفته، فلم يقدروه حق قدره.

وعسى أن يكون للكتاب أثر بليغ في نفوس الألمان في هذا الزمان القلق الحائر المضطرب.

وقد بلغني منذ سنة أن الكتاب يترجم إلى اللغات السويدية والهولندية ولعله طبع.

في كل ترجمة لهذا الكتاب وكل طبعة فائدة للمسلمين والعرب خاصة بالتعريف بهم والإشادة بدينهم وحضارتهم، وفي نفع للإنسانية عامة بما يعرف الناس بعضهم ببعض، ويجلو لهم الحق في معرض من القصص الممتع والبيان الجميل، ويحاول أن يزحزح عن العيون والقلوب غشاوة العصبية والبغض ليتحاب الناس ويتعاونوا.

ـ ٦ ـ

لم أطلع على الترجمة العربية. وعسى أن تكون كما أرتقب، جديرة بهذا الكتاب القيم، شائقة إليه قرّاء العربية. ومهما يكن فإن ربحاً عظيماً للعرب أن يجدوا هذا ميسراً لهم بلغتهم، بعد أن أذاع محامدهم، ودافع عن حقوقهم بلغات أخرى في أوروبا وأميركا.

وبعد فإني منذ قرأت الكتاب، مشوق إلى لقاء الأخ محمد أسد لأحدثه عن كتابه، وأستزيده، علماً بحوادثه، وأفصل له ما كتبت إليه قبلاً، من اغتباطي بالكتاب، وتقديري هذه المأثرة التي يسجلها له تاريخ الإسلام والعرب.

والله يجزيه خير ما يجزى مؤمن عامل مخلص، ويزيده توفيقاً في كتبه المرجوة.

وهو ولي التوفيق.

ربيع الثاني ١٣٧٥ هـ - ١٢ كانون الأول ١٩٥٥ م

عبد الوهاب عزام

حكاية قصة

إن القصة التي أنا بسبيل روايتها في هذا الكتاب ليست تاريخاً لحياة رجل اشتهر بدور لعبه في الشؤون العامة، وليست كذلك سرداً لمغامرة قام بها، ذلك بأنه، بالرغم من أن مغامرات وتجارب غريبة اعترضت طريقي، فإنها لم تكن أكثر من أشياء لا بدّ أن تصاحب ما كان يعتمل في ذات نفسي. وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنها ليست حتى رواية بحث جازم متعمد عن الإيمان، لأن ذلك الإيمان قد عمر نفسي، خلال السنين، دونما أية محاولة من قبلي لإيجاده. إن قصتي هذه لا تخرج عن كونها سرداً لاكتشاف رجل أوروبي الإسلام، ولصيرورته جزءاً لا يتجزأ من البيئة الإسلامية.

لم أفكر مطلقاً من قبل في كتابة هذه القصة، لأنه لم يخطر لي أن حياتي يمكن أن تكون موضع اهتمام أحد سواي. بيد أنني عندما قصدت إلى باريس، ومن بعدها إلى نيويورك، في مطلع عام ١٩٥٢، بعد غياب خمسة وعشرين عاماً عن الغرب، أجبرت على أن أبدل من نظرتي تلك، لأن المنصب الذي شغلته كوزير مفوض لباكستان لدى الأمم المتحدة جعلني، بطبيعة الحال، محط الأنظار، وأثار الكثير من الفضول بين أصدقائي ومعارفي الأميركيين والأوروبيين. ففي بادىء الأمر حسب هؤلاء أن القضية بالنسبة إليّ لا تعدو قضية خبير أوروبي تستخدمه حكومة شرقية لغرض معين، وأنني كنت قد كيفت نفسي حسب عادات الأمة التي كنت في خدمتها. ولكن عندما أظهر نشاطي في الأمم المتحدة أنني لم أكن موظفاً فحسب، بل رجلاً منسجماً تمام الانسجام، عاطفياً وعقلياً، مع الأهداف والغايات السياسية والثقافية للعالم الإسلامي بوجه عام، استولى عليهم الدهش إلى حد ما. وبدأ الناس يلحفون عليّ، تدريجياً، بالسؤال عن خبراتي الماضية، فعرفوا أنني في مطلع حياتي اتخذت مهنة مراسل للصحف الأوروبية، وأنني، بعد سنوات عدة قضيتها في التجوال بين أقطار الشرق الأوسط، أصبحت مسلماً في عام ١٩٢٦. كذلك عرفوا أنني، بعد اعتناقي الإسلام، عشت ما يقرب من سنوات ست في جزيرة العرب، ونعمت بصداقة الملك ابن سعود، وأنني بعد أن تركت جزيرة العرب ذهبت إلى الهند حيث اجتمعت

بالشاعر الفيلسوف الإسلامي العظيم والأب الروحي لفكرة باكستان، محمد إقبال. لقد كان هو الذي سرعان ما أقنعني بإلغاء برنامجي في السفر إلى تركستان الشرقية والصين وأندونيسيا، وبالبقاء في الهند كي أسهم في إيضاح المقدمات العقلية للدولة الإسلامية العتيدة التي لم تكن في ذلك الوقت أكثر من حلم يراود مخيلة إقبال. ولقد كان هذا الحلم بالنسبة إليّ كما كان بالنسبة إلى إقبال، يمثل طريقة، بل قل الطريقة الوحيدة، لإنعاش جميع الآمال الإسلامية الهاجعة ولخلق وحدة سياسية من الناس الذين لا يربط بينهم نسب مشترك، بل تعلق مشترك بأيديولوجية فكرية واحدة. وكان أن وقفت نفسي سنين طويلة على هذا المثل الأعلى، وقمت بدراسات كثيرة، وكتبت مقالات طويلة، وألقيت محاضرات عدة، وعرفت مع الزمن كترجمان للفقه الإسلامي والثقافة الإسلامية. وعندما أنشئت باكستان في عام ١٩٤٧، دعتني حكومتها إلى تنظيم دائرة إحياء الإسلام(١) التي كان عملها تحسين المفاهيم الفكرية الإسلامية للدولة والجماعة التي يمكن أن تشاد عليها المؤسسة الحديثة. وبعد عامين من هذا النشاط المغري إلى أبعد الحدود، انتقلت إلى وزارة الخارجية الباكستانية، وعينت رئيساً لقسم الشرق الأوسط، حيث وقفت نفسي على تقوية الروابط بين باكستان وسائر أجزاء العالم الإسلامي، ولم ألبث أن وجدت نفسي بين أعضاء وفد باكستان إلى الأمم المتحدة في نيويورك.

كل هذا كان يشير إلى أبعد كثيراً من مجرد تكيف خارجي لرجل أوروبي حسب البيئة الإسلامية التي اتفق أن عاش فيها. والحق أنه كان يدل على انتقال واع من صميم القلب من بيئة ثقافية إلى أخرى تختلف تمام الاختلاف. وقد بدا هذا غريباً جداً لمعظم أصدقائي الغربيين، ذلك بأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا تماماً كيف أن رجلاً غربي المولد استطاع أن يثبت شخصيته إثباتاً كاملاً، ودونما أدنى تحفظ عقلي، في العالم الإسلامي، وكيف أنه كان في وسعه أن يستبدل بتراثه الثقافي الغربي، التراث الإسلامي، وكيف استطاع قبول ايديولوجية دينية واجتماعية، كانت في اعتقادهم المطلق، أحط كثيراً من جميع المفاهيم والمعتقدات الأوروبية.

ولقد ساءلت نفسي: لماذا يفرض أصدقائي الغربيون ذلك ويسلمون به بمثل هذه السهولة؟ هل أزعج أحدهم نفسه حقاً بدراسة الإسلام دراسة واعية مباشرة؟ أم هل كانت آراؤهم تقوم فقط على قبضة الكليشهات والأفكار المشوهة التي تحدرت إليهم من الأجيال السابقة؟ وهل يمكن أن تكون طريقة التفكير اليونانية الرومانية

---

(١) Department of Islamic Reconstruction.

القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة، وبرابرة من جهة أخرى، لا تزال مكينة في الفكر الغربي إلى درجة أنها لم تستطع أن تقبل، ولو نظرياً، بالقيم الإيجابية لأي شيء يقع خارج مدارها الثقافي الخاص؟

لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوروبيون، منذ عهود اليونان والرومان، إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوروبي والتجارب الثقافية الغربية وحدها. أما المدنيات غير الغربية فلا يُعرض لها إلا من حيث إن لوجودها أو لحركات خاصة فيها، تأثيراً مباشراً في مصائر الإنسان الغربي. وهكذا فإن تاريخ العالم وثقافاته العديدة لا يعدو أن يكون في أعين الغربيين تاريخاً موسعاً للغرب.

وطبيعي أن النظر من هذه الزاوية الضيقة لا بد أن يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم. إن الأوروبي أو الأميركي العادي، بما اعتاد أن يطالع من الكتب التي تعالج أو تبحث مسائل مدنيته الخاصة بتبسط وتوسع يضيفان عليها ألواناً حية، دون أن تلقي على سائر أجزاء العالم سوى نظرات عابرة هنا وهناك - ليستسلم ويرضخ بسهولة ويسر إلى الوهم الخادع الذي يصور أن الخبرات الثقافية الغربية ليست أسمى من سائر الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب، بل لا تتناسب معها إطلاقاً؛ وبالتالي إن طريقة الحياة العربية هي النموذج الصحيح الوحيد الذي يمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على سائر طرائق الحياة - وأن كل مفهوم ثقافي أو مؤسسة اجتماعية أو تقويم أدبي يتعارض مع النموذج الغربي إنما ينتمي، حتماً، إلى درجة من الوجود أدنى وأحط. ومن هنا نرى أن الغربي، تمثلاً باليونان والرومان، يجب أن يعتقد أن جميع تلك المدنيات الأخرى ليست أو لم تكن، إلا تجارب متعثرة في طريق الرقي، هذا الطريق الذي تتبّعه الغرب بكثير من السداد والعصمة من الخطأ، أو أنها، في أفضل الأحوال - كما هي الحال في مسألة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة - ليست أكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد آخرها، غير شك، المدنية الغربية.

وعندما عرضت وجهة النظر هذه على صديق لي، وهو على درجة عالية جداً من الثقافة ميال إلى البحث والاطلاع، أخذه نوع من الريبة في بادىء الأمر.

قال صديقي: «صحيح أن اليونان والرومان القدامى كانوا محدودين في معالجتهم المدنيات الأجنبية، ولكن ألم يكن اتجاههم ذلك هو النتيجة الحتمية، لصعوبة الاتصال بينهم وبين سائر أجزاء العالم؟ ثم، ألم يُتغلب على هذه الصعوبة إلى حد ما، في الأزمنة الحديثة؟ وفضلاً عن ذلك فإننا، نحن الغربيين، نهتم فعلاً في

هذه الأيام مما يجري خارج فلكنا الثقافي الخاص. ألا تعتقد أنك قد نسيت الكتب العديدة التي نشرت في أوروبا وأميركا خلال ربع القرن المنصرم عن الفن الشرقي والفلسفة الشرقية وعن الفكرات السياسية التي تشغل أذهان الشعوب الشرقية؟ حقاً أن أحداً لا يمكن أن يكون منصفاً إن هو تجاهل هذه الرغبة التي يبديها الغربيون في تفهم ما يمكن أن تملكه وتقدمه الثقافات الأخرى».

ولقد أجبت صديقي: «قد تكون، إلى حد ما، على حق في ما تقول، فليس هناك شك في أن الاستشراق اليوناني الروماني البدائي لم يعد فعالاً في أيامنا هذه كما كان في الماضي، ذلك بأنه قد أصبح أقل عنفاً إلى حد كبير لسبب قد لا يكون السبب الوحيد، هو أن المفكرين الغربيين الأكثر نضجاً قد أخذتهم الريبة في كثير من نواحي مدنيتهم ذاتها، وأنهم الآن بسبيل التطلع نحو الإيحاء الثقافي في أجزاء أخرى من العالم. إن بعضهم قد أخذ يفقه أنه قد لا يكون هناك كتاب واحد وقصة واحدة عن الرقي الإنساني، بل عدة كتب وقصص، لا لشيء سوى أن الجنس البشري، بالمعنى التاريخي، ليس وحدة متجانسة الأجزاء، بل مجموعات مختلفة تتباين مفاهيمها لمعنى الحياة وغايتها. ومع ذلك فإني لا أشعر أن الغرب قد أصبح فعلاً أقل تكبراً من اليونانيين والرومانيين نحو الثقافات الأجنبية، بل أكثر تساهلاً فقط. وأرجو أن ألفت انتباهك إلى أنه لم يصبح أكثر تسامحاً نحو الإسلام، بل نحو ثقافات شرقية معينة أخرى تقدم نوعاً من الجاذبية الروحية المتعطش إليها الغرب، وفي الوقت نفسه، بعيدة جداً عن النظرة الغربية العالمية بحيث لا تشكل أي خطر حقيقي على قيمها».

قال صديقي: «وماذا تعني بذلك؟»

أجبت: «حسناً. عندما يبحث أحد الغربيين في الهندوسية، مثلاً، أو في البوذية، فإنه يعي دائماً الفروق الأساسية بين هذين المعتقدين وبين معتقده الخاص. إنه قد يعجب ببعض آرائهما، ولكنه بطبيعة الحال لا يمكن أن ينظر في إمكان الاستعاضة بها عن آرائه الخاصة. وبما أنه، بداهة، يعترف باستحالة هذا الاستبدال، فيمكنه أن يتبصر في مثل هذه الثقافات التي هي بحق غريبة عنه برصانة واتزان، وفي أحيان كثيرة بتقدير وإكبار وديين. بيد أنه عندما يصل الأمر إلى الإسلام، وهو ليس غريباً عن القيم الغربية بمقدار الفلسفتين الهندوسية أو البوذية ـ فإن المحاباة العاطفية تفعل فعلها في هذه الرصانة الغربية. بصورة تكاد تكون دائمة وثابتة، فتضطرب وتختل. وإني لأتساءل أحياناً: هل السبب في ذلك يعود إلى أن قيم الإسلام قريبة فعلاً من قيم الغرب إلى درجة تكفي لأن تشكل خطراً ممكناً على كثير من المفاهيم

الغربية في الحياة الروحية والاجتماعية؟»

ثم تابعت حديثي فذكرت له نظرية تصورتها منذ بضع سنين ـ نظرية لعل باستطاعتها أن تساعد المرء على أن يفهم، بصورة أفضل، التعصب المتأصل ضد الإسلام، والذي كثيراً ما يوجد عميق الجذور في الأدب الغربي والفكر السياسي المعاصر.

قلت: «ولكي نجد تفسيراً مقنعاً بحق لهذا التعصب، علينا أن نعود إلى التاريخ الماضي البعيد، وأن نحاول تفهم الأساس السيكولوجي لأقدم العلاقات بين العالمين الغربي والإسلامي. إن ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات إنما ولدت في إبان الحروب الصليبية».

وهنا هتف صاحبي: «الحروب الصليبية! إنك لا تعني أن ما حدث منذ قرابة ألف سنة يمكن أن يظل له تأثير في القرن العشرين؟»

فأجبت: «إن هذا التأثير قد استمر بالفعل. إنني أعرف أن هذا يبدو شيئاً غريباً، ولكن ألا تذكر الريبة والشك اللذين قوبلت بهما اكتشافات علماء التحليل النفساني عندما حاولوا أن يظهروا جزءاً كبيراً من الحياة العاطفية عند الإنسان الناضج ـ وكذلك معظم تلك الميول والأذواق والأهواء المجحفة التي تبدو وكأن لا تفسير لها ـ يمكن أن ترجع إلى خبرات تمت له في بدء تكوينه في أيام طفولته المبكرة؟ حسناً، وهل الأمم والمدنيات سوى أفراد تؤلف المجموع؟ إن نموها كذلك مرتبط بخبرات طفولتها المبكرة، وهذه الخبرات، كما هي لدى الأطفال، قد تكون سارة وقد تكون غير ذلك، كما أنها قد تكون منطقية تماماً وقد تكون غير ذلك بسبب التفسير الساذج الذي يعطيه الطفل لحادث ما: إن التأثير الذي يسبك ويصوغ كل خبرة كهذه ليتوقف قبل كل شيء على قوته الأصلية، والقرن الذي سبق الحروب الصليبية مباشرة، أي نهاية حقبة الألف السنة الأولى من التاريخ المسيحي، يمكن أن يوصف بالطفولة المبكرة للمدنية الغربية. . .».

وانتقلت لأقنع صديقي ـ وهو نفسه مؤرخ ـ بأن ذلك العصر كان العصر الذي أخذت فيه أوروبا، لأول مرة منذ العصور المظلمة التي تلت انحلال الامبراطورية الرومانية، تتبين طريقها الثقافي الخاص. ذلك أن آداباً جديدة كانت عندئذ في طريقها إلى حيز الوجود في اللغات الأوروبية، مستقلة تماماً عن التراث الروماني الذي نُسي أو كاد ينسى في ذلك الحين بالذات. كذلك أخذت الفنون الجميلة،

المستوحاة من الخبرة الدينية للمسيحية الغربية، تستيقظ من سباتها العميق المسبب عن هجرات القوط والهون والآفاريين. ومن الظروف والأحوال الفجة التي كانت سائدة في العصور المتوسطة الأولى، أخذ ينبثق عالم ثقافي جديد فج، وفي إبان تلك المرحلة الدقيقة الشديدة الحساسية إلى أبعد الحدود، تلقت أوروبا أكبر صدمة عرفتها: الحروب الصليبية.

لقد كان للحروب الصليبية التأثير الأقوى على مدنية بدأت تعي ذاتها. فمن وجهة النظر التاريخية، كانت هذه الحروب تمثل أول محاولة قامت بها أوروبا. وكانت ناجحة تماماً ـ في سبيل النظر إلى نفسها على ضوء الوحدة الثقافية. وليس هناك من التجارب التي خبرتها أوروبا قبل الحروب الصليبية أو بعدها ما يمكن أن يقارن بالحماسة التي خلقتها الحملة الصليبية الأولى، ذلك أن موجة من الافتتان والثمل اجتاحت القارة، موجة من التيه والزهو تخطت لأول مرة الحواجز القائمة بين الولايات والقبائل والطبقات. أما قبل ذلك فقد كان هناك الفرنج والسكسون والجرمان والبورغونديون والصقليون والنورمانديون واللومبارديون: خليط من القبائل والأجناس لا يكاد يجمع بينها شيء سوى أن ممالكها وإماراتها الإقطاعية كانت من بقايا الامبراطورية الرومانية، وأنها جميعاً كانت تعتنق الدين المسيحي. ولكن في إبان الحروب الصليبية، وعن طريقها، رفعت الرابطة الدينية إلى مقام جديد، إلى قضية مشتركة بين جميع الأوروبيين على السواء ـ المفهوم السياسي والديني للعالم المسيحي، هذا المفهوم الذي خلق بدوره المفهوم الثقافي لـ «أوروبا». وعندما حض البابا أوربان الثاني، في خطابه الشهير الذي ألقاه في كليرمون في شهر تشرين الثاني من عام ١٠٩٥، المسيحيين على أن يشنوا الحرب على الجنس الشرير الذي كان يمتلك الأرض المقدسة. إنما كان يعلن ـ وعلى الأرجح دون أن يدري ـ ميثاق المدنية الغربية.

لقد أعطت تجربة الحروب الصليبية أوروبا وعيها الثقافي وكذلك وهبتها وحدتها. ولكن هذه التجربة نفسها كان مقتضياً عليها منذ ذلك الحين فصاعداً بأن تهيء اللون المزيف الذي كان على الإسلام أن يبدو لأعين الغربيين به، ليس فقط لأن الحروب الصليبية كانت تعني إراقة الدماء، إذ إن كثيراً من الحروب قد أثيرت بين الأمم ثم تناستها في ما بعد، وأن كثيراً من العداوات والأحقاد قد انقلبت إلى صداقات بعد أن ظُن في حينها أنها غير قابلة للزوال. ولا شك في أن الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة، بل كان، أولاً وقبل

كل شيء، أذى عقلياً نتج عنه تسميم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيراً خاطئاً متعمداً، لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها فقد كان من الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح وأن يصوَّر دينه بأكلح العبارات كينبوع للفسق والفجور والانحراف عن الحق. وفي أيام الحروب الصليبية ذاتها تخللت العقل الأوروبي وبقيت فيه تلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الإسلام إنما كان ديناً يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية، ديناً يدعو إلى إقامة الشعائر الدينية بدلاً من تطهير القلب. وفي إبان تلك الحروب أيضاً حرِّف اسم النبي محمد ـ محمد نفسه الذي ألح على أتباعه أن يحترموا أنبياء سائر الأديان ـ إلى Mahound[1] احتقاراً له وازدراء. وكان العصر الذي استطاع روح التقصي المستقل أن يرفع رأسه فيه بعيداً كل البعد عن أوروبا في ذلك الحين، ولذا كان من السهل على القوى السائدة آنذاك أن تزرع بذور الكراهية السوداء لدين ومدنية كانا يختلفان إلى حد كبير عن دين الغرب ومدنيته. وهكذا لم يكن من قبيل الاتفاق أن ينظم نشيد رولاند الذي يصف انتصار المسيحية على المسلمين الوثنيين في فرنسا الجنوبية، ليس في إبان تلك المعارك بل بعدها بثلاثة قرون، يعني قبل الحملة الصليبية الأولى بقليل، ليصبح فوراً ضرباً من «النشيد الوطني» لأوروبا. كذلك لم يكن من قبيل الاتفاق أن هذا الشعر الحربي الحماسي يسم بزوغ فجر الأدب الأوروبي تمييزاً له من الآداب المحلية السابقة: لأن العداوة للإسلام إنما صاحبت ظهور المدنية الأوروبية.

وقد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد الغربي القديم ضد الإسلام قائماً، بطريقة لاشعورية، في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الغربي. بيد أن هذا الحق لا يبعث على الدهش، فنحن نعرف أن شخصاً ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التي لقنها في طفولته، ومع ذلك فإن انفعالاً معيناً ذا صلة بتلك المعتقدات أصلاً، يستمر، دونما وعي، في حالة العمل إبان حياته في ما بعد.

وختمت حديثي قائلاً: «وهذا بالذات هو ما حدث لتلك الشخصية الجماعية: المدنية الغربية. إن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا، كما أن جميع اتجاهاتها وإرجاعها نحو الإسلام والعالم الإسلامي لا تزال تحمل آثاراً واضحة جلية من ذلك الشبح العنيد الخالد».

---

(١) بالإنكليزية والألمانية Hound أو Hund تعني «كلب».

ولقد اعتصم صديقي بحبل الصمت طيلة الوقت، وإنني لأستطيع أن أرى حتى الآن جسمه الطويل الدقيق يذرع الغرفة جيئة وذهوباً وقد غرقت يداه في جيبي سترته وهو يهز رأسه كأنما استولى عليه العجب، ولا تزال كلماته ترن في أذني إذ قال أخيراً:

ـ «قد يكون في ما تقول بعض الحق. أجل، قد يكون فيه بعض الحق بالرغم من أنني لست في وضع لأحكم على «نظريتك» ارتجالاً . . . ولكن، على أي حال، ألا تدرك، على ضوء ما قلته لي أنت نفسك الآن، أن حياتك التي تبدو لك على كثير من البساطة وعدم التعقيد، يجب أن تبدو غريبة جداً وغير عادية في نظر الغربيين؟ ألم يكن باستطاعتك أن تشركهم في بعض تجاربك وخبراتك؟ لماذا لا تكتب تاريخ حياتك، فأنا واثق من أنه سيشكل مادة للقراءة تخلب الألباب . . .».

فأجبته ضاحكاً: «حسناً، لعلي أستطيع أن أقنع نفسي بأن أترك وزارة الخارجية لأكتب كتاباً كهذا. وعلى كل، فإن الكتابة هي مهنتي الأولى . . .».

وفي إبان الأسابيع والأشهر التي تلت بدأ شعور الدعابة الذي قابلت به اقتراح صديقي الأميركي يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأت أفكر بصورة جدية في كتابة قصة حياتي فأسهم مهما كان مبلغ هذا الإسهام، في رفع ذلك النقاب الصفيق الذي يفصل ما بين الإسلام وثقافته وبين العقل الغربي. لقد كان طريقي إلى الإسلام غريباً من نواحٍ متعددة: فأنا لم أصبح مسلماً لأني عشت زمناً طويلاً بين المسلمين، بل كان الأمر عكس ذلك، ذلك أنني قررت أن أعيش بينهم لأني اعتنقت الإسلام. أوليس باستطاعتي عن طريق نقلي لخبراتي الشخصية إلى القراء الغربيين، أن أساعد في إقامة تفاهم مشترك بين العالمين، الإسلامي والغربي، إلى درجة أكبر مما لو احتفظت بمنصب دبلوماسي يمكن أن يشغله بالجدارة نفسها رجال آخرون من مواطنيَّ؟ ومهما يكن، فإن أي رجل لبيب يمكن أن يكون وزيراً لباكستان في الأمم المتحدة؛ ولكن كم من الرجال يمكنهم أن يتحدثوا إلى الغربيين عن الإسلام كما أتحدث أنا؟ لقد كنت مسلماً، ولكنني كنت أيضاً غربي المنشأ، وهكذا كنت أستطيع أن أتكلم اللغتين الثقافيتين: الإسلامية والغربية . . .

وهكذا استقلت في أواخر عام ١٩٥٢ من وزارة الخارجية الباكستانية وشرعت في كتابة هذا الكتاب. إنني لا أستطيع أن أقول ما إذا كان يشكل مادة للقراءة تخلب الألباب كما توقع صديقي الأميركي، إذ إني لم أقدر على أكثر من أن أحاول أن أستعيد الذاكرة ـ بمساعدة بضع مذكرات قديمة وعدد من الملاحظات المتقطعة التي كنت أدونها بين الفينة والأخرى وبعض المقالات الصحفية التي كتبتها في ذلك

الوقت ـ الخطوط المتشابكة لتطور امتد وتم خلال سنين متطاولة وفي رقع متسعة من الأرض.

وهاكمُ هي: لا قصة حياتي كلها، بل قصتي إبان السنين التي سبقت مغادرتي جزيرة العرب إلى الهند ـ تلك السنوات المثيرة التي قضيتها متجولاً في معظم الأقطار بين صحراء ليبيا وقمم بامير المكسوة بالثلوج، بين البوسفور وبحر العرب. إنني أروي هذه القصة في سياق الكلام، وقد كتبتها وأرجو أن يذكر القارىء هذا دائماً، أثناء رحلتي الأخيرة من داخلية الجزيرة العربية إلى مكة في صيف أواخر عام ١٩٣٢، لأن حياتي إنما ظهرت لي أوضح ما يكون في إبان تلك الأيام الثلاثة والعشرين.

إن الجزيرة العربية التي سأرسم صورتها في الصفحات التالية قد زالت من عالم الوجود. لقد تحطمت عزلتها ووحدتها تحت نهر قوي من النفط والذهب الذي جلبه النفط. لقد تلاشت بساطتها العظيمة، كما تلاشى معها الكثير مما كان نسيج وحده في عالم الإنسان.

إنني لا أزال أذكر، بمثل الشعور المؤلم الذي ينتاب الإنسان إذا ما فقد شيئاً ثميناً لا يمكن أن يعوض، ذلك الارتحال الطويل عبر الصحراء، عندما سرنا وسرنا: وكنا رجلين على هجينين، عبر الضياء السابح . . .

ظمأ

ـ ١ ـ

كنا نسير ونسير: رجلين على هجينين، الشمس تضطرم فوق رأسينا، وكل شيء متألق ومترجرج وضياء سابح. روابٍ وكثبان حمراء وبرتقالية اللون، رواب وراء رواب وكثبان وراء كثبان. وحدة وصمت محرق، ورجلان على هجينين في مشيتهما تلك المتأرجحة التي تجلب لك النعاس. بحيث تنسى النهار، والشمس، والريح الحارة، والطريق الطويل. إن باقات من العشب الأصفر لتنمو غير مزدحمة على قمم الكثبان، وهنا وهنالك شجيرات من العشب الذي يدعونه «الحمض»، تتلوى فوق الرمال كالأفاعي الضخمة، وأن مشاعرك لتستسلم إلى النعاس. ذلك بأنك إنما تهتز في الشداد اهتزازاً، ولا تكاد تميز أي شيء في ما وراء قرقشة الرمال تحت أخفاف المطيتين واحتكاك غزالة الشداد بركبتك. إن وجهك ملفوف بكوفيتك لحمايته من الشمس والريح، وإنك لتشعر كأنما تحمل وحدتك، كما تحمل مادة محسوسة، عبرها، عبرها تماماً. . . إلى آبار تيماء السوداء التي تعطي الماء إلى كل ظمآن. . .

«. . . رأساً عبر النفود إلى تيماء. . .» لقد سمعت صوتاً لم أعرف ما إذا كان هاتفاً في الحلم، أو صوتاً صادراً عن رفيقي.

ـ «هل قلت شيئاً يا زيد؟»

أجاب رفيقي «لقد كنت أقول إنه لا يخاطر كثيرون بعبور النفود لا لشيء سوى رؤية آبار تيماء. . .».

* * *

لقد كنا، زيد وأنا، عائدين من قصر عثيمين على الحدود النجدية العراقية إلى حيث كنت قد قصدت بناء على طلب الملك ابن سعود. فبعد أن أنجزت مهمتي،

وجدت أن لدي متسعاً من الوقت، قررت أن أزور واحة تيماء النائية الضاربة في القدم، على نحو مئتي ميل إلى الجنوب الغربي: تيماء التي ورد ذكرها في العهد القديم، والتي قال عنها أشعيا «لقد كان سكان أرض تيماء يجلبون الماء إلى كل من به ظمأ». إن غزارة المياه في تيماء، وآبارها العظيمة التي لا مثيل لها في أيام الجزيرة العربية كلها، جعلتها في أيام الجاهلية مركزاً عظيماً لتجارة القوافل ومقراً للثقافة العربية القديمة. لقد طالما رغبت في رؤيتها، ولهذا تجاهلنا طرق القوافل الملتوية وضربنا رأساً من قصر عثيمين في قلب صحراء النفود الكبرى، تلك الصحراء من الرمال الميالة إلى الحمرة، الباسطة نفسها بقوة وجبروت بين نجد وبادية الشام. في هذا الجزء من ذلك القفر العظيم لا تقع العين على درب أو طريق، فالريح قد أخذت على نفسها أن لا تترك أيما أثر في الرمال الناعمة اللدنة وأن لا تدع أيما معلم ينتصب طويلاً لهداية المرتحلين عبر الصحراء، وتحت ضرباتها تبدل الكثبان من معالمها، وتغير من أشكالها ببطء كبير لا يتيح للعين أن تلحظ كيف تنخفض التلال فتصبح أودية وترتفع من جديد تلالاً منقطة بالعشب اليابس الميت الذي لا يكاد يسمع حفيفه والمر المذاق، كالرماد، حتى في فم الجمل.

وبالرغم من أنني عبرت هذه الصحراء مرات كثيرة وفي وجهات عديدة، فلست أثق بقدرتي على أن لا أضل طريقي فيها إذا ما حاولت عبورها دون معونة الدليل، ولهذا وجدتني مسروراً لوجود زيد معي. هذه البلاد هي موطنه وهو ينتمي إلى قبيلة شمر التي تعيش على الأهداب في جنوبي صحراء النفود وشرقيها، وعندما تهطل أمطار الشتاء الغزيرة وتحول الكثبان الرملية فجأة إلى مروج خصيبة، يرعون إبلهم في وسطها بضعة أشهر من السنة. إن أمزجة الصحراء هي في دم زيد، وإن قلبه ليخفق بها.

ولعل زيداً أظرف رجل رأيته في حياتي: عريض الجبهة، دقيق الجسم، معتدل القامة، ممتلىء قوة ونشاطاً؛ وعلى ملامح وجهه الصبوح المعروق يتبدى التحفز المعهود في عرب الصحراء ـ مزيج من الهيبة والاعتداد والعذوبة، في وقت معاً. إنه تركيب متناسق من البداوة النقية والحضارة النجدية، احتفظ من البدو بسلامة الفطرة دون تقلباتها العاطفية، ومن حياة المدينة بالمعرفة العملية دون استسلام إلى مغرياتها. وزيد مثلي أنا، يحب المغامرات دون أن يسعى إليها، ومنذ فجر شبابه امتلأت حياته بالحوادث المثيرة، فقد التحق في صباه بفرقة الهجانة غير النظامية التي جندتها الحكومة التركية لحملتها في شبه جزيرة سيناء إبان الحرب العظمى. ثم دافع مع

قبيلته شمر، عن وطنه ضد ابن سعود، ومن ثم أصبح مهرباً للسلاح في الخليج الفارسي، لينقلب من بعد إلى مغرم مدنف بنساء كثيرات في أقسام كثيرة من العالم العربي ـ وكلهن، من غير شك، زُوّجته شرعاً، واحدة بعد أخرى، وطلقن منه شرعاً كذلك. ثم اتخذ تجارة الخيل مهنة له في مصر، وعمل جندياً مرتزقاً في العراق، وأخيراً أصبح رفيقاً لي في تجوالي في الجزيرة العربية طيلة خمس سنوات على وجه التقريب.

كنا، في أواخر صيف عام ١٩٣٢ ذاك، نركب معاً، كما فعلنا كثيراً في الماضي، يلفنا الطريق الموحش بين الروابي، متوقفين عند هذه أو تلك من الآبار المتباعدة، وآخذين قسطاً من الراحة ليلاً تحت النجوم. وتتوالى أصوات أخفاف الذلولين فوق الرمال الحارة، بينما يرتفع صوت زيد الأجش، أحياناً متناغماً مع وطئهما. ويجن الليل، فنتوقف عن المسير ونحتسي القهوة ونطبخ الأرز وأحياناً بعض ما نصطاد من الحيوان. وكان الهواء الناعم البارد يلامس أجسامنا ونحن مضطجعون على الرمال، وكان بزوغ الشمس فوق الكثبان أحمر عنيفاً كالألعاب النارية، وأحياناً، كما هو الحال اليوم، تستيقظ معجزة الحياة في نبتة ارتوت مصادفة.

لقد توقفنا لأداء فريضة الظهر. فبينما كنت أغسل يدي ووجهي وقدمي من قربة، سقطت بضع قطرات من الماء فوق خصلة من العشب اليابس عند قدمي. لقد كانت هذه الخصلة من العشب صغيرة بائسة، صفراء ذابلة لا حياة فيها تحت أشعة الشمس المحرقة. ولكن ما إن سال الماء عليها حتى سرت قشعريرة في أوراقها المتغضنة، ورأيت بأم عيني كيف أخذت هذه الأوراق، رويداً رويداً، ترتجف وتتفتح، وكيف أنها، بعد أن سالت عليها بضع قطرات أخر تحركت وتجعدت، ثم انتصبت، قليلاً قليلاً، مترددة، مرتعشة. وحبست أنفاسي بينما أخذت أسيل قطرات أخرى من الماء فوق خصلة العشب، وكان أن بدأت تتحرك بسرعة أكبر وقوة أكثر، وكأنما قوة خبيئة تدفعها لتخرجها من حلم مماتها. لقد شرعت أوراقها ـ ويا له من مشهد ـ تتقلص وتتمدد، وهكذا عادت الحياة منتصرة إلى ما كان منذ لحظة شبيهاً بالأموات. عادت إليها عياناً، وبشغف وانفعال، قهارة مغلقاً فهم جلالها وعظمتها على العقول.

الحياة بجلالها وعظمتها... إنك لتحسها دائماً في الصحراء. وإذ كان من الصعب جداً الاحتفاظ بها هناك، فهي بمثابة الهبة أبداً، عزيزة دائماً، كالكنز الثمين، تفجأك وتأخذك على حين غرة. ذلك بأن الصحراء لا يمكن إلا أن تحيرك وتدهشك

وتقع عيناك فيها على جديد ولو كنت قد خبرتها سنين طويلة. ففي بعض الأحايين، إذ يخيل إليك أن باستطاعتك أن تتبينها بكل ما فيها من صرامة وصلابة وفراغ، تستيقظ فجأة من حلمها، وترسل أنفاسها ـ ويبدو لك العشب اللدن الأخضر في حيثما كان بالأمس رمالاً وشظايا حصباء. وهي ترسل أنفاسها كرة أخرى، فإذا بسرب من الطيور الصغيرة ترفرف بأجنحتها في الهواء ـ من أين، وإلى أين، هذه المخلوقات الدقيقة الجسم، الطويلة الجناح الزمردية ـ الخضراء اللون؟ وهي ترسل أنفاسها كرة أخرى كذلك، فإذا بأرجال من الجراد تصعد تارة وتندفع تارة أخرى، كالحة شهباء لا نهاية لها كحشد من المحاربين الجياع...

الحياة بجلالها وعظمتها: جلال الاتساع والامتداد، وعظمة المفاجأة. هنا، في هذه الصحراء، يفوح شذى بلاد العرب وأريجها، وتظهر روعة التبدل.

وإن عينيك لتقعان أحياناً على أرض سوداء مسننة غير مستوية، وأحياناً أخرى على رواب لا نهاية لها ولا آخر. وقد يطالعك وادٍ بين تلال صخرية، تغطيه عايقات يقفز منها على حين غرة أرنب مذعور معترضاً طريقك، كما تطالعك أحياناً رمال مسترخية سائبة تبدو فوقها آثار الغزلان أو أحجار سوداء طبخ عليها مرتحلون قدامى منسيون طعامهم في أيام غابرة منسية. وقد تصادف أحياناً أخرى قرية تحت أشجار النخيل، وتسمع موسيقى الدواليب الخشبية فوق الآبار تنشد لك دونما انقطاع، أو تشاهد بئراً في قلب واد يلغط حولها الرعاة البدو ليسقوا ماشيتهم وجمالهم العطشى، وهم يغنون معاً بينما يسحبون المياه من قعر البئر في دلاء جلدية ويفرغونها بقوة في أجران جلدية كذلك، فتبتهج لمرآها الحيوانات المهتاجة. ثم تطالعك الوحدة من جديد في سهول فسيحة تحرقها شمس ملتهبة دونما رحمة أو شفقة، أو رقعات من العشب اليابس الأصفر والغياض المورقة التي تدب على الأرض بأغصانها الملتوية مراعي خصبة لنجائبك، أو شجرة طلح متوحدة تبسط أغصانها تحت السماء ذات اللون الفولاذي الأزرق. وقد ترى بين الركام والأحجار عينين تنطلقان ذات اليمين وذات الشمال ثم تختفيان كما يختفي الشبح، فتعرف أنها العظاية ذات الجلد الذهبي، والتي يقولون إنها لا تشرب الماء أبداً. ثم تمشي لتقع عيناك على بيوت شعر سوداء منصوبة في غور من الأغوار، وقطيع من الإبل يسوقه الرعاة وهم ممتطون بعضاً منه: حتى إذا ما دعوا إبلهم ابتلع السكون أصواتهم ولم يرجّع لها أيما صدى.

وقد ترى أحياناً أطباقاً براقة بعيدة عن الأفق فتسائل نفسك: أهذه غيوم؟ إنها تسبح على علو منخفض، وتبدل كثيراً من ألوانها وأوضاعها، فهي تارة كالجبال

الشهباء الداكنة ـ ولكنها في الجو، وفوق الأفق، وهي طوراً تشبه، ويا لروعة المشهد، غياضاً ظليلة من أشجار الصنوبر ـ ولكن في الهواء. حتى إذا ما أمعنت في انخفاضها وانقلبت إلى بحيرات وأنهار جارية تعكس مياهها الجذابة الشهية الجبال والأشجار عرفتها على حقيقتها: السراب الذي طالما قاد الرحّل إلى الأمل الكاذب فالهلاك، عندئذ تمتد يدك بطريقة غرزية إلى القربة المدلاة من الشداد. . .

وتمر بك ليال مليئة بضروب أخرى من الأخطار، عندما تكون القبائل في فتنة حربية، ويتجنب المسافر إشعال النار ليلاً لئلا يرى من بعيد، ثم يجلس مستيقظاً الساعات الطوال، واضعاً بندقيته بين ركبتيه. وفي أيام السلم، بعد أن تسير متوحداً أياماً متطاولة، إذا بك تلقى قافلة وتصغي في المساء حول النار إلى حديث الرجال الوقورين الذين حرقت وجوههم الشمس: إنهم يتحدثون عن كبائر الحياة وصغائرها، عن الموت والحياة، عن الجوع والشبع، عن الفخر والحب والكراهية، عن شهوة الجسد وفتورها، عن الحروب، عن غياض النخيل في قراهم البعيدة ـ ولكنك لا تسمع مطلقاً أيما ثرثرة فارغة، لأن المرء لا يستطيع أن يثرثر في الصحراء. . .

وإنك لتحس نداء الحياة في أيام العطش، عندما يلتصق لسانك بسقف حلقك كقطعة من الحطب اليابس، ولا تظهر في الأفق أية علامة من علامات الخلاص، بل ريح سموم عاتية ورمال مدومة في الجو. ومع ذلك ففي أيام أخرى عندما تحل ضيفاً على البدو في مخيمهم، ويأتيك القوم بأكواب مليئة باللبن ـ لبن النياق السمينة في مطلع الربيع ـ عندما تنقلب السهول الفسيحة والكثبان الخضراء بلون الجنائن وضروع النياق ثقيلة مدورة، تستطيع أن تسمع من إحدى زوايا البيت ضحكات النساء وهن يشوين خروفاً على شرفك فوق نار مكشوفة.

وكقطعة من المعدن حمراء، تختفي الشمس وراء التلال، وتبدو السماء ذات النجم أرفع منها في أي مكان آخر من الأرض. وإنك لتنام في الليل نوماً عميقاً لا تتخلله الأحلام، لتستيقظ في الصباح على فجر بارد رطب. أما ليالي الشتاء فباردة. فالريح القارسة تهب على النار التي تزدحم حولها أنت ورفاقك طلباً للدفء، وأما أيام الصيف فلاذعة عندما تسير وتسير على ذلولك ساعات وساعات لا نهاية لها، لافاً وجهك بكوفيتك بغية حمايته من الريح الكاوية. . .

— ٢ —

وانقضى الأصيل شيئاً فشيئاً، بينما أكملنا مسيرنا عبر الروابي والكثبان، يلفنا الهدوء والوحدة.

بيد أن الوحدة ما لبثت أن تصرمت بعد قليل، عندما مررنا في طريقنا بركب من البدو ـ أربعة رجال أو خمسة وامرأتان فوق هجانهم ـ ومعهم جمل يحمل بيت شعر مطوياً وعدداً من القدور وسائر الأدوات التي تتطلبها حياة البداوة، يعلوها جميعاً طفلان صغيران. وإذ اقترب الركب منا جذبوا أعنة ركابهم وحيونا قائلين:

ــ «السلام عليكم».

فأجبنا:

ــ «وعليكم السلام ورحمة الله».

ــ «إلى أين، يا أهل الطريق؟»

ــ «إلى تيماء، إن شاء الله».

ــ «ومن أين؟»

ــ «من قصر عثيمين، أيها الإخوان».

ساد الصمت من جديد. وتفحصت القوم فوجدت بينهم رجلاً كهلاً ناحل الجسم دقيق الوجه أسود اللحية مستدقها، اتضح لي أنه شيخهم. لقد ألقى على مرافقي زيد نظرة حادة استقرت من ثم عليّ، مفصحة عما كان يحامره من شك وريبة، عليّ أنا الغريب ذي البشرة البيضاء الذي ظهر له فجأة في هذا القفر الموحش الوعر، الغريب الذي يدعي بأنه قادم من جهة العراق الواقعة تحت سيطرة الانكليز، ويمكن أن يكون ـ استطعت أن أقرأ ذلك في وجهه ـ كافراً يدخل خلسة بلاد العرب. وأخذت يد الرجل الشيخ باللعب في غزالة الشداد، كأنما وقع في حيرة بينما تحلّق قومه حولنا واعتصموا بالصمت، منتظرين أن يبدأ هو الكلام: وبدأ الشيخ وكأنه لم يطق أن يصمت أطول مما فعل، فابتدرني بالسؤال:

ــ «من أيّ العرب أنت؟»

ولم أكد أهم بالجواب، حتى انفرجت أساريره وابتسم ابتسامة من عادت إليه ذاكرته:

ــ «آه، الآن عرفتك. لقد رأيتك مع عبد العزيز، ولكن هذا كان منذ وقت طويل، منذ أربع سنوات. . .».

ومدّ إليّ يده مرحباً، ذاكراً يوم كنت أعيش في القصر الملكي في الرياض، وكيف أنه وصل إلى هناك في بطانة شيخ من شيوخ شمر ليقدموا ولاء القبيلة لابن سعود الذي يناديه البدو دائماً باسمه، عبد العزيز، مجرداً عن أي لقب أو كنية، لأنهم، في إنسانيتهم الحرة، لا يرون في الملك إلا إنساناً من الناس، واجبٌ تكريمه غير شك، ولكن في أهلية الإنسان وجدارته.

ثم أخذنا في استعادة الماضي حيناً من الوقت، ذاكرين هذا أو ذاك من الرجال، متبادلين رواية القصص عن الرياض التي يتلقف فيها، أو حولها، كل يوم ألف من الأضياف هبات الملك وصدقاته، ويتسلمون عند ذهابهم الهدايا التي تختلف حسب منزلة كل منهم ـ من قبضة النقود الفضية، إلى عباءة، إلى أكياس من الذهب، إلى الجياد أو الهجان التي كثيراً ما يوزعها على الزعماء منهم.

ولكن كرم الملك وجوده لا يقتصران على أكياس الذهب والفضة، بل يتعديانها إلى صميم القلب. ولعل رقة شعوره، أكثر من أي شيء آخر، هي التي تجعل الناس من حوله. بما فيهم أنا، يحبونه.

لقد كانت صداقة ابن سعود لي، طيلة السنوات التي قضيتها في الجزيرة العربية، تنير جوانب حياتي كلها.

إنه يدعوني صديقه، بالرغم من أنه ملك وأني مجرد صحافي ليس غير. وأنا بدوري أدعوه صديقي، لا لمجرد أنه قد غمرني بصداقته طيلة السنين التي عشتها في مملكته، فهو يغمر بصداقته ووده كثيراً من الناس: إنني أدعوه صديقي لأنه كثيراً ما يفتح لي قلبه ويكاشفني بمكنوناته تماماً كما يفتح كيس نقوده لكثيرين غيري. إنني أحب أن أدعوه صديقي لأنه، بالرغم من هفواته ـ وأي إنسان يخلو من الهفوات! ـ رجل طيب إلى أبعد الحدود، ولكنه ليس طيب القلب فحسب، لأن طيبة القلب قد تكون أحياناً شيئاً رخيصاً. فكما أنك لا بدّ أن تبدي إعجابك بنصل دمشقي قديم قائلاً إنه نصل طيب لأن له جميع الصفات والمزايا التي تتطلبها في نصل من نوعه، كذلك أعتبر ابن سعود رجلاً طيباً. إنه في صميمه رجل شريف حر، يسلك دائماً الطريق التي يرسمها لنفسه. وإذا كان يخطيء أحياناً، فلأنه لا يحاول أن يكون إلا نفسه بالذات.

* * *

لقيت الملك عبد العزيز بن سعود لأول مرة في مكة في أوائل عام ١٩٢٧، بعد أشهر قليلة من اعتناقي الإسلام.

وكانت وفاة زوجتي المفاجئة، التي صحبتني في رحلتي الأولى هذه إلى مكة، قد أحزنتني جداً وجعلتني أؤثر العزلة والابتعاد عن الناس. وكنت أحاول، يائساً، أن أجد لي مخرجاً من ذلك الغم القاتل، وكنت أقضي معظم وقتي في حجرتي، لا أتصل إلا بعدد قليل من الناس، حتى أنني أحجمت طيلة أسابيع عديدة عن زيارة الملك، تلك الزيارة التي كانت تقتضيها اللياقة. . . وفي ذات يوم، عندما كنت في زيارة أحد ضيوف الملك الغرباء ـ وكان، كما أذكر، الحاج آغوس سالم، من إندونيسيا ـ علمت أن الملك قد أمر بوضع اسمي على لائحة ضيوفه. لقد بدا لي أنه عرف السبب في احتجابي، وأنه ارتضاه بتفهم صامت. وهكذا، كضيف لم ير بعد لمضيفه وجهاً قط، انتقلت إلى بيت جميل في الطرف الجنوبي من مكة، قرب المضيق الصخري الذي تمر به الطريق إلى اليمن. وكان البيت يطل على جزء كبير من المدينة: مآذن المسجد الحرام، وآلاف البيوت ذات الآجر الملون، وتلال الصحراء الميتة التي ترتفع فوقها قبة السماء الساطعة كالمعدن السائل.

وقد كنت أستطيع أن أستمر في تأجيل زيارتي للملك لولا أن جمعتني الصدفة مرة بالأمير فيصل، النجل الثاني للملك، في مكتبه في أروقة المسجد الحرام. لقد كان من الأمور الباعثة على سروري أن أجلس في تلك الحجرة الضيقة الطويلة التي تحيط بها الصحائف العربية والفارسية والتركية، وكان هدوؤها وظلمتها يملآن نفسي سكينة وسلاماً. بيد أن هذا الهدوء المعتاد ما لبث أن عكره دخول جماعة من الرجال يتقدمهم حرس مسلح. لقد كان الأمير فيصل، ماراً مع حاشيته بالمكتبة في طريقه إلى الكعبة. كان فارع الطول دقيق البنية، يتمتع بمقام عظيم لا يتفق وسنه البالغة اثنين وعشرين عاماً، ووجهه الأملد، ذلك بأنه، بالرغم من صغر سنه، قد عهد إليه بمنصب عظيم كنائب الملك في الحجاز، وذلك بعد أن غزاه أبوه قبل ذلك بعامين اثنين (وكان أخوه الأكبر، ولي العهد الأمير سعود، نائب الملك في نجد، بينما كان الملك نفسه يقضي نصف السنة في مكة، عاصمة الحجاز، والنصف الآخر في الرياض عاصمة نجد).

وقد تولى تقديمي إلى الأمير فيصل أمين المكتبة الشاب الذي مضى على صداقتي له بعض الوقت. وقد صافحني الأمير، وعندما انحنيت له، رفع رأسي برفق بأصابعه، وأضاءت ثغره ابتسامة حلوة، وقال:

ــ «نحن معشر النجديين لا نؤمن بأن على الإنسان أن ينحني للإنسان، بل لله وحده في الصلاة».

لقد بدا لي الأمير لطيفاً حالماً، ومتحفظاً خجولاً بعض الشيء ـ وهذا ما تأكد لي في السنوات التي انقضت بعد ذلك على معرفتي به. كذلك كان لا يصطنع النبل اصطناعاً، بل كان النبل من طبيعته وسجاياه. وعندما كنا نتحدث معاً في ذلك اليوم في المكتبة، شعرت فجأة برغبة ملحة في أن ألقى والد هذا الابن.

قال لي الأمير فيصل: «إن الملك ليسر برؤيتك، فلماذا تعرض عنه هذا الإعراض؟»

وهكذا بعث إليّ الأمير في اليوم التالي بأمين سره، وأقلني بالسيارة إلى قصر الملك. لقد مررنا بسوق المعلى، وشققنا طريقنا ببطء وسط حشد من الجمال الهادرة، والبدو والباعة يعرضون مختلف البضائع البدوية ـ شدود الجمال والأعبئة[1] وقطع السجاد وزقاق الماء والفضة والسيوف المرصعة والخيام ودلال القهوة النحاسية ـ ثم انتهينا إلى طريق أكثر هدوءاً واتساعاً وصلنا منه إلى البيت الكبير الذي كان يسكنه الملك، فرأيت المطايا عليها الشدود تملأ الساحة القائمة أمامه، وعدداً من العبيد المسلحين والأتباع متلكئين عند المدخل. وقد دعيت إلى الانتظار في غرفة فسيحة مزدانة بالأعمدة قد فرشت أرضها بالسجاد البسيط وصفّت على جوانبها الأرائك العريضة المغطاة بقماش الكاكي. ومن نوافذ هذه الغرفة أمكنني أن أرى إلى بضع وريقات خضر نبتت حديثاً في حديقة كانوا يجدون صعوبة كبرى في إنمائها في أرض مكة القاحلة المجدبة. وبعد قليل أطل عبد أسود ووجّه إليّ الخطاب قائلاً:

ـ «إن الشيوخ يدعوك»[2].

ودخلت إلى غرفة تشبه تلك التي غادرتها، إلا أنها كانت أصغر حجماً وأكثر ضوءاً، تطل إحدى جهاتها على الحديقة كلها. كانت أرض الغرفة مغطاة بالسجاد العجمي الفاخر، وكان الملك جالساً القرفصاء على أريكة في مشربية تشرف على الحديقة، وعلى الأرض عند قدميه، جلس أحد أمناء سره يكتب ما يملي عليه. وما إن دخلت حتى انتصب الملك واقفاً، ومدّ إليّ كلتا يديه قائلاً:

ـ «أهلاً وسهلاً».

ولقد استطعت، لثانية واحدة فحسب، أن أتفرس بدهش في طول ابن سعود

---

(١) جمعٌ عباءة.

(٢) في نجد يشيرون إلى الملك أو الأمير الحاكم بقولهم «الشيوخ» بالجمع.

الفارع. فعندما قبلت مقدمة أنفه وجبهته قبلة خفيفة ـ ذلك بأني كنت قد عرفت هذه العادة النجدية ـ، كان عليّ أن أقف على رؤوس أصابعي، بالرغم من أن طولي يبلغ ستة أقدام، كما كان عليه أن يحني رأسه بعض الشيء. وبعد أن أومأ إيماءة اعتذارية باتجاه الكاتب، جلس وأجلسني إلى جانبه على الديوان قائلاً:

ـ «لحظة واحدة. أكاد أفرغ من إملاء الكتاب».

وبينما كان الملك يتابع بهدوء الإملاء على الكاتب، أخذ في الحديث معي، دون أن يخلط بين الإملاء والحديث معاً. وبعد أن تبادلنا قليلاً من العبارات التي تقتضيها اللياقة، ناولته كتاباً لتعريفه بشخصي فقرأه، وهذا يعني أنه كان يؤدي أعمالاً ثلاثة في وقت واحد. ثم أمر بالقهوة دون أن يتوقف عن الإملاء أو الاستفسار عن صحتي.

وقد تمكنت خلال ذلك من أن ألحظه عن كثب وبانتباه أكبر، فتبين لي أنه متناسب الجسم بحيث إن طوله الهائل ـ وهو لا يقل عن ستة أقدام ونصف كما تراءى لي ـ لا يبين إلا متى وقف. وكان وجهه ينم، بصورة أخاذة، عن رجولة وشجاعة كاملتين ـ ورأسه مغطى بالكوفية التقليدية ذات المربعات الحمراء والبيضاء، يعلوها عقال مقصب. وكانت لحيته دقيقة وشارباه قصيرين على النمط النجدي، أما جبهته فقد كانت عريضة وأنفه قوياً. وكانت قسماته تشرق بالبهجة عندما يتكلم، في حين كان شيء من الحزن يبدو على وجهه عندما يعتصم بالصمت. أما جمال وجهه فلم يعبه إلا عينه اليسرى التي كانت تغشاها طبقة رقيقة بيضاء. وقد عرفت في ما بعد قصة هذه الكآبة التي يعزوها معظم الناس جهلاً إلى أسباب طبيعية، في حين أنها حدثت في ظروف فاجعة.

ذلك أنه قبل لقائي الملك ببضع سنوات، وبتحريض من عائلة ابن رشيد المنافسة لآل سعود، وضعت إحدى زوجات الملك، وكانت هي نفسها تمت بصلة القربى إلى عائلة ابن الرشيد، السم في مبخرته ـ وهي مجمرة صغيرة تستعمل في مجالس نجد ـ بغية قتله. وكالعادة قدمت المبخرة أولاً إلى الملك قبل أن تدار على ضيوفه. وإذ قرب الملك المبخرة من أنفه وشم النفحة الأولى، شعر حالاً بأن في البخور شيئاً وألقى بالمبخرة على الأرض. لقد أنقذ تيقظه حياته، ولكن ليس قبل أن تتأثر عينه اليسرى وتعمى جزئياً. وبدلاً من أن ينتقم لنفسه من المرأة الخائنة، كما لا بد أن يفعل بالتأكيد كثير من الملوك أصحاب الصولة في مثل هذه الحالة، فقد عفا عنها ـ ذلك أنه أدرك أنها كانت ضحية مؤثرات لا قبل لها بها على يدي أفراد عائلتها.

لقد اكتفى بأن طلقها وأعادها إلى أهلها في حائل، بعد أن أنعم عليها بالذهب الكثير وحملها العديد من الهدايا والهبات.

* * *

وبعد هذا اللقاء الأول، كان الملك يرسل في طلبي كل يوم تقريباً. وفي صباح يوم ذهبت إليه وكان في نيّتي أن أستأذنه ـ دون أن أؤمل كثيراً بأن رجائي سيستجاب ـ في السفر إلى داخلية البلاد. ذلك أن ابن سعود لم يكن، عموماً، يسمح للأجانب بزيارة نجد في ذلك الحين. إلا أنني ما أن هممت باستئذانه، حتى ألقى الملك، فجأة، نظرة قصيرة حادة باتجاهي ـ نظرة خلت أنها نفذت إلى أفكاري التي لم أفصح عنها، بعد ـ ثم ابتسم وقال:

ـ «يا محمد، ألا تأتي معنا إلى نجد فتمكث بضعة أشهر في الرياض؟» والحق أنني لم أعرف بماذا أجيب، كما استولى الدهش على من كان في حضرة الملك، ذلك أنهم لم يسمعوه من قبل يوجه مثل هذه الدعوة من تلقاء نفسه إلى رجل أجنبي.

وأردف الملك قائلاً: «أحب أن تسافر بالسيارة معي في الشهر القادم».

وأخذت نفساً عميقاً وأجبت: «أطال الله عمرك أيها الإمام. ولكن أية فائدة لي من ذلك؟ ما يجديني أن أقطع المسافة من مكة إلى الرياض في خمسة أيام أو ستة، دون أن أرى شيئاً من بلادك وراء الصحراء: بعض الكثبان الرملية ولربما بعض الناس يتبدون لي كالأطياف في الأفق... فإذا لم يكن لديك ما يمنع، فإن ذلولاً واحداً، يا طويل العمر، لأفضل لي من سياراتك جميعاً».

وضحك ابن سعود وقال: «أراغب أنت إلى هذا الحد في رؤية البدو؟ ولكن عليّ أن أنذرك مسبقاً بأنهم قوم متأخرون، وأن نجدي أرض صحراوية لا أثر فيها للفتنة أو الجمال، وأن الشداد سيكون قاسياً وطعام الرحلة غير مستساغ ـ لا شيء سوى الأرز والتمر وأحياناً بعض اللحم. ولكن لا بأس. فإذا كنت مرتاحاً إلى القيام بهذه الرحلة، مصمماً عليها، فإنك ستركب. وعلى كل فإنك لن تأسف على معرفتك لشعبي، فإن قلوبهم عامرة بالإيمان».

وبعد بضعة أسابيع، زودني الملك بالهجان والمؤونة، بخيمة ودليل، وخرجت إلى الرياض سالكاً طريقاً غير مستقيم فوصلتها بعد شهرين. وكانت تلك أول رحلة قمت بها داخل بلاد العرب: رحلة تلتها رحلات، ذلك أن الأشهر القليلة التي أشار

إليها الملك في حديثه قد امتدت إلى سنوات ـ ما كان أسرع انقضاءها! أنفقتها، لا في الرياض فحسب، بل في كل جزء من أجزاء بلاد العرب على وجه التقريب، ولم أعد أشعر بقسوة الشداد من تحتي أبداً.

* * *

قال لي شيخ القوم الذين لقيناهم في الصحراء: «أطال ربي عمر عبد العزيز؛ إنه يحب البدو، والبدو يحبونه».

ولماذا لا يحب البدو عبد العزيز؟ إن كرم الملك نحو بدو نجد قد أصبح ميزة بارزة لإدارته: ولعلها ليست بالميزة المستحبة، لأن الهبات والعطايا التي يوزعها ابن سعود بانتظام على رؤساء القبائل وأتباعهم قد جعلتهم يعتمدون على جوده وسخائه بحيث إنهم قد بدأوا يفقدون كل دافع لتحسين أحوال معيشتهم عن طريق جهودهم الخاصة، ينتهون إلى أن يصبحوا قوماً يعيشون على الصدقة والإحسان، راضين بما هم فيه من جهل وتراخ وكسل.

وطوال حديثي مع الشيخ، كان زيد يبدو قلقاً جزعاً، وكان يثبت نظره عليّ مرة بعد أخرى أثناء انهماكه بالحديث مع أحد الرجال، كأنما يذكرني بأن الطريق أمامنا طويلة، وأن الذكريات لا تجدي في جعل المطايا تغذّ سيرها. ولكننا لم نلبث أن افترقنا، فركب بدو شمر نحو الشرق، وسرعان ما حجبتهم عن أنظارنا كثبان الرمال، وبلغ مسامعنا صوت أحدهم يحدو بأغنية بدوية من تلك الأغنيات التي يحدو بها الركبان ليحثوها على السير أو يقضوا على رتابة السفر. وإذا استأنفت وزيداً سيرنا باتجاه تيماء، كان ذلك الصوت يتلاشى تدريجياً، وعاد الصمت يخيم من جديد.

ـ ٣ ـ

وقطع صوت زيد حبل السكون: «انظر، إنه أرنب!»

وأدرت بصري نحو تلك الحزمة من الفراء الأشهب التي قفزت من العليقة المدغلة، بينما انزلق زيد عن شداده، وقفز مسرعاً نحو الأرنب وهو يدير القوس التي كانت مدلاة على غزالة الشداد فوق رأسه ليقذفه بها. ولكنه لم يكد يشرع بذلك حتى تعثرت قدمه ببعض الجذور فوقع منبسطاً على وجهه ـ واختفى الأرنب عن ناظريه. . .

ــ «ها نحن نخسر عشاء طيباً. . .» قلت له ضاحكاً بينما كان ينهض وهو ينظر

بحسرة وحزن إلى القوس في يده. «ولكن لا عليك يا زيد، واضح أن ذلك الأرنب لم يكن من نصيبنا. . .».

فأجابني وهو شارد الذهن نوعاً: «أجل، لم يكن لنا فيه نصيب». ولاحظت أنه يعرج في مشيته متألماً فسألته:

ــ «هل أصبت بأذى يا زيد».

ــ «آه. . ليس في الأمر ما يستحق الاهتمام. لقد لويت رسغي فحسب، ولكن الألم لا يلبث أن يزول بعد قليل».

ولكن الألم لم يزل، وبعد ساعة من الزمن كنت استطيع أن أرى قطرات العرق على وجه زيد. وعندما ألقيت نظرة على قدمه، ألفيت أن الرسغ كان مصاباً برضّة قوية، وأنه كان جد منتفخ.

ــ «لا فائدة من الاستمرار على هذا الشكل يا زيد، دعنا نستريح هنا، فإن راحة ليلة واحدة لا بدّ أن تشفيك».

* * *

واستبد الألم بزيد آناء الليل، واستيقظ قبل مطلع الفجر بوقت طويل: فأفقت أنا أيضاً من رقادي القلق على الصوت الذي أحدثته حركته المفاجئة.

قال زيد: «أرى ذلولاً واحداً فقط».

وعندما أجلنا أنظارنا في الأرض المحيطة بنا، وجدنا أن أحد الذلولين، وكان ذلول زيد، قد اختفى حقاً. عندئذ أراد زيد أن يأخذ مطيتي للبحث عنه، ولكن قدمه المصابة جعلت حتى الوقوف عسيراً عليه، فكيف يمشي إذن، ويركب ويترحل؟

ــ «استرح أنت يا زيد، وسأذهب بدلاً عنك. لن يكون من الصعب أن أعود إليك متتبعاً آثار خطاي».

وهكذا، عند انبلاج الفجر، ركبت متتبعاً آثار الذلول الضائع، هذه الآثار التي استمرت ظاهرة واضحة عبر رمال الوادي، لتختفي وراء الكثبان. وطال ركوبي ساعة وثانية وثالثة، ولكن آثار المطية الشاردة استمرت ظاهرة كأنما كانت قد اتخذت لنفسها وجهة معينة. وكان النهار قد تقدم كثيراً عندما وقفت لآخذ لنفسي قسطاً من الراحة. ترجلت عن مطيتي وأكلت بضع تمرات، ثم شربت بعض الماء من القربة المعلقة

بغزالة الشداد، وكانت الشمس في كبد السماء، ولكنها كانت قد فقدت شيئاً من قوتها، وكانت الغيوم الداكنة التي لا تظهر عادة في مثل هذا الوقت من السنة، تطفو ساكنة في السماء، والهواء الثقيل إلى درجة مستغربة يغلف الصحراء ويلين معالم الكثبان فوق ليونتها المألوفة.

ولحظت فجأة حركة مفزعة عند قمة التلة الرملية أمامي ـ هل هو حيوان؟ ربما كان الذلول الشارد. بيد أنني أنعمت النظر، فوجدت أن الحركة ليست فوق الكثيب بل في قشرته ذاتها: كانت القشرة تتحرك، ببطء ما بعده بطء، وبفخر وتيه، إلى الأمام، ثم بدا لي أنها تنحدر باتجاهي، وعلت السماء حمرة قاتمة، وشرعت الغبشة الحمراء بالانتشار في الصحراء، لتدوّم من بعد غمامة من الرمال حولي وتصفعني في وجهي. وسرعان ما سمعت زمجرة الرياح من كل صوب مجتاحة الوادي من جميع أطرافه، ولم تلبث السماء أن أظلمت والهواء أن امتلأ بغبار الرمل المدوم الذي يحجب الشمس والضياء كالضباب المحمر. لقد كانت هذه من غير شك عاصفة رملية.

وأراد ذلولي، وقد هالته الطبيعة الهائجة، أن ينهض من مجثمه، ولكني منعته من ذلك مستعيناً بالرسن، وأنا أحاول أن أتجنب السقوط من جراء الريح التي أصبحت الآن بقوة النوء، وأن أعقل ساقيه الأماميتين، وإحدى ساقيه الخلفيتين أيضاً. ثم رميت بنفسي على الأرض، وغطيت رأسي بعباءتي، وضغطت بوجهي على إبط الذلول كي لا تصفعها الرمال المتطايرة، ولكني شعرت أن الذلول، ولربما للسبب نفسه، كانت تضغط بدورها بخطمها على كتفي، كما شعرت بالرمل يغمرني من الجهة التي لم يكن يحميها جسم الناقة، وأنه كان عليّ إبدال مكاني بين الفينة والأخرى كي لا أدفن في الرمال.

لم أخف كثيراً فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي تفاجئني فيها عاصفة رملية في الصحراء. لم أستطع أن أفعل شيئاً إلا أن أبقى على الأرض، ملتفاً بعباءتي بإحكام، وأن أنتظر خمود العاصفة وأصغي إلى الرياح تزمجر وعباءتي تصفق ـ صفيق الشراع المحلول أو العلم المنثور ـ صفيق أعلام القبائل يحملها على الصواري جيش من البدو في إبان زحفه، تماماً كما صفقت وزفرت منذ خمس سنوات تقريباً فوق الألوف من الركبان النجديين ـ وأنا بينهم ـ عائدين من عرفات إلى مكة بعد الحج. لقد كانت المرة الثانية التي أؤدي فيها فريضة الحج، وكنت قبل ذلك قد قضيت سنة واحدة في داخلية شبه الجزيرة، وسعيت إلى أن أعود إلى مكة في الوقت المعين تماماً

لأشترك في تجمع الحجيج في سهل عرفات، شرقي المدينة المقدسة. وفي أثناء عودتي من عرفات وجدت نفسي وسط حشد من البدو النجديين بثياب الإحرام البيضاء ـ بحر من الرجال على مطايا صفراء عسلية أو سمراء ذهبية أو بنية سمراوية ـ ألوف من الإبل تتسابق وتتدافع إلى الأمام كموجة عارمة، بينما الأعلام القبلية تزمجر في الهواء، والصرخات القبلية التي كان الناس يدلون بواسطتها على قبائلهم، وعلى مآثر أسلافهم في ساحات القتال تتماوج أمام فصائل الرجال، ذلك لأن الحرب والحج في عرف النجديين، ينبعان من مصدر واحد. . . وينتشر الحجيج، الحجيج الذين لا عدّ لهم ولا حصر، والذين جاءوا من مختلف الأقطار الأخرى، من مصر والهند وإفريقية الشمالية وجاوه، حيث لم يألفوا هذا الازدحام من قبل، والذين تفرقوا مذعورين لدى اقترابنا: ذلك أن أحداً لم يكن لينجو من الموت إذا وقف في طريق ذلك الركب العاصف ـ تماماً كما يموت الراكب فيما إذا سقط عن شداده وسط آلاف وآلاف من الهجان الرامحة.

ومهما كان ذلك الركوب من الحمق، فقد أسهمت في الحمق وانغمست في كل ما كان في تلك الساعة من هجوم زمجرة وتدويم. وكانت النشوة تغمر قلبي، وسمعت الرياح التي كانت تصفق في وجهي تغني وكأنها تقول: «إنك لن تبقى غريباً بعد الآن. . . لن تبقى. . . بين قومك وأهلك هؤلاء».

وإذا كنت متمدداً فوق الرمال وتحت عباءتي التي كانت الريح تتلاعب بها، خيل إليّ أن زمجرة العاصفة الرملية كانت تردد صدى ذلك الغناء: «إنك لن تبقى غريباً بعد الآن».

لم أعد غريباً: ذلك أن جزيرة العرب قد أصبحت وطني. إن ماضيّ الغربي أشبه بالحلم البعيد ـ لا من الوهم بحيث ينسى، ولا من الحقيقة بحيث يؤلف جزءاً من حاضري. ولكني كلما أقمت بضعة أشهر في بلدة ما ـ كالمدينة مثلاً، حيث لي زوجة عربية وولد طفل ومكتبة تزخر بالكتب عن التاريخ الإسلامي القديم ـ يستبد بي القلق، وأبدأ بالحنين إلى أن أعمل وأتحرك، إلى هواء الصحراء الجاف، إلى رائحة المطايا ومس الشداد. والغريب أن دافع التطواف الذي جعلني قلقاً متبرماً إلى هذا الحد طيلة الجزء الأعظم من حياتي (عمري الآن يزيد قليلاً عن اثنين وثلاثين عاماً) ويغريني كرة بعد أخرى بجميع أنواع المصادفات والمواجهات، ليس ناشئاً عن تعطش للمغامرات بقدر ما هو ناشىء عن حنيني أن أجد مستقري في هذا العالم ـ إلى أن أصل إلى نقطة أستطيع عندها أن أصل كل ما يمكن أن يحدث لي بكل ما يمكن

أن أفكر فيه، وألمسه، وأريده. وإذا كان لي أن أفهم الأمر على حقيقته، فإن هذا الحنين إلى اكتشاف الذات هو الذي ساقني؛ عبر السنين، إلى عالم يختلف تمام الاختلاف، من حيث أحاسيسه وأشكاله الخارجية، معاً، عن كل مصير رسمته لي ولادتي ونشأتي الأوروبيتان.

* * *

وعندما هدأت العاصفة أخيراً، أخرجت نفسي من الرمال التي كانت قد تجمعت حولي. وكانت ذلولي نصف مدفونة فيها، ولكن تلك التجربة لم تكن أسوأ من التجارب العديدة التي لا بدّ أنها كانت قد تعرضت لها في السابق، وقد خيل إليّ لأول وهلة أن العاصفة لم تصبنا بأي أذى سوى أنها ملأت فمي ومنخري بالرمل وأطارت الجعد عن شدادي، إلا أنني سرعان ما اكتشفت أنني كنت على خطأ.

لقد بدلت جميع الكثبان من حولي معالمها، كما اختفت آثار ذلولي، والذلول الشاردة كلها: لقد أدركت أنني كنت واقفاً على أرضٍ بكر.

ولم يبق أمامي الآن سوى أن أعود إلى زيد ـ أو على الأقل أن أحاول العودة ـ بمعونة الشمس وبشعور الاتجاه الذي كاد يكون غرزياً لدى من يألف السفر في الصحارى. ولكن هذين المساعدين لم يكن بالإمكان الاعتماد عليهما اعتماداً كلياً، ذلك أن الكثبان لا تمكنك من المسير في خط مستقيم كيما تحافظ على الاتجاه الذي اخترته لنفسك.

ولقد شعرت بالظمأ بتأثير العاصفة، إلا أنني لم أكن أتوقع أن أبتعد عن زيد سوى مسافة ساعات قلائل، فقد كنت قبل هبوبها بوقت طويل قد أتيت على آخر قطرة من قربة الماء الصغيرة التي كانت معي. ولكن لا بدّ أنني لم أكن بعيداً عن المكان الذي حططنا فيه الرحال. وبالرغم من أن هجيني لم يشرب ماء منذ آخر وقفة لنا عند إحدى الآبار منذ يومين، فقد كان جندياً قديماً يمكنني الاعتماد عليه في إرجاعي إلى زيد. لقد وجه أنفه نحو الجهة التي فكرت أن زيداً لا بدّ أن يكون فيها، وسرنا في خطوات رشيقة.

ومرّت ساعة وثانية وثالثة، ولكني لم أقع على أيما أثر لزيد أو للأرض التي كنا قد نزلنا فيها، ولم يبد لي أني قد ألفت رؤية أي من التلال البرتقالية اللون. والحق أنه كان من العسير جداً أن أكتشف فيها أيما شيء مألوف لدي حتى ولو لم تهب أية عاصفة.

وقبيل المساء مررت بطبقة سطحية من صخور الصوان التي كانت نادرة جداً في قلب تلك القفار الرملية، فعرفتها حالاً: لقد مررنا بها، زيد وأنا، بعد ظهر اليوم السابق قبيل توقفنا لقضاء الليل. وشعرت بفرح عظيم. فبالرغم من أنه كان واضحاً أنني كنت بعيداً جداً عن المكان الذي كنت أرجو أن أجد زيداً فيه فقد بدا لي أنه لم يكن من العسير عليّ الآن أن أجده بمجرد مسيري باتجاه جنوبي غربي، كما فعلنا أمس.

لقد كان هناك، كما ذكرت نحو من ثلاث ساعات بين صخور الصوان وبين المكان الذي اخترناه لنزولنا؛ ولكنني بعد أن سرت مسافة ثلاث ساعات أخرى، لم أجد أثراً لزيد. هل أخطأته مرة أخرى؟ ودفعت الهجين إلى الأمام دائماً نحو الجنوب الغربي، مستعيناً بحركة الشمس. ومرت ساعتان أخريان، ومع ذلك، فلم يكن هناك أي أثر لزيد، وعندما أرخى الليل سدوله، قررت أنه لم يكن هناك معنى لاستمراري في السير، وأنه كان من الأفضل لي أن أستريح بانتظار ضوء الصباح، فأنخت الذلول فعقلتها وحاولت أن آكل بعض التمر ولكنني كنت شديد الظمأ. وهكذا قدمت التمر إلى الذلول وتمددت مسنداً رأسي إلى جسمها. وأصبحت بوسن متقطع: لم يكن نوماً بالمعنى الصحيح، ولا يقظة بالمعنى الصحيح، ولكن سلسلة من حالات الحلم سببها التعب. وقطعها ظمأ أصبح، تدريجياً، شديداً أليماً، وفي مكان ما من تلك الأعماق التي لا يرغب المرء في أن يكشفها لنفسه، هنالك الخوف القاتل: ماذا سيحل بي إذا لم أجد طريقي إلى زيد، وإلى قرب الماء؟ ـ ذلك أنني كنت أعلم أنه لم يكن ثمة ماء ولا موطن إلا على مسيرة أيام كثيرة في جميع الجهات.

وعند الفجر شرعت في المسير ثانية. وكنت في أثناء الليل قدرت أنني كنت قد سرت بأكثر مما ينبغي نحو الجنوب وأن زيداً لذلك، يجب أن يكون في مكان ما نحو الشمال الشرقي من المكان الذي قضيت فيه الليل. وهكذا تحولنا إلى الشمال الشرقي، وقد استبد بنا العطش والتعب والجوع، سائرين دائماً في خطوط ملتوية من واد إلى واد، متفادين الكثبان آناً إلى اليمين وآناً إلى اليسار. وعند الظهر أخذنا قسطاً من الراحة، وكان لساني ملتصقاً بسقف حلقي وأحسست به كأنه قطعة من الجلد القديم المتشقق، كما كان حلقي مراً وعيناي ملتهبتين. وإذ شددت نفسي إلى بطن المطية، وعباءتي تغطي رأسي، فقد حاولت أن أنام فترة من الوقت، ولكنني لم أستطع. واستأنفنا السير بعد الظهر مرة أخرى، نحو الشرق هذه المرة ذلك أنني أدركت الآن أننا سرنا نحو الغرب بأكثر مما ينبغي ـ ولكنه مع ذلك لم يكن ثمة أثر لزيد.

وجاءت ليلة أخرى. وانتهى العطش إلى أن يصبح عذاباً وألماً، والرغبة في الماء الفكر الوحيد الطاغي في عقل لم يعد باستطاعته أن يفكر أيما تفكير منتظم. ولكن ما أن انبثق الفجر وأضاء السماء حتى ركبت مرة أخرى، خلال الصباح، خلال الظهيرة، إلى أصيل يوم آخر. تلال رملية وحر لاهب. تلال وراء تلال، وليس من نهاية. أو لعلها كانت هي النهاية ـ نهاية طرفي كلها، نهاية كل نشداني وبحثي. نهاية مجيئي إلى الناس الذين كان من المقدر أن لا أظل غريباً بينهم ثانية... ودعوت الله: «يا إلهي... لا تجعل نهايتي على هذه الصورة...».

وبعد الظهر، تسلقت تلة مرتفعة رجاء أن أستجلي ما حولي من الأرض بصورة أفضل. وعندما ميزت فجأة نقطة سوداء بعيداً إلى الشرق، كدت أصرخ من الفرح، لو لم أكن أضعف من أن أقدر على ذلك: ذلك أن تلك النقطة لا بدّ أنها كانت مكان زيد والقربتين الكبيرتين المملوءتين ماء. وارتجفت ركبتاي عندما ركبت ثانية، وببطء، وحذر تحركنا باتجاه النقطة السوداء التي لم تكن سوى مكان زيد. واتخذت هذه المرة كل حيطة كي لا أخطئها: فسرت في خط مستقيم، مصعداً التلال الرملية، هابطاً الأودية، مما كان يضاعف جهدنا وعناءنا، ولكن كان يحدونا الأمل في أنني بعد قليل، بعد ساعتين على الأكثر، سأصل إلى هدفي. وأخيراً بعد أن قطعنا آخر تلة رملية، تجلى الهدف واضحاً لعيني، فأوقفت الذلول، ونظرت إلى ذلك الشيء الأسود على مبعدة أقل من نصف ميل، وخيل إليّ أن قلبي قد توقف عن الخفقان: ذلك أن ما كنت أراه أمامي إنما كان الطبقة السطحية من صخور الصوان التي مررت بها منذ ثلاثة أيام مع زيد، والتي زرتها وحدي منذ يومين...

لقد مضى عليّ يومان وأنا أدور في حلقة...

— ٤ —

وعندما انزلقت عن الشداد كنت أشعر بأن قواي خائرة تماماً. لم أهتم حتى بأن أعقل رجلي الهجين، وقد كان في الحق تعباً إلى درجة أنه لم يكن من المعقول أن يفكر بالهرب. لقد بكيت، ولكن الدموع لم تسقط من عيني الجافتين المتورمتين.

ما أطول الزمن الذي تصرم عليّ دون أن أبكي... ولكن، أليس كل شيء قد مضى وانقضى الآن، ولم يبق في حياتي حاضر إلا العطش، والرمضاء والعذاب؟

لقد مضى عليّ ثلاثة أيام لم أذق فيها أية قطرة من الماء وهجيني قد شرب لآخر

مرة منذ خمسة أيام. قد يستطيع أن يحتمل الظمأ يوماً آخر، أو يومين. أما أنا فإني أعرف أنني لن أستطيع. لربما فقدت عقلي قبل أن أموت، ذلك لأن الألم في جسمي يعود مع الهلع في عقلي، وكلاهما يجعل الآخر ينمو وهو يلسع ويهمس ويمزق تمزيقاً...

ورغبت في أن أستريح، ولكنني في الوقت نفسه عرفت أنني إذا استرحت الآن فلن أستطيع النهوض ثانية. وجررت نفسي إلى أن تمكنت من أن أستوي على الشداد، وأخذت أوسع الهجين لكزاً ورفساً لكي أحمله على النهوض. وكدت أسقط من الشداد عندما ترنح الهجين إلى الأمام ناهضاً على قائمتيه الخلفيتين. وأيضاً عندما ترنح إلى الوراء معدلاً قائمتيه الأماميتين. وبدأنا نتحرك، ببطء وألم، نحو الغرب. نحو الغرب: أية سخرية! وماذا تعني نحو الغرب في هذا البحر الزاخر الخداع المتماوج من التلال الرملية؟ ولكنني كنت أريد أن أعيش، ولذلك تابعنا المسير.

وتهادينا، بما بقي لنا من قوة، طوال الليل وكنت أشعر أنه لن يأتي الصباح إلا وقد هويت عن الشداد. إنني لن أتألم كثيراً عندما أهوي، فالرمل الناعم سيتلقاني ويحتضنني. ووقف الهجين قليلاً، ثم انزلق متنهداً على ركبتيه، ثم على قائمتيه الخلفيتين، وربض إلى جانبي ماداً عنقه فوق الرمال.

واضطجعت على الرمل في ظل الهجين، ملتفاً بعباءتي كي أتقي الحر من خارجي والألم والعطش والخوف في داخلي. لم أعد أستطيع أن أفكر، ولم أعد أستطيع كذلك أن أغمض عينيّ، ذلك أن كل حركة في أجفاني كانت بمثابة قطعة من المعدن المتوهج تكوي مقلتي. لم يكن هناك إلا الظمأ والرمضاء، الظمأ والسكون الرهيب، السكون القاسي الذي يقذف بك إلى لجة من الخوف واليأس. ولم أعد أسمع إلا تنهد الهجين بين الفينة والأخرى، فيخيل إليّ أن هذا هو آخر صوت أسمعه، وأننا، نحن الاثنين، الإنسان والحيوان، آخر من قدر له أن يحيا على هذه الأرض.

وعلى علوّ شاهق فوقنا، في الحر السابح، كان نسر يحوم ببطء دون أن يتوقف أبداً عن التحويم، كنقطة سوداء في وجه شحوبة السماء القاسية ـ حراً وفوق كل أفق...

وشعرت بالانتفاخ في حلقي، وبضيق عظيم في نفسي، وتضخم في لساني، ذلك اللسان الذي ما كان له أن يتحرك ولكنه لا ينفك يتحرك إلى الأمام وإلى الوراء، كالمبرد يلحس ذلك الحجر الذي كان اسمه فمي في وقت مضى. وانتابت الحمى

جوارحي كلها، ودخلت مرحلة النزع، وبدت السماء لعيني مظلمة حالكة السواد.

وتحركت يدي، لا شعورياً، واصطدمت بالبندقية المعلقة على غزالة الشداد. وهدأت اليد، والتمع ذهني بصفاء مفاجىء، واخترقت عيناي مستودع البندقية، ورأيت إلى تلك الرصاصات الخمس الطيبة، وهتف بي هاتف أن تحرك بسرعة وتناول البندقية قبل أن تصبح عاجزاً عن الحركة.

ثم شعرت بشفتيّ تتحركان وتتلفظان بكلمات متقطعة غير مسموعة: «لنبلونكم... ولنبلونكم...» ثم انتظمت فكانت الآية الكريمة: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

كل ما حولي حار قاتم، غير أنني أحس من ذلك القتام الحار بنفحة رطبة من الريح كأنني أسمع حفيفها يتخلل الشجر فوق الماء، أما الماء فهو ذلك الجدول الهادىء المنساب بين الضفاف الخضراء الذي يمر بالمنزل الذي كان مهد طفولتي، وأراني مضطجعاً على حافة الجدول، طفلاً في التاسعة من عمري أمضغ بعض الحشائش، وأمعن النظر في البقرات البيض التي ترعى قربي بعيون حالمة، فيها براءة الدعة والسكينة، وعلى البعد تعمل الفلاحات في الحقل، أرى إحداهن ترتدي قميصاً أزرق مخططاً بخطوط عريضة حمراء، وعلى رأسها منديل أحمر. على حافة الجدول تنتصب أشجار الصفصاف، وفوق صفحته بطة بيضاء تموج الماء بسباحتها. لا تزال الريح الهادئة تصافح وجهي بصوت كأنه حيواني. آه، بل هو صوت حيوان، فقد أقبلت البقرة الكبيرة البيضاء ذات البقع البنية تدنو مني فتلامسني برفق وهي ترسل زنخرتها. إنني أحس بحركة قوائمها إلى جانبي...

وفتحت عيني. وسمعت زنخرة الهجين، وشعرت بقوائمه تتحرك إلى جانبي. لقد نهض على قائمتيه الخلفيتين بعض الشيء، ورفع عنقه ورأسه ووسع منخريه كأنما حمل إليهما هواء الظهيرة رائحة سارة مقبولة. وزنخر الهجين مرة أخرى، وبدت عليه أمارات الاهتياج، وأخذ يجيل عنقه بين كتفيه وجسمه الهائل المرتفع عن الأرض نصف ارتفاع. لقد رأيت، من قبل، الإبل تزنخر وتخنف على هذه الصورة عندما تشم رائحة الماء بعد مسير أيام طويلة في الصحراء، ولكن ليس في هذا المكان ماء... إلا أن إمكان وجوده ما لبث أن تبدى لي، فرفعت رأسي وأدرت بصري نحو الجهة التي كان رأس الهجين متجهاً إليها، فوقع على أقرب تلة رملية الينا، وكانت منخفضة خالية من كل حس أو حركة. ولكني قد سمعت في الحق حساً، حساً كذلك الذي

ينبعث من قيثارة قديمة، صوت بدوي يرتفع بالغناء على إيقاع خفوف الجمل ـ تماماً وراء قمة التلة الرملية، تلك التلة التي كانت قريبة مني من حيث المسافة، وبعيدة جداً من حيث قدرتي على الوصول إليها أو، على الأقل، إيصال صوتي. نعم، لقد كان هناك أناس، ولكني لم أستطع الوصول إليهم. لقد كنت أضعف من أن أقوى على النهوض، فحاولت أن أصرخ، ولكنني لم أستطع إلا أن أحدث صوتاً أجش. وتحركت يدي، لا شعورياً، واصطدمت بالبندقية المعلقة على غزالة الشداد... ورأيت بعيني عقلي الرصاصات الخمس الطيبة في مستودعها...

وبذلت جهداً جباراً لفك البندقية عن الغزالة. وعندما تمّ لي ذلك أخذت في سحب المزلاج وكأنني أسحب جبلاً من الجبال. بيد أنني نجحت أخيراً وركزت البندقية على قاعدتها، وضغطت على الزناد، فانطلقت إحدى الرصاصات عمودياً في الهواء، واخترقت الفضاء معوية بصوت رقيق خافت. وسحبت المزلاج وضغطت الزناد كرة أخرى وأصخت السمع. لقد انقطع الغناء وساد الصمت من جديد لحظات معدودات. وفجأة، أطل رأس رجل من وراء التلة، ثم كتفاه، ورأيت بجانبه رجلاً آخر. وأجال الرجلان أنظارهما قليلاً، ثم استدارا وهتفا لرفاق لهما لم أستطع رؤيتهم، ولم يلبث أحدهما أن انحدر قاصداً إليّ.

وشعرت كأن جمهوراً كبيراً من الناس من حولي: رجلان أو ثلاثة ـ أيّ جمهور هذا بعد كل هذه الوحدة الطويلة! ـ كانوا يحاولون إنهاضي وأنا في شبه غيبوبة تامة. وشعرت بشيء بارد محرق كالثلج والنار على شفتي، ورأيت رأس بدوي ملتح ينحني فوق وجهي يعصر في فمي خرقة رطبة قذرة. أما يد الرجل الأخرى فكانت تحمل قربة مفتوحة فيها ماء. وبحركة غرزية رفعت فمي إليه، ولكن البدوي دفع رأسي إلى الوراء دفعة رقيقة، ثم غمس الخرقة في الماء وعصر بضع قطرات فوق شفتي. وكان عليّ أن أعض على نواجذي لأمنع الماء من أن يحرق حلقي، ولكن البدوي لجأ إلى القوة وفصل أسناني بعضها عن بعض وألقى في فمي بضع قطرات من الماء. لا، لم يكن ذلك ماء، بل رصاصاً سائلاً. لماذا يفعلون كل ذلك؟ لقد أردت أن أهرب من ذلك العذاب القاتل، ولكن الشياطين أمسكوا بي وردوني إلى الوراء... كان جلدي يحترق، وجسمي كله يلتهب. هل يريدون قتلي؟ آه لو أستطيع أن أمسك ببندقيتي وأدافع عن نفسي؟ ولكنهم لم يدعوا لي مجالاً حتى للنهوض، فقد ألصقوني بالأرض وفتحوا فمي عنوة وسكبوا فيه قطرات الماء ـ وكان عليّ أن أبتلعها، ولكن كم كان دهشي عظيماً إذ وجدت أنها لم تعد تحرق حلقي كما كانت تحرقه منذ لحظة ـ

وأخذت أشعر بالارتياح إلى تلك الخرقة الرطبة على جبيني، وسرت في جسمي كله رعشة من سرور عندما سكبوا الماء على جسمي فابتلت ثيابي كلها.

وسبحت في ظلام دامس... وشعرت كأني أهوي في بئر عميقة سوداء... سوداء...

* * *

— ٥ —

سواد... سواد حالك... ظلمة ناعمة لا يعكرها صوت.. ظلمة طيبة رحيمة تضمني وتلفني كحرام دافىء، وتجعلني أتمنى أن أظل أبداً هكذا، تعباً ناعساً كسولاً. والحق أنه لم يكن بي حاجة إلى أن أفتح عيني أو أحرك ذراعي، ومع ذلك فقد حركت ذراعي وفتحت عيني فلم أرَ فوقي غير الظلام، ظلام بيت الشعر البدوي الأسود، تنفرج منه فتحة صغيرة على رقعة ضيقة من سماء الليل مرصعة بالنجوم، وخط منحن من التلال الرملية الناعمة.

وفجأة رأيت في فتحة البيت صورة رجل، وسمعت صوت زيد وهو يهتف: «إنه يقظان، إنه صاحٍ!» وشعرت بوجهه الصارم يقترب من وجهي، وبيده تمسك بكتفيّ، ورأيت رجلاً يدخل البيت. لم أستطع أن أتبين هذا الرجل بوضوح، ولكنه ما لبث أن تكلم بصوت رزين منخفض حتى عرفت أنه بدوي من قبيلة شمر.

وشعرت مرة أخرى بالظمأ، وقبضت بكلتا يدي على كوب اللبن الذي أدناه مني زيد. ولما لم أحسّ بأي ألم في حلقي جرعته كله بينما كان زيد يقص عليّ كيف أن أولئك الرجال القلائل من البدو مروا به عندما هدأت العاصفة الرملية وكيف أنهم، عندما عاد الهجين الشارد وحده أثناء الليل، استحوذ عليهم القلق وخرجوا جميعاً للبحث عني، وكيف أنهم، بعد ثلاثة أيام تقريباً، وبعد أن كادوا ييأسون من العثور عليّ، سمعوا صوت الرصاصة التي أطلقتها من بندقيتي خلف الرابية...

أما الآن فقد نصبوا بيت شعر فوقي وأمروني أن أضطجع فيه تلك الليلة واليوم التالي. وكان أصدقاؤنا البدو غير مستعجلين، فقربهم كانت ممتلئة بالماء، حتى أنهم استطاعوا أن يشربوا ذلولي ثلاثة دلاء، علماً منهم بأن مسير يوم باتجاه الجنوب كفيل بأن يوصلهم، ويوصلنا إلى واحة فيها بئر.

وبعد قليل، أعانني زيد على الخروج من البيت، وفرش على الأرض حراماً من الصوف اضطجعت عليه تحت النجوم.

* * *

وانقضت بضع ساعات أفقت بعدها على قعقعة دلة القهوة التي كان يعدها زيد. وخالطني مزيج من الدهش والسرور عندما شممت رائحة القهوة.

وناديت: «زيد!» ووجدت أن صوتي، بالرغم من أنه كان لا يزال ضعيفاً، قد عاد إليه بعض صفائه. «هل لك أن تسقيني بعض القهوة؟»

ــ «أسقيك والله، يا عمي!» أجابني زيد تبعاً لعادة العرب في مخاطبة من يودون إظهار احترامهم له، سواء كان أكبر أم أصغر سناً من المتكلم - (وكنت أصغر من زيد بعامين اثنين). ثم أردف قائلاً: «ستشرب القهوة حتى ترتوي».

وأخذت احتسي قهوتي بلذة وهدوء. وكان وجه زيد يطفح بالبشر، فسألته مستضحكاً: «لماذا، يا أخي، نعرض أنفسنا إلى مثل هذه الأمور، بدلاً من أن نلزم بيوتنا كما يفعل العقلاء من الناس؟»

فأجابني زيد مستضحكاً كذلك: «لأنه ليس لمثلك أو مثلي أن نقبع في بيوتنا حتى تيبس أطرافنا وتدركنا الشيخوخة. وفضلاً عن هذا، ألا يموت الناس وهم في بيوتهم أيضاً؟ أليس كل إنسان يحمل قسمته حول عنقه، في حيثما كان؟»

وبينما كنت أحتسي فنجاناً ثانياً من القهوة، خطر لي أن لهذه الكلمة العربية «قسمة» معنى آخر أكثر عمقاً: «ذلك الشيء الذي تكون أنت قسماً منه».

ذلك الشيء الذي تكون أنت قسماً منه... هذه الكلمات عادت بذاكرتي إلى أيام بعيدة خلت، ورأيت إلى تلك الابتسامة التي رافقتها عندما صدرت عن قائلها. ابتسامة من؟ ابتسامة من وراء سحابة من دخان، دخان لاسع، كدخان الحشيش: أجل لقد كان دخان الحشيش، وكانت الابتسامة ابتسامة أغرب رجل عرفته في حياتي: فقد كنت أحاول الهرب من الوقوع في تهلكة بدت لي عظيمة جسيمة، وكنت في الوقت نفسه، ودونما إدراك مني، أسعى بظلفي إلى الوقوع في تهلكة أكثر حقيقة من تلك التي كنت أحاول تفاديها.

كل هذا حدث منذ ثماني سنوات تقريباً عندما كنت أمتطي جوادي... يصحبني خادمي التتري إبراهيم، مسافراً من شيراز إلى كرمان في جنوبي إيران، وهي

رقعة موحشة قليلة السكان لا طريق إليها، قرب بحيرة نيريس. لقد وصلنا إلى سهل فسيح موحل غير آهل، تحده جنوباً جبال كوه كشنكان ـ جبال الجياع ـ ويؤدي من الشمال إلى المستنقعات المتاخمة للبحيرة. وبعد الظهر، بينما كنا ندور حول تلة منعزلة، تبدت لنا البحيرة، فجأة، خضراء هامدة لا أثر فيها لحسٍّ أو حياة، ذلك أن مياهها شديدة الملوحة إلى درجة أن الأسماك لا تستطيع أن تعيش فيها. وباستثناء بعض الأشجار الكسيحة والأدغال الصحراوية فإن التربة المالحة حول البحيرة لم تكن تسمح للنباتات بأن تعيش، وكانت الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج الموحل رأينا فوقه، على بعد مئتي متر من الشاطىء درباً ضيقاً.

وهبط المساء دون أن نرى عن بعد الخان الذي كنا نقصد أن نبيت فيه ليلتنا تلك، وكان اسمه خان خيت. ولكن كان علينا أن نصله مهما كلفنا الأمر، ذلك أنه لم يكن هناك مكان نأوي إليه سواه. فضلاً عن أن اقترابنا من المستنقعات قد جعل من العسير علينا، إلى درجة الخطر، أن نتابع سيرنا في الظلام. والواقع أن أحدهم كان قد أنذرنا منذ الصباح بأن لا نغامر بالسير وحدنا في تلك البقعة، وأن خطوة واحدة في غير محلها قد تعني الموت المحقق. وفضلاً عن ذلك فقد كان جوادانا متعبين جداً بعد تلك الرحلة الطويلة التي لم نتوقف فيها طيلة النهار، فوق أرض طينية موحلة، وكانا بحاجة كلية إلى الراحة والطعام.

وإذ جنّ الليل، انهمر مطر غزيزة، ولكننا تابعنا سيرنا بالرغم من ابتلال ثيابنا، مكتئبين واجفين، معتمدين على غريزة الجوادين بدلاً من عيوننا التي لم تكن تستطيع أن ترى شيئاً في تلك الظلمة الحالكة. ومضت الساعات دون أن نعثر على الخان. لعلنا مررنا به، ولعله كتب علينا أن نقضي الليل في العراء تحت المطر الذي كان يشتد تدريجياً. كانت حوافر جوادينا تخوض في مياه المطر. والتصقت ثيابنا بجسمينا، وارتجفت عظامنا من شدة البرد، ولكن إدراكنا أننا كنا قريبين جداً من المستنقعات كان يبعث في نفوسنا رهبة وخشية. ألم ينذرني أحدهم منذ الصباح قائلاً: فإذا أخطأ جوادك الأرض الصلبة مرة واحدة، فعندئذ عليك رحمة الله؟

وتابع جوادي تقدمه يتبعه جواد إبراهيم، ربما على بعد عشر خطوات. ومرة بعد أخرى كانت تجول في خاطري تلك الأسئلة المرعبة: أترانا خلفنا الخان وراءنا في الظلام؟ أيّ مصير ينتظرنا إذا قدر لنا أن نقضي الليل تحت هذا المطر البارد المنهمر؟ وإذا أكملنا سيرنا، فماذا يحل بنا إذا بلغنا المستنقعات؟

وفجأة انبعث صوت ناعم من تحت حوافر حصاني، وشعرت به يخوض في

الوحل، ويغوص قليلاً، ويسحب إحدى قوائمه بجنون، ثم يغوص كرة أخرى. فارتجفت هلعاً وهتفت: المستنقع! وكبحت عنان الجواد بقوة وغرزت مهمازي بخاصرتيه فدفع برأسه عالياً وأخذ يرفع قوائمه ويخفضها بشراسة وغيظ. وتفجر العرق البارد من جسمي كله، وكان الليل حالك السواد حتى أنني لم أستطع أن أتبين يدي ذاتها، ولكن اضطراب الجواد ولهثه وتشنج جسمه بأجمعه جعلتني أحس بكفاحه اليائس للخلاص من المستنقع. وبحركة لا شعورية تقريباً، انتزعت السوط الذي اعتدت أن أعلقه بمعصمي دون أن أستعمله، وهويت به على مؤخرة الجواد بكل قوتي، مؤملاً أن أحمله بذلك على قصارى جهده. ذلك بأنه لو امتنع عن الحركة ووقف جامداً في مكانه، إذن لابتلعه المستنقع رويداً رويداً، وابتلعني معه. وإذا لم يعتد جوادي المسكين تلك الضربات الموجعة، فقد شب على قائمتيه الخلفيتين، ثم ضرب الأرض بقوائمه الأربع جميعاً، وجاهد لاهثاً للخلاص من الوحل، وكانت حوافره طيلة الوقت ترتطم بالوحل وتغوص في الحمأة.

وفجأة، مرق من فوق رأسي شيء عجيب أحدث حفيفاً، فرفعت يدي وأصابتني صدمة هائلة لم أعرف مصدرها. ومن خلال انهمار المطر ولهث الجواد، كنت أستطيع أن أسمع، لثوان خلتها ساعات، المستنقع وهو يحدث ذلك الامتصاص الذي لا يلين ولا يرحم، وأدركت أن النهاية لا بدّ قريبة، وأخرجت قدمي من الركابين استعداداً للقفز من فوق السرج لعلي أكون أكثر حظاً بمفردي على الأرض فأستطيع أن أنقذ نفسي إذا استويت واقفاً وقدماي منبسطتان. ولكن حوافر الجواد، فجأة ودون أن أصدق، ارتطمت بالأرض الصلبة مثنى وثلاث، فنشجت فرحاً بالخلاص، وجذبت عنان الجواد المسكين المرتعش فهدأ في مكانه... لقد نجونا....

ولم أذكر رفيقي إلا في تلك اللحظة، فتملكني الرعب، وصرخت بأعلى صوتي «إبراهيم!» ولكني لم أسمع جواباً، وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان.

— «إبراهيم!»

إلا أنه لم يكن هناك سوى الليل يلفني بسواده، والمطر يهطل بشدة. ترى، ألم يتمكن من إنقاذ نفسه؟ وصرخت بصوت أجش: «إبراهيم!»

وكدت أكذب أذني عندما طرق سمعي صوت خافت من مسافة بعيدة جداً: «هنا... إنني هنا!»

وتساءلت: كيف أبتعد أحدنا عن الآخر كل هذه المسافة؟

ـ «إبراهيم!»
ـ هنا. . . هنا».

وقدت جوادي باتجاه الصوت، فاحصاً كل إنش من الأرض بقدمي. كنت أمشي ببطء وحذر شديدين نحو الصوت البعيد: هناك كان إبراهيم ممتطياً صهوة جواده في هدوء.

ـ «ماذا حدث لك يا إبراهيم؟ ألم تخطىء أنت أيضاً فتدخل المستنقع؟»
ـ «المستنقع؟ كلا. لقد اكتفيت بأن أقف هادئاً في مكاني عندما رمحت أنت بصورة مفاجئة، ولسبب لا أعرفه».

رمحت بعيداً. . . إذن لقد حلت الأحجية، ولم يكن كفاحي ضد المستنقع إلا نسيجاً من خيالي. لا بدّ أن حصاني لم يفعل إلا أن خطا فوق ثلم موحل. وظناً مني أننا كنا مسوقين نحو المستنقع، عالجته بضربة من سوطي فرمح مجنوناً، ولا بدّ أن الظلمة قد خدعتني فظننت، خطأ، أن تقدم الجواد إلى الأمام كان صراعاً يائساً ضد المستنقع، وأنه كان لا يعدو بلا تبصر في ظلام الليل، غير شاعر بالأشجار الملتوية العديدة المنتشرة في السهل. . . هذه الأشجار، وليس المستنقع، كانت الخطر الحقيقي المباشر: فالغصن الصغير الذي صدم يدي كان يمكن أن يكون غصناً كبيراً كذلك، كان يمكن أن يكون قد حطم جمجمتي وأتى على حياتي في تلك المقبرة المجهولة في جنوبي إيران. . .

وثرت على نفسي. . . وتضاعفت ثورتي لأننا لم نعد نعرف الآن كيف نتجه، ولم نعد نستطيع أن نجد أي أثر لأي طريق. . . لقد كتب علينا أن لا نجد الخان. . .

ولكني، مرة أخرى، أخطأت التقدير.

لقد ترجل إبراهيم ليتحسس الأرض بيديه أملاً باكتشاف الطريق. وبينما كان يدب هكذا على الأربع، ارتطم رأسه فجأة بجدار ـ الجدار المظلم لخان «خان خيت».

وإذن فلولا تصوري خطأ أنني دخلت المستنقع، إذن لكننا تابعنا طريقنا، وخلفنا الخان وراءنا، وتهنا حقاً في المستنقعات التي كانت، كما عرفنا في ما بعد، على بعد مئتي متر منا.

وكان الخان أحد الآثار البالية من أيام الشاه عباس الصفوي ـ أحجار عظيمة من

الطوب، وممرات على شكل سراديب، ومداخل مستطيلة دون أبواب، ومدافىء محطمة. وكنت تستطيع أن تميز هنا وهناك آثاراً من النقش القديم فوق أعتاب الأبواب والشبابيك العليا وقطع الخزف المزخرفة المتشققة. وكانت الغرف القليلة التي يمكن المبيت فيها مفروشة بالقش القديم وروث الخيل. وعندما دخلت وإبراهيم القاعة الرئيسية، وجدنا مراقب الخان جالساً بالقرب من نار مكشوفة على الأرض دون أن يفترش شيئاً ما، وكان إلى جانبه رجل حافي القدمين صغير الحجم مغطى بعباءة مهلهلة. وانتصب الرجلان واقفين عند رؤيتنا، وانحنى الرجل الغريب ذو الحجم الصغير باحترام ووقار وبحركة رائعة تكاد تكون مسرحية، واضعاً يده اليمنى على قلبه. وكانت عباءته مغطاة بعدد لا يحصى من الرقعات المتعددة الألوان، وكان وسخاً ومشعثاً تماماً، ولكن عينيه كانتا تبرقان، وكان وجهه رصيناً صافياً.

وغادر مراقب الخان الغرفة كيما يعنى بجوادينا، ورميت أنا بجلبابي المبتل، بين شرع إبراهيم حالاً في إعداد الشاي فوق النار المكشوفة. وكما يتلطف السيد العظيم الذي لا يفقد أيما قدر من اعتباره ومقامه بمجاملته من هم أدنى منزلة منه، تكرم الرجل الغريب ذو الحجم الصغير وتناول فنجان الشاي الذي قدمه إليه إبراهيم.

ومن غير أن تبدو عليه أمارات الفضول، وكأنما يفتح حديثاً في قاعة للاستقبال، استدار إليّ قائلاً: «هل أنت إنكليزي، يا صاحب الجناب العالي . . .؟»

ــ «كلا، بل نمسوي».

ــ «هل أكون متطفلاً إذا سألت ما إذا كنتم قد جئتم هذه البلاد من أجل الإتجار. . .؟»

ــ «إنني مراسل للصحف، مسافر عبر بلادكم كي أنقل وصفها إلى سكان بلادي. إنهم يحبون أن يعرفوا كيف يعيش الآخرون، وبماذا يفكرون».

فأطرق مبتسماً علامة الموافقة، وسكت فلم ينطق بحرف. وبعد قليل سحب نارجيلة صغيرة من طين وقصبة من خيزران من ثنايا عباءته، ثم فرك بين راحتيه شيئاً بدا لي كالتبغ ووضعه بحذر وعناية، كما لو كان أثمن وأغلى من الذهب، في طاسة النارجيلة، وغطاه بالجمر المتقد. وبجهد ظاهر سحب نفساً من الدخان خلال قصبة الخيزران، وأخذ يسعل سعالاً شديداً ويعمل على تنقية حلقه في أثناء ذلك. ويقبق الماء في النارجيلة المصنوعة من الطين وأخذت رائحةٌ حادة تملأ الغرفة. عندئذ عرفت ذلك الشيء: لقد كان قنباً هندياً ـ حشيشاً ـ والآن فهمت أيضاً تكلف الرجل وتصنعه: لقد كان حشاشاً، وحشاشاً مدمناً. لم تكن عيناه محجوبتين كعيون مدخني

الأفيون، بل كانتا تشعان بنوع من القوة الغامضة، وتحدقان في مدى بعيد، بعيد جداً عن العالم الواقعي من حولهما.

وظللت أنظر إليه صامتاً. وعندما فرغ من نارجيلته آخر الأمر سألني قائلاً:
ــ «ألا تجربه؟»

فرفضت شاكراً. لقد سبق لي أن جرّبت الأفيون مرة أو مرتين ـ دونما لذة خاصة ـ ولكن هذا الحشيش بدا لي عنيفاً بأكثر مما ينبغي ولا يغري حتى بتجربته. وضحك الحشاش ضحكة صامتة، ورماني بنظرة فيها من السخرية الودية وقال:

ــ «إنني أعرف بماذا تفكر، يا صديقي المحترم. إنك تفكر بأن الحشيش هو من عمل الشيطان ولذا تخاف منه. هراء. الحشيش هو هبة من الله. حسن جداً ـ وبخاصة للدماغ ـ اسمع يا حضرة: دعني أشرح الأمر لك. الأفيون رديء ـ ولا يمكن أن يكون ثمة شك في ذلك ـ ذلك بأنه يوقظ في الإنسان شوقاً إلى أشياء لا يمكن بلوغها. إنه يجعل أحلامه نهمة، كأحلام الحيوان. ولكن الحشيش يسكت كل نهم ويجعل الفرد لا يبالي بكل ما في العالم. نعم، إنه يجعل المرء قانعاً راضياً. إنك تستطيع أن تضع رابية من الذهب أمام الحشاش ـ لا عندما يحشش فحسب، بل في أي وقت شئت ـ ولكنه لا يمد إليها إصبعه الصغيرة. الأفيون يجعل الناس ضعفاء جبناء، ولكن الحشيش يقضي على الخوف كله ويجعل الإنسان شجاعاً كالأسد، ولو سألت حشاشاً أن يغطس في جدول متثلج في وسط فصل الشتاء، فإنه، بكل بساطة، يغطس فيه ويأخذ في الضحك، لأنه قد تعلم أن التجرد من النهم والجشع معناه التجرد من التخوف، وأن الإنسان إذا تخطى الخوف فإنه يتخطى الخطر كذلك، عارفاً بأن ما يحدث له، مهما كان، ليس إلا ذلك الشيء الذي هو قسم منه. . .

وضحك مرة أخرى ضحكته الصامتة القصيرة المرتعشة ـ بين الهزء والأريحية ثم توقف عن الضحك ولكنه استمر مكشراً وراء الغمامة من دخانه، وبقيت عيناه مسمرتين في نقطة معينة من الفضاء.

* * *

«ذلك الشيء الذي أنا قسم منه. . .» هكذا فكرت في ذات نفسي بينما استلقيت تحت النجوم العربية الحبيبة. «أنا. . . هذه الكتلة من اللحم والعظم، من الأحاسيس والمشاعر ـ قد وضعت ضمن مدار الوجود، وغمست في كل ما يحدث. . . وليس «الخطر» إلا ظاهرة كاذبة: وليست هي بقادرة على أن تقهرني

أبداً: ذلك أن كل ما يصيبني هو جزء من ذلك الفيض الكلي الشمول الذي أنا جزء منه. وهل يمكن أن يكون الخطر والأمان، والموت والمتعة، والمصير والفوز إلا وجوهاً مختلفة من هذه الكتلة الدقيقة العظيمة التي هي أنا؟ أية حرية لا متناهية، يا رب، تلك التي منحتها الإنسان!...».

عليّ أن أغمض عيني، فإني لأشعر بألم السعادة شديداً عندما أفكر في هذا. وأن أجنحة الحرية لتمسني بصمت وعن بعد في نفحة الهواء الذي يمر فوق وجهي.

— ٦ —

وشعرت الآن بقوة كافية تمكنني من أن أستوي جالساً. وأسرع زيد فأحضر لي شداداً اتكأت عليه.

ـ «استرح في جلستك يا عمي، فإنه ليثلج قلبي أن أراك سالماً معافى بعد أن حسبتك ميتاً وقلت فيك الرثاء».

ـ «لقد كنت دائماً صديقاً لي يا زيد. ماذا كنت أفعل دونك كل هذه السنين لو لم تلب ندائي وتأتِ إلي؟»

«إنني لم أندم على هذه السنين التي قضيتها معك يا عمي. لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي أخذت فيه منذ أكثر من خمس سنوات، كتابك الذي دعوتني فيه إلى اللحاق بك في مكة... إن مجرد تفكيري في رؤيتك ثانية كان عزيزاً لدي، خصوصاً وأنك في الوقت نفسه قد تمت عليك نعمة الإسلام. ولكني كنت في ذلك الحين حديث الزواج بفتاة من المنتفك، فتاة بكر، وكان حبها باعثاً لسعادتي الكبرى، تلك الفتيات العراقيات... إن لهن خصوراً ناحلة وأثداء صلبة، مثل هذه».

وهنا ابتسم للذكرى الحبيبة إلى نفسه، وضغط بسبابته على غزالة الشداد الذي كنت متكئاً عليه.

«ولما كان من الصعب عليّ أن أتركها، قلت في نفسي: سأذهب، ولكن ليس الآن، ولأنتظر بضعة أسابيع، ولكن الأسابيع مرت وتلتها الأشهر، وبالرغم من أنني سريعاً ما طلقت تلك المرأة ابنة الكلب ـ لقد كانت ترمق ابن عمها بعين الحب والغرام ـ فإنني لم أستطع أن أقرر ترك عملي في الهجانة العراقية وأصدقائي وأفراح بغداد والبصرة، وكنت أقول في نفسي دائماً: ليس الآن... ولكن بعد قليل...

ولكني كنت راكباً في يوم من الأيام من مخيمنا، حيث قبضت مرتبي الشهري، وكنت أفكر في قضاء الليل في بيت أحد الأصدقاء، عندما خطرت ببالي فجأة، وذكرت ما كنت قلته لي في كتابك عن وفاة رفيقتك العزيزة ـ عليها رحمة ربي ـ وفكرت في مقدار وحشتك بعدها، وعرفت حالاً أن عليّ أن أذهب إليك، عندها نزعت النجمة العراقية عن عقالي ورميت بها بعيداً، ثم أدرت رأس ذلولي نحو النفود، نحو نجد، دون أن أذهب إلى البيت لأجمع ثيابي وبدأت سيري ولم أتوقف إلا في القرية التالية لابتياع قربة وبعض المؤونة، وتابعت ركوبي حتى التقيت بك في مكة بعد أربعة أسابيع...».

ــ «وهل تذكر، يا زيد، رحلتنا الأولى معاً إلى قلب جزيرة العرب، جنوباً نحو النخيل وحقول القمح في وادي بيشة، ومن هناك إلى رمال الرانية التي لم يطأها غير عربي قبل ذلك؟»

ــ «وكيف لا أذكرها يا عمي؟ لقد كنت جد مشتاق لرؤية الربع الخالي حيث الجن تجعل الرمال تغني تحت الشمس... وما قولك بأولئك البدو الذين يعيشون على حافته، والذين لم يسبق لهم أن رأوا الزجاج في حياتهم وظنوا أن نظارتيك إنما كانتا من ماء متجمد؟ لقد كانوا كالجن أنفسهم، يقرأون الآثار في الرمل كما يقرأ سائر الناس الكتب، ويعرفون من السموات والهواء موعد العاصفة الرملية قبل هبوبها بساعات... ثم، ألا تذكر، يا عمي، ذلك الدليل الذي استأجرناه في الرانية ـ ذلك الشيطان البدوي الذي أردت أن تصرعه بنار بندقيتك عندما كان على وشك أن يتخلى عنا في وسط الصحراء؟ لكم تميز غيظاً لرؤية الآلة التي كنت تلتقط بها الصور!»

وضحكنا، زيد وأنا، لتلك المغامرة التي مضى عليها زمن طويل. بيد أننا في ذلك الحين لم نر ما يوجب الضحك، فقد كنا على مسير ستة أيام أو سبعة جنوبي الرياض عندما انتابت ذلك الدليل، وكان بدوياً متعصباً من هجرة الإخوان في الرين، نوبة من الغضب إذ أوضحت له عمل آلة التصوير التي كانت في حوزتي آنذاك. لقد أراد أن يتركنا هناك، وفي ذلك الوقت بالذات، لأن مثل ذلك التصوير الوثني يعرض روحه للخطر. ولم أكن لأمانع في التخلص منه لو لم نكن عندئذ في منطقة لم نألفها من قبل، ولو لم يكن من المؤكد أن نضل الطريق. وقد حاولت بادىء الأمر أن أناقش «شيطاننا البدوي» بالمنطق ولكن دون جدوى. فقد استمر في عناده، وأدار وجه ذلوله نحو الرانية. عندها أوضحت له أن تركه إيانا لموت محقق من العطش يكلفه حياته، ولكنه بالرغم من هذا التحذير حمل ذلوله على المسير، فصوبت بندقيتي نحوه وأنذرته

بإطلاق النار ـ وكنت مصمماً على ذلك كل التصميم ـ والظاهر أن هذا، على الأقل، قد فاق خوف صاحبنا على روحه، ذلك أنه بعد قليل من الدمدمة والتذمر وافق على أن يقودنا إلى أول موطن تال، وكان يبعد مسيرة ثلاثة أيام، حيث نستطيع أن نعرض خلافنا على القاضي ليحكم بيننا. وجردناه ـ زيد وأنا ـ من سلاحه، وتناوبنا الحراسة الليلة لمنعه من الهرب. وقد حكم قاضي قواعيّة، الذي احتكمنا إليه بعد بضعة أيام، لصالح دليلنا لأنه، كما قال: «من العار تصوير الأشياء الحية». (مستنداً في حكمه إلى تفسير خاطىء لحديث نبوي: ذلك أنه بالرغم من الاعتقاد ـ الواسع الانتشار بين المسلمين حتى يومنا هذا ـ بأن رسم الكائنات الحية محرم، فإن الشرع الإسلامي خال من أية توصية بهذا الصدد). عندئذ أطلعت القاضي على الكتاب المفتوح الذي كان الملك قد زودني به: «إلى جميع أمراء البلاد وإلى كل من يراه». ـ وازداد وجه القاضي اضطراباً عندما قرأ: «محمد أسد هو ضيفنا وصديقنا وعزيز علينا، وكل من يظهر له المودة فكأنما يظهرها لنا، وكل من يناصبه العداء فكأنما يعادينا نحن. . .» وكان لكلمات ابن سعود وخاتمه فعل السحر في القاضي الصارم، وقرر في النهاية جواز التصوير «في ظروف خاصة. . .» إلا أننا، مع ذلك سرحنا دليلنا واستأجرنا آخر كي يقودنا إلى الرياض.

ـ «أولا تذكر يا عمي، تلك الأيام في الرياض، عندما كنا ضيوفاً على الملك، وكنت أنت تعساً جداً لرؤية اصطبلات القصر القديمة مملوءة بالسيارات الجديدة البراقة. . . وتلطف الملك بك. . .».

ـ «وهل تذكر، يا زيد، كيف أرسلنا لاكتشاف الأسرار الكامنة وراء ثورة الإخوان، وكيف ارتحلنا لبالي عديدة وانسللنا إلى الكويت خلسة ووقفنا أخيراً على حقيقة الصناديق الملأى بالريالات الجديدة اللماعة والبنادق التي كانت تتدفق على الثوار عبر البحر؟. . .».

ـ «وتلك المهمة الأخرى، يا عمي، عندما أرسلك السيد أحمد، أطال الله عمره، إلى برقة، وكيف عبرنا البحر سراً في السنبوك إلى مصر، وكيف شققنا طريقنا إلى الجبل الأخضر كي لا نسترعي انتباه الإيطاليين، عليهم لعنة الله، واتصلنا بالمجاهدين تحت راية عمر المختار؟ تلك، لعمري، كانت أياماً مثيرة!»

وهكذا مضى كل منا يذكر صاحبه بالأيام العديدة، الأيام التي لا تحصى، التي قضيناها معاً، حتى تقدم الليل وخمدت نيران المخيم إلا بضع قطعات من الحطب

ظلت على اتقادها، وحتى تقلص وجه زيد نفسه وبدا في عيني المثقلتين بالنعاس، ذكرى من الذكريات. . .

وفي سكون الصحراء المرصعة بالنجوم، وبينما كان الهواء الفاتر العليل يهب على الرمال فيرسم فوقها تموجات خفيفة، انحبكت صور الماضي بصور الحاضر لتنفصل من جديد وينادي بعضها بعضاً بأصوات بديعة من الاستدعاء والاستحضار عبر السنين المتصرمة، ورجوعاً إلى بداءة السنين التي قضيتها في بلاد العرب، إلى حجي الأول إلى مكة، والظلام الذي خيم على تلك الأيام الخالية: إلى وفاة المرأة التي لم أحب امرأة كما أحببتها قط، والتي ترقد الآن تحت تراب مكة، تحت حجر بسيط لا زخرف فيه ولا نقش يسم نهاية الطريق التي مشتها وبداءة طريق جديدة لي: نهاية وبداءة، نداء وصدى، انحبكت بصورة غريبة في وادي مكة ذاك، المليء بالصخور.

* * *

ــ «زيد، هل بقي هناك شيء من القهوة؟»
ــ «أمرك، يا عمي».

هكذا أجابني زيد، وهو ينهض بتؤدة، ودلة القهوة النحاسية، الطويلة الضيقة، في يده اليمنى، وفنجانان صغيران في يده اليسرى يقرع أحدهما بالآخر فيحدثان رنيناً يبعث على الطرب. وصب قليلاً من القهوة في أحدهما وناولني إياه. وكنت أرى إلى عينيه ترمقانني بانتباه وقور، كأنما هذا كان أمراً أخطر من مجرد فنجان من القهوة. هاتان العينان، الغائرتان الطويلتا الأهداب، العبوستان الحزينتان عند الاطمئنان، المستعدتان أبداً أن تشعا فجأة ببريق من السرور، هاتان العينان تفصحان عن مئة جيل من حياة الروابي والكثبان والحرية: عينا رجل لم يستغل أحد أسلافه ولم يستغل أحد أسلافه أحداً. ولكن أجمل ما فيه حركاته، فقد كانت رصينة متزنة منتظمة، غير مستعجلة أبداً ولا مترددة: إحكام واقتصاد يذكرانك بتوافق الآلات الموسيقية عند عزف سيمفونية رائعة. إنك تجد لدى البدو كثيراً من الحركات. إنها لتعكس تشتت الصحراء، فالحياة في الجزيرة العربية، بقطع النظر عن القرى والمدن، لم تعمل فيها يد الإنسان إلا قليلاً، حتى أن الطبيعة في عبوسها وخشونتها قد أجبرت الإنسان على تفادي أيما هدر في السلوك وإلى حصر جميع الأفعال التي تمليها إرادته الخاصة أو الحاجة الخارجية في أشكال معدودة معينة أساسية جداً بقيت كما هي دونما تغيير أجيالاً طويلة لا تحصى واكتسبت مضاء البلور ونعومته: هذه البساطة الموروثة في

الأفعال تظهر اليوم في حركات العربي الأصيل، كما تبدو في اتجاهه الذي يصطنعه نحو الحياة.

ــ «قل لي، يا زيد، إلى أين سنذهب غداً؟»
ونظر إليّ مبتسماً وقال: «إلى تيماء، يا عمي، غير شك».

ــ «لا، يا أخي، لقد كنت أريد الذهاب إلى تيماء، ولكنني لم أعد راغباً في ذلك الآن، نحن ذاهبون إلى مكة...».

بداية الطريق

ـ ١ ـ

كان المساء يقترب، بعد بضعة أيام من كفاحي العطش، عندما وصلنا، زيد وأنا، إلى واحة صغيرة مهملة نوينا أن نمضي فيها ليلتنا. وتحت أشعة الشمس المائلة نحو المغيب كانت التلال الرملية تلمع مثل كتل زاهية من العقيق اليماني، يعكس ظلالاً متبدلة الألوان. وكنا لا نزال نستطيع أن نرى بوضوح تيجان النخيل كأنها الريش، والمنازل الطينية المنخفضة، وأسوار الحدائق نصف ظاهرة وراءها، كما كنا لا نزال نستطيع أن نسمع الدواليب الخشبية فوق البئر ترسل أنغامها العذاب.

وأنخنا المطيتين على مسافة قريبة من القرية، تحت حدائق النخيل، وأنزلنا الخرج الثقيلة، وضعنا الشدادين عن ظهري المطيتين الساخنين. وتجمع عدد من الصبية حولنا نحن الغرباء، وتقدم أحدهم، وكان صغيراً واسع العينين مرتدياً ثوباً بالياً و عرض على زيد أن يريه مكاناً يتيح لنا الوقود. وبينما مضى الاثنان في طريقهما، أخذت الهجينين إلى البئر، وإذ كنت أدلي بدلوي وأسحبه وهو مملوء ماء، رأيت بعض النسوة آتيات من القرية ليجلبن الماء في أحواض نحاسية وجرار خزفية حملنها على رؤوسهن دون أن يمسكنها بأيديهن إذ كانت هذه ممدودة إلى الجانبين مع ميل إلى أعلى ـ لموازنة أحمالهن بطريقة أفضل ـ ممسكات بزوايا براقعهن بأيديهن المرتفعة كأجنحة مرفرفة.

وسلمن عليّ قائلات: «السلام عليك يا مسافر».

فأجبت: «وعليكن سلام الله ورحمته».

كن يرتدين ثياباً سوداء، وكانت وجوههن ـ كما هي وجوه البدويات ونساء القرى في هذا الجزء من البلاد العربية دائماً ـ مكشوفة بحيث يستطيع المرء أن يرى عيونهن السوداء الكبيرة. ومع أنهن استوطنّ الواحة منذ أجيال عديدة، فإنهن لم يفقدن بعد

سيماء الجد التي كانت لأجدادهن يوم كانوا قوماً رحلاً. كانت حركاتهن واضحة معينة، ومحافظتهن خالية من كل خجل، عندما أخذن بصمت حبل الدلو من يدي وسحبن الماء لهجيني ـ تماماً كما فعلت تلك المرأة، منذ أربعة آلاف من السنين، لخادم إبراهيم عندما جاء من أرض كنعان ليجد لابن سيده، إسحق، زوجة من بين أنسبائه في آرام، كما ذكر في التوراة:

«ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده. فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيات، وقال أيها الرب إلّه سيدي إبراهيم يسر لي اليوم واصنع لطفاً إلى سيدي إبراهيم. ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك لأشرب فتقول إشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً هي التي عينتها لعبدك إسحق. وبها أعلم أني صنعت لطفاً إلى سيدي.

«وإذ كان لم يفرغ بعد من الكلام إذا رفقة التي ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم خارجة وجرتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً وعذراء لم يعرفها رجل. فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت فركض العبد للقائها وقال اسقيني قليل ماء من جرتك، فقالت اشرب يا سيدي. وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ولما فرغت من سقيه قالت أستقي لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب، فأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة وركضت أيضاً إلى البئر لتستقي فاستقت لكل جماله».

هذه القصة من التوراة طفت في مخيلتي بينما كنت واقفاً مع هجيني عند البئر في واحة صغيرة وسط رمال صحراء النفود الكبرى، أحدق بالنساء اللواتي أخذن حبل الدلو من يدي واللواتي كن يسحبن الماء لهجيني من قاع البئر.

إن بلاد آرام لبعيدة جداً، وإن زمن إبراهيم لموغل في القدم، ولكن هؤلاء النسوة، بما كان لحركاتهن الجليلة من قوة على استعادة الذكريات، قد محون المسافات وجعلن أربعة آلاف من السنين وكأن ليس لها في الزمن حساب.

ـ «سلمت أيديكن أيتها الأخوات، وليحفظكن الله».

ـ «وسلمت أنت، يا مسافر، برعاية الله».

هكذا أجبن، وعدن إلى أحواضهن وجرارهن ليملأنها بالماء، ويذهبن بها إلى بيوتهن.

* * *

وفي أثناء عودتي إلى المكان الذي نزلنا فيه، أنخت الهجينيـن وعقلت أرجلهما الأمامية كي أمنعهما من الشرود في الليل. وكان زيد قد أشعل النار وانهمك في صنع القهوة. وكان الماء يغلي في دلة نحاسية طويلة ذات خرطوم منحن طويل. وكان بالقرب من مرفق زيد دلة أصغر لها الشكل نفسه، وكان زيد ممسك في يده اليسرى ملعقة حديدية مسطحة ذات يد طولها قدمان، وعليها قبضة من حبات البن يحمصها على النار البطيئة، ذاك أن البن في بلاد العرب إنما يحمص لكل دلة على حدة. وحالما تغير لون حبات البن بعض الشيء، وضعها في هاون نحاسي وشرع في سحقها، وبعد ذلك صبّ قليلاً من الماء الغالي من الدلة الكبرى في الدلة الصغرى، وأفرغ البن المسحوق فيها ووضعها قرب النار لتئز رويداً رويداً، وعندما أوشكت القهوة أن تغلي أضاف إليها بعض حبات الهال لجعلها أكثر مرارة لأن القهوة، كما يقولون في الجزيرة العربية، لكي تكون جيدة، يجب أن تكون مرة كالموت، وحارة كالعشق.

ولكنني لم أكن مستعداً بعد لأن أتمتع بقهوتي براحة ولذة، ذلك أنني كنت منهوك القوى مبتلاً بالعرق بعد تلك الساعات الطويلة الحارة التي قضيتها في الشداد، وكانت ثيابي القذرة ملتصقة بجسمي، فتقت إلى الاستحمام وعدت أدراجي إلى البئر تحت أشجار النخيل.

وكان الظلام قد أرخى سدوله، وأقفرت بساتين النخيل، إلا من كلب كان يعوي بعيداً جداً، قرب البيوت. ونزعت عني ثيابي، وهبطت البئر متشبثاً برفوف جدرانه أو شقوقه بيدي ورجلي، ممسكاً بالحبال التي كانت تتدلى منها قرب الماء، إلى أن وصلت إلى المياه المظلمة وسبحت فيها. وكانت المياه باردة غمرتني حتى الصدر. وفي ظلام البئر، انتصبت حبال الجذب مشدودة عمودياً بثقل القرب الكبيرة الغائرة في الماء والتي تستعمل أثناء النهار لري المزروعات. وتحت نعلي كنت أحس بخيوط الماء تنساب إلى أعلى، من النبع الذي يغذي البئر بمجرى بطيء غير منقطع دائم التجدد.

وكانت الريح تدوي فوقي عند حافة البئر والصدى المرجع داخل البئر خافتاً

كطنين صدفة البحر عندما تمسك بها بالقرب من أذنك ـ تلك الصدفة الكبيرة المدوية التي طالما أحببت أن أصغي إليها في بيت أبي لسنين عديدة خلت عندما كنت صبياً صغيراً لا يكاد رأسي يبلغ مستوى مائدة الطعام. كنت أضغط الصدفة بالقرب من أذني وأتساءل عما إذا كان الصوت هناك دائماً أو أنه يحدث فقط عندما أقرب الصدفة من أذني وأضغطها. أكان ذلك الطنين شيئاً مستقلاً عني أو كان ناتجاً عن إصغائي إليه؟ ولقد حاولت مراراً أن أخدع الصدفة بأن أبعدها عني إلى أن يتوقف الدوي، ثم أضغطها فجأة بالقرب من أذني ولكن الطنين كان دائماً، ولم أكتشف قط ما إذا كان مستمراً عندما لا أكون في حالة الإصغاء.

وبالطبع، لم أكن أعلم وقتئذ أنني كنت أواجه مشكلة حيرت كثيراً من ذوي الرؤوس المفكرة طوال أجيال لا عدّ لها ولا حصر ـ مشكلة ما إذا كان هناك شيء من مثل الحقيقة ما خلا عقولنا، أو أن إدراكنا هو الذي يخلق هذا الشيء ويكوّنه. لم أكن أعرف هذا وقتئذ، ولكني، إذ أعود إلى الماضي، أجد أن هذه الأحجية العظمى قد لازمتني لا في سنوات طفولتي فحسب بل في السنوات التي تلتها أيضاً ـ كما لا بدّ أن تكون قد لازمت، من حين إلى آخر، بصورة واعية أو غير واعية، كل مخلوق آدمي مفكر: ذلك أن العالم، مهما تكن الحقيقة الظاهرة، يتجلى لكل منا بالشكل الذي ينعكس فيه في عقولنا وبقدر هذا الانعكاس. وهكذا فإن كلاً منا يستطيع أن يتصور الحقيقة بالنسبة إلى وجوده الذاتي فقط. ولعل هذا تفسير لاعتقاد الإنسان الثابت، منذ أن وعى ذاته، بحياة الفرد بعد الموت، وهو اعتقاد متأصل جداً منتشر انتشاراً واسعاً بين جميع الأجناس منذ الأزل بحيث لا يمكن أن يكون تفكير متفائلاً فقط. ولعله ليس من المبالغة القول بأن ذلك الاعتقاد يدعو إليه حتماً تكوين العقل البشري. ليس من العسير على المرء أن يفكر في موته كانطفاء لذاته تفكيراً مجرداً نظرياً، ولكن تصور ذلك الانطفاء هو الأمر المستحيل، لأن ذلك لا يعني أقل من قدرته على تصور انطفاء الحقيقة وخمودها كلها، وبكلمة أخرى، تصور اللاشيئية: وهو أمر لا يستطيع عقل أيما إنسان أن يفعله.

ولم يكن الفلاسفة ولا الأنبياء هم الذين علمونا أن نؤمن بالحياة بعد الموت إذ إن كل ما فعلوه هو إعطاء شكل وقناعة روحية لمفهوم غرزي قديم قدم الإنسان نفسه.

* * *

ولم أتمالك عن الابتسام في ذات نفسي لإمعاني في التفكير بمثل هذه المشاكل

العميقة في مكان غير مناسب، وفي إبان انهماكي في تلك العملية الدنيوية لإزالة القذر والعرق اللذين علقا بجسمي بعد رحلة ذلك النهار الطويل. ولكن، مع ذلك، هل يوجد دائماً خط فاصل واضح بين ما هو دنيوي أرضي وما هو غامض مبهم في الحياة؟ هل كان يمكن أن يوجد، مثلاً، شيء أكثر دنيوية وأرضية من الخروج بسبيل العثور على هجين ضائع، وأكثر غموضاً وإبهاماً وإغلاقاً على الفهم من الكينونة على قاب قوسين أو أدنى من الموت عطشاً؟

لعل صدمة تلك الخبرة هي التي أرهفت مشاعري وولدت الحاجة إلى أن أقدم لنفسي نوعاً من الحساب: الحاجة إلى أن أفهم، فهماً كلياً لم يتسن لي من قبل، مجرى حياتي. ولكنني عندئذ ذكرت نفسي: هل يستطيع أيما إنسان أن يفهم حقاً معنى حياته الخاصة ما دام في قيد الحياة؟ نحن نعرف، طبعاً، ماذا جرى لنا في هذه الفترة أو تلك من حياتنا؛ كذلك نفهم أحياناً سبب حدوثه، ولكن مصيرنا ـ نصيبنا، المقدر لنا ـ ليس استطلاعه بمثل هذه السهولة، ذلك لأن المقدر هو خلاصة ما كان قد تحرك فينا، وما دفعنا، في الماضي، وما يتحرك فينا وما يدفعنا في الحاضر، وكل ما يدفعنا ويتحرك فينا في المستقبل، وهكذا لا يمكن للمقدر أن يكشف عن نفسه إلا في نهاية الطريق، ويجب دائماً أن يبقى مغلقاً غير مفهوم فهماً صحيحاً أو نصف مفهوم ما دمنا سائرين في الطريق.

وكيف يتأتى لي، وأنا في سن الثانية والثلاثين، أن أعرف ما كان مقدراً لي، أو ما هو مقدر لي؟

يبدو لي أنني أكاد أرى حياة رجلين اثنين عندما أتطلع إلى الماضي من حياتي. ولكن، مع كل ذلك، هل هذان الجزءان من حياتي يختلف أحدهما عن الآخر حقيقة هذا الاختلاف الكبير، أو هل كان هناك، لربما، تحت جميع الفروق الخارجية الشكلية والاتجاهية، وحدة دائمة من الشعور والهدف مشتركة بين الجزءين؟

ورفعت عيني ورأيت تلك القطعة المدورة من السماء فوق حفة البئر، والنجوم. وبقيت هادئاً في مكاني، وقتاً طويلاً جداً، وبدا لي كيف تبدل تلك النجوم من مواقعها ومراكزها، متحركة أبداً إلى الأمام، حتى أنها لتستطيع أن تكمل صفوفاً فوق صفوف من ملايين السنين التي لا نهاية لها أبداً. وعندها ودونما إرادة مني، كان عليّ أن أفكر في تلك الصفوف الصغيرة من السنين التي حدثت لي ـ كل تلك السنوات القاتمة التي قضيتها آمناً أنعم بأمن الطفولة ودفئها في غرف في مدينة كنت أعرف كل زاوية وشارع فيها، وبعد ذلك في مدن أخرى مليئة بالمفاجآت والأشواق والآمال لا يمكن أن تعرفها

وتخبرها إلا أيام الشباب الباكر، ومن ثم في عالم جديد بين أناس كانت صورهم وسماتهم أمراً مستهجناً غريباً في البداية غير أنها، مع الزمن، ولدت في نفسي إلفة جديدة وشعوراً بأنني في وطني، وبعدئذ في آفاق واسعة رحبة أكثر غرابة إلى حد بعيد، في مدن قديمة قدم العقل الإنساني، في كثبان وتلال دونما أفق، في جبال ذكرتني وحشتها بالقلب البشري، وفي وحشة الصحارى الحارة وفي النمو البطيء لحقائق جديدة ـ جديدة بالنسبة إليّ ـ وذلك اليوم في ثلوج جبال الهندوكوش عندما هتف صديق أفغاني، بعد حديث طويل، دهشاً: «أنت مسلم، ولكن دون أن تدرك أنت نفسك ذلك. . . !» وذلك اليوم الآخر، بعد أشهر، عندما تأتى لي أن أعرف ذلك بنفسي، وحجي إلى مكة، ووفاة زوجتي واليأس الذي حل بي بعدها، وهذه الأزمنة التي لا حدود لها بين العرب منذ ذلك الحين: سنوات من الصداقة العميقة مع رجل ملكي أنشأ لنفسه بسيفه دولة من لا شيء، ولم يبق بينه وبين العظمة الحقيقية سوى خطوة قصيرة واحدة، سنوات من الهيام في الصحارى والكثبان، حملات وسط حروب بدوية عربية، وجهاد سنوسي، إقامات طويلة في المدينة المنورة حيث سعيت إلى أن أوسع معرفتي بالإسلام في مسجد الرسول، حجات متكررة إلى مكة، زيجات من فتيات بدويات تبعها طلاق وطلاق، علاقات إنسانية حميمة وأيام موحشة من التوحّد، أحاديث سفسطائية مع مسلمين مثقفين من جميع أنحاء العالم، ورحلات في مناطق مجهولة: كل هذه السنوات من الانغماس في عالم قد أزيل بعيداً من تفكير الوجود الغربي وأهدافه.

أيّ صف طويل من السنين. . .

كل هذه السنين الغارقة قد طفت الآن على السطح، وكشفت عن وجوهها مرة أخرى ودعتني بأصوات عديدة. وفجأة، خفق قلبي وأدركت كم كان طريقي طويلاً لا نهاية له. قلت في ذات نفسي: «لقد مضى عليك وقت طويل وأنت تسير وتسير دائماً. إنك لم تحول حياتك بعد إلى شيء يمكن إمساكه باليد، ولم يوجد حتى الآن مطلقاً أي جواب عن السؤال، إلى أين؟ لقد كنت ولا تزال تغذ السير، تائهاً عبر أراضٍ عديدة، ضيفاً في مواطن كثيرة، ولكن الشوق والحنين لم يهدأ فيك، وبالرغم من أنك لم تعد غريباً، فإنك لما تستقر بعد».

لماذا، حتى بعد أن وجدت مكاني بين الناس الذين يؤمنون بالأمور نفسها التي أصبحت أؤمن بها، ولم أستقر بعد؟

منذ عامين، عندما اتخذت لي زوجة عربية في المدينة، أردتها أن تنجب لي

صبياً. وعن طريق هذا الصبي، طلال، الذي رزقنا به منذ بضعة أشهر، بدأت أشعر بأن العرب هم أنسبائي مثلما هم إخواني في الإيمان. إنني أريد أن يمد جذوره عميقاً في هذه الأرض، وأن يترعرع واعياً عظمة آبائه وأجداده من حيث الدم والثقافة. وقد يعتقد المرء، أن هذا يكفي لجعل الإنسان يرغب في الاستقرار نهائياً، وفي أن يبني لنفسه ولعائلته بيتاً دائماً. ولكن، لِمَ لم ينته تجوالي بعد، ولمَ عليّ أن أستمر في طريقي هذا؟ لماذا لا ترضيني حياتي التي اخترتها لنفسي إرضاء تاماً؟ ما هو الذي ينقصني في هذه البيئة؟ لا شك أنه لا تنقصني الدوافع الثقافية الأوروبية. لقد خلفتها ورائي، ولم أشعر مرة بأنها تنقصني. والحق أنني قد أصبحت بعيداً جداً عنها بحيث إني أجد من العسير عليّ بصورة متزايدة أن أكتب إلى الصحف الأوروبية التي أكسب منها معاشي؛ وكلما بعثت بمقالة ما، يبدو لي كأنما أرمي حجراً في بئر غير ذات قعر، فالحجر يختفي في الفراغ المظلم، ولا يرجع إليّ منه حتى الصدى لأعلم أنه قد وصل إلى غايته . . .

وبينما كنت أمعن الفكر حائراً مضطرباً، مغموراً إلى نصفي بالمياه في بئر في واحة عربية، خيل إلي، فجأة، أنني أسمع صوت ذلك الرحالة الكردي وهو يقول: «إذا تأتى للماء أن يركد في حوض، فإنه يصبح آسناً موحلاً، ولكنه إذا تأتى له أن يتحرك ويسيل، فإنه يصبح صافياً. وهكذا الإنسان، أيضاً، في تجواله». عندها، وكأنما بطريقة سحرية، زايلني القلق والاضطراب، وبدأت أنظر إلى نفسي بعينين بعيدتين، كما تنظر في صفحات كتاب لقراءة قصة منها، وشرعت أفهم أن حياتي لم تكن تستطيع أن تتخذ لها مجرى آخر. ذلك أنني إذا ما سألت نفسي: «ما هو حاصل حياتي؟» فإن شيئاً في ذات نفسي كان يخيل إليّ أنه يجيب قائلاً: «لقد خرجت لاستبدال عالم بآخر ـ لتفوز لنفسك بعالم جديد، عوضاً عن عالم قديم لم تملكه في الحق قط». وعرفت بوضوح عجيب، أن مثل هذه المهمة يمكن، في الحق، أن تستغرق عمراً بأكمله.

* * *

وتسلقت جدران البئر حتى خرجت منها، وارتديت الثوب النظيف الطويل الذي كنت قد أحضرته معي، وعدت إلى النار وإلى زيد وإلى الهجينين. وشربت القهوة المرة التي قدمها زيد إليّ، ثم تمددت، وقد عاد إليّ نشاطي ودفئي قرب النار على الأرض.

— ٢ —

كانت يداي متشابكتين تحت رأسي، وكنت أحدق النظر في تلك السماء العربية، بظلامها ونجومها. وسقطت نجمة بسرعة هائلة، ثم تبعتها ثانية فثالثة، أقواس من نور تخترق ظلمة الليل. هل هي من كواكب متناثرة فحسب؟ شظايا كارثة شمسية ما، تطير الآن، دونما هدف، عبر الفضاء المحيط بالكون؟ آه. . . لا. إنك إذا سألت زيداً عنها، إذن لأخبرك أنها النيازك التي بها تطرد الملائكة الشياطين الذين يصعدون نحو السماء خلسة في بعض الليالي ليسترقوا السمع ويستطلعوا أسرار الله. . . هل كان إبليس نفسه، ملك الشياطين جميعاً، وهو الذي تلقى ذلك السيل الهائل من اللهب، هناك في الشرق. . .

لقد ألفت الأساطير التي تروى عن هذه السماء ونجومها كما لم آلف البيت الذي فيه قضيت طفولتي. . .

وكيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ منذ أن أتيت إلى الجزيرة العربية لا أزال أعيش كما يعيش كل عربي. لقد ارتديت الثياب العربية، ولم أتكلم سوى اللغة العربية، ولم أحلم إلا بالعربية. والعادات والتخيلات العربية، بصورة لا شعورية تقريباً، كيفت أفكاري وصاغتها، ولم تحيرني تلك التحفظات العقلية التي تجعل، في العادة، من المستحيل على الأجنبي، مهما كان عارفاً بلغة البلاد وعاداتها، أن يجد الطريق الصحيح إلى مشاعر أهلها، وأن يجعل من عالمهم عالمه الخاص.

وفجأة كان عليّ أن أضحك بصوت عال ضحكة السرور والحرية. وكان صوت ضحكي عالياً بحيث إن زيداً نظرا إليّ في دهش، وإن هجيني أدار رأسه نحوي بحركة بطيئة مع شموخ قليل بالأنف: ذلك أنني قد عرفت الآن كم كان طريقي، بالرغم من إغراقه في الطول، بسيطاً مستقيماً ـ طريقي من عالم لم أملكه قط، إلى آخر كان، في الحق، عالمي الخاص.

ومجيئي إلى هذه الأرض: ألم يكن، في الحقيقة، عودة إلى وطن ـ عودة القلب الذي تطلع إلى وطنه القديم آلافاً من السنين إلى الوراء، والذي يميز الآن هذه السماء، سمائي أنا، بابتهاج مؤلم؟ ذلك لأن هذه السماء العربية التي هي أكثر سواداً، وارتفاعاً، وأكثر بعثاً للبهجة من أية سماء أخرى ـ قد انعقدت فوق تلك الهجرة الطويلة التي قام بها أجدادي، أولئك الرعاة المتجولون عندما خرجوا، منذ آلاف من السنين في فجر حياتهم، وقد استبد بهم النهم إلى الأرض والمغانم، نحو

«كلدة» تلك البلاد الخصبة، ونحو مستقبل مجهول: تلك القبيلة البدوية الصغيرة من العبرانيين، أجداد ذلك الرجل الذي كان مقدراً أن يولد في «أور» الكلدانيين.

ذلك الرجل، إبراهيم، لم تكن قبيلته إلا واحدة من قبائل عربية كثيرة خرجت من حين إلى آخر من الصحارى المقفرة في شبه الجزيرة ـ عالم الأحلام التي قيل إن اللبن والعسل كانا يجريان فيها ـ تلك الأراضي المستوطنة في الهلال الخصيب، سوريا وما بين النهرين. كان أفراد هذه القبائل ينجحون أحياناً في التغلب على المستوطنين الذين كانوا يجدونهم هناك ويقيمون أنفسهم حكاماً عليهم، ممتزجين تدريجياً بالشعوب المغلوبة على أمرها. وأدى ذلك إلى نشوء أمم جديدة من الحكام والمحكومين، كالأشوريين والبابليين، الذين شيدوا مملكتهم على أنقاض مدينة السومريين، أو الكلدانيين، الذين حكموا بابل، أو العموريين الذين عرفوا فيما بعد بالكنعانيين في فلسطين، كالفينيقيين على شواطىء سوريا. وفي أحيان أخرى كان البدو الغزاة أضعف من أن يقهروا من سبقهم فامتصهم هؤلاء أو أرجعوهم ثانية إلى الصحراء، وأجبروهم على أن يفتشوا عن مراع أخرى، ولربما عن أرض أخرى يغزونها. أما بطن إبراهيم ـ الذي كان اسمه الأصلي، حسب سفر التكوين، أب ـ رام، التي تعني بالعربية القديمة «ذا المشيئة العليا» ـ فقد كان من تلك القبائل الضعيفة. والقصة التي ترويها التوراة عن إقامتهم في أور على حافة الصحراء تعود إلى العهد الذي وجدوا فيه أنهم لا يستطيعون أن يفوزوا لأنفسهم بيوت جديدة في أرض الرافدين، وكانوا على وشك الانتقال إلى الشمال الغربي على طول نهر الفرات نحو حران، ومن ثم إلى سوريا.

«ذو المشيئة العليا»، سلفي القديم الذي ساقه الله نحو المدى المجهول وبالتالي نحو اكتشاف الحقيقة نفسه، كان يمكن أن يفهم جيداً لماذا أنا كائن هنا ـ ذلك أنه هو نفسه كان عليه أن يهيم في أراض كثيرة قبل أن يتمكن من أن يحول حياته إلى شيء يمكن أن يمسك باليد، وكان عليه أن يحل ضيفاً في مواطن غريبة عديدة قبل أن يسمح له بالاستقرار. إن خبرتي التافهة لا تشكل لغزاً بالنسبة إلى خبرته الفذة، ذلك أنه لا بدّ أن يكون قد عرف كما أعرف أنا الآن، أن معنى تطوافي كله إنما هو كائن في رغبة خبيثة في نفسي بلقاء عالم نظرته إلى مسائل الحياة الصميمة، إلى الحقيقة نفسها، تختلف عن كل ما ألفته في طفولتي وشبابي.

ـ ٣ ـ

ما أطول الطريق، من طفولتي وشبابي في أوروبا الوسطى، إلى حاضري في جزيرة العرب! ولكن ما أجمل الطريق أيضاً وأعذبها عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء. . . !

كانت هناك سنوات الطفولة المبكرة في المدينة البولونية «لوو» Lwow والمعروفة أيضاً بـ «لمبرج» Lemberg ـ التي كانت عندئذ جزءاً من النمسا ـ في بيت كان هادئاً بهياً كالشارع الذي كان قائماً فيه تماماً: ذلك الشارع الطويل ذي الكياسة والظروف المغبرين نوعاً ما، والذي كان محوطاً بأشجار الكستناء على جانبيه، ومرصوفاً بالقرم الخشبية التي كانت تكتم وقع حوافر الجياد وتحول كل ساعة من ساعات النهار إلى أصيل كسول. لقد أحببت ذلك الشارع الجميل بأكثر مما كان ينتظر ممن كان في مثل سني، وليس لمجرد أنه كان الشارع الذي يقع فيه بيتنا: بل أحببته بسبب من تلك النفحة من السيطرة النبيلة على النفس التي كان ينساب بها من وسط أبهج مدينة بين المدن نحو هدوء الغابات في أطرافها والمقبرة العظيمة المختبئة في تلك الغابات. كانت العربات الجميلة تقطع الشارع مسرعة أحياناً على عجلات صامتة تصاحب وقع حوافر الجياد المتناغم، أو، إذا حدث أن كان الوقت شتاء وكان الشارع مغطى بطبقة من الثلج، كانت مراكب الجليد تنزلق عليه، وكان البخار يتصاعد كالغيوم من مناخير الجياد، وكانت أجراسها تجلجل في الهواء البارد الشديد الصقيع، ولو قدر لك أنت أن تجلس في المركبة، وأن تشعر بالصقيع يندفع ويلفح وجنتيك، إذن لعرف قلبك الصغير أن الجياد الرامحة إنما كانت تحملك إلى دنيا من السعادة لا أول لها ولا آخر.

وكانت هناك أشهر الصيف في الريف، حيث كان لجدي لأمي، وكان صيرفياً ثرياً، أملاك واسعة يلهو بها أفراد عائلته الكبيرة. كان هناك الجدول الصغير الكسلان وعلى ضفافه أشجار الصفصاف، والمخازن ملأى بالأبقار الوديعة المستكنة، المشحونة برائحة الحيوانات والبرسيم وضحكات الفتيات الفلاحات المشغولات في المساء بحلب الأبقار. وكان لا بدّ لك من أن تشرب اللبن الدافىء يعلوه الزبد، رأساً من الدلاء، لا لأنك ظمآن، بل لأن من المثير أن تشرب شيئاً لا يزال قريباً من مصدره الحيواني. . . تلك الأيام القائظة من شهر آب التي قضيتها في الحقول مع الفلاحين الذين كانوا يحصدون القمح، ومع النساء اللواتي كنّ جميعاً يجمعنه ويحزمنه في حزم: نساء شابات، يطيب النظر إليهن ـ ثقيلات الأجسام، عامرات الصدور، ذوات

أذرع قاسية دافئة تشعر بقوّتها عندما يدحرجنك، مداعبات، بين أكوام القمح، ولكنك، طبعاً، كنت عندئذ أصغر من أن تتوصل إلى استنتاجات أخرى من تلك المداعبات.

وكانت هنالك تلك الرحلات التي قمت بها مع والدي إلى فيينا وبرلين وجبال الألب وغابات بوهيميا وبحر الشمال وبحر البلطيق: أمكنة نائية جداً بحيث بدت لي عوالم جديدة. في كل مرة يخرج فيها أحدنا للقيام بمثل هذه الرحلات يتوقف قلبه عن الخفقان عند سماع الصفرة الأولى من القاطرة، وأول اهتزازة من الدواليب، ترقباً لعجائب ستكشف له عن نفسها. . . وكان هناك أترابي، صبية وفتيات، أخ وأخت وأبناء عمومة كثيرون، وأيام الآحاد العظيمة، تجلب الحرية بعد ذلك الركود طيلة أيام الأسبوع في المدرسة: رحلات على الأقدام في الضواحي والاجتماعات الأولى خلسة بفتيات جميلات في مثل سننا، والخجل من تلك الخبرات الغريبة التي كنا لا نفيق منها إلا بعد ساعات وساعات. . .

لقد كانت طفولة سعيدة مرضية حتى في ذكراها. لقد كان والدي يعيشان في ظروف مريحة، وكانا يعيشان لأولادهم أكثر من أي شيء آخر. ولعله كان لوداعة أمي وهدوئها علاقة أو تأثير، بالسهولة التي تمكنت بها، في السنين التالية، من أن أكيف نفسي للأحوال والظروف الجديدة، والمشؤومة إلى أبعد الحدود، أحياناً. أما تبرم أبي الداخلي، فلعله منعكس في ما أنا عليه اليوم.

* * *

ولو كان عليّ أن أصف أبي، إذن لتعين عليّ أن أقول إن ذلك الرجل الظريف البهي، الدقيق البنية، ذا البشرة السمراء والعينين السوداوين العاطفيتين لم يكن منسجماً تماماً مع البيئة التي كان يعيش فيها. لقد كان يحلم في أيام شبابه الأول بأن يقف على الرياضيات، وبخاصة الفيزياء، ولكنه لم يتمكن مطلقاً من أن يحقق هذا الحلم، وكان عليه أن يقنع بأن يكون محامياً. وبالرغم من أنه قد نجح في هذه المهنة نجاحاً عظيماً، فإنه لم يستطع قط أن يجد فيها ما يحببها إلى نفسه. وقد يكون السبب في ذلك الشعور بالوحدة الذي كان يستبد به، إدراكه الدائم أن حرفته الحقيقية قد أفلتت من يديه.

وقد كان أبوه حاخاماً صالحاً في عاصمة مقاطعة بوكوفينا التي كانت نمسوية وقتئذ. لا أزال أذكره شيخاً ظريفاً ذا يدين دقيقتين ووجه حساس سريع التأثر، ولحيته

طويلة بيضاء. وإلى جانب اهتمامه العظيم بالعلوم الرياضية وعلم الفلك، فقد كان من أمهر لاعبي الشطرنج في المقاطعة. ولعل هذا كان أساس صداقته الطويلة مع مطران الروم الأرثوذكس، الذي كان هو نفسه لاعباً مشهوراً. لقد كان الاثنان يقضيان معاً ليالي عديدة جالسين إلى رقعة الشطرنج، ويطيلان جلوسهما ببحث موضوعات ما وراء الطبيعة في كل من دينهما. ولعل المرء يفترض أن جدي، الذي كانت له تلك العقلية الرياضية، لا بدّ أن يكون قد رحب بميل ولده ـ أبي ـ إلى العلوم نفسها. ولكن الظاهر أنه كان قد قرر منذ البداية أن يحفظ التراث الرباني للعائلة التي احتفظت به عدة أجيال، ورفض حتى أن يبحث أي عمل آخر لوالدي. وقد يكون من الأمور التي ساعدت على تمسكه برأيه ذاك، ذكرى مؤلمة ـ ذكرى أحد أعمامه القدماء، الذي «خان» تقاليد العائلة بأغرب الطرق، حتى أنه صبأ عن دين آبائه وأجداده.

ذلك العم الأسطوري القديم، الذي لم يذكر اسمه بصوت عالٍ في بيتنا قط، كان يبدو أنه ترعرع وسط العائلة المحافظة نفسها. وعندما كان لا يزال حدثاً، كان قد أصبح ربانياً كاملاً، وزوجوه من امرأة لم يشعر نحوها، كما يبدو، بأي قدر من الحب. وبما أن مهنة الحاخام لم تكن تدر دخلاً كافياً في تلك الأيام فقد عمل على زيادة دخله بالمتاجرة بالفراء، وكان ذلك يقتضيه أن يقوم كل عام برحلة إلى سوق الفراء المركزية في أوروبا، إلى ليبزيغ. وفي يوم من الأيام، عندما كان قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر، خرج في مركبة يجرها جواد ـ وكان ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ للقيام بإحدى تلك الرحلات الطويلة. وفي ليبزيغ باع فراءه كالمعتاد، ولكنه بدلاً من أن يعود إلى بلدته كما جرت عادته، باع عربته وجواده أيضاً، وحلق لحيته وذهب إلى إنكلترا، ناسياً زوجته التي لم يكن يحبها. وهناك استمرّ زمناً يعمل خادماً للأعمال البسيطة كي يؤمن دخلاً يقيم أوده، ويدرس في الليل الرياضيات وعلم الفلك. والظاهر أن أحد مخدوميه قد أدرك مواهبه العقلية، فمكنه من أن يتابع دراساته في اكسفورد، حيث تخرج بعد بضع سنين عالماً ينتظره مستقبل لامع، واعتنق المسيحية. وبعد قليل من إرسال كتاب الطلاق إلى زوجته اليهودية، تزوج فتاة من بين «الكفرة». ولم تعرف عائلتنا بعد ذلك شيئاً كثيراً من حياته إلا أنه قد توصل إلى منزلة مرموقة كفلكي وأستاذ في الجامعة، وأنه أنهى حياته يحمل لقب «سير».

والظاهر أن هذه العبرة المخيفة قد أقنعت جدي بضرورة اصطناع موقف متصلب جداً نحو ميل أبي إلى درس علوم «الكفرة». لقد كان عليه أن يكون حاخاماً، لا لشيء إلا لأن عليه أن يكون كذلك. غير أن أبي لم يكن مستعداً للاستسلام

والرضوخ بمثل هذه السهولة، ففي حين كان يدرس التلمود في أثناء النهار، كان يقضي جزءاً من الليل يدرس سراً، ومن غير ما أستاذ، منهاج إحدى المدارس الثانوية، ولكنه مع الزمن اعترف لوالدته بتلك الدراسة. ومع أن دراسات ابنها السرية قد تكون أثقلت ضميرها، فقد جعلتها طبيعتها السمحة تدرك أن من الظلم أن تحرمه الفرصة لاتباع ما كان قلبه يصبو إليه. وفي الثانية والعشرين من عمره، بعد أن أكمل منهاج تلك المدرسة لسنوات ثمان في سنوات أربع، تقدم إلى امتحان البكالوريا ونجح فيه بامتياز. وعندما أصبحت شهادته في يده تجرأ، هو وأمه على أن يفضي إلى جدي بالخبر الهائل. وأستطيع الآن أن أتصور المشهد الصاخب عندئذ، ولكن جدي لان في نهاية المطاف، ووافق على أن يكف أبي عن دراساته الربانية وأن يلتحق بالجامعة عوضاً عن ذلك. غير أن ظروف العائلة المادية لم تمكنه من أن يتابع دراسته للمادة المحببة إليه: الفيزياء. وكان عليه أن يتجه نحو مهنة تعود بربح أكبر ـ مهنة المحاماة ـ وأصبح مع الزمن محامياً. وبعد سنوات استقرّ في مدينة «لوو» في غاليسيا الشرقية، وتزوج من أمي، وكانت إحدى أربع كريمات لصيرفي ثري في تلك المدينة. هناك في صيف عام ١٩٠٠، ولدت، فكنت ثاني ثلاثة لأبي وأمي.

وقد عبرت رغبة والدي المخيبة عن نفسها بانهماكه في قراءة الموضوعات العلمية على نطاق واسع، ولربما في محاباته الغربية، والمحافظة إلى أبعد الحدود، لولده الثاني ـ أنا ـ الذي بدا كذلك أكثر اهتماماً بالأمور التي لا علاقة لها بكسب الملل مباشرة، أو بـ «المهنة». على أن آماله التي عقدها على أن يجعل مني رياضياً قدّر لها أن تظل بعيدة عن التحقيق، فبالرغم من أني لم أكن بليد الذهن، فقد كنت تلميذاً يمتاز باللامبالاة. وكانت العلوم الرياضية والطبيعية بصورة خاصة تجلب إلى نفسي المال والسأم. وكنت أجد لذة لا حدّ لها في قراءة القصص التاريخية المثيرة ثم في قراءة الشعر والفلسفة، وكانت أعاجيب الجاذبية والكهرباء، كقواعد اللاتينية واليونانية سواء بسواء، لا تحرّك فيّ أيما حس، وكانت نتيجة ذلك كله أني لم أكن أجتاز الصف إلا بشق النفس. ولا شك في أن ذلك قد شكل خيبة أمل حادة لوالدي، ولكنه لربما وجد بعض العزاء في أن أساتذتي كانوا راضين تماماً عن ميلي إلى الآداب البولندية والألمانية معاً، وإلى التاريخ كذلك.

* * *

وبمقتضى تقاليدنا العائلية، كنت قد درست، على أيدي أساتذة خصوصيين، العلوم الدينية العبرانية بتعمق كبير. ولم يكن مرد ذلك إلى أي ورع بارز امتاز به

أبواي، ذلك أنهما كانا ينتميان إلى جيل يخضع باللسان فقط إلى هذا أو ذاك من المعتقدات الدينية التي سبكت حياة أسلافه، وفي الوقت نفسه لم يسعَ قط إلى أن يعمل في حياته العملية، أو حتى في تفكيره الأخلاقي، بمقتضى تلك التعاليم. في مثل ذلك المجتمع، كان مفهوم الدين نفسه قد حطَّ من مقامه وأصبح لا يعني سوى واحد من أمرين: الطقوس المتحجرة التي كان يتبعها أولئك الذين كانوا متمسكين عن طريق العادة، والعادة فقط، بتراثهم، أو اللامبالاة الساخرة من قبل أولئك الذين كانوا «أحراراً» إلى درجة أكبر، والذين كانوا يعتبرون الدين خرافة عتيقة يمكن للمرء، في بعض المناسبات، أن يمتثل لها خارجياً ولكنه يخجل منها في سره كما يخجل من شيء لا يمكن أن يدافع عنه عقلياً. وكانت جميع الظواهر تدل على أن والديّ إنما كانا ينتميان إلى الفئة الأولى، ولكنني، أحياناً أكاد أعتقد أن أبي، على الأقل، كان يميل إلى الفئة الثانية. على أنه، مراعاة لأبيه وحميه ـ والد زوجته ـ قد ألحّ عليّ أن أقضي الساعات الطوال في درس الكتب المقدسة. وهكذا لم أبلغ الثالثة عشرة من عمري حتى أصبح في مكنتي أن لا أقرأ العبرانية بسهولة فحسب، بل أن أتكلمها بطلاقة أيضاً. وأصبحت لي، بالإضافة إلى ذلك، معرفة لا بأس بها بالآرامية ـ وهذا ما يمكن أن يفسر السهولة التي تعلمت بها اللغة العربية في ما تلا من السنين ـ. لقد درست العهد القديم في الأصل، وأصبح نص التلمود وشروحه مألوفين لديّ. كذلك أصبحت قادراً على أن أناقش بقدر كبير من الثقة بالنفس الفروق بين تلمود بابل وتلمود القدس، وانهمكت في شروح الكتاب المقدس المسماة «تارغوم» تماماً كما لو كان مقدراً عليّ أن أصبح حاخاماً.

وبالرغم من كل هذه المعرفة الدينية، أو لعله بسببها، سريعاً ما نما فيَّ شعور بالاستعلاء والشموخ نحو كثير من مقدمات المعتقد اليهودي. مؤكد أنني كنت أوافق على مبدأ الصلاح الخلقي المؤكد عليه بقوة في كل مكان في الكتب الدينية اليهودية، وعلى وعي أنبياء اليهود لله وعياً رفيعاً. ولكن كان يبدو لي أن الله الذي يمثله العهد القديم والتلمود، كان مهتماً بأكثر مما ينبغي بالطقوس التي كان مفروضاً في عباده أن يعبدوه بواسطتها. كذلك خطر لي أن هذا الإلّه كان مشغل البال، بصورة غريبة، بمصائر أمة واحدة معينة، أعني العبرانيين. إن تكوين العهد القديم نفسه كتاريخ لأحفاد إبراهيم كان يميل إلى أن يجعل الله يبدو لا كخالق الناس أجمعين وربهم، ولكن كإله قبلي يكيف الخلق كله حسب حاجات شعب مختار: يكافئهم بالفتوح إذا كانوا صالحين، ويعذبهم على أيدي الكفرة كلما انحرفوا عن الطريق المفروض عليهم سلوكه. فعلى ضوء هذه النقائص الأساسية حتى ذلك الحماس الروحي

للأنبياء المتأخرين من مثل أشعيا وأرميا بدا مجرداً من رسالة عالمية.

ولكن بالرغم من أن تأثير تلك الدراسات المبكرة التي قمت بها كان عكس ما قصد بها، إذ إنها أبعدتني عن دين آبائي وأجدادي بدلاً من أن تقربني منه، فإنني كثيراً ما أعتقد أنها في السنوات التي تلت، ساعدتني على أن أفهم الغرض الأساسي للدين، بما هو دين مهما كان شكله. إلا أن خيبة الأمل التي أصابتني في ذلك الحين باليهودية لم تؤد بي إلى أن أبحث عن الحقائق الروحية في جهات أخرى. ذلك أنني، بتأثير من بيئتي التي كانت تعتقد بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الإلهي انسقت مع التيار، شأن عدد كبير من أترابي الصبية، إلى أن أنبذ عملياً كل دين نظامي دستوري. ولما كان ديني لم يعن مطلقاً بالنسبة إليّ أكثر من سلسلة من الأنظمة والأصول التقييدية، فإني لم أشعر بأيما ضير من جراء انجرافي بعيداً عنه وكانت المسائل الدينية والفلسفية لم تكن بعد قد أثارت اهتمامي، ذلك أن ما كنت أتطلع إليه لم يكن يختلف كثيراً عما كان يتطلع إليه معظم الصبية الآخرين: العمل والمغامرة وكل ما يثير النفس.

وفي أواخر عام ١٩١٤، بعد أن اشتعلت نيران الحرب العظمى، وبدا لي أن الفرصة الكبرى لتحقيق أحلامي الصبيانية على قاب قوسين أو أدنى. كنت إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمري، فهربت من المدرسة والتحقت بالجيش النمسوي بعد أن اتخذت لي اسماً مزوراً. لقد كنت أطول مما تدل عليه سني، مما خدع رجال الجيش بسهولة وجعلهم يعتقدون أنني في الثامنة عشرة، وهو العمر الأدنى للجنود وقتئذ... ولكن الظاهر أنني لم أكن أحمل عصا المارشالية في جعبتي، ذلك أنه بعد أسبوع أو نحو ذلك نجح والدي المسكين في أن يتعقب آثاري بواسطة البوليس، فأعادوني مخفوراً حقيراً إلى فيينا، حيث كانت عائلتي قد استقرّت قبل ذلك بزمن قليل. ولكنني، بعد سنوات أربع تقريباً، جندت فعلاً وشرعاً في الجيش النمسوي، إلا أنني كنت عندئذ قد انقطعت عن أن أحلم بالمجد العسكري، وكنت أبحث عن سبل أخرى لتحقيق ذاتيتي. ومهما يكن، فبعد بضعة أسابيع من انخراطي في سلك الجندية، اندلعت الثورة، وانهارت الامبراطورية النمسوية، ووضعت الحرب أوزارها.

* * *

ولقد انصرفت طيلة عامين تقريباً بعد انتهاء الحرب، وبصورة متقطعة نوعاً ما،

إلى درس تاريخ الفنون والفلسفة في جامعة فيينا. ولكني لم أنصرف إلى تلك الدروس، قلبياً. ذلك أن المسلك العلمي الهادىء لم يكن ليجذبني. وكنت أحس بالحنين والشوق إلى أن آلف الحياة بواقعية أكثر، وأن أدخل معتركها غير مسلح بأي من تلك الحصون الاصطناعية التي يجب أن يبنيها أولئك الذين يؤثرون السلامة والعافية حول أنفسهم. كذلك كنت أريد أن أجد بنفسي ملتمساً للنظام الروحي للأشياء، هذا النظام الذي كنت أعرف أنه لا شك كائن ولكن لم أستطع أن أدركه حتى ذلك الحين.

ليس من السهل أن أفسر بعدد محدود من الكلمات ما كنت أعني بـ «النظام الروحي». لا شك في أنه لم يخطر لي أن أفهم هذه المسألة بالمعنى الاصطلاحي الديني أو بأي معنى من المعاني المحكمة إطلاقاً. إن حيرتي، كي أكون منصفاً لنفسي، لم تكن من صنع يدي، ذلك أنها كانت خبرة جيل بأسره.

لقد تميزت العقود الأولى من القرن العشرين بالفراغ الروحي. لقد أصبحت جميع القيم الأخلاقية والروحية التي ألفتها أوروبا عدة قرون غير ذات شكل مقرر محدود، وذلك بفعل الفظائع التي كانت قد حدثت ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨، ولم يكن يبدو أن مجموعة جديدة من القيم ستفرض نفسها. لقد كان في الجو شعور من الهشاشة والخطر، إحساس مسبق بالجيشان الاجتماعي والعقلي جعل المرء يشك في ما إذا كان من الممكن أن يكون هناك، مرة أخرى، أيما استقرار في أفكار الإنسان ومساعيه. كان كل شيء يبدو وكأنه يسيل في فيضان غير منتظم، ولم تستطع الحيرة الروحية لدى الشباب أن تجد لنفسها موطىء قدم. وبسبب فقدان المقاييس الأخلاقية الموثوق بها، لم يستطع أحد أن يقدم إلينا، نحن الشباب، أجوبة مرضية عن كثير من الأسئلة التي كانت تحيرنا. كان العلم يقول: «المعرفة هي كل شيء» ـ ونسي أن المعرفة دونما هدف أخلاقي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الفوضى والغموض. إن المصلحين الاجتماعيين، والثوريين، والشيوعيين ـ وجميعهم دون شك، كانوا يريدون بناء عالم أفضل وأسعد ـ لم يكونوا يفكرون إلا بمقتضى ظروف خارجية، اجتماعية واقتصادية. . ومن ناحية أخرى، فإن رجال الدين التقليديين لم يعرفوا شيئاً أفضل من أن يعزو إلى إلههم صفات مقتبسة من عاداتهم الخاصة في التفكير، تلك العادات التي كانت قد أصبحت بادرة لا معنى لها منذ زمن طويل. وعندما رأينا نحن الشباب أن هذه الصفات الإلهية المزعومة كثيراً ما كانت تتناقض إلى أبعد الحدود مع ما كان يجري في العالم من حولنا، كنا نقول لأنفسنا: «إن القوى الدافعة للقضاء والقدر تختلف بصورة جلية واضحة عن الصفات المعزوّة إلى الله، وإذن، فإن الله غير

موجود». ولم يخطر إلا لعدد قليل جداً منا أن السبب في كل هذه الفوضى والاختلاط قد يكون مرده إلى استبداد حماة الدين الذين يزعمون أنهم هم الصالحون والذين كانوا يزعمون أن من حقهم أن «يصفوا» الله، والذين بإلباسهم إياه ثيابهم الخاصة، قد فصلوه عن الإنسان ومصيره.

هذا التحول الأخلاقي في الفرد كان يمكن أن يؤدي إما إلى الفوضى الأخلاقية الكاملة والشك، أو إلى إيجاد ملتمس شخصي خلاق لما يمكن أن يشكل الحياة الطيبة.

وهذا الإدراك الغرزي كان يمكن أن يكون، بطريقة غير مباشرة، السبب في اختياري تاريخ الفنون الجميلة مادة رئيسية لدراستي في الجامعة. لقد كانت وظيفة الفن الحقيقية، في اعتقادي؛ أن يجعلنا نرى المثال الملازم الموحد الذي يجب أن يقع تحت صورة الأحداث المقطعة التي يكشفها لنا إدراكنا والتي، كما كان يبدو لي، لا يمكن أن تصاغ إلا بطريقة غير وافية عن طريق التفكير المجرد. غير أن الدروس التي اتبعت لم ترضني. وكان يبدو لي أن بعض أساتذتي البارزين كانوا أكثر اهتماماً باكتشاف القوانين الجمالية التي تتحكم بالخلق الفني بدلاً من الكشف عن دوافعها الصميمة الروحية: بكلمة أخرى، إن نظرتهم إلى الفن الجميل، في اعتقادي، كانت محصورة بأضيق مما ينبغي في مسألة «الأشكال» التي كان يعبر بها عن نفسه.

وكذلك لم ترضني نتائج التحليل النفسي التي عرفت بها في تلك الأيام من حيرة الشباب، ولو أن ذلك كان لأسباب مختلفة. ولا ريب في أن التحليل النفسي كان في ذلك الوقت ثورة عقلية على قدر لا مثيل له من الجسامة والخطورة، وأن المرء كان يشعر في قرارة نفسه بأن انفتاح أبواب المعرفة، التي كانت مغلقة حتى ذلك الحين؛ على مصاريعها لا بدّ أن يؤثر تأثيراً عميقاً ـ ولربما أن يبدل تبديلاً كاملاً ـ تفكير الإنسان في نفسه ومجتمعه. فقد شق اكتشاف الدور الذي تلعبه الدوافع اللاواعية الخفية في تكوين الشخصية الإنسانية بطريقة لا تدع مجالاً للشك، سبلاً إلى تفهم داخلي أعمق مما كانت تتيحه النظريات النفسية السابقة. لقد كنت على استعداد لأن أتقبل كل هذا. والحق أن تأثير أفكار فرويد كان مسكراً لعقلي الفتي كالخمرة القوية سواء بسواء. فكم من ليال قضيتها في مقاهي فيينا منصتاً إلى المناقشات المثيرة بين رواد التحليل النفسي الأولين أمثال الفرد ادلر وهرمن ستاكل وأوتو جروس. ولكن في حين أنني لم أشك قطعاً في صحة مبادىء ذلك العلم الجديد التحليلية فقد أقلقني تكبره العقلي الذي كان يحاول أن يصغر كل أعاجيب النفس الإنسانية إلى سلسلة من الأرجاع العصبية التناسلية. وكانت «النتائج» الفلسفية التي توصل إليها مؤسسه ومن

وقفوا أنفسهم عليه، تبدو لي نوعاً ما خفيفة ومبسطة بأكثر مما ينبغي. بحيث إنها لا تستطيع أن تقع في أيما مكان في جوار الحقائق النهائية. ولا ريب في أنها لم تكن تدل على أيما طريق جديدة إلى الحياة الخيرة.

ولكن بالرغم من أن مثل هذه المسائل كثيراً ما كانت تشغل تفكيري، فإنها في الحق لم تزعجني. إنني لم أغرق، مطلقاً، في التأمل الفلسفي في ما وراء الطبيعة أو في البحث الواعي عن «الحقائق» المجردة، ذلك بأن ميولي ودوافعي كانت باتجاه الأشياء التي تُرى وتحس: كالناس والنشاطات والعلاقات: وفي ذلك الوقت بالذات كنت في طريقي إلى اكتشاف العلاقات مع النساء.

وفي إبان العملية العامة لانحلال المقاييس الأخلاقية الثابتة بعد الحرب العظمى زال كثير من الحواجز بين الجنسين. إن ما حدث لم يكن، في اعتقادي، ثورة على المحافظة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، بقدر ما كانت ارتداداً سلبياً من واقع كانت بعض المقاييس الأخلاقية المعينة تعتبر فيه أبدية غير قابلة للشك، إلى حالة اجتماعية كان كل شيء فيها مدعاة للشك: انتقال رقاص الساعة من اعتقاد الأمس المريح باستمرار تقدم الإنسان ورقيه، إلى الصحو المرير الذي دعا إليه شبنجلر، إلى النسبية الأخلاقية لنيتشه، فإلى العدمية الروحية التي غذاها واحتضنها التحليليون النفسيون. وإني إذ أعود بالذاكرة إلى تلك السنوات الأولى التي عقبت الحرب، أشعر بأن الشباب والشابات الذين تكلموا وكتبوا بمثل ذلك الاندفاع الكبير عن «حرية الجسد» كانوا في الحق بعيدين جداً عن الطهر اليوناني القديم الذي كثيراً ما ادعوه، وكانت علاقاتهم الجنسية عموماً علاقات عابرة، وكان يشوبها نوع من اللامبالاة الواقعية كان يؤدي في معظم الأحيان إلى العبث.

وحتى لو شعرت بنفسي مقيداً ببقايا الفضيلة التقليدية، فقد كان من الصعب عليّ جداً أن أتفادى الانجراف في التيار الذي كان قد بدأ يجرف الكثيرين. لقد كنت أفخر، كآخرين كثيرين من أترابي، بما كان يعتبر «ثورة على التقاليد الجوفاء». كانت المغازلات تنقلب إلى قضايا غرام، وبعض هذه القضايا إلى انفعالات وتأثرات نفسانية مؤلمة. بيد أنني لا أعتقد أنني كنت خليعاً أو فاسقاً، ذلك أني في جميع مغامراتي الغرامية أيام شبابي، مهما كانت عابرة قصيرة الأجل، كان هناك دائماً شيء من الأمل الغامض ولكن الملحّ في أن العزلة المخيفة التي طالما فرقت الإنسان عن الإنسان يمكن أن تقطع عن طريق الامتزاج بين رجل واحد وامرأة واحدة.

* * *

وقد نما قلقي وجعل من العسير عليّ جداً أن أتابع دروسي الجامعية. وأخيراً قررت أن أتركها نهائياً، وأن أجرب قلمي في الصحافة. ولكن أبي اعترض بشدة على ذلك، ودعم اعتراضه بتبريرات وجيهة لم أشأ أن أسلم بها وقتئذ. منها أنني قبل أن أقرر اتخاد الصحافة مهنة لي يجب على الأقل أن أثبت لنفسي أنني أستطيع الكتابة. ثم انتهى، في ختام إحدى مناقشاتنا الحامية، إلى القول: «وعلى كل، فإن شهادة الدكتوراه لم تمنع أحداً على الإطلاق حتى الآن من أن يصبح كاتباً ناجحاً». لقد كانت حجته سليمة، ولكني كنت صغير السن جداً، مليئاً بالآمال لا يقرّ لي قرار. وعندما أدركت أنه لن يبدل فكره بدا لي أنه لم يبق إلا أن أبدأ حياتي بوسائلي الخاصة. وهكذا، دون أن أخبر أحداً بما عزمت عليه، ودعت فيينا في يوم من صيف عام ١٩٢٠ وأخذت القطار إلى براغ.

وكان كل ما أملكه، إلى جانب أمتعتي الخاصة، خاتماً ماسياً، كانت أمي التي توفيت قبل ذلك بسنة واحدة، قد تركته لي. وقد بعث ذلك الخاتم بواسطة أحد الخدم في المقهى الأدبي الرئيسي في براغ. وأغلب الظن أنني كنت خاسراً في تلك الصفقة، ولكن المال الذي قبضت بدا لي بمثابة ثروة عظيمة. وعندئذ سافرت إلى برلين، حيث قدمني حالاً بعض أصدقائي من فيينا إلى تلك الحلقة السحرية من الأدباء والفنانين في مقهى قديم مشهور يعرف بـ Café des Westens.

وقد عرفت أنه كان يتعين عليّ، منذ ذلك الحين، أن أشق طريقي دونما معونة من أحد، وأنه كان عليّ أن لا أتوقع أو أقبل أيما مساعدة مالية من عائلتي. وبعد بضعة أسابيع، عندما خمدت ثورة أبي، كتب إليّ يقول: «إنني أراك تنتهي يوماً كأفاق في حفرة على جانبي الطريق». فأجبته: «ليست الحفرة على أحد جانبي الطريق بمكاني... بل إن القمة هي التي ستكون منتهاي». إنني لم أكن أعرف كيف سأنتهي إلى القمة، ولكني كنت أريد أن أكتب، وكنت، طبعاً، مقتنعاً بأن عالم الأدب كان ينتظرني مفتوح الذراعين.

وبعد بضعة أشهر نفدت دراهمي وبدأت أسعى إلى إيجاد عمل. وكشاب له مطامح صحفية، سعيت إلى أن أختار إحدى إدارات الصحف اليومية الكبرى، ولكني وجدت أنها لم تكن لتختارني بالذات. وواضح أني لم أكتشف هذا دفعة واحدة، فقد اقتضاني ذلك أسابيع من السير المضني في شوارع برلين ـ ذلك بأنه حتى ركوب المترو أو الترام كان عندئذ قد أصبح مشكلة ـ ومقابلات مخجلة لا نهاية لها مع رؤساء التحرير ورؤساء فروع الأخبار والمحررين الثانويين حتى أدركت أن غراً مثلي لم يخط

في حياته سطراً في صحيفة لم يكن له أقل حظ، إلا بمعجزة، بولوج الفناء المقدس لأية صحيفة من الصحف. ولم تعترض سبيلي أية معجزة ولكني، بدلاً من ذلك، ألفت الجوع وقضيت أسابيع عدة لا أقتات إلا بالشاي ولا آكل سوى القرصين اللذين كانت صاحبة البيت تقدمهما إليّ في الصباح. ولم يستطع أصدقائي الأدباء في المقهى أن يفعلوا شيئاً كثيراً من أجل مدع لا خبرة له، فضلاً عن أن معظمهم كانوا يعيشون في ظروف لم تختلف كثيراً عن ظروفي الخاصة، يتقلبون من يوم إلى يوم على شفير العدم، ويكافحون بقوة في سبيل الاحتفاظ بذقونهم فوق الماء، وأحياناً في حميا بحبوحة ناتجة عن بيع مقالة أو صورة، كان أحدهم يقيم حفلة ما، ويدعوني إلى أن أقاسمه النعمة المفاجئة. وأحياناً أخرى، كان أحد محدثي النعمة يدعو فريقاً منا، نحن «رجال الفكر» الغربيين، إلى تناول العشاء في شقته، ويحدق إلينا بروعة ورهبة ونحن نملأ بطوننا الفارغة بالكافيار والشمبانيا، مبادلين كرم مضيفنا وأريحيته بالحديث البارع و«التفرس في الحياة البوهيمية». ولكن تلك المآرب لم تكن سوى استثناءات. ذلك أن القاعدة إنما قدمت على الجوع المطلق. وفي الليالي كنت لا أرى في أحلامي سوى شرائح اللحم والمقانق وقطع الخبز الغليظة المدهونة بالزبدة. ولقد أغريت مرات عديدة بالكتابة إلى أبي وأن ألتمس منه المساعدة. وقد كان خليقاً، غير شك، بأن لا يرفضها، ولكن في كل مرة كانت كبريائي تتدخل فأكتب إليه أنبئه بالوظيفة الممتازة التي كنت أشغل، وبالمرتب الحسن الذي كان يدفع اليّ...

وأخيراً أصبت فترة من الحظ. لقد قدمت إلى مورنو، الذي كان وقتئذ يرتقي سلم الشهرة كمدير أفلام (كان ذلك قبل أن تخلع عليه هوليود قدراً أكبر من الشهرة، وتؤدي به إلى ميتة غير منتظرة، ببضع سنوات). ومورنو، الذي كان يمتاز باندفاعية غريبة تحببه إلى أصدقائه جميعاً، أعجب حالاً بالشاب الذي كان يتطلع بشوق ورغبة شديدين نحو المستقبل. لقد سألني ما إذا كنت أرغب في العمل تحت إدارته في فيلم جديد كان على وشك أن يبدأ به. وبالرغم من أن العمل كان مفروضاً فيه أن يكون مؤقتاً فحسب، فقد رأيت أبواب السماء مشرعة في وجهي عندما أجبت متلعثماً: «نعم... أرغب في ذلك...».

وطيلة شهرين كاملين خاليين من المتاعب المادية، عملت مساعداً لمورنو، مستغرقاً بالكلية في خبرات جديدة تختلف عن كل ما رأيت في حياتي من قبل. وازدادت ثقتي بنفسي زيادة عظمى، ولا شك في أنها لم تنقص عندما لم تنفر بطلة الفيلم، وكانت ممثلة شهيرة وعلى جانب عظيم من الجمال، من مغازلة قام بها مساعد

المدير الشاب. وعندما انتهى الفيلم، وكان على مورنو أن يرتحل إلى الخارج لأداء عمل آخر، استأذنته مودعاً، ومقتنعاً بأن أنحس أيامي قد انقضت.

وبعد ذلك بوقت قصير، دعاني صديقي الحميم انطون كوه ـ وكان صحفياً من فيينا برز حديثاً في برلين كناقد مسرحي ـ إلى أن أتعاون معه على وضع سيناريو فيلم كان قد كلف بكتابته. وقد تقبلت الفكرة باندفاع وأسهمت، كما أعتقد، في المخطوطة بقدر كبير. ومهما يكن من أمر، فإن المنتج الذي كان قد كلف صديقي بوضع السيناريو دفع المبلغ المتفق عليه، واقتسمه انطون معي مناصفة. ولكي نحتفل «بدخولنا إلى عالم الأفلام»، أقمنا حفلة في واحد من أحدث مطاعم برلين. وإذ تسلمنا الفاتورة، وجدنا أن كل المبلغ تقريباً قد أنفق ثمناً للجراد البحري والكافيار والخمور الفرنسية. بيد أن حظنا استمر، وباشرنا حالاً بوضع سيناريو آخر، وكانت القصة تدور حول بلزاك، ووجدنا مشترياً لها في اليوم نفسه الذي أكملناها فيه، ولكني هذه المرة، رفضت أن «نحتفل» بنجاحنا، وذهبت عوضاً عن ذلك إلى بحيرات بافاريا، حيث استمتعت بإجازة امتدت عدة أسابيع.

وبعد سنة أخرى مليئة بالمغامرات في مدن أوروبا الوسطى، قمت خلالها بجميع أنواع الأعمال القصيرة الأجل، نجحت أخيراً في الولوج إلى عالم الصحافة.

* * *

كان ذلك في خريف عام ١٩٢١، وبعد فترة أخرى من الضيق المادي. ففي عصر يوم من أيام ذلك الخريف، بينما كنت جالساً في المقهى، متعباً كئيباً، جلس إلى جانبي أحد أصدقائي. وعندما سردت على مسامعه متاعبي وهمومي، اقترح قائلاً:

«قد يكون هناك فرصة مؤاتية لك. إن دامرت قد شرع في تأسيس وكالة أخبار خاصة به، بالتعاون مع وكالة الصحافة المتحدة الأميركية «يونايتد برس». هذه الوكالة ستدعى «يونايتد تلغراف» وإني لواثق من أنه سيكون بحاجة إلى عدد من المحررين المساعدين. سأقدمك إليه، إذا أحببت».

وكان الدكتور دامرت شخصية معروفة في أوساط برلين السياسية في العقد الثالث من هذا القرن العشرين. وإذ كان عضواً بارزاً في حزب الوسط الكاثوليكي، ورجلاً ثرياً عصامياً فقد كانت شهرته ممتازة، ومن هنا استهوتني فكرة العمل تحت إدارته.

وفي اليوم الثاني أخذني صديقي إلى مكتب الدكتور دامرت، وقد بدا الرجل الكهل الأنيق طريفاً دمث الأخلاق عندما دعانا إلى الجلوس.

ـ «لقد حدثني السيد فنجال (كان ذلك اسم صديقي) عنك. هل عملت كصحفي قبل الآن؟»

فأجبته: «كلا، يا سيدي، ولكن أتيح لي العمل في مجالات عديدة أخرى. إنني، نوعاً ما، خبير ببلدان أوروبا الشرقية، وأعرف عدداً من اللغات. (والحقيقة هي أن اللغة الأوروبية الشرقية الوحيدة التي كنت أتكلمها كانت اللغة البولونية، ولم تكن عندي سوى فكرة غامضة جداً عما كان يجري في ذلك الجزء من العالم، ولكنني كنت مصمماً على أن لا أدع الفرصة تفوتني بسبب من التواضع الذي لم يكن في محله آنذاك).

فابتسم الدكتور دامرت نصف ابتسامة ولاحظ: «آه، هذا ممتع. إن لي ميلاً إلى الخبراء ولكنني لا أستطيع أن أستخدم خبيراً في الشؤون الأوروبية الشرقية في هذا الوقت بالذات».

ولا شك في أن الدكتور دامرت قد لاحظ أثر الخيبة على وجهي، ذلك أنه تابع حديثه بسرعة: «ومع ذلك فيمكنني أن أتيح لك نوعاً من البداية، ولو أنها قد تكون دون مستواك. إنني أتساءل. . .».

فاستوضحت بفضول، وأنا أفكر في إيجار المنزل الذي لم أدفعه بعد: «وما هي البداية، يا سيدي؟»

ـ «حسناً، إنني بحاجة إلى مزيد من عمال التلفون. . . آه، لا، لا، لا تقلق. لا أعني عامل تلفون بالمعنى الذي فهمت. . . ليس محول خطوط: إنني أعني عمال تلفون ينقلون الأخبار إلى صحف المقاطعات. . .».

لقد كان هذا في الحق دون ما كنت أرجو إلى حد كبير. ونظرت إلى الدكتور دامرت، ونظر هو إليّ، ثم أجبته متنهداً وضاحكاً في الوقت نفسه: «لقد رضيت، يا سيدي».

وبدأت عملي في الأسبوع الثاني. لقد كان عملاً مملاً، ولا يمت بصلة إلى «مهنة» الصحافة التي كنت أحلم بها. لم يكن لدي ما أعمل سوى أن أنقل بالتلفون، مرات عديدة في اليوم، أخباراً مطبوعة على قصاصة من الورق، إلى العدد الكبير من صحف المقاطعات التي كانت مشتركة بالوكالة. ولكنني، حقاً، كنت عامل تلفون

ممتاز، وكان المرتب ممتازاً أيضاً.

واستمر ذلك قرابة شهر. وفي نهاية الشهر أتيحت لي فرصة لم أكن أنتظرها.

في تلك السنة، ١٩٢١، حلّت بروسيا السوفياتية مجاعة انتشرت فيها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. كان الجوع يعض بنابه ملايين الخلق، وكان مئات الألوف من الناس يموتون من الطوى. وكانت الصحف الأوروبية كلها تملأ أعمدتها بأوصاف مروعة للوضع في روسيا، ووضعت الخطط لعدد من أعمال الإغاثة الأجنبية كان على رأس أحدهما هربرت هوفر الذي كان قد أسدى إلى أوروبا الوسطى أيادي بيضاء عديدة بعد الحرب العظمى. كذلك قاد مكسيم غوركي إحدى الحركات الواسعة النطاق داخل الروسيا، وكانت نداءاته المؤثرة تستفز العالم كله. وفي ذلك الحين ترددت شائعات مفادها أن زوجته ستزور قريباً عواصم أوروبا الوسطى وأوروبا، محاولة تعبئة الرأي العالمي لإسداء معونة أكثر فعالية وجدوى.

ولما كنت عامل تلفون فحسب، فإني لم أشترك مباشرة في هذه الحادثة المحركة للإحساس والعواطف، إلى أن ألقتني في وسطها ملاحظة عابرة سمعتها من صديق تعرفت إليه اتفاقاً (لقد تعرفت إلى الكثيرين منهم في أغرب الأمكنة) كان صديقي البواب الليلي في فندق «اسبلاناد» وقد كان من أفخم فنادق برلين، وكانت الملاحظة: «هذه السيدة غوركي سيدة لطيفة جداً. إن أحداً لا يمكن أن يقدر أبداً أنها من البلاشفة...».

ـ «السيدة غوركي؟ وأين رأيتها بربك؟»

وخفض صديقي من صوته حتى قارب الهمس وتابع قائلاً: «إنها تنزل في فندقنا. أتت البارحة، ولكنها تسجلت تحت اسم منتحل. المدير وحده يعرف من هي حقيقة. إنها لا تريد أن يرهقها مخبرو الصحف».

ـ «وكيف عرفت هذا؟»

ـ «نحن البوابين نعرف كل ما يجري في الفندق. أجاب صديقي بضحكة فاترة! هل تظن أننا نستطيع الاحتفاظ طويلاً بوظائفنا إذا لم نفعل ذلك؟»

أية قصة مثيرة أستطيع أن أكتب إذا تمكنت من الحصول على مقابلة فريدة مع السيدة غوركي، خصوصاً وأن كلمة واحدة عن وجودها في برلين لم تتسرب إلى الصحف... لقد تحولت فجأة إلى مجُوِ مشبوبة.

وسألت صديقي: «هل تستطيع بطريقة ما، أن تمكنني من رؤيتها؟»

ـ «حسناً، لا أدري. إنها كما يتضح عازمة على أن لا تقابل أحداً . . . ولكني أستطيع أن أفعل شيئاً: إذا جلست في الردهة في المساء، فقد أكون قادراً على أن أدلك عليها».

وكانت صفقة موفقة. وعدت بسرعة إلى مكتبي في اليونايتد تلغراف، وكان كل الموظفين تقريباً قد ذهبوا إلى منازلهم في ذلك الحين، ولكن محرر الأخبار لحسن حظي، كان لا يزال جالساً إلى مكتبه، فأمسكت بتلابيبه:

ـ «هل تعطيني بطاقة صحفية إذا وعدت بإحضار قصة مثيرة؟»

فسألني والشك يخامره: «من أي نوع تكون قصتك هذه؟»

ـ «أنت تعطيني البطاقة وأنا أعطيك القصة. فإذا لم أفعل، فإن باستطاعتك دائماً أن تستعيد البطاقة».

وأخيراً وافق الرجل العجوز، وغادرت المكتب فخوراً بامتلاكي البطاقة التي كانت تسميني ممثلاً لليونايتد تلغراف.

وقضيت الساعات القليلة التالية في ردهة فندق اسبلاناد، وعند الساعة التاسعة حضر صديقي ليتسلم مهام وظيفته. وأشار إلي بطرف عينه من عند الباب، ثم اختفى وراء مكتب الاستقبال ليظهر ثانية ويعلمني أن مدام غوركي قد خرجت.

ـ «إذا جلست هنا وقتاً كافياً، فإنك تضمن أن تراها عندما تعود».

وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً، التقطت إشارة صديقي. لقد كان يشير خلسة إلى سيدة كانت في تلك اللحظة بالذات تدخل من الباب الدوّار: لقد كانت امرأة صغيرة ناعمة في الخامسة والأربعين على وجه التقريب، مرتدية ثوباً أسود حسن التفصيل، وعلى كتفيها دثار حريري طويل يرفل وراءها على الأرض. لقد كانت ارستقراطية خالصة في مظهرها، بحيث إنه كان من العسير حقاً تصورها زوجة «لشاعر الإنسان الكادح»، ومن العسير كذلك تخيّلها إحدى مواطنات الاتحاد السوفياتي. لقد اعترضت طريقها، وانحنيت لها، وشرعت في مخاطبتها بأعذب لهجة لي: «السيدة غوركي . . .».

وبدا لي أنها أجفلت لحظة واحدة، إلا أن ابتسامة ناعمة أضاءت من ثم عينيها الجميلتين السوداوين، وأجابتني بلغة ألمانية يشوبها أثر ضئيل من اللكنة السلافية: «أنا لست السيدة غوركي . . أنت مخطىء ـ اسمي كيت وكيت» وذكرت اسماً سلافياً بدا لي أنه روسي، وقد نسيته.

فأصررت قائلاً: «لا، أيتها السيدة غوركي. أنا أعرف أنني لست مخطئاً، وأعرف أيضاً أنك لا تريدين أن يزعجك الصحفيون ـ ولكن سماحك لي بالتحدث إليك بضع دقائق يعني شيئاً كثيراً جداً بالنسبة إليّ. إن هذه هي فرصتي الأولى كي أرسخ من قدميّ، وإنني لعلى ثقة من أنك لا تحبين أن تفوتي عليّ تلك الفرصة. . !» وأظهرتها على بطاقتي الصحفية وأردفت: «لقد حصلت عليها اليوم بالذات، وأن عليّ أن أعيدها، إلا إذا أبرزت قصة مقابلتي للسيدة غوركي».

واستمرت السيدة الأرستقراطية تبتسم: «وإذا أقسمت لك بشرفي أنني لست السيدة غوركي، فهل تصدقني عندئذ؟»

ـ «إذا أقسمت لي بشرفك على أي شيء فإنني أصدقك».

وانفجرت ضاحكة: «إنك تبدو لي ولداً صغيراً لطيفاً». (كان رأسها الجميل يكاد يصل إلى كتفي بصعوبة): «لن أكذب عليك أكثر مما فعلت. أنت الرابح ولكننا لا نستطيع أن نمضي بقية المساء هنا في الردهة، فهل لك أن تتيح لي بهجة تناول الشاي معي في شقتي؟»

وهكذا أتيحت لي بهجة تناول الشاي مع السيدة غوركي في جناحها. لقد قضت ساعة ونصف تقريباً وهي تصف لي باندفاع أهوال المجاعة وفظائعها. وعندما فارقتها بعد منتصف الليل، كنت أحمل في جيبي حزمة غليظة من الأوراق.

وفتح المحررون الثانويون الليليون عيونهم دهشاً لرؤيتي في تلك الساعة غير الاعتيادية. ولكنني لم أزعج نفسي بإيضاح السبب، وذلك أنه كان عليّ أن أؤدي عملاً عاجلاً. وإذ جلست اكتب تفاصيل مقابلتي بأسرع ما أستطيع، طلبت، دون أن أنتظر موافقة المحرر على ما كنت أخط، الاتصال هاتفياً، وبصورة عاجلة بجميع الصحف التي كنا نمدها بالأخبار.

وفي الصباح التالي انفجرت القنبلة. ففي حين أن واحدة من كبريات صحف برلين لم تشر بكلمة واحدة إلى حضور السيدة غوركي إلى المدينة فإن جميع صحف المقاطعات التي كانت وكالتنا تزودها بالأخبار ذكرت في صفحاتها الأولى مقابلة ممثل اليونايتد تلغراف الفريدة مع السيدة غوركي. لقد أحرز عامل الهاتف انتصاراً من الدرجة الأولى.

وبعد ظهر ذلك اليوم عقد مؤتمر للمحررين في مكتب الدكتور دامرت. وقد دعيت إلى الدخول، وبعد محاضرة أولية أوضح لي فيها وجوب عدم إرسال مادة

إخبارية مهمة دون أن يطلع عليها محرر الأخبار أولاً، أُعلمت بأنني قد رقيت إلى رتبة مخبر.

وهكذا، أخيراً صرت صحافياً.

ـ ٤ ـ

خطوات خفيفة على الرمل: إنه زيد، عائداً من البئر يحمل قربة مملوءة بالماء. لقد تركها تقع على الأرض قرب النار، واستأنف عمله في طبخ عشائنا: أرز ولحم من حمل صغير ابتاعه من القرية قبل قليل. وبعد أن حرّك الأرز لآخر مرة بمغرفته، استدار إليّ وقال:

ـ «هل تريد أن تأكل الآن، يا عم؟» ودون أن ينتظر جوابي الذي كان يعرف أنه لا بدّ أن يكون إيجابياً، سكب محتويات القدر في صينية كبيرة وضعها أمامي ورفع إحدى دلاتنا النحاسية وملأها بالماء كيما أغسل يدي.

ـ «بسم الله، وليمنحنا الله الحياة».

وهكذا جلسنا متربعين متقابلين، وشرعنا نأكل بأصابع اليد.

لقد كان الصمت مخيماً علينا ونحن نأكل. إن أحداً منا لم يكن محدثاً ممتازاً. فضلاً عن أنني استغرقت في الذكرى، أفكر في تلك الأزمنة التي انقضت قبل مجيئي إلى الجزيرة العربية، حتى قبل لقائي لزيد. وهكذا لم أكن أستطيع أن أتكلم بصوت عال، بل بصمت مناجياً نفسي، متلذذاً بحالي الحاضرة عن طريق أحوالي التي تقلبت فيها كثيراً في الماضي.

وبعد أن انتهينا من تناول عشائنا، وإذ كنت متكئاً على شدادي وأصابعي تداعب الرمل، وعيناي تحدقان في الأنجم العربية الصامتة، تمنيت لو أن بقربي أحداً أستطيع أن أقص عليه كل ما حدث لي في تلك السنوات البعيدة. ولكن أحداً لم يكن معي باستثناء زيد. لقد كان رجلاً طيباً أميناً، وكان رفيقي في أيام وحدتي الكثيرة. لقد كان أريباً ثاقب الفكر مرهف الحس عارفاً بعادات الإنسان وطرائقه. ولكن إذا نظرت إلى وجهه على نحو جانبي، ذلك الوجه الحاد الأسارير ضمن إطار من الضفائر الطويلة، الذي كان ينحني تارة فوق إبريق القهوة، باستغراق جاد، ويدور طوراً إلى الهجينين وهما مستريحان على الأرض ويجتران بهدوء ووداعة ـ عرفت أنني كنت بحاجة إلى

مستمع آخر يختلف عن زيد: مستمع لم يلعب دوراً في ماضيّ القديم فحسب، بل غريب أيضاً عن أيامي ولياليي الحاضرة رؤية ورائحة وصوتاً، مستمع أستطيع أن أكشف له عن ذكرياتي واحدة بعد أخرى، بحيث تراها عيناه، وبحيث تراها عيناي كرة أخرى، ويتسنى له بذلك أن يساعدني على أن أمسك بحياتي ضمن شباك كلماتي.

ولكن لم يكن هناك أحد إلا زيداً، وزيد هو الحاضر.

رياح

ـ ١ ـ

كنا نسير ونسير، رجلان على هجينين، بينما كان الصباح يتقدم بروية وبطء. وقطع صوت زيد حبل الصمت عندما قال: «إنه غريب، غريب جداً».

ـ «وما هو الغريب يا زيد؟»

ـ «أليس غريباً يا عمي، إننا منذ بضعة أيام كنا ذاهبين إلى تيماء، والآن يتجه رأسا ذلولينا نحو مكة؟ إنني واثق من أنك أنت نفسك لم تكن تعرف هذا قبل تلك الليلة. إنك متقلب الرأي كبدوي. . . مثلي أنا. هل كان جنيّاً ذلك الذي أوحى إليّ، منذ أربع سنوات، باتخاذ قراري بالذهاب إليك في مكة ـ وأوحى إليك الآن بقرارك بالذهاب إلى مكة؟ وهل نحن الآن نسمح للرياح بأن تذرونا هكذا، لأننا لا نعرف ماذا نريد؟»

ـ «كلا يا زيد. أنت وأنا. . . نحن نسمح لأنفسنا بأن تذرونا الرياح لأننا نعرف حتماً ماذا نريد: إن قلبينا يعرفانه، حتى ولو كان عقلانا عاجزين أحياناً عن إدراكه ولكنهما في النهاية لا بدّ يلحقان بقلبينا، وعندئذ نظن أننا قد اتخذنا قراراً. . .».

* * *

ولعل قلبي قد عرف ذلك حتى في ذلك اليوم، منذ عشر سنوات خلت، عندما وقفت على سطح الباخرة التي كانت تقلني أثناء قيامي برحلتي الأولى إلى الشرق الأوسط جنوباً عبر البحر الأسود، وفي ليلة شديدة الضباب عبر صباح شديد الضباب، إلى البوسفور. كان البحر رصاصي اللون قاتماً، وكان رشاش الزبد ينتشر أحياناً على سطح الباخرة كما كانت ضربات المحرك شبيهة بخفقان القلب.

ووقفت عند حاجز الباخرة، أنظر إلى الفضاء الكثيف. ولو أنك سألتني فيمَ كنت أفكر عندئذ، أو عن الآمال التي كانت تجيش في صدري في مغامرتي الأولى هذه إلى الشرق، لما استطعت أن أعطيك جواباً واضحاً. الفضول؟ ربما. . . ولكنه كان فضولاً غير جاد إلى حد بعيد، ذلك أنه كان يهدف إلى أشياء غير بالغة الأهمية. إن ضباب قلقي، الذي بدا وكأنه ذو صلة بالضباب المتفجر فوق البحر، لم يكن موجهاً نحو بلدان غريبة وشعوب سألقاها في أيامي المقبلة، ولم تحتل تفكيري إلا قليلاً صور عن المستقبل قريب، وعن المدن والمظاهر الغريبة وعن الألبسة والعادات الأجنبية التي كان مقدراً لها أن تتكشف لي بمثل تلك السرعة. لقد كنت أعتبر تلك الرحلة شيئاً طارئاً، وكنت أنظر إليها نظرتي إلى فترة استراحة بين فصول إحدى التمثيليات، وكنت، في تلك اللحظة، قلقاً مذهولاً أفكر فيما مضى من أيامي.

الماضي؟ وهل كان لي ماضٍ؟ كنت في الثانية والعشرين. . ولكن جيلي ـ جيل أولئك الذين ولدوا في أول القرن ـ قد عاش، ربما، بأسرع مما عاش أي جيل سلفه، وبدا لي كأنني أتطلع ورائي إلى مدى طويل من الزمن. لقد انتصبت أمام ناظري جميع مصاعب تلك السنين ومغامراتها، كل تلك الأشواق والمحاولات والخيبات ـ والنساء ـ وكذلك حملاتي الأولى على الحياة. الليالي الطويلة التي لا نهاية لها تحت النجوم وعندما لم أكن أعرف تماماً ماذا أريد، وأذرع الشوارع الخالية متحدثاً مع صاحب لي، عن أشياء قصوى، ناسياً كم كانت جيوبي خاوية ومستقبلي غير مأمون. . . تبرم سعيد لا يحسه إلا الشباب، والرغبة في تبديل العالم وبنائه من جديد. . . كيف يمكن أن يصاغ المجتمع بحيث يستطيع الناس أن يعيشوا بصلاح وبحبوحة؟ كيف يجب أن تسوى علاقاتهم بحيث يستطيعوا أن يخترقوا العزلة التي كانت تحيط بكل إنسان، وأن يحيوا حياة مشتركة صحيحة؟ ما هو الخير وما هو الباطل؟ ما هو القضاء والقدر؟ أو، بكلمة أخرى، ماذا يجب على المرء أن يفعل كي يصبح حقيقة، لا من حيث المظاهر فحسب، متماثلاً مع حياته نفسها، بحيث يمكنه القول: «أنا ومصيري وحدة لا تتجزأ». مناقشات لم يكن لها حد ولا آخر. . . المقاهي الأدبية في فيينا وبرلين، بمجادلاتها التي لا تنتهي عن «الشكل» و «الأسلوب» و «التعبير»، عن معنى الحياة السياسية، عن لقاء الرجل والمرأة، الجوع إلى التفهم وأحياناً إلى الطعام أيضاً. . . والليالي التي تعصف في انفعالات نفسانية لا ضابط لها ولا رادع. . . التأثير المهيج بسبب لقاء وجه جديد أو كتاب جديد، تقصٍّ وعثور على أنصاف الأجوبة، وتلك اللحظات النادرة جداً عندما بدا العالم فجأة مضاءً بومضة من

التفهم الذي كان يعد بالكشف عن شيء ما لم يُكشف قط من قبل: جواب عن الأسئلة جميعاً. . .

* * *

لقد كانت سنوات غريبة تلك التي ألفت العقد الثالث من هذا القرن في أوروبا الوسطى. لقد ساد جو عام من الخطر الاجتماعي والأدبي، وأدى إلى نشوء أمل يائس عبر عن نفسه بتجارب جريئة في الموسيقى والتصوير والمسرح وبالتلمس أيضاً، وبالأسئلة والتحقيقات الثورية عن طبيعة الثقافة وتكوينها. ولكن فراغاً روحياً كان يصاحب هذا التفاؤل القسري: نسبية غامضة تهكمية نشأت من اليأس المتعاظم من مستقبل الإنسان.

وبالرغم من حداثتي فإنه لم يبق خافياً عليّ أن الوضع بعد كارثة الحرب العالمية لم يعد صحيحاً في العالم الأوروبي المتفكك المتململ، المتوتر العواطف والأحاسيس. إن إله ذلك العالم لم يعد، كما رأيت، من نوع روحي: لقد كان الرخاء. ليس ثمة شك في أنه كان هناك أفراد كثيرون كانوا يشعرون ويفكرون، دينياً، ويبذلون جهوداً يائسة إلى أبعد الحدود للتوفيق بين معتقداتهم الأخلاقية وبين روح مدنيتهم، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا قلة. لقد بدا أن الأوروبي العادي ـ سواء كان ديموقراطياً أو شيوعياً أو عاملاً يدوياً أو من رجال الفكر ـ كان يعرف ديناً إيجابياً واحداً: عبادة التقدم المادي، الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون في الحياة أيما هدف سوى جعل تلك الحياة نفسها أكثر سهولة ويسراً، أو كما كانوا يقولون في ذلك الحين: «مستقلة عن الطبيعة». وكانت معابد ذلك الدين المصانع الجبارة ودور العرض السينمائية، والمختبرات الكيميائية وقاعات الرقص والمشاريع المائية والكهربائية وكان كهانها الصرافين والمهندسين والسياسيين ونجوم السينما، والإحصائيين وزعماء الصناعة، والطيارين و «مفوضي الشعب». وكانت الخيبة الروحية متجلية في الفقدان الشامل للاتفاق على معنى الخير والشر، وفي إخضاع الأحداث الاجتماعية والاقتصادية جميعاً إلى قاعدة «المصلحة» ـ تلك المرأة الداعرة، الراغبة في أي إنسان، وفي أي وقت، كلما دعيت إلى الاستسلام. . . وذلك الحنين الشره إلى السلطة واللذة، لقد أدى، بالضرورة إلى انقسام المجتمع الغربي إلى فئات متخاصمة مسلحة حتى أسنانها، مصممة على أن يسحق بعضها بعضاً متى وفي حيثما تضاربت مصالحها وأهواؤها. وفي الجانب الثقافي، كانت النتيجة خلق نموذج إنساني اقتصرت فضيلته

على مسألة النفع العملي وحده، وكان النجاح المادي مقياسه الأعلى للصواب والخطأ.

كذلك رأيت مبلغ اضطراب حياتنا وشقائها، وقلة الحياة المشتركة بين الإنسان والإنسان بالرغم من هذا الإلحاح الضار، الذي كان يتميز بالهستيرية، على «المجتمع» و«الأمة»، ومبلغ خروجنا على غرائزنا السليمة، ومبلغ الضيق والعفن اللذين أصابا أرواحنا. لقد رأيت كل هذا: بيد أنه لم يخطر لي مطلقاً ـ كما لم يبد مطلقاً أنه خطر لأي من الناس حولي ـ أنه يمكن الحصول على جواب، أو على أجوبة جزئية على الأقل، عن هذه الأمور المحيرة من غير تجارب أوروبا الثقافية نفسها. لقد كانت أوروبا بداءة تفكيرنا ونهايته أيضاً. وحتى اكتشاف فلسفة «لاوتسي» الصينية ـ في السابعة عشرة من عمري أو نحو ذلك ـ لم يبدل من نظراتي إلى المستقبل بهذا الصدد.

* * *

لقد كان اكتشافاً حقيقياً. لم أكن قد سمعت في حياتي اسم لاوتسي، ولم يكن عندي أية فكرة عن فلسفته قبل أن أعثر يوماً على ترجمة ألمانية لكتاب «تاوتي كنج» في إحدى مكتبات فيينا، بطريق الصدفة. وأثار اسم الكتاب واسم مؤلفه الغريبان فضولي بعض الشيء، وإذا أخذت أقلب صفحات الكتاب كيفما اتفق، وقع نظري على أحد أقسامه القصيرة، وكان مليئاً بالحكم والأقوال المأثورة، فشعرت بقشعريرة مفاجئة وسعادة جعلتني أنسى ما حولي وأظل مسمراً في مكاني منذهلاً معقود اللسان والكتاب في يدي: ذلك أني رأيت فيه الحياة الإنسانية بكل هدوئها ورصانتها، خالية من جميع التصدعات والمنازعات، ترتفع في ذلك الجذل الهادىء الذي هو دائماً في متناول القلب البشري كلما أراد أن يحصل على حريته الخاصة... تلك كانت الحقيقة، ولقد عرفتها: الحقيقة التي كانت صادقة دائماً برغم أننا قد نسيناها، والآن ميزتها وأدركتها بشعور من السعادة التي تغمر الإنسان عندما يعود إلى وطنه وأهله بعد فراق طويل...

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، كان لاوتسي، بالنسبة إليّ، نافذة منها كنت أستطيع أن أتطلع إلى النواحي الصافية صفاء الزجاج لحياة بعيدة كل البعد عن الضيق والمخاوف الذاتية جميعاً، خالية من الذهول الصبياني الذي كان يدفعنا، من لحظة إلى أخرى، إلى أن نصون وجودنا دائماً ومن جديد عن طريق «التقدم المادي» بأي

ثمن. وليس ذلك لأن التقدم المادي كان يبدو لي خطأ أو لا ضرورة له، ذلك أني على العكس: ظللت أعتقده صالحاً وضرورياً ولكنني كنت مقتنعاً، في الوقت نفسه، بأنه لم يكن يستطيع أن يحقق هدفه إطلاقاً ـ في زيادة مجموع السعادة البشرية ـ إلا إذا كان مصحوباً بنوع من إعادة التنظيم لاتجاهنا الروحي، وبإيمان جديد بالقيم المطلقة. ولكن كيفية إحداث إعادة التنظيم هذه ونوع القيم الجديدة ـ لم يكونا واضحين لديّ تماماً، فمن البلادة غير شك أن أكون قد توقعت من الناس أن يبدلوا من أهدافهم وغاياتهم، وبالتالي وجهة مساعيهم ومحاولاتهم، بمجرد أن يشرع إنسان ما في وعظهم وإرشادهم، كما فعل لاوتسي عندما أشار إلى أن المرء يجب أن يفتح قلبه للحياة بدلاً من أن يحاول اختطافها لنفسه فيسبب لها القسوة والعنف. إن الوعظ وحده، والإدراك العقلي وحده، لم يكن لهما، بالطبع، أن يحدثا تبدلاً في الاتجاه الروحي لدى المجتمع الأوروبي، فقد كانت الحاجة تدعو إلى إيمان قلبي جديد، استسلام مؤلم للقيم التي لا تسمح بـ «إذا» و «لكن»: ولكن من أين الفوز بمثل هذا الإيمان؟ . . .

وبطريقة ما لم يخطر لي أن تحدي لاوتسي القوي لم يكن يستهدف اتجاهاً عابراً وبالتالي يمكن تبديله، فحسب، بل بعضاً من المفاهيم الجوهرية والأساسية إلى أبعد الحدود والتي عنها ينشأ ذلك الاتجاه. ولو عرفت ذلك، إذن لأجبرت على أن أستنتج أن أوروبا لم تكن تستطيع أن تتحقق بذلك الهدوء الروحي التام الذي تكلم لاوتسي عنه، إلا إذا استجمعت شجاعتها للشك في أسسها الروحية والأخلاقية الخاصة. وقد كنت، طبعاً، أصغر من أن أتوصل إلى هذا الاستنتاج: أصغر من أن أفهم تحدي الحكيم الصيني بجميع مضامينه ومعانيه، وكامل عظمته. والحق أن رسالته قد هزتني في الصميم. لقد كشفت لي عن نوع من الحياة يستطيع الإنسان به أن يتوحد مع مصيره وبذلك يتوحد مع نفسه. ولكن بما أنني لم أرَ بوضوح كيف يمكن لهذه الفلسفة أن تسمو على مجرد التأمل والتفكير، وأن تطبق في طريقة الحياة الأوروبية فقد أخذت تدريجياً أشك فيما إذا كانت ممكنة التحقيق إطلاقاً. لم أكن قد وصلت إلى الحد الذي أستطيع معه حتى أن أسأل نفسي ما إذا كانت الحياة الغربية، في أساسها، الطريقة الوحيدة الممكنة. بكلمة أخرى، لقد كنت كسائر الناس من حولي، مندمجاً بالنظرة الأوروبية الثقافية الأنانية اندماجاً كلياً.

وهكذا، وبرغم أن صوته لم يسكت أبداً، أخذ لاوتسي يتراجع، خطوة خطوة، إلى مؤخرة الأوهام التأملية. ومع الزمن انقطع عن أن يكون بالنسبة إليّ أكثر من كتاب شعر جميل. لقد ظللت أقرأه بين الفينة والفينة، وكنت في كل مرة أشعر بأمل سعيد،

ولكني كنت في كل مرة كذلك أضع الكتاب جانباً، آسفاً أن ذلك لم يكن إلا دعوة في الحلم إلى برج عاجي. ومع أني كنت أشعر دائماً بأني على خصام عنيف مع العالم النهم المر، المتنافر الذي كنت جزءاً منه، فإني لم أكن أرغب في أن أعيش في برج عاجي.

وفضلاً عن ذلك فإنني لم أكن أشعر بأي اندفاع نحو أي من الأهداف والمساعي التي غمرت الجو الثقافي في أوروبا في ذلك الحين وملأت أدبها وفنها وسياستها بدوي من المحاورات الناشطة. ذلك أنه مهما كانت معظم تلك الأهداف والمساعي متناقضة بعضها مع بعض، فإنها جميعاً كانت تشترك في أمر واحد: الافتراض الساذج أن الحياة يمكن أن تقال من فوضاها الحاضرة وأن تصبح «أفضل» لو أن أحوالها الخارجية ـ الاقتصادية والسياسية ـ أصبحت أفضل. وشعرت شعوراً قوياً، حتى في ذلك الحين، أن التقدم المادي، وحده، لم يستطع أن يوفر الحل. وبرغم أنني ما كنت أعرف تماماً أين يمكن إيجاد مثل هذا الحل، فإنني لم أستطع مطلقاً أن أوضح، في ذاتي، ذلك الاندفاع الذي كان يبديه أبناء عصري نحو «التقدم».

وليس ذلك لأني لم أكن سعيداً. إنني لم أكن انطوائياً في يوم من الأيام، وفي ذلك الحين بالذات كنت أنعم بقدر كبير من النجاح في شؤوني العملية أكثر من اعتيادي. ففي حين قليلاً ما كنت أميل إلى أن أقيم وزناً كبيراً للمهنة بحد ذاتها، فإن العمل في الـ «اليونايتد تلغراف» حيث أصبحت الآن، بفضل معرفتي لغات عدة، محرراً مساعداً مسؤولاً في قسم الأخبار التي كنا نزود بها الصحافة السكندنافية ـ بدا لي أنه يفتح لي سبلاً كثيرة للولوج إلى العالم الأوسع. وكان كير من أصدقائي من أبرز الكتّاب والفنانين والصحفيين والممثلين والمنتجين في ذلك الحين. وكانت تجمعني روابط الصداقة وأحياناً أواصر الإلفة بأناس كانوا يحملون أسماء شهيرة، وكنت أعتبر نفسي ـ من حيث الرأي والهدف على الأقل، إن لم يكن من حيث الشهرة ـ واحداً منهم. كذلك اعترضت سبلي ضروب من الحب العابر السريع، وكانت الحياة في نظري بهيجة مليئة بالآمال ملونة بمختلف انطباعاتها. لا ، إنني من غير شك، لم أكن غير سعيد ـ ولكنني كنت فقط في أعماقي ساخطاً غير راض، لا أعرف هدفي الحقيقي، وفي الوقت نفسه مقتنعاً، بكبرياء الشباب الباطلة، بأنني سأعرفه يوماً من الأيام. وهكذا كنت أتأرجح على رقاص رضاء قلبي وسخطه، شأن كثير من الشباب في تلك السنوات الغريبة. ذلك أنه في حين أن أحداً منا لم يكن غير سعيد حقاً، فإن قليلين جداً بدوا وكأنهم سعداء وشاعرون بسعادتهم.

لم أكن غير سعيد: ولكن عدم قدرتي على مشاركة أولئك الذين كانوا من حولي ـ أي فريق منهم ـ مختلف آمالهم الاقتصادية والسياسية ـ نما مع الزمن إلى شعور غامض بأنني لست واحداً منهم، مصحوب، بغموض أيضاً، برغبة في أن أكون واحداً ـ ممن؟ أن أكون جزءاً من شيء ـ مِمَّ؟

* * *

وفي ذات يوم من ربيع عام ١٩٢٢، أخذت رسالة من خالي دوريان.

كان دوريان الشقيق الأصغر لأمي. وكانت علاقتنا أقرب إلى أن تكون علاقة بين صديقين لا بين خال وابن أخته. كان طبيباً نفسانياً ـ واحداً من تلامذة فرويد ـ وكان في ذلك الوقت يرئس مستشفى للأمراض العقلية في القدس. لم يكن صهيونياً ولم يكن يعطف بصورة خاصة على أهداف الصهيونية ـ ولم ينجذب إلى العرب أيضاً ـ ولذا شعر بالوحدة والعزلة في عالم لم يكن يملك ما يقدمه إليه سوى العمل والدخل. وإذ كان كذلك غير متزوج، فقد فكر في ابن أخته كرفيق ممكن له في وحدته. وفي كتابه إليّ إشارة إلى تلك الأيام البهيجة في فيينا حيث كان قد قادني إلى عالم التحليل النفساني الجديد، وختمه بقوله: «لماذا لا تأتي وتبقى معي لبضعة أشهر هنا؟ إنني سأدفع نفقات رحلتك ذهاباً وإياباً، وستكون حراً في أن تعود إلى برلين في أي وقت تشاء. وفي أثناء مكوثك هنا، ستعيش في بيت حجري عربي بهيج بارد صيفاً، (وشديد البرد شتاء). إننا سوف نمضي أوقاتنا معاً، وإن عندي لعدداً وافراً من الكتب هنا، فعندما تسأم التطلع إلى المناظر البديعة من حولك، فإن بإمكانك أن تقرأ قدر ما تشاء». . .

وحزمت أمري بالسرعة التي كانت تتميز بها دائماً قراراتي المهمة، وفي صباح اليوم التالي أعلمت الدكتور دامرت في اليونايتد تلغراف أن «اعتبارات عملية مهمة» كانت تضطرني إلى الذهاب إلى الشرق الأوسط، وأنه كان عليّ لهذا أن أترك الوكالة خلال أسبوع.

ولو أن أحداً قال لي في ذلك الحين أن معرفتي الأولى بعالم الإسلام ستذهب إلى أبعد جداً من حدود عطلة اختيارية، وأنها ستصبح في الحق نقطة تحول في حياتي، لو أن أحداً قال لي ذلك لضحكت من الفكرة واعتبرتها بعيدة عن الصواب بالكلية. لم يكن ذلك لأنني لم أكن من ذلك النوع الذي لا يتأثر بإغراءات البلاد التي كان تفكيري فيها مصحوباً ـ شأن معظم الأوروبيين ـ بالجو الرومانطيقي لألف ليلة

وليلة: لا ، فقد كنت أحب التغيير والتقاليد الغريبة والمقابلات البهيجة، ولكن لم يخطر في بالي قط أن أتوقع هناك مغامرات في عالم الروح أيضاً، ولم يبد لي أن الرحلة المقبلة ستعني شيئاً خاصاً بالنسبة إليّ. إن كل الفكرات والانطباعات التي صادفتني سابقاً نسبتها غرزياً إلى النظرة العالمية الغربية، آملاً أن أتحقق بمدى أوسع من الشعور والإدراك ضمن المحيط الثقافي الوحيد الذي كان معروفاً لديّ. وإذا قدر لك أن تفكر في ذلك، فكيف كنت أستطيع أن أشعر بغير ذلك الشعور؟ لقد كنت شاباً أوروبياً ناشئاً على الاعتقاد بأن الإسلام وكل تعاليمه لم يكن أكثر من طريق فرعي لتاريخ الإنسان غير جدير بالاحترام من الناحيتين الروحية والأخلاقية، وأنه لذلك لم يكن ليوضع في المنزلة نفسها، بل لم يكن ليقارن بالدينين اللذين يعتبرهما الغرب جديرين بالنظر إليهما نظرة جدية: المسيحية واليهودية.

بهذا الانحراف الأوروبي الغامض ضد الأمور الإسلامية (ولو أنه، طبعاً، لم يكن ضد المظاهر الخارجية، التي خلع عليها نوع من الرومنطقية لحياة المسلمين) بدأت رحلتي الأولى في صيف ١٩٢٢. وإذ كنت لا أستطيع، إنصافاً لنفسي، أن أقول إنني كنت مستغرقاً في أموري الخاصة فحسب، فإنني أستطيع أن أقول، مع ذلك، إنني كنت فريسة لتلك العقلية الثقافية الغربية، المستغرقة في ذاتها التي طالما تميز بها الغرب في جميع الأزمنة.

والآن كنت أقف على سطح الباخرة في طريقي إلى الشرق. إن رحلة ممتعة قد حملتني إلى كونستنزا في رومانيا ومن هناك إلى هذا الصباح المليء بالضباب في البحر الأسود.

وبرز شراع أحمر من حجب الضباب ومر قريباً من الباخرة. وبسبب من أنه قد أصبح ممكن الرؤية فقد كان ذلك إيذاناً بأن الشمس كانت على وشك الظهور من وراء الضباب. وسقطت على البحر بضعة شعاعات دقيقة كالخيوط، وكان لخفوتها شيء من قسوة المعدن، وتحت ضغطها استقرت كتل الضباب البيضاء على الماء ثم انشقت بعضها عن بعض لترتفع من ثم على يمين أشعة الشمس ويسارها أقواساً واسعة كالأجنحة.

وسمعت صوتاً عميقاً قوياً يقول: «صباح الخير»، فاستدرت وعرفت المعطف الأسود الذي كان يرتديه رفيقي في الليلة السابقة، والابتسامة العذبة على وجه بدأت استلطفه خلال الساعات الأولى من تعارفنا. كان هذا الأب اليسوعي نصف بولوني ونصف فرنسي، وكان يدرس التاريخ في إحدى كليات الاسكندرية، وكان في ذلك

الوقت عائداً إلى هناك من عطلته. ولقد أمضينا السهرة بعد صعودنا إلى الباخرة في حديث ممتع، وبالرغم من أنه سريعاً ما اتضح أن وجهتي نظرنا كانتا مختلفتين اختلافاً كبيراً في كثير من الأمور فقد كان هناك، مع ذلك، نقاط عديدة أثارت اهتمامنا المشترك. وكنت ناضجاً بحيث إني عرفت أنني كنت أمام إنسان عبقري جاد ومرح في الوقت نفسه.

ــ «صباح، أيها الأب فالكس. أنظر إلى البحر. . .»

وكان ضوء النهار والألوان قد ظهرت مع الشمس. كنا واقفين في مقدمة السفينة يداعبنا نسيم الصباح. وإذ أغرتني استحالة ذلك عليّ، حاولت أن أعين في ذات نفسي حركة الألوان في الأمواج المتكسرة. أزرق؟ أخضر؟ رمادي؟ وشعرت بشيء من القلق الجسماني لعدم استطاعتي أن أمسك بهذا التلاعب اللوني للبحر وتبدله المنتظم الأبدي. وعندما كنت أنظر إلى البحر سطحياً، من زاوية عيني فحسب، كنت أشعر لحظات معدودات بأنه قد يكون بالإمكان التقاط كل ذلك التبدل العظيم بصورة واحدة كاملة. ولكن التركيز المتعمد، أعني عادة وصل مفهوم منعزل بآخر، لم يؤد إلى شيء سوى صور منفصلة متقطعة. ولكن فكرة بدت لي بوضوح كبير نتيجة لهذه الصعوبة، هذا الاختلاط المقلق إلى درجة غريبة، ـ أو هكذا خيل إليّ في ذلك الوقت ـ فقلت، بطريقة تكاد تكون لا إرادية:

ــ «إن كل من يستطيع أن يفهم كل هذا بمشاعره، ربما يكون قادراً على السيطرة على مصيره؟»

فأجابني الأب فالكس:

ــ «إنني أعرف ماذا تعني. ولكن لماذا يجب أن يرغب المرء في السيطرة على مصيره؟ أللهرب من الألم؟ ألا يكون من الأفضل أن يكون المرء «حراً» من المصير؟»

ــ «إنك تتكلم كالبوذي أو تكاد، أيها الأب فالكس. هل تعتبر أنت أيضاً «الفناء» هدف كل كائن حيّ؟»

ــ «آه كلا. . . طبعاً لا. . . نحن المسيحيين لا نهدف إلى خمود الحياة والحس. نحن نرغب فقط في أن نسمو بالحياة من نطاق المادة إلى عالم الروح».

ــ «ولكن أليس هذا نبذاً للحياة؟»

ــ «إنه ليس نبذاً للحياة، يا صديقي الشاب. إنه الطريق الوحيد إلى الحياة الحقيقية، إلى السلام. . .».

وبدا لنا البوسفور طريقاً مائياً عريضاً تحيط به من جانبيه التلال الصخرية. كنا نرى، هنا وهناك، القصور الفسيحة والحدائق الغناء وأشجار السرو الشاهقة والقلاع الانكشارية القديمة ـ كتلاً ثقيلة من الحجارة المتراصة تتدلى فوق المياه كأعشاش الطيور الجارحة ـ. وسمعت صوت الأب فالكس يتابع حديثه وكأنما كان واقفاً بعيداً عني:

ـ «أترى؟ إن أعمق رمز للشوق ـ شوق جميع الناس ـ هو رمز الفردوس. إنك تجده في جميع الأديان، دائماً في صور مختلفة، ولكن المعنى هو نفسه دائماً: الرغبة في الإفلات من المصير. إن الناس في الفردوس لم يكن لهم مصير. إنهم لم يكتسبوه إلا بعد أن خضعوا لإغراء الجسد ووقعوا بالتالي في ما نسميه الخطيئة الأولى: تعثر الروح بدوافع الجسد التي هي في الحق ليست سوى البقايا الحيوانية في الطبيعة الإنسانية. إن الجزء الجوهري، الإنساني، الإلّهي الإنساني، في الإنسان هو روحه وحدها. إن النفس تسعى نحو النور، الذي هو الروح. ولكن بسبب الخطيئة الأولى تعترض طريقها عقبات ناشئة عن تركيب الجسم ودوافعه المادية غير الإلّهية. وإذن فإن ما يهدف إليه التعليم المسيحي هو تخليص الإنسان نفسه من وجود حياته العرضية الزائلة الحيوانية، وعودته إلى ميراثه الروحي».

وظهرت لنا قلعة «روميلي حصار» ذات البرجين التوأمين، وكان أحد جدرانها ينحدر حتى يكاد يلامس سطح الماء، وعلى الشاطىء ضمن شبه الدائرة التي كونتها جدران القلعة، كانت هناك مقبرة تركية صغيرة حالمة.

ـ «قد يكون ذلك أيها الأب فالكس. ولكنني أشعر، وهذا شعور كثير من الناس الذين هم من جيلي، أشعر أن هناك خطأً ما في التمييز بين «الجوهر» و «العرض» في تركيب الإنسان، وفي التفريق بين الروح والجسد باختصار، إنني لا أستطيع أن أقر أن الدافع الجسماني والجسد والمصير الدنيوي خالية من كل صلاح. إن رغبتي تسير في اتجاه مخالف: إنني أحلم بشكل من الحياة ـ ولو أنني يجب أن أعترف بأنني لا أراه بوضوح إلى الآن ـ فيه يسعى الإنسان كله ـ روحاً وجسداً ـ ويجاهد في سبيل تحقيق ذاتي أعمق ـ شكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منهما للآخر، وفيه يستطيع الإنسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه، وبمعنى مصيره، بحيث إنه يستطيع أن يقول في أوج أيامه: إنني أنا مصيري.

ـ «ذلك كان حلم اليونان» أجاب الأب فالكس، «وإلى ماذا أدى هذا الحلم؟ أولاً إلى الألغاز الأورفيوسية والديونيزية، ثم إلى أفلاطون وأفلوطين، ثم إلى الإدراك

الحتمي أيضاً أن الروح والجسد متعارضان. . . تخليص الروح من سيطرة الجسد: هذا هو معنى الخلاص المسيحي، معنى اعتقادنا بتضحية الرب نفسه على الصليب». . . . وهنا قاطع نفسه واستدار إليّ غامزاً بعينه قائلاً: «آه. . . لست دائماً مبشراً. . . عفوك إذا تكلمت إليك عن إيماني. . . الذي هو ليس إيمانك. . .».

فأكدت له قائلاً: «ولكن ليس لي أي إيمان».

فأجاب الأب فالكس: «نعم إن فقدان الدين ـ أو بالأحرى عدم القدرة على الإيمان، هو الضعف المركزي في عصرنا هذا. إنك تعيش، وأمثال كثيرون في وهم كاذب يعود عمره إلى آلاف من السنين: الوهم القائل بأن العقل وحده يستطيع أن يوجه سعي الإنسان واجتهاده. ولكن العقل لا يستطيع أن يصل إلى المعرفة الروحية بنفسه لأنه مستغرق بأكثر مما ينبغي في تحقيق أهدافه المادية. إن الإيمان، والإيمان وحده، هو الذي يستطيع أن يخلصنا من مثل هذا الإغراق».

قلت: «الإيمان. . . إنك تأتي على ذكر هذه الكلمة كرة أخرى، وأن هناك شيئاً لا أستطيع فهمه: أنت تقول بأن من المستحيل بلوغ المعرفة عن طريق العقل وحده، وكذلك التحقق بالحياة الصالحة. إن هناك حاجة إلى الإيمان، كما تقول. إنني أوافقك تماماً، ولكن كيف يتسنى للمرء أن يتحقق بالإيمان إذا لم يكن له إيمان؟ هل هناك طريق إليه ـ أعني، طريقاً مفتوحاً لنا نسلكه متى نشاء».

ــ «يا صديقي العزيز! الإرادة وحدها لا تكفي. إن الطريق لا ينفتح إلا بنعمة الله وهدايته، ولكنه مفتوح دائماً لكل من يصلي من أعماق قلبه طالباً الهداية».

ــ «يصلي؟ ولكن متى كان المرء قادراً على أن يفعل ذلك، أيها الأب فالكس، فإنه يجب أن يكون قد تحقق بالإيمان فعلاً، إنك تقودني في دائرة، ذلك أنه إذا صلى الإنسان فإنه يجب أن يكون قد اقتنع سابقاً بوجود الله الذي يصلي له. فكيف توصل إلى هذا الاقتناع؟ عن طريق عقله؟ ألا يساوي هذا الاعتراف بأن الإيمان يمكن أن يوجد عن طريق العقل؟ وعدا هذا، هل يمكن أن تعني «الهداية» «شيئاً بالنسبة إلى شخص لم يختبر أي شيء من هذا القبيل؟»

وهزّ الأب فالكس كتفيه أسفاً، وقال: «إذا لم يكن المرء قادراً على أن يختبر هداية الله بنفسه، فإن عليه أن يسمح لنفسه بأن تقاد باختبارات الآخرين الذين اختبروها فعلاً. . .».

* * *

وبعد بضعة أيام نزلنا في الاسكندرية، وغادرتها في أصيل اليوم نفسه إلى فلسطين.

وانطلق القطار عصر ذلك اليوم كالسهم عبر أراضي الدلتا الناعمة الرطبة. واعترضت طريقنا قنوات النيل، تظللها أشرعة الكثير من الصنادل، وكانت المدن الصغيرة ومجموعات البيوت الشهباء المغبرة، والمنارات تظهر وتختفي وكذلك القرى المؤلفة من الأكواخ الطينية، وحقول القطن المحصود، وحقول قصب السكر النابت، وأشجار النخيل الباسقة بكثرة حول مسجد القرية، والجواميس ذات الأطراف الثقيلة عائدة إلى حظائرها دونما دليل من البرك الموحلة حيث كانت تتمرغ في أثناء النهار. وفي المدى البعيد، رجال بأثوابهم الطويلة: لقد بدوا وكأنهم يعومون، ذلك أن الهواء كان خفيفاً وصافياً جداً تحت السماء المرتفعة الزرقاء الزجاجية. وعلى ضفاف القنوات كانت قضبان القصب تتمايل في الهواء، والنساء بأثوابهن السوداء يجرفن الماء في الجرار الفخارية، نساء مدهشات، رشيقات القدود، طويلات الأطراف، ذكرتني مشيتهن بالنبات الطويل الساق إذ يتأرجح بلطف، ولكن بقوة كاملة، في الهواء.

وهبط الليل، ووصلنا إلى قناة السويس، واستدار بنا القطار في زاوية مستقيمة، ثم انزلق هنيهة نحو الشمال بمحاذاة الضفة الرمادية السوداء. لقد كانت القناة في الليل أشبه بلحن طويل، وأحال ضوء القمر الممر المائي إلى شيء يشبه طريقاً حقيقياً ولكنه عريض، كما يتبدى لك في الحلم، أو شريطاً أسود من المعدن المتألق. وفسحت تربة وادي النيل المجال، بسرعة مدهشة، لسلاسل من الهضاب الرملية أحاطت بالقناة من الجانبين بشحوب وحدّة نادراً ما يراهما الناس في أيما منظر ليلي آخر. وفي الصمت المنصت كنت ترى أحياناً سائق الهجين يعدو ويعدو ولا يكاد يرى حتى يبتلعه الليل. . . أي مجرى عظيم، بسيط: من البحر الأحمر، عبر البحيرات المرة إلى البحر الأبيض المتوسط ـ رأساً عبر الصحراء حتى ليمكن للمحيط الهندي أن ينقر على أرصفة أوروبا. . .

وفي القنطرة انقطعت رحلة القطار هنيهة، وحملت معدية بطيئة المسافرين عبر المياه الصامتة. وكان علينا أن ننتظر قرابة ساعة قبل أن يتحرك القطار الفلسطيني، فجلست أمام بناء المحطة. كان الهواء دافئاً وجافاً، ذلك أن الصحراء كانت هناك، عن اليمين وعن الشمال. وخرج من المعدية بدوي مثقل بحمل من الأخراج المصنوعة من قماش البسط الزاهي، ومشى نحو جماعة عرفت عندها بالذات أنها

كانت تضم رجالاً قاعدين وهجاناً جاثمة مشدودة استعداداً للرحيل. وكأنما كان الجميع يتوقعون قدوم ذلك البدوي، ذلك أنه ألقى بالأخراج على ظهر إحدى المطايا، وتبادل مع رفاقه بضع كلمات، ثم ما لبث الجميع أن ركبوا بينما كانت المطايا في اللحظة نفسها، تنهض على قوائمها الخلفية أولاً، ثم على قوائمها الأمامية ـ وتأرجح الرجال إلى الأمام وإلى الوراء ـ ثم ابتعدوا محدثين ذلك الحفيف الناعم، وكنت أتتبع أجسام الحيوانات المتمايلة الخفيفة الظل، والعباءات البدوية الواسعة ذات الخطوط البنية البيضاء.

ومشى نحوي عامل من عمال محطة السكة الحديدية، وكان يلبس ثوباً أزرق كالذي يرتديه أمثاله من العمال، كما بدا لي أنه كان أعرج. وأشعل لفافته من لفافتي، ثم سألني بلغة فرنسية مهشمة:

ـ «هل أنت ذاهب إلى القدس؟»

وعندما أجبته بالإيجاب، أردف قائلاً: «لأول مرة؟»

وأومأت برأسي أن نعم، وكان على وشك أن يستمر في طريقه، غير أنه ما لبث أن استدار إليّ وقال: «هل رأيت هناك القافلة الكبيرة من صحراء سيناء؟»

ـ «لا؟ إذن تعال نزرها. لديك متسع من الوقت».

كانت نعال أحذيتنا تغوص في الرمل عندما مشينا في الفراغ الصامت وصعدنا طريقاً ضيقاً أدى بنا إلى الكثبان. وعوى كلب في الظلام. وإذ تابعنا سيرنا، متعثرين بالأشواك المنخفضة، طرقت آذاننا أصوات مشوشة خفيضة كأنما كانت صادرة عن أناس كثيرين. وشممنا رائحة حادة، وناعمة مع ذلك، تنبعث من أجساد حيوانات كثيرة، هاجعة، وتمتزج بهواء الصحراء الجاف. وفجأة ـ تماماً كما ترى في المدينة، في ليلة يكتنفها الضباب، وميض مصباح لم يظهر لك بعد ينبعث من وراء زاوية الشارع ـ بدا لنا شعاع دقيق من النور ينبعث من أدنى كأنما من تحت الأرض، ويتسلق عمودياً الظلمة القاتمة. لقد كان لماعاً صادراً من نيران موقدة في مضيق عميق بين كثيبين رمليين، مكسو بالأشواك بغزارة كلية حتى ليتعذر على المرء أن يرى منه القاع. واستطعت الآن أن أسمع بوضوح أصوات رجال يتكلمون، ولو أنني لم أستطع رؤيتهم بعد. سمعت تنفس الإبل واحتكاك أجسادها بعضها ببعض في ذلك المجال الضيق. وبعد مسير بضع خطوات استطعت أن أرى كل شيء ـ دائرة كبيرة من الجمال الراكضة وأكواماً من السروج والأكياس هنا وهناك، وبينها رجال يروحون ويغدون. وكانت

رائحة الإبل حلوة وثقيلة كرائحة الخمر، وكان أحدها يتحرك أحياناً رافعاً عنقه إلى أعلى ويرسل في سكون الليل زنخرة أشبه ما تكون بالتنهد: وهكذا سمعت لأول مرة تنهد الإبل. وثغت شاة ثغاء ناعماً. ثم نبح أحد الكلاب، وكان الليل يتنهد في كل مكان خارج المضيق حالكاً والسماء خالية من النجوم.

وكان الوقت قد انقضى بسرعة، وهكذا كان عليّ أن أعود إلى المحطة، إلا أنني مشيت ببطء كبير في الطريق الذي كنا سلكناه، مذهولاً كأنما احتلت تلك الحادثة العجيبة زاوية من قلبي، فهي لا تغادرها أبداً.

* * *

وحملني القطار عبر صحراء سيناء، وكنت تعباً إلى أبعد حدود التعب، ألا يعرف النوم طريقه إلى عيني بسبب من برد الليل القارس في الصحراء واهتزاز القطار فوق القضبان المثبتة على الرمال السائبة. وجلس قبالتي بدوي ملتف بعباءة عظيمة الحجم بنية اللون. لقد كان هو الآخر يرتجف من البرد رغم أنه كان قد لف وجهه بكوفيته. كان جالساً القرفصاء على المقعد، وعلى ركبتيه سيف منحن في غمد محلى بالفضة. وبدأ الفجر يطلع، وكان باستطاعتي أن أرى معالم الكثبان في الخارج، وشجيرات الصبير.

لا أزال أذكر كيف انبثق الفجر ـ وكيف رفع كثبان الرمال تدريجياً من الظلمة وبنى منها كتلاً متناغمة متناسقة. وعلى ضوئه النامي، ظهرت مجموعة من بيوت الشعر السوداء ومرت مسرعة، وإلى جانبها، كستائر الضباب في الهواء، انتشرت شباك الصيد عمودياً بين الأعمدة كيما تجف: شباك صيد في الصحراء ـ ترفرف في هواء الصباح ـ أقنعة أحلام، شفافة وهمية، بين الليل والنهار.

كانت الصحراء إلى اليمين، والبحر إلى اليسار، وكان على الشاطىء سائق مطية متوحد، لعله ظل راكباً طيلة الليل. لقد بدا لي الآن وكأنه نائم، غائر في الشداد، وكان كلاهما، الإنسان والحيوان، يتأرجحان معاً بتناغم واتساق. وظهرت بيوت الشعر مرة أخرى، وكانت النسوة قد خرجن منها يحملن على رؤوسهن الجرار الخزفية في طريقهن إلى البئر. ومن النور الخافت الذي انقلب إلى نور باهت كان ينبثق عالم شفاف تحركه دوافع غير مرئية، معجزة قوامها كل شيء بسيط لا يمكن أن يصل إلى نهاية.

وارتفعت الشمس في كبد السماء، ودخلنا واحة العريش التي تحف بها أشجار

النخيل. ولقد رأيت امرأة على رأسها جرة مملوءة بالماء عائدة ببطء من البئر فوق طريق يمتد تحت النخيل. كانت ترتدي ثوباً ملوناً بالأزرق والأحمر يجر وراءه ذيلاً طويلاً، وكانت أشبه بأميرة من أميرات الأساطير.

واختفت حدائق النخيل فجأة كما ظهرت فجأة، وكنا الآن نسير عبر الضياء البراق. وفي الخارج، وراء زجاج القاطرة المترجرج، كان هدوء لم أستطع له تصوراً من قبل كانت جميع الحركات والأجسام مجردة من الأمس والغد ـ كانت هناك وحسب، بشكل منقطع النظير. ومرة أو مرتين رأيت بدواً حفاة الأقدام وقافلة من الجمال محملة بسعف النخيل التي كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان. وشعرت بنفسي أسير ذلك المنظر الخلوي البديع.

ووقفنا مرات عديدة في محطات صغيرة لم تكن عادة أكبر من ثكنات من خشب وصفائح. وكان الأولاد السمر، وعلى أجسامهم خرق بالية، يركضون هنا وهناك يحملون السلال ويعرضون على المسافرين التين والبيض المسلوق وأرغفة الخبز العربي الطازج. ونهض البدوي الذي كان جالساً قبالتي ببطء، وحل كوفيته ثم فتح الشباك، فإذا به دقيق الوجه أسمر اللون، واحد من تلك الوجوه الصقرية التي تتطلع دائماً إلى الأمام بعمد وتصميم. لقد ابتاع قطعة من الكعك ثم استدار، وكان على وشك الجلوس عندما وقعت عيناه عليّ، ودون أن ينطق بكلمة، قسم كعكته إلى نصفين وقدم إليّ أحدهما. وعندما رأى ترددي ودهشتي، ابتسم ورأيت أن الابتسامة اللطيفة كانت تلائم وجهه كذلك التصميم الذي بدا عليه منذ لحظة ـ وقال كلمة لم أفهمها عندئذ ولكنني أعرفها الآن: تفضل. وأخذت قطعة الكعك وشكرته بإيماءة من رأسي. وتطوع للترجمة مسافر كان يرتدي، باستثناء طربوشه الأحمر، الثياب الأوروبية، ولعله كان تاجراً صغيراً، فقال بلغة انكليزية متقطعة:

ــ «إنه يقول إنك أنت مسافر، وإنه هو مسافر، وطريقكما واحدة».

وعندما أفكر الآن بذلك الحادث البسيط، يخيل إليّ أن حبي كله للخلق العربي في ما بعد قد تأثر به. ذلك أن في بادرة هذا البدوي الذي شعر، رغم جميع حواجز الغربة، بصداقة رفيق عابر له في السفر فقاسمه الخبز، نفحةً من الإنسانية أحسست بها خالية من أي تصنع أو تكلف.

وبعد هنيهة قصيرة وصلنا إلى غزة، فبدت كقلعة قديمة، تعيش حياتها المنسية على رابية رملية بين رباع الصبير. وجمع رفيقي البدوي أخراجه وحياني بابتسامة

رزينة وإيماءة من رأسه، ثم غادر العربة ساحباً معه التراب بذيل عباءته الطويل. ووقف بدويان آخران خارج الرصيف وصافحاه مرحبين به، وطبعا قبلة على كل من خديه.

ووضع المسافر الذي تطوع للترجمة يده على ذراعي: «تعال، لا يزال أمامنا ربع ساعة».

وكانت قافلة مخيمة وراء بناء المحطة. لقد كان أفرادها، كما أخبرني رفيقي، بدواً من شمالي الحجاز. كانت وجوههم سمراء مغبرة حادة، وكان صديقنا واحداً منهم. وقد ظهر لنا أنه شخص ذو مكانة، ذلك أنهم وقفوا حوله في نصف دائرة، وأخذوا يجيبون على أسئلته. وتحدث التاجر إليهم وما لبثوا أن التفتوا نحونا وأمارات الود على وجوههم - وبشيء من الزهو، كما قدرت - وهم يفكرون في ما نحن فيه من حضارة. لقد كان يغمرهم جو من الحرية، وشعرت برغبة قوية في أن أفهم ما في حياتهم. كان الهواء جافاً، متذبذباً وخيل إليّ أنه كان ينفذ إلى العظام. وبدأ يتضح لي أن أولئك الناس الذين يأتون من محيط الصحراء لا بدّ أن يحسوا ويشعروا الحياة بطريقة تختلف تمام الاختلاف عن أولئك الذين يعيشون في المناطق الأخرى. إنهم لا بدّ أن يكونوا متحررين من كثير من الملازمات الوهمية - ولربما كذلك من كثير من الأشواق - التي تتميز بها حياة سكان البلاد الأكثر برودة وغنى، وبالتالي من كثير من حدودهم وقيودهم. وبسبب من أن سكان الصحراء يجب أن يعتمدوا على إحساساتهم ومشاعرهم الخاصة فإنهم لا بدّ من أن يكون لهم مقياس مختلف للقيم يقيسون به أمور العالم.

ولعل شعوراً داخلياً بانقلابات مقبلة في حياتي استولى عليّ في ذلك اليوم الأول من أيامي في بلد عربي لدى رؤية البدو: شعور داخلي بعالم لا حدود له ولكنه مع ذلك، ليس عديم الشكل أبداً: عالم كان من المقدر أن يصبح سريعاً، عالمي أنا. وأنا لا أعني بذلك أنني كنت أدرك عندئذ ما كان يخبئه لي المستقبل. بالطبع لا. ولكنه كان بالأحرى مثل ذلك الشعور الذي يخالجك إذا ما دخلت لأول مرة بيتاً غريباً، وفاحت من القاعة رائحة لا يمكن تحديدها تجعلك تدرك إدراكاً غامضاً ما سيحدث في ذلك البيت، وما سيحدث لك: فإذا كانت أشياء سارة أخذتك نشوة من الفرح - وستذكرها بعد وقت طويل جداً وتقول لنفسك: كل هذا أحسست به منذ زمن طويل، هكذا وبالطريقة نفسها في تلك اللحظة الأولى في القاعة.

ـ ٢ ـ

وعصفت ريح شديدة في الصحراء، مما حدا بزيد إلى أن يظن هنيهة أننا سنواجه عاصفة رملية أخرى. ومع أن العاصفة الرملية لم تهب، فإن الريح ظلت تلازمنا وتتبعنا بهبات ثابتة ذات عزيف واحد غير منقطع بينما انحدرنا في أحد الأودية الرملية. وكانت القرية في وسط الوادي كثيرة النخيل، مؤلفة من عدة بيوت منفصلة يحيط بكل منها حائط من طين، يكتنفها غبار الرمال المدوّمة.

كانت هذه المنطقة عبارة عن «جحر رياح»: في كل يوم، من مطلع الفجر حتى غروب الشمس، تعصف الرياح بأجنحتها القوية، ولا تهدأ إلا في الليل لتهب في الصباح التالي بقوة متجددة. وكانت أشجار النخيل، بسبب من ضغط الريح الدائم، لا تستطيع أن تنمو نمواً كاملاً، بل تظل عاجزة عن النمو، قريبة من الأرض، تنشر سعفها العريض على جوانبها وفي خطر دائم من الكثبان الزاحفة. ولا شك في أن القرية لا بدّ أن تكون قد دفنت تحت الرمال منذ زمن طويل لو لم يعمد سكانها إلى زرع نبات الطرفاء حول كل حديقة من حدائقها، ذلك أن هذه الأشجار الأكثر صموداً من أشجار النخيل، تشكل جذوعها القوية وأغصانها الدائمة الاخضرار جداراً حياً حول المزروعات وتسبغ عليها أمناً مبهماً.

وحططنا الرحال أمام بيت أمير القرية المبني من الطين، وعزمنا على أن نستريح هناك ونتفادى حر الظهيرة. وكانت قاعة القهوة المخصصة لاستقبال الضيوف جرداء فيها كل معالم الفقر، خالية إلا من حصيرة موضوعة قرب موقد القهوة الحجري. ولكن الضيافة العربية، كالعادة، تغلب كل فقر. ذلك أننا لم نكد نجلس على الحصيرة حتى أخذت النار تتقد في الموقد وأسبغ رنين الهاون الذي كانت حبوب البن المحمص الطازج تدق فيه، حياة على القاعة وقدمت إلينا قصعة مليئة بالتمر.

ودعانا مضيفنا، وكان شيخاً قصيراً في عينيه ضعف وعلى جسمه رداء قطني وكوفية فحسب، إلى الطعام قائلاً:

ـ «أطال الله عمركما. البيت بيتكما فكلا باسم الله. هذا كل ما عندنا» ـ ثم قام بحركة اعتذارية من يده وكانت حركة بسيطة تجلى فيها وزن مصيره العسير ـ «ولكن التمر ليس رديئاً، فكلا، أيها المسافران، مما نستطيع أن نقدمه إليكما».

والحق أن ذلك التمر كان من أفضل ما طعمت طول حياتي، وكان واضحاً أن مضيفنا كان مسروراً من جوعنا الذي كان بمقدوره أن يذهب به، وتابع قائلاً:

ـ «الريح، الريح. إنها تجعل حياتنا قاسية، ولكنها إرادة الله. إن الريح تهلك نخيلنا، وإن علينا دائماً أن نناضل حتى لا تغطيه الرمال. ولم تكن هذه حالنا دائماً. ذلك أنه في السابق لم تكن الريح بهذه الكثرة وهذه القوة، وكانت القرية كبيرة وغنية. أما الآن فقد صغرت، وأن كثيراً من شبابنا يهجروننا، إذ ليس كل واحد يستطيع احتمال حياة كهذه. إن الرمال لتطبق علينا يوماً بعد يوم، ولن يكون هناك، عاجلاً، متسع للنخيل. هذه الريح... ولكننا لا نشكو... فكما تعلمان، أن النبي ﷺ، أخبرنا أن الله يقول ما معناه: «لا تسبوا الدهر لأني أنا الدهر».

ولا بدّ أنني قد أجفلت، ذلك أن الرجل الشيخ توقف عن الكلام ونظر إليّ بانتباه وكأنما عرف سبب إجفالي، ثم ابتسم ابتسامة عذبة رقيقة كابتسامة المرأة التي نادراً ما تراها على شفتي مثل ذلك الوجه التعب المنهوك القوى، وكرر هامساً كأنما يحدث نفسه:

«لأني ـ أنا الدهر ـ» وفي تلك الإيماءة التي كانت تصاحب كلماته، كان يظهر ذلك الرضى الفخور الصامت بمكانه الخاص في الحياة، ولم أر قط في حياتي، حتى لدى السعداء من الناس انصياعاً للحقيقة معبراً عنه بمثل هذا القدر من الهدوء والاطمئنان. وكان، بدورة عريضة غامضة من ذراعه، يصف دائرة في الهواء ـ دائرة تكتنف كل شيء ينتمي إلي هذه الحياة: الغرفة الفقيرة المظلمة، والريح وزمجرتها الأبدية، تقدم الرمال تقدماً لا يرحم ولا يلين، والحنين إلى السعادة، والتسليم بما لا يمكن أن يبدل، والقصعة الممتلئة بالتمر، والحدائق المكافحة وراء درعها من نبات الطرفاء، والنار في الموقد، وضحكة امرأة يافعة في مكان ما من صحن الدار: وفي كل هذه الأشياء والحركة التي عبرت عنها ووحدت بينها خيل إليّ أنني أسمع غناء روح قوية لا تعرف للظروف حدوداً ولا حواجز، روح مطمئنة إلى نفسها.

وعادت بي الذاكرة إلى زمن طويل مضى، إلى ذلك اليوم من أيام الخريف في القدس منذ عشر سنوات، عندما تحدث إلي رجل شيخ آخر عن التسليم إلى الله، الذي وحده يمكن المرء من أن يكون مطمئناً إلى نفسه، وبالتالي إلى مصيره.

* * *

في ذلك الخريف من عام ١٩٢٢، كنت أعيش في بيت خالي دوريان، داخل مدينة القدس القديمة. وكانت السماء تمطر كل يوم تقريباً، مما لم يمكنني من الخروج إلا قليلاً. ولذا فإني كثيراً ما كنت أجلس إلى النافذة التي كانت تطل على

فناء متسع وراء البيت. وكان هذا الفناء ملكاً لرجل عربي هرم كان يدعى «حاجي». كان يؤجر الحمير للركوب وحمل الأثقال، وهكذا جعل من الفناء نزلاً لمبيت القوافل.

وفي كل صباح، قبيل الفجر، كان يؤتى بأحمال الخضار والأثمار إلى ذلك الفناء على الجمال من القرى المجاورة، لترسل من هناك على الحمير إلى شوارع الأسواق الضيقة في المدينة. وفي أثناء النهار كانت أجسام الجمال الثقيلة ترى مضطجعة على الأرض، والرجال لاغطين دائماً منهمكين بالعناية بها وبالحمير، إلا إذا اضطروا إلى أن يلجأوا إلى الاسطبلات وقاية لأنفسهم من المطر المنهمر. لقد كانوا فقراء لا تستر أجسامهم سوى ثياب رثة بالية، ولكنهم كانوا يتصرفون كالسادة العظام. وعندما كانوا يجلسون معاً لتناول الطعام على الأرض، ويأكلون أرغفة الخبز المنبسطة مع قليل من الجبن أو بعض حبات من الزيتون، لم أكن أستطيع إلا أن أعجب بنبل جلدهم واحتمالهم وهدوئهم الداخلي: كنت تستطيع أن ترى أنهم يكنون الاحترام لأنفسهم ولأمور حياتهم اليومية. وكان «الحاجي» يتجول بينهم مستنداً إلى عصاه ـ ذلك أنه كان يشكو التهاب المفاصل وكانت ركبتاه متورمتين ـ ويبدو وكأنه زعيم عليهم، فقد رأيت أنهم يطيعونه دونما تردد أو سؤال.

وكان يجمعهم عدة مرات في النهار للصلاة وكانوا يؤدونها في الخلاء إذا لم يكن المطر منهمراً بغزارة: كانوا يقفون جميعاً في صف طويل واحد، وكان هو أمامهم. كانوا كالجنود في دقة حركاتهم ـ ذلك أنهم كانوا ينحنون معاً باتجاه مكة، ثم ينهضون ثانية ليركعوا من ثم وتلمس جباههم الأرض. كانوا يتبعون كلمات قائدهم الخافتة، وكان يقف بين الركوع والسجود حافي القدمين على سجادته المعدة للصلاة، مغمض العينين، مكتوف الذراعين فوق صدره، محركاً شفتيه دونما صوت، شارداً في استغراق عميق: لقد كان في مكنتك أن ترى أنه كان يصلي بروحه كلها.

والحق أنه قد أزعجني أن أرى مثل تلك الصلاة العميقة مقترنة بحركات جسمانية آلية، فسألت «الحاجي» ذات يوم، وكان يفهم الانكليزية قليلاً:

ـ «هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له احترامك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسه وأن يصلي إلى الله في قلبه؟ لمّ حركات جسمك هذه كلها؟»

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت بالندم وتبكيت الضمير. ذلك أنني لم أكن أنوي أن أجرح شعور الشيخ الديني. ولكن «الحاجي» لم يبد عليه قط أمارات

الاستياء. لقد افترّ فمه، الخالي من الأسنان، عن ابتسامة، وأجاب:

ـ «بأية طريقة أخرى، إذن، يجب أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسد والروح معاً؟ وإذ كان هذا كذلك أفلا يجب أن يصلي الإنسان بجسده كما يصلي بروحه؟ أسمع، سأفهمك لمَ نصلي نحن المسلمين كما نصلي. إننا نولي وجوهنا نحو الكعبة، بيت الله الحرام في مكة، مدركين أن المسلمين كلهم، حيثما كانوا، مولون وجوههم نحوها في صلاتهم، وأننا كجسم واحد، وأن الله هو محور تفكيرنا جميعاً. نحن نقف أولاً مستقيمين ونقرأ شيئاً من القرآن الكريم، ذاكرين أنه كلمة الله أنزلها على الإنسان كيما يكون مستقيماً رصيناً في الحياة. ثم نقول: الله أكبر، مذكرين أنفسنا بأنه ما من أحد يستحق أن يعبد إلا هو، ونركع لأننا نعتبره فوق كل شيء، ونسبّح بعزته ومجده. وبعد ذلك نسجد على جباهنا لأننا نشعر بأننا لسنا تجاهه إلا من العدم والتراب، وأنه هو الذي خلقنا وهو ربنا الأعلى. نرفع وجوهنا عن الأرض ونبقى جالسين، داعين إليه أن يغفر ذنوبنا وأن يتغمدنا برحمته ويهدينا الصراط المستقيم ويهبنا العافية والرزق. ثم نسجد ثانية على الأرض ونلمس التراب بجباهنا تجاه عزة الواحد الأحد وعظمته. وبعد ذلك نستوي جالسين وندعو الله أن يصلي على النبي محمد الذي أبلغنا رسالته، كما صلى على الأنبياء من قبله، وأن يباركنا أيضاً وجميع من يتبعون سواء السبيل، ونسأله أن يهب لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وفي النهاية تدير رؤوسنا إلى اليمين وإلى الشمال قائلين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وبذلك نحيي كل من كانوا صالحين، في حيثما كانوا.

«هكذا كان النبي يصلي، وهكذا علم أتباعه الصلاة في جميع الأزمنة والعصور، وذلك كيما يسلموا أنفسهم إلى الله مختارين طائعين ـ وهذا هو معنى «الإسلام» ـ ويطمئنوا إليه وإلى مصيرهم أيضاً».

إن الرجل الشيخ لم يستعمل، طبعاً، هذه الكلمات بالضبط، ولكن هذا هو ما عناه، وهكذا أذكرها حتى اليوم. وبعد ذلك بسنوات عدة أدركت أن «الحاجي» بتفسيره البسيط قد فتح لي أول باب للدخول في دين الإسلام. ولكن حتى في ذلك الوقت، أي قبل أن يخالجني بزمن طويل أيما تفكير في أن الإسلام يمكن أن يصبح ديناً لي، بدأت أشعر بخضوع غير عادي كلما رأيت، وكثيراً ما رأيت، رجلاً يقف عاري القدمين على سجادته المخصصة للصلاة، أو على حصيرة من قش، أو على الأرض العارية، مكتوف الذراعين، محني الرأس، مستغرقاً بالكلية في ذات نفسه، ناسياً كل ما يجري حوله، سواء كان ذلك في أحد المساجد أو على رصيف أحد

الشوارع المكتظة: رجلاً مطمئناً إلى نفسه.

* * *

والحق أن «البيت العربي الحجري» الذي كتب إليّ دوريان عنه كان جميلاً يبعث على البهجة والانشراح. كان يقوم في طرف المدينة القديمة قرب «بوابة يافا». وكانت غرفه رحبة ذات السقوف العالية تبدو وكأنها مشبعة بالذكريات عن الحياة الكريمة التي مرت بها الأجيال القديمة. وجدرانه ترجّع الحاضر الحي يصطخب فيها من السوق المجاورة مناظر وأصوات وروائح كانت تختلف عن كل شيء حبرته من قبل.

ومن السطح كنت أرى إلى المدينة القديمة بشوارعها الملتوية وأزقتها كأنها منحوتة من الصخر. وفي الطرف الآخر كنت أرى مقام هيكل سليمان وكأنه على مقربة مني لضخامته، واتساعه. أما المسجد الأقصى ـ أكثر المساجد قدسية بعد مسجد مكة ومسجد المدينة ـ فقد كان يقوم على حافتها القصوى، وقبة الصخرة في الوسط.

كانت القدس عالماً جديداً بالكلية بالنسبة إليّ. كانت هناك ذكريات تاريخية تنبعث من كل زاوية من زوايا المدينة القديمة: الشوارع التي أصغت إلى موعظة النبي أشعيا، والأحجار التي مشى عليها المسيح، والجدران التي كانت قديمة عندما رجعت خطو الجيوش الرومانية، والأقواس فوق المداخل التي كانت تحمل النقوش من أيام صلاح الدين. وكانت هناك زرقة السماء الداكنة التي ما كان يمكن أن تكون غير مألوفة لدى من يعرفون بلدان البحر الأبيض المتوسط الأخرى. أما بالنسبة إليّ، أنا الذي نشأت في بلاد لا تتمتع بمثل ذلك الجو البديع، فإن هذه الزرقة كانت بمثابة نداء ووعد، وكانت البيوت والشوارع تبدو وكأنها مكسوة بدهان خزفي متموج لطيف، وكان الناس ممتلئين حركة تلقائية ونبلاً ـ الناس ـ أي العرب: ذلك أنهم هم الذين أوحوا إليّ منذ البداءة أنهم أصحاب الأرض، أصحابها الذين نشأوا من ترابها وتاريخها وكانوا جزءاً لا يتجزأ من الهواء الذي يحيط بها. كانت ثيابهم متعددة الألوان وكل واحد منهم (سواء كان فلاحاً أم بدوياً، لأنك كثيراً ما كنت ترى البدو يأتون إلى المدينة لشراء حاجاتهم أو بيع بضائعهم)، يرتديها بطريقة خاصة به تختلف اختلافاً ضئيلاً عن طرق الآخرين، كأنما كان قد اخترع زياً شخصياً عفو الساعة.

وأمام بيت دوريان، ولربما كان على مبعدة أربعين متراً، ارتفعت جدران القلعة

القديمة الواقفة الانحدار والتي عفى عليها الزمن، تلك القلعة التي كانت جزءاً من استحكامات المدينة القديمة ـ قلعة عربية نموذجية من العصور الوسطى، لعلها بنيت على أسس هيرودية ذات برج نحيل للمراقبة يشبه المئذنة. وعلى جانب المدينة القديمة كان هناك برج عريض منخفض يمتد خلاله المدخل وجسر حجري يصل الخندق القديم بالبوابة. وكان الجسر المقنطر، كما ظهر لي المكان الذي يلتقي فيه البدو كلما سنحت لهم الفرصة للقدوم إلى المدينة.

وذات يوم، لاحظت بدوياً طويل القامة يقف هناك دونما حراك. وكان وجهه الذي تعلوه لحية قصيرة حمراء، يحمل معنى الجد والرزانة العميقين! كان يتجلى فيه الوقار كأنما كان يتوقع شيئاً، ومع ذلك لم يكن متفائلاً به، كانت عباءته الفضفاضة، المقلمة بالأحمر والأبيض، بالية مهلهلة ـ وخطرت لي فكرة خيالية، لم أدر لها سبباً، أن تلك العباءة قد بليت في أشهر كثيرة من المخاطرة والهرب. فهل كان، لربما، من تلك القبضة من المحاربين الذين صحبوا داود الشاب أثناء هربه من حسد ملكه طالوت؟ لعل داود كان نائماً الآن مختبئاً في مكان ما من غار في شعاب في جوار القدس، وهذا الرجل هنا، هذا الصديق الأمين الشجاع، كان قد جاء خلسة مع رفيق له إلى مدينة الملك ليقف على شعور طالوت نحو داود، وما إذا كان لداود أن يأمن العودة. والآن، كان صاحب داود هذا ينتظر هنا مجيء رفيقه، وكان غير مستبشر بما سيجري لداود.

وتحرك البدوي فجأة، ثم شرع يهبط الجسر، واستفقت من تلك الفكرة الخيالية التي خطرت لي. وعندئذ ذكرت: هذا الرجل هو عربي، في حين أن أولئك القوم الآخرين، الذين جاء ذكرهم في التوراة، كانوا عبرانيين! ولكن دهشي لم يدم إلا لحظة واحدة، ذلك أني عرفت حالاً، بذلك الوضوح الذي يلتمع فينا أحياناً كالبرق، ويضيء العالم كله مدة لا تتجاوز خفقة القلب، أن داود، وزمن داود، شأن إبراهيم وزمن إبراهيم، كانا أقرب إلى جذورهما العربية ـ وكذلك إلى بدو اليوم ـ من يهودي اليوم، الذي يدعي أنه متحدر منهما.

وكثيراً ما كنت أجلس على حجر «الدرابزين» تحت بوابة يافا أراقب الجماهير المزدحمة تدخل المدينة القديمة أو تخرج منها. كان الناس هنا يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب يهوداً وعرباً على اختلاف ألوانهم. كان هناك الفلاحون الأشداء بكوفياتهم البيضاء أو البنية أو عماماتهم البرتقالية اللون. وكان هنالك البدو بوجوههم الصارمة النحيلة، يرتدون عباءاتهم بطريقة غريبة توحي الثقة بالنفس، ويضعون أيديهم على

أوراكهم مباعدين بين مرافقهم كأنما هم يفرضون أن كل واحد لا بدّ أن يخلي لهم الطريق. وهناك الفلاحات بحللهن المصنوعة من الخام الأسود أو الأزرق الموشى بالأبيض عند الصدر، يحملن غالباً السلال على رؤوسهن ويخطرن برشاقة لدنة سهلة. ولو قدر لك أن تراهن من الوراء إذن لحسبت من كانت منهن في سن الستين فتاة في مقتبل العمر. وكانت عيونهن تبدو صافية دائماً وغير متأثرة بأعمارهن، إلا إذا صدف أن كن مصابات بالتراخوما، المرض المشؤوم الذي هو لعنة جميع الأقطار الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط.

وكان هنالك اليهود: يهود محليون، يلبسون الطربوش والعباءة المتسعة الكثيرة الطيات واللفات، ويشبهون من حيث نموذجهم الوجهي العرب إلى حد بعيد، ويهود من بولندا وروسيا يبدون وكأنهم يحملون معهم كثيراً من تفاهة حياتهم الماضية في أوروبا وضيقها، حتى أنك لتدهش إذ تفكر في دعواهم أنهم من الأرومة نفسها التي ينتمي إليها اليهودي الأنوف من مراكش أو تونس ببرنسه الأبيض. إلا أنه بالرغم من أن اليهود الأوروبيين كانوا غير منسجمين، إلى حد بعيد، مع الصورة المحيطة بهم، فقد كانوا هم الذين يرسمون الحياة والسياسة اليهوديتين، مما جعلهم يبدون مسؤولين عن الاحتكاك الذي كاد يكون ظاهراً جلياً بين اليهود والعرب. ماذا كان الأوروبي العادي يعرف عن العرب في تلك الأيام؟ لا شيء تقريباً. لقد حمل معه عندما جاء إلى الشرق الأوسط بعض الأفكار الخيالية المغلوطة، ولو أنه كان حسن النية جاداً عقلياً، إذن لكان عليه أن يعترف بأنه لم يكن لديه أية فكرة عن العرب إطلاقاً. أنا، أيضاً، قبل أن آتي إلى فلسطين لم أفكر فيها مطلقاً كأرض عربية. لقد كنت أعرف، طبعاً، وبصورة غامضة، أن «بعض» العرب كانوا يعيشون هناك، ولكنني لم أتصورهم سوى قوم رحل في خيام صحراوية، وسكان واحات رعاة. وبسبب من أن معظم ما كنت قد قرأته عن فلسطين في الأيام السابقة كان بأقلام الصهيونيين ـ الذين كانوا بالطبع لا يعنون إلا بمسائلهم الخاصة ـ فإنني لم أدرك أن المدن كانت أيضاً مليئة بالعرب ـ وأنه، في الحق، كان في فلسطين في ذلك العام ـ ١٩٢٢ ـ خمسة من العرب مقابل كل يهودي واحد، وأن فلسطين، بالتالي، كانت بلداً عربياً أكثر منه يهودياً إلى درجة بعيدة جداً.

وعندما أبديت هذه الملاحظة للسيد أوسيشكين، رئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية، الذي التقيته في أثناء ذلك، كنت أحس أن الصهيونيين لم يكونوا يهتمون كثيراً بواقع الأكثرية العربية، وأنهم لم يكونوا ليعلقوا أية أهمية على مقاومة العرب

للصهيونية. أن السيد أوسيشكين لم يظهر سوى الازدراء بالعرب:

ـ «ليس هناك حركة عربية حقيقية ضدنا، أعني ليس هناك حركة جذورها في الشعب. إن كل ما تعتبره مقاومة للصهيونية إن هو في الحقيقة إلا صراخ عدد ضئيل من المشاغبين الساخطين. إنها ستنهار من تلقاء نفسها خلال بضعة أشهر أو بضع سنين على الأكثر».

ولكن هذا القول كان بعيداً جداً عن أن يقنعني. لقد شعرت منذ البداية أن فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين فكرة مصطنعة من أساسها، وأنها ـ وهذا ما كان أدهى وأمرّ ـ كانت تهدد بنقل جميع مشاكل الحياة الأوروبية وتعقيداتها غير القابلة للحل إلى بلد كان يمكن أن ينعم بقدر أكبر من السعادة دونها. إن اليهود لم يكونوا في الحق يأتون إلى فلسطين كما يعود المرء إلى وطنه، ولكنهم كانوا مصممين على قلبها وطناً يهودياً على النمط الأوروبي وذا أهداف أوروبية. وبالاختصار لقد كانوا أعداء داخل الأسوار. وهكذا فإنني لم أجد أيما خطأ أو جور في عزم العرب على مقاومة فكرة الوطن اليهودي في صميم بلادهم. بل على العكس، أدركت أن العرب هم الذين كانوا يخدعون، وأنهم كانوا على حق بدفاعهم عن أنفسهم ضد هذه الخديعة.

في تصريح بلفور عام ١٩١٧، ذلك التصريح الذي وعد اليهود «وطناً قومياً» في فلسطين، رأيت مناورة سياسية ظالمة قصد منها تغذية المبدأ القديم المشترك بين الدول المستعمرة جميعاً: مبدأ «فرق تسد». ففيما يتعلق بفلسطين، كان هذا المبدأ مفضوحاً أكثر ما يكون، ذلك أنه في عام ١٩١٦ كان الانكليز قد وعدوا حاكم مكة، الشريف حسيناً، دولة عربية مستقلة تضم جميع البلدان الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي، ثمناً لمساعدته إياهم ضد الأتراك، ولكنهم لم يخلفوا وعدهم بعد سنة بعقدهم معاهدة سايكس بيكو مع فرنسا فحسب (تلك المعاهدة التي ثبتت السيطرة الفرنسية على سوريا ولبنان) بل استثنوا ضمناً، فلسطين من الالتزامات التي كانوا قد أخذوها على عاتقهم نحو العرب.

وبرغم أنني من أصل يهودي، فقد كنت أحمل منذ البداءة مقاومة شديدة للصهيونية. ففيما عدا عطفي الشخصي على العرب، كنت أعتبر أن من المخالف للأخلاق والمروءة أن يأتي الأغراب، تسندهم دولة أجنبية كبرى من الخارج، وهم يصرحون علناً بعزمهم على أن يصبحوا أكثرية في البلاد وينتزعوا بالتالي ملكيتها من الشعب الذي كانت ملكاً له منذ عهد مغرق في القدم. وتبعاً لذلك فقد كنت ميالاً إلى أن آخذ جانب العرب كلما دار الحديث عن المسألة العربية ـ اليهودية مما كان يحدث

طبعاً، أحياناً كثيرة جداً. وهذا الاتجاه الذي كنت أصطنع كان يستعصي على فهم جميع اليهود الذين اتصلت بهم في ابان تلك الأشهر. لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يفهموا ماذا كنت أرى في العرب الذين، في رأيهم، لم يكونوا أكثر من كتلة من الناس المتأخرين الذين كان اليهود ينظرون إليهم بشعور لا يختلف كثيراً عن شعور المستوطنين الأوروبيين في افريقيا الوسطى. إنهم لم يكونوا يهتمون أيما اهتمام في ما كان العرب يفكرون به، وأن واحداً منهم لم يجشم نفسه عناء تعلم اللغة العربية، كما كان كل واحد منهم يتقبل دونما سؤال القول بأن فلسطين كانت الإرث الشرعي لليهود.

لا أزال أذكر مناقشة قصيرة جرت بهذا الصدد بيني وبين الدكتور حاييم وايزمن زعيم الحركة الصهيونية غير منازع. لقد كان يقوم بإحدى زياراته الدورية إلى فلسطين (كان مقره الدائم، كما أعتقد، في لندن) فالتقيته في بيت أحد أصدقائي اليهود. وإن المرء لا يمكن إلا أن يشعر بطاقة هذا الرجل، تلك الطاقة التي كانت تتجلى في حركات جسمه، وفي تلك الخطوات الواسعة المرنة التي كان يذرع بها الغرفة جيئة وذهوباً وفي القوة العقلية التي تكشف عنها جبهته العريضة ونظراته النافذة.

كان يتكلم عن المصاعب المالية التي كانت تكتنف حلم الوطن القومي اليهودي، وعن الاستجابة غير الكافية لهذا الحلم في الخارج. وكانت لديّ الانطباعة المقلقة أن الدكتور وايزمن نفسه، شأن معظم الصهيونيين الآخرين، كان ميالاً إلى أن ينقل المسؤولية المعنوية عن كل ما كان يحدث في فلسطين إلى العالم الخارجي. وهذا ما حملني على أن أقطع الصمت الذي كان جميع الحاضرين ينصتون به إليه إكراماً واحتراماً، وأن أسأل:

ــ «وماذا عن العرب؟»

ولا بد أنني قد اقترفت زلة بإبدائي مثل هذه الملاحظة أثناء الحديث، وذلك أن وايزمن أدار وجهه إليّ ببطء ووضع الفنجان الذي كان ممسكاً به بيده، وكرر سؤالي:

ــ «وماذا عن العرب. . . ؟»

فقلت: «حسناً. . كيف تستطيعون أن تأملوا في أن تجعلوا من فلسطين وطناً لكم تجاه المقاومة العنيفة المتوقدة التي يبديها العرب الذين هم، على كل حال، يشكلون الأكثرية في هذه البلاد؟»

وهز الزعيم الصهيوني كتفيه وأجاب بجفاء: «إننا نتوقع أن لا يعودوا أكثرية بعد بضع سنوات».

ــ «لعله كذلك. لقد مضت عليك عدة سنوات وأنت تعالج هذه المشكلة، فيجب أن تكون ملماً بالوضع أكثر من إلمامي به. ولكن بغض النظر بالكلية عن المصاعب السياسية التي قد يضعها العرب في طريقكم أو قد لا يضعونها ـ ألا تزعجك الناحية الأخلاقية والأدبية من المشكلة أبداً؟ ألا تعتقد أنه من الجور والظلم من ناحيتكم أن تحلوا محل الناس الذين عاشوا دائماً في هذه البلاد؟»

ــ «ولكنها بلادنا»، أجاب الدكتور وايزمن، رافعاً حاجبيه: «إننا لا نفعل شيئاً أكثر من استعادة ما انتزع منا ظلماً».

فأجبته: ولكنكم كنتم ولا تزالون بعيدين عن فلسطين قرابة ألفين من السنين. وقبل ذلك حكمتم هذه البلاد، ولكنكم لم تحكموها كلها، أقل من خمسمئة عام. ألا تعتقد أن العرب باستطاعتهم، على هذا الأساس نفسه، أن يطالبوا لأنفسهم بإسبانيا ـ لأنهم، على كل حال، حكموا في إسبانيا سبعمئة سنة تقريباً، ولم يفقدوها بالكلية إلا منذ خمسمئة سنة؟»

وكان جلياً أن صبر الدكتور وايزمن كان قد نفد إذ قال: «هراء، إن العرب لم يستولوا على إسبانيا إلا عن طريق الفتح. إنها لم تكن وطنهم الأصلي قط. وهكذا فإن العدل قد قضى في النهاية بخروجهم على أيدي الإسبانيين».

فأجبت: «عفوك ولكن يخيل إليّ أن هناك إغضاء تاريخياً. إن العبرانيين أيضاً جاءوا إلى فلسطين فاتحين. وقبلهم بزمن طويل كان كثير من القبائل السامية وغير السامية الأخرى مستقراً هنا ـ العموريون والأدوميون والفلسطينيون والمؤابيون والحثيون، وتلك القبائل ظلت تعيش هنا حتى في أيام مملكتي إسرائيل ويهوذا، وظلت أيضاً تعيش هنا بعد أن طرد الرومانيون أجدادنا، وهي تعيش هنا اليوم. إن العرب الذين استقروا في سوريا وفلسطين بعد فتحهما في القرن السابع كانوا دائماً أقلية صغيرة، أما الباقون الذين انطلق عليهم اليوم اسم «العرب الفلسطينيين» أو «العرب السوريين» فإنهم ليسوا في الحقيقة سوى سكان البلاد الأصليين المعربين. بعض هؤلاء أصبحوا مسلمين على مر العصور، في حين أن الآخرين منهم ظلوا مسيحيين، وكان طبيعياً أن يتزاوج المسلمون وإخوانهم في الدين من الجزيرة العربية. ولكن هل تستطيع أن تنكر أن جملة أولئك القوم في فلسطين، الذين يتكلمون العربية، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين، قد تحدروا مباشرة من السكان

الأصليين: الأصليين من حيث إنهم عاشوا في هذه البلاد قبل أن يجيء إليها العبرانيون بقرون؟»

وابتسم الدكتور وايزمن ساخراً لثورتي ووجه الحديث نحو موضوعات أخرى.

* * *

ولم أشعر بالسرور لنتيجة تدخلي. ولم أتوقع، طبعاً، من أي من الحاضرين ـ وآخرهم جميعاً الدكتور وايزمن نفسه ـ أن يشاركوني الاعتقاد بأن الفكرة الصهيونية قابلة جداً للانتقاد وعرضة للهجوم على الصعيد الأدبي، ولكنني كنت قد رجوت أن ينشىء دفاعي عن القضية، على الأقل، نوعاً من القلق وانشغال الفكر لدى القيادة الصهيونية، قلق قد يؤدي إلى قدر أكبر من التأمل الباطني، ولربما بالتالي إلى استعداد أكبر للاعتراف بوجود حق أدبي ممكن في المقاومة العربية... ولكن أياً من هذا لم يحدث، ذلك أنني بدلاً من ذلك، وجدت نفسي أواجه جداراً مسدوداً من الأعين المحملقة: مخالفة جدية لتهوري ونزقي، وجرأتي على أن أشك في حق اليهود الذي لا يقبل الشك، في نظرهم، في أرض أجدادهم...

وعجبت كيف يمكن أن يتسنى لقوم وهبهم الله الفطنة الخلاقة كاليهود أن يفكروا بالمشكلة الصهيونية ـ العربية من وجهة النظر اليهودية فحسب. ألم يكونوا يدركون أن مشكلة اليهود في فلسطين لا يمكن، مع الزمن، أن تحل إلا عن طريق التعاون الودي مع العرب؟ هل كانوا عمياً إلى مثل هذه الدرجة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يتبينوا المستقبل المؤلم الذي يجب أن ينتج عن سياستهم تلك؟ ـ عمياً عن المنازعات والأحقاد والضغائن التي لا بدّ أن تظل الجزيرة اليهودية، حتى ولو نجحت مؤقتاً، عرضة لها وسط ذلك الخضم العربي المناجز؟

وفكرت في ذات نفسي: أليس غريباً جداً أن تكون أمة عانت ضروباً كثيرة من الجور عبر تاريخها الطويل المؤلم، على استعداد الآن لتحقيق هدفها الأوحد: إنزال الظلم الفادح بأمة أخرى، أمة كانت بريئة من كل آلام اليهود الماضية. لقد عرفت أن مثل هذه الظاهرة لم تكن غريبة عن التاريخ، ولكنها جعلتني، مع ذلك، أراها تُشترع أمام عيني.

* * *

في ذلك الوقت لم يكن استغراقي في المشهد السياسي في فلسطين قائماً على

أساس من عطفي على العرب وقلقي على التجربة الصهيونية فحسب، بل أيضاً على أساس من انتعاش ميولي الصحفية: ذلك أنني كنت قد أصبحت المراسل الخاص لجريدة «فرانكفورتر تزايتونغ»[1] التي كانت عندئذ من أبرز الصحف في أوروبا وأكثرها قراءة. وقد نشأت هذه العلاقة بيني وبين الجريدة المذكورة عن طريق الصدفة تقريباً.

ففي ذات مساء بينما كنت أنسق الأوراق القديمة التي تشوش إحدى حقائبي وجدت البطاقة الصحفية التي كانت قد أصدرت لي قبل ذلك بعام واحد في برلين كمندوب لليونايتد تلغراف. وكنت على وشك أن أمزقها عندما أمسك دوريان بيدي وهتف مازحاً:

ـ «لا تفعل. إنك إذا أبرزت هذه البطاقة في مكتب المندوب السامي، فإنك خليق بأن تتسلم بعد بضعة أيام، دعوة إلى الغداء في دار الحكومة. . إن الصحفيين مخلوقات مرغوب فيها في هذه البلاد».

ومع أنني مزقت فعلاً البطاقة العديمة النفع، فقد أحدثت نكتة دوريان تأثيراً في نفسي. إنني لم أكن، طبعاً، لأهتم بالدعوة إلى الغداء في دار الحكومة ـ ولكن لماذا لا أنتهز الفرصة النادرة من وجودي في الشرق الأدنى في زمن لم يكن يستطيع فيه إلا القلائل من صحفيي أوروبا الوسطى السفر إليه؟ لماذا لا أستأنف عملي الصحفي ـ لا مع اليونايتد تلغراف بل مع إحدى الصحف اليومية الكبرى؟ وبالسرعة التي تعودت دائماً أن أتخذ بها قراراتي المهمة، قررت الآن أن أنفذ إلى صميم الصحافة الحقيقية.

وبالرغم من أنني كنت قد عملت سنة واحدة في اليونايتد تلغراف، فإنه لم يكن لي أي اتصال مباشر مع أية صحيفة مهمة. وإذ لم أكن قد نشرت بعد أي شيء باسمي الخاص، فإنه كان مجهولاً بالكلية من الصحافة اليومية. إلا أن هذا لم يثبط من عزمي، فقد كتبت مقالاً عن بعض انطباعاتي في فلسطين وأرسلت نسخاً منه إلى ما لا يقل عن عشر صحف ألمانية، مع عرض بكتابة سلسلة من المقالات عن الشرق الأدنى.

كان ذلك في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٢ ـ عندما كان التضخم يهدد بأكبر

(١) **Frankfurter Zeitung.**

كارثة عرفتها ألمانيا. وكانت الصحافة الألمانية في أزمة خانقة جعلتها تلجأ إلى الاقتصاد في سبيل الاستمرار، ولم تستطع سوى صحف قليلة أن تدفع مرتبات مراسليها الأجانب بالعملة الصعبة. . . وهكذا لم يكن عجيباً على الإطلاق أن تجيب صحيفة بعد أخرى من تلك التي كنت قد أرسلت إليها نموذجاً من مقالاتي برفض اقتراحي. ولكن واحدة فقط من تلك الصحف العشر قبلت عرضي، وعيّنتني متأثرة على ما ظهر لي، بما كنت كتبت، مندوبها المتجول في الشرق الأدنى، وأرفقت، بالإضافة إلى ذلك، عقداً يقضي بأن أكتب لها كتاباً بعد عودتي. تلك الصحيفة الواحدة كانت الـ «فرانكفورتر تزايتونغ». لقد كدت أتضعضع عندما رأيت أنني لم أنجح في إنشاء علاقة مع إحدى الصحف فحسب ـ وأية صحيفة ـ بل تحققت من الضربة الأولى، ببلوغ مركز كان يمكن أن يحسدني عليه أي صحفي قديم.

إلا أن الـ «فرانكفورتر تزايتونغ» بالنظر إلى التضخم، لم تستطع أن تدفع إليّ بالعملة الصعبة، ولذا كان التعويض لذي عرضته عليّ بالماركات الألمانية. لقد كنت أعرف، كما كانت إدارة الصحيفة تعرف، أنه لم يكن يكفي لشراء الطوابع اللازمة على المغلفات التي تحتوي مقالاتي، ولكن كوني المراسل الخاص لجريدة فرانكفورتر تزايتونغ كان امتيازاً رجح كثيراً على هذا العائق المؤقت. وإذن فقد أخذت أكتب المقالات عن فلسطين، راجياً أن يساعدني الحظ عاجلاً أو آجلاً، على القيام برحلة إلى أقطار الشرق الأدنى جميعاً.

* * *

ولقد أصبح لي الآن في فلسطين أصدقاء من العرب واليهود. إن الصهيونيين في الحق، كانوا ينظرون إليّ بريبة ذاهلة بسبب من عطفي على العرب الذي كان يتجلى في رسائل إلى «فرانكفورتر تزايتونغ». وواضح أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان العرب قد «اشتروني» (ذلك أن الناس في فلسطين الصهيونية كانوا قد اعتادوا أن يفسروا كل ما كان يحدث بلغة المال) أو أني مجرد عاقل منفرد برأيه حباً بالبيئة الشرقية الغريبة.

ولكن ليس كل اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين في ذلك الوقت كانوا صهيونيين. إن بعضهم لم يجىء إلى فلسطين سعياً وراء تحقيق هدف سياسي ولكن بدافع من الحنين الديني إلى الأرض المقدسة وذكرياتها التوراتية.

وإلى هذه الفئة كان ينتمي صديقي الهولاندي يعقوب دي هان، ذلك الرجل

القصير ذو الجسم الممتلىء واللحية الشقراء. كان في مطلع العقد الرابع من العمر، وكان سابقاً مدرساً للقانون في إحدى كبريات جامعات هولندا، ويعمل الآن مراسلاً خاصاً لجريدة «امستردام هاندلسلاد» و«دايلي اكسبرس» اللندنية. وإذا كان رجلاً ذا معتقدات دينية عميقة ـ متمسكاً بالدين كأي من يهود أوروبا الشرقية ـ فإنه لم يكن ليوافق على فكرة الصهيونية. ذلك أنه كان يعتقد أن عودة قومه إلى أرض الميعاد كان يجب أن تنتظر مجيء المهدي الموعود في الكتب اليهودية المقدسة.

«نحن اليهود»، كذلك قال لي في أكثر من مناسبة واحدة، «أخرجنا مس الأرض المقدسة وتشردنا في أنحاء العالم لأننا قصرنا في المهمة التي كان الله قد انتدبنا لها. لقد اختارنا الله كي نبشر بكلمته، ولكننا أمعنا في الزهو والكبرياء وأخذنا نعتقد أن الله قد جعلنا «شعباً مختاراً» إكراماً لنا كقوم ـ وبذلك خدعناه. أما الآن فلم يبق لنا إلا أن نندم وإلا أن نظهر قلوبنا، وحين نصبح جديرين مرة أخرى بأن نحمل رسالته، فعندئذ يرسل الله المهدي الموعود ليعود بعباده إلى أرض الميعاد...».

وسألته: «ألا تشمل الحركة الصهيونية أيضاً الفكرة المهدية هذه؟ أنت تعرف أنني لا أوافق على الصهيونية، ولكن ألا تعتقد أن من الطبيعي أن يرغب كل شعب في أن يكون له وطن خاص به؟»

ونظر إليّ الدكتور دي هان هازلاً وقال: «هل تعتقد أن التاريخ ليس إلا سلسلة من الصدف؟ إني لا أعتقد ذلك. إن الله لم يجعلنا نخسر أرضنا ويشردنا دون أن يكون له من وراء ذلك غاية. ولكن الصهيونيين لا يريدون أن يعترفوا بهذا لأنفسهم. إنهم يعانون ذلك العمى الروحي نفسه الذي سبّب سقوطنا. إن بقاء اليهود منفيين أشقياء طيلة ألفين من السنين لم يعلمهم شيئاً، فبدلاً من أن يقوموا بمحاولة لتفهم أعمق الأسباب في شقائنا تراهم الآن يحاولون أن يراوغوها، ببناء «وطن قومي» على أسس تقدمها سياسات الدول الغربية؛ وفي بنائهم هذا الوطن القومي، تراهم يقترفون جريمة حرمان شعب آخر من وطنه».

وآراء يعقوب دي هان السياسية جعلته بالطبع غير محبوب من الصهيونيين (والحق أنني صدمت عندما عرفت بعد مغادرتي فلسطين بوقت قصير أنه كان قد قتل في إحدى الليالي برصاص الإرهابيين الصهيونيين). وعندما عرفته كان اتصاله الاجتماعي مقصوراً على عدد قليل جداً من اليهود الذين كانت لهم طريقته نفسها في التفكير، ومن الأوروبيين والعرب. ولقد كان يبدو لي أنه كان يكنّ للعرب وداداً عظيماً، وأنهم بدورهم، كانوا يحترمونه ويجلونه، وكثيراً ما كانوا يدعونه إلى بيوتهم.

والحق أن العرب، في ذلك الحين، لم يكونوا قد أصبحوا متحزبين ضد اليهود عموماً، ذلك أنهم لم يشرعوا في أن يعتبروا اليهود أعداءهم السياسيين إلا بعد وعد بلفور - أي بعد قرون من حسن المجاورة وإدراك القرابة العنصرية.

ولكنهم حتى في الظروف التي تبدلت في السنوات العشرين الأولى من القرن الحاضر كانوا يفرقون بوضوح بين الصهيونيين واليهود الذين كانوا يظهرون لهم المودة أمثال الدكتور دي هان.

* * *

تلك الأشهر الأولى من أول مدة مكثتها بين العرب حركت سلسلة طويلة جداً من التأملات والخواطر، وكانت بعض الآمال ذات الطابع الشخصي تتطلب أن يسمح لها بالنفاذ إلى ضميري.

لقد قابلت وجهاً لوجه إدراكاً لمعنى الحياة كان جديداً بالكلية بالنسبة إليّ، فقد بدا لي أن هناك نسمة دافئة إنسانية تسيل من دم هؤلاء العرب إلى أفكارهم وحركاتهم خالية من أي تلك الصدوع الروحية المؤلمة، تلك الأشباح من الخوف والنهم والكبت التي كانت تجعل الحياة الأوروبية بشعة جداً ولا توحي إلا بالقليل من الأمل. لقد بدأت أجد في العرب شيئاً طالما فتشت عنه من غير شعور: رشاقة عاطفية في معالجة مسائل الحياة جميعاً وذوق شعوري أعلى.

ومع الزمن أصبح أهم شيء بالنسبة إليّ، أن أفهم روح أولئك المسلمين: لا لأن دينهم كان قد استمالني (ذلك أنني لم أكن أعرف عنه في ذلك الحين إلا القليل القليل)، بل لأنني وجدت فيهم الالتئام العضوي بين العقل والأحاسيس، ذلك الالتئام الذي كنا، نحن الأوروبيين، قد فقدناه. أفلا نستطيع، عن طريق تفهم حياة العرب تفهماً أفضل، أن نكتشف الصلة الخفية بين ما يكابده الغرب من انعدام الوحدة الذاتية، وبين جذور هذه المكابدة وأسبابها؟ أن نجد ذلك الشيء الذي جعلنا نحن الغربيين نهرب من حرية الحياة المقدسة التي يبدو أن العرب يملكونها، حتى في انحطاطهم وانحلالهم الاجتماعي والسياسي، والتي لا بدّ أننا كنا نملكها نحن أيضاً في الأزمنة السابقة؟ - وإلا فكيف تسنى لنا أن ننتج فننا الماضي العظيم: الكاتدرائيات القوطية في القرون الوسطى، الجذل المفرط في عصر النهضة، الجلاء والعتمة لرامبرانت، وأحلام موزار الهادئة، وقصف بتهوفن والارتقاء التواق إلى القمم الغامضة التي لا تدركها المشاعر والعقول، والتي عليها يمكن للإنسان أن يقول: «أنا ومصيري شيء واحد؟»

وإذا كنا، نحن الأوروبيين، غير مدركين لطبيعتهم الحقيقية، فإننا لم نعد نستطيع أن نفيد من قواهم الروحية بحق. إننا لن نتمكن من أن ننجب بعد الآن مثل بتهوفن ورامبرانت. وبدلاً من ذلك لم نعد نعرف الآن سوى ذلك التسكع اليائس وراء «صيغ جديدة من التعبير» في الفنون وعلم الاجتماع والسياسة، وذلك الصراع العنيف بين النداءات المتناقضة للحرب والمبادىء المخترعة بدقة زائدة. إن جميع آلاتنا وناطحات سحابنا لم تعد تستطيع شيئاً لإعادة وحدة روحنا المحطمة... ومع ذلك كنت أسائل نفسي ـ هل ضاعت حقيقة عظمة أوروبا الروحية إلى الأبد؟ ألم يكن من الممكن استعادة بعض منها عن طريق اكتشاف الخطأ فينا؟

وما لم يكن في البداءة أكثر من عطف على أهداف العرب السياسية، وعلى مظهر الحياة العربية الخارجي والأمن العاطفي الذي أدركته في شعوبها، تحول إلى ما يشبه التحقيق الشخصي. لقد بدأت أشعر بصورة متزايدة برغبة ملحة في أن أعرف الشيء الذي كان في أساس ذلك الأمن العاطفي، ويجعل الحياة العربية تختلف هذا الاختلاف البين عن الحياة الأوروبية: وبدت لي تلك الرغبة متصلة بصورة عجيبة بمشاكلي النفسية الصميمية الخاصة. وبدأت أبحث عن ـ ـالات تمكنني من أن أنفذ إلى أخلاق العرب وإدراكها إدراكاً أفضل، إلى الأفكار التي كانت قد صاغتها وجعلتها، روحياً، تختلف عن أخلاق الأوروبيين إلى مثل ذلك الحد. بدأت أقرأ كثيراً عن تاريخهم وثقافتهم ودينهم. وفي الدافع الملحّ الذي شعرت به إلى اكتشاف ذلك الشيء الذي كان يحرك قلوبهم ويملأ عقولهم ويرشدهم، خيل إليّ أنني أحس دافعاً إلى أن أكتشف بعض العوامل الخفية التي كانت تحرك نفسي، وتملأني، وتعد بإرشادي.

أصوات

ـ ١ ـ

وركبنا وزيد يغني. وكانت التلال الآن أكثر انخفاضاً واتساعاً، وكانت الرمال تغيب عن أعيننا مرة بعد أخرى لتظهر مكانها امتدادات من الحصى وأمامنا، في الجنوب البعيد، بدت سلسلة من الهضاب: جبل شَمّر.

وكانت أبيات الأنشودة التي كانت زيد يغنيها تصل إلى مسامعي بطريقة «مشوشة» غير واضحة بالنظر إلى النعاس الذي كان مستحوذاً علي، إلا أنه خيل إلي أن كلماتها، بقدر ما كانت تفوتني، كانت تكتسب معنى أوسع وأعمق لا صلة له مطلقاً بمعناها الظاهر.

لقد كانت أنشودة من تلك التي ينطلق بها رجال القوافل، والتي كثيراً ما تسمعها في جزيرة العرب ـ أناشيد يغنيها الرجال لمطاياهم كي تبقى منتظمة الخطو سريعة، وليطردوا هم أنفسهم النعاس عن أعينهم. أناشيد رجال الصحراء الذين ألفوا فضاء لا يعرف الحدود ولا الأصداء: ذات طبقة واحدة لا تتغير، مسترخية مبحوحة إلى حد ما، تصدر من أعلى الحلق وتتلاشى بحنان في هواء الصحراء الجاف. إن أحداً من الذين سافروا عبر الأراضي الصحراوية لا يمكن أن ينسى أبداً هذا الصوت. إنه دائماً نفسه حيث تكون الأرض قاحلة، والهواء حاراً، والحياة قاسية.

وركبنا وزيد يغني، كما لا بد أن يكون أبوه قد غنى من قبله، وجميع رجال قبيلته وغيرها من القبائل خلال آلاف من السنين. ذلك أن آلافاً من السنين كانت ضرورية لصوغ هذه الألحان والنغمات الرتيبة إلى أبعد الحدود، ولإعطائها شكلها النهائي الحاضر. وبخلاف الموسيقى الغربية المتعددة النغمات والأصوات، التي تكاد تميل دائماً إلى أن تعبر عن شعور الفرد، فإن هذه النغمات والألحان العربية، بسياقها الصوتي المتكرر على الدوام تبدو فقط رموزاً صوتية لخبرة انفعالية مشتركة بين

شعوب عديدة لا يقصد بها استحضار الأمزجة، بل تذكيرك بخبراتك الروحية الخاصة. لقد ولدت هذه الألحان منذ أمد طويل نتيجة للجو الصحراوي وإيقاعات الرياح والحياة البدوية، والشعور بالمدى الفسيح والتأمل بحاضر سرمدي دائم. وكما أن شؤون الحياة الإنسانية الأساسية تبقى هي نفسها دائماً، فإن هذه الألحان لا يحددها زمن ولا يعتريها أي تبديل.

هذه الألحان من العسير تصورها في الغرب، حيث تعد الأصوات لا من مظاهر الموسيقى فحسب، بل من المشاعر والرغبات الإنسانية كذلك. فالجو البارد والمياه الجارية وتتابع الفصول الأربعة، كل هذه العناصر تسبغ على الحياة معنى متعدد الألوان والأشكال واتجاهات كثيرة جداً بحيث إن الإنسان الغربي مضطر إلى أن يكون له أشواق عديدة، وبالتالي دافع شديد إلى أن يفعل الأشياء من أجل فعلها فحسب. إن عليه دائماً أن يخلق وأن يبني وأن يتغلب، وذلك لكي يرى إلى نفسه كرة بعد أخرى راسخ القدم في أشكال حياته المتعقدة المتشابكة، وهذا التشابك والتعقد إنما ينعكسان في موسيقاه أيضاً، ففي الغناء الغربي الجهوري الذي يصدر الصوت فيه من الصدر بطبقات مختلفة دائماً، تتجلى تلك الطبيعة التي تجعل الإنسان الغربي يحلم كثيراً ويرغب كثيراً ويكافح في سبيل الكثير مع عزمٍ على التغلب، ولكنها تجعله أيضاً يفقد الكثير، ويفقده بصورة مؤلمة. ذلك أن عالم الغربي هو عالم تاريخ: صيرورة أبدية، فحدوث، فانقضاء. إنه يفتقر إلى هدوء الاستقرار، والزمن عدوه الذي يجب أن ينظر إليه دائماً بمنظار الشك والريبة...

أما عربي الصحارى والهضاب، فإن المنظر الخلوي الذي تقع عليه عيناه دائماً لا يغريه بالأحلام: إنه قاس كالنهار نفسه، ولا يعرف معنى لسحر المشاعر والأحاسيس. فالظاهر والباطن، أو «أنا» والعالم، ليست بالنسبة إليه كيانات متناقضة، بل وجوهاً مختلفة من حاضر ثابت غير متبدل. إن حياته لا تستبد بها المخاوف السرية، وهو كلما فعل شيئاً فإنما يفعله بالنظر إلى الحاجة الخارجية لا لأن رغبة في الأمن الذاتي الباطني تقتضيه العمل. وخلاصة القول إنه لم يتحقق بالتقدم المادي بالسرعة نفسها التي تحقق بها الغربي ـ ولكنه أبقى على تماسكه الروحي.

* * *

وعندما وصلت بتفكيري إلى ذلك الحد سألت نفسي فجأة: إلى متى يستطيع زيد وقوم زيد أن يحتفظوا بتماسكهم الروحي في وجه الخطر الذي يطبق عليهم بكثير

من الخداع والمكر، وبصورة لا تعرف الرحمة أو اللين؟ نحن نعيش في زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ساكناً سلبياً في وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليه. إن آلافاً من القوى ـ السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ تطرق أبواب العالم الإسلامي، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل، لا أشكاله وأنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً؟

ـ ٢ ـ

طوال السنين التي قضيتها في الشرق الأوسط ـ غريباً أعطف على شعوبه من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٦، ومسلماً أشاطر أهداف المجتمع الإسلامي وآماله، منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ـ شهدت الجور الأوروبي الثابت على الشعوب الإسلامية، كما شهدت كيف يحاول الأوروبيون تبرير هذا الجور. وكلما حاول المسلمون أن يدرأوا عن أنفسهم هذا الجور، فإن الرأي العام الأوروبي بشعور مصطنع من البراءة يعزو هذه المقاومة إلى «كراهية المسلمين الظالمة لجميع الأجانب».

لقد اعتادت أوروبا منذ زمن طويل أن تبسّط بهذه الطريقة كل ما يحدث في الشرق الأوسط، وأن تنظر إلى تاريخه الحاضر بمنظار المصلحة الغربية وحدها. وفي حين أن الرأي العام في الغرب كله (خارج بريطانيا) قد أظهر كثيراً من العطف على نضال إيرلندا في سبيل الاستقلال أو (خارج روسيا وألمانيا) على حلم بولندا بالبعث الوطني، فإنه لم يبد أبداً مثل هذا العطف على المطامح المماثلة عند المسلمين. وحجة الغرب الدائمة هي تفكك الشرق الأوسط السياسي وتأخره الاقتصادي، كما أن كل تدخل غربي فعال إنما يوصف دائماً، تصنعاً ورياء من قبل أصحابه، بأنه لا يهدف إلى مجرد حماية المصالح الغربية «المشروعة» فحسب، بل إلى تحقيق التقدم والرقي للسكان المحليين أنفسهم.

والغربيون المعنيون بشؤون الشرق الأوسط، إذ ينسون أن كل تدخل مباشر من الخارج، حتى ولو كان تدخلاً خيراً، لا يمكن إلا أن يعوق تقدم أيما أمة من الأمم وتطورها، كانوا ولا يزالون أهلاً لانطلاء هذه المزاعم عليهم. إنهم لا يرون إلا إلى الخطوط الحديدية الجديدة تبنيها الدول المستعمرة، ولا يرون إلى نسيج البلد الاجتماعي كيف يفنونه ويتلفونه. إنهم يحصون عدد الكيلوات الكهربائية الجديدة، ولكنهم لا يعدون الصفعات التي يكيلونها لكرامة الشعب.

إن أولئك الناس أنفسهم، الذين ما كانوا ليقبلوا «بعثة التمدين» الامبراطورية النمسوية كعذر شرعي لتدخل النمسا الامبراطورية في شؤون دول البلقان، يقبلون اليوم، بتسامح وإغضاء، رغماً مماثلاً للإنكليز في مصر، أو الروسيين في آسيا الوسطى، أو الفرنسيين في مراكش، أو الايطاليين في ليبيا ولا يخطر في بالهم مطلقاً أن كثيراً من العلل الاجتماعية والاقتصادية التي يشكو منها الشرق الأوسط هي نتيجة مباشرة لذلك «الاهتمام» الغربي بالذات، وأن التدخل الغربي بالإضافة إلى ذلك، يسعى إلى أن يخلد وأن يوسع التفكك الداخلي القائم الآن في الشرق الأوسط، وإلى أن يجعل من المستحيل على شعوبه أن تستفيق وتعود إلى رشدها.

* * *

لقد بدأت أدرك هذا، أول ما بدأت، في فلسطين عام ١٩٢٢، عندما لاحظت الدور الملتبس المزدوج الذي كانت الإدارة البريطانية تلعبه في ما يتعلق بالنزاع بين العرب والصهاينة، واتضح لي وضوحاً تاماً في عام ١٩٢٣ عندما أتيت بعد أن تجولت في أنحاء فلسطين كلها، إلى مصر التي كانت وقتئذ في ثورة ضد «الحماية» البريطانية. كانت القنابل كثيراً ما تلقى على الأماكن العامة التي يرتادها الجنود البريطانيون، فتجيب عنها السلطات بمختلف التدابير القمعية، بالأحكام العرفية والاعتقالات السياسية وإبعاد القادة والزعماء وتعطيل الصحف. ولكن أياً من هذه التدابير، مهما كان قاسياً، لم يستطع أن يخنق رغبة الشعب في الحرية. وسرى في الأمة المصرية بأكملها ما يشبه موجة من النشيج العاطفي الحاد: لا نشيج اليأس بل نشيج الحمية والحماسة لدى اكتشافها جذور قوتها الكامنة.

والباشوات الأغنياء، أصحاب الأراضي الواسعة، هم وحدهم الذين كانوا يظهرون الود للحكم البريطاني. أما الآخرون الذين لا يحصيهم عد ولا حصر بما فيهم الفلاحون البؤساء، الذين كان الفدان الواحد من الأرض يبدو ملكاً عظيماً لعائلة بأكملها عندهم، فقد آزروا حركة التحرر. وقد كنت تسمع باعة الصحف المتجولين يصرخون في الشوارع: «القبض على جميع زعماء الوفد بأمر الحاكم العسكري» ـ ولكنك في اليوم التالي تسمع بأن زعماء جدداً قد حلوا محلهم، فالثغرات كانت تملأ كرة بعد أخرى، وكان الظمأ إلى الحرية يشتد والكره ينمو ويزداد، ولم يكن لهذا في نظر الغرب من تفسير سوى كلمة واحدة: «كره الأجانب».

كان مجيئي إلى مصر في تلك الأيام يعود إلى رغبتي في توسيع دائرة عملي لـ «فرانكفورتر تزايتونغ» بحيث تشمل بلداناً أخرى خارج فلسطين.

وكانت ظروف دوريان المادية لا تسمح له بتمويل مثل هذه الجولة، ولكنه عندما لمس رغبتي في القيام بها، أسلفني مبلغاً صغيراً كافياً لكي أنتقل بالقطار من القدس إلى القاهرة، ولقضاء خمسة عشر يوماً هناك.

وفي القاهرة وجدت منزلاً في أحد الأزقة الضيقة في حي يقطنه الصناع العرب وأصحاب الدكاكين الصغيرة من اليونانيين، وكانت صاحبة المنزل امرأة من تريستا، متقدمة في السن، طويلة مكتنزة الجسم شهباء الشعر. كانت تشرب الخمرة اليونانية من الصباح إلى المساء، وتنقلب من مزاج إلى آخر. لقد كانت ذات جبلة صارمة حادة سريعة الانفعال، وبدت أنها لم تكتشف ذاتها قط، إلا أنها كانت تظهر مودتها لي، مما جعلني أشعر براحة في بيتها.

وبعد أسبوع أو نحو ذلك، أصبح ما كان معي من مال على وشك النفاد. وإذا لم أكن أرغب في العودة بمثل هذه السرعة إلى فلسطين، فقد أخذت أبحث عن طريقة أخرى، تمكنني من كسب شيء يعينني على الحياة.

وكان صديقي في القدس، الدكتور دي هان، الذي سبق مني ذكره، قد زودني بكتاب تعريف إلى تاجر في القاهرة، فذهبت إليه قصد الحصول على مشورته، ووجدته هولندياً أنيساً ضخم الجسم ذا ميول عقلية تتعدى نطاق أعماله الخاصة. ولقد عرف من كتاب يعقوب دي هان انني كنت مراسلاً لفرانكفورتر تزايتونغ، وإذ أظهرته نزولاً عند طلبه على بعض المقالات التي كنت قد كتبتها حديثاً، رفع حاجبيه دهشاً وقال:

ـ «قل لي، كم عمرك؟»

فأجبته: «اثنان وعشرون».

قال: «إذن أخبرني شيئاً آخر، من فضلك: من ساعدك في كتابة هذه المقالات؟ دي هان!؟»

فضحكت وقلت: «طبعاً لا. لقد كتبتها بنفسي. إنني دائماً أؤدي عملي بنفسي، ولكن لماذا ترتاب في ذلك؟»

فهزّ رأسه كأنما استولت عليه الحيرة: «ولكنه أمر يبعث على الدهش.. من أين لك هذا النضج حتى تكتب مادة كهذه؟ كيف يمكنك أن تسبغ، بنصف جملة، معنى فلسفياً على أمور تبدو عادية مألوفة؟».

واختلت إلى أبعد الحدود تيهاً بما كانت عبارته تتضمن من معاني الإطراء

والمديح، وزدت قدراً في عيني نفسي. وفي خلال حديثنا تبين لي أن صديقي الجديد لم يكن يستطيع أن يسند إليّ أيما عمل عنده، إلا أنه اعتقد أن بإمكانه تعييني في مؤسسة مصرية كانت له معها علاقات تجارية.

وكان المكتب الذي أرسلني إليه يقع في حي من أحياء القاهرة القديمة غير بعيد من منزلي، وكان عبارة عن زقاق ضيّق وسخ تقع على جانبيه بيوت كانت في ما مضى منازل للنبلاء والأشراف وانقلبت الآن إلى مكاتب وغرف رخيصة للسكن. وحدث أن مخدومي المقبل وكان مصرياً كهلاً أصلع الرأس كان بحاجة إلى كاتب يعمل بعض الوقت في كتابة رسائله باللغة الفرنسية، وأنني كنت قادراً على إرضائه والقيام بالمهمة المطلوبة رغم افتقاري إلى الخبرة في الأمور التجارية. ووصلنا سريعاً إلى اتفاق يقضي بأن أعمل ثلاث ساعات يومياً لقاء مرتب ضئيل نسبياً، ولكنه كان كافياً لدفع إيجار المنزل، والعيش على الخبز واللبن والزيتون إلى ما شاء الله.

ومقابل بيتي، وعلى مقربة منه بحيث كنت تستطيع أن تلمسه بيدك، كان يقوم مسجد صغير ذو مئذنة دقيقة منها كان يدعو إلى الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد، فيظهر في أعلى المئذنة رجل متعمم بعمامة بيضاء، ويرفع يديه ويبدأ بالإنشاد: «الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله... وأشهد أن محمداً رسول الله...». كان صوته ناعماً وقوياً، قادراً على أن يصل إلى مسامع الكثيرين ممن كانوا على مبعدة كبيرة، وكان باستطاعتك أن تدرك أن الغيرة والحماسة، لا الفن هما اللتان كانتا تجعلانه على مثل ذلك القدر من الجمال[1].

لقد كانت ترتيلة المؤذن هذه، اللحن الدائم الذي كنت أسمعه في الأيام والأمسيات التي قضيتها في القاهرة، تماماً كما كان لحن القدس القديمة الدائم، وكما كان مقدراً له أن يبقى طيلة أسفاري في الأراضي الإسلامية في ما بعد. لقد كان له الجرس نفسه في كل مكان، برغم الفروق في اللهجة والتجويد اللذين يمكن أن يتضحا للمرء في كلام الناس اليومي: وحدة صوتية جعلتني أدرك في تلك الأيام في القاهرة مقدار الوحدة الباطنية لدى جميع المسلمين من العمق، ومبلغ الخطوط الفاصلة بينهم من التكلف والتفاهة. لقد كانوا واحداً في اعتقادهم، وواحداً في طريقة تفكيرهم وتمييزهم بين الحق والباطل، وواحداً في فهمهم قوام الحياة الخيرة.

(١) كان ذلك في عام ١٩٢٣، أي قبل وقت طويل من استخدام مكبرات الصوت في الآذان مما شوّه صوت المؤذن وجرده من كل جمال وحنان.

ولقد خيل إليّ أنني قد صادفت، لأول مرة، مجتمعاً لم تكن فيه صلة النسب بين الإنسان والإنسان مسببة عن طوارىء من مصالح اقتصادية أو عنصرية، بل عن شيء أعمق وأكثر استقراراً إلى حد بعيد: صلة من الفهم المشترك للحياة أزالت كل حواجزالعزلة والانفراد بين الإنسان والإنسان.

* * *

وفي صيف عام ١٩٢٣، عدت إلى القدس، بعد أن ألممت بقدر أكبر من الفهم عن حياة الشرق الأوسط وسياسته.

وعن طريق صديقي الطبيب يعقوب دي هان، تعرفت إلى الأمير عبد الله، أمير شرقي الأردن المجاورة، الذي دعاني إلى أن أزور بلاده، وهناك رأيت، لأول مرة، بلاداً بدوية حقيقية. كانت عمان، العاصمة ـ المبنية على أطلال فيلادلفيا، مستعمرة بتوليمايوس فيلادلفوس اليونانية ـ في ذلك الوقت مدينة مغمورة لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف نسمة. كانت شوارعها مليئة بالبدو، بدو السهول المنبسطة الحقيقيين الذين نادراً ما كان يراهم المرء في فلسطين على حقيقتهم: محاربين أحراراً ومربي إبل. وكانت الجياد المدهشة ترمح في الشوارع، كما كان كل رجل مسلحاً يحمل خنجراً في حزامه وبندقية على ظهره. وكانت عربات الثيران الجركسية (ذلك أن المدينة كان يسكنها أصلاً الجراكسة الذين هاجروا إليها بعد أن غزا الروس وطنهم في القرن التاسع عشر) تتهادى متثاقلة عبر السوق التي كان يسودها، رغم صغرها، لغط وهرج جديران بمدينة أكبر جداً من عمان.

وإذا لم يكن في المدينة أبنية مناسبة، فقد كان الأمير عبد الله يعيش في تلك الأيام في مخيم على رابية تشرف على عمان. وكانت خيمته أكبر، نوعاً ما، من سائر الخيام، ومؤلفة من عدة غرف تفصل بينها قواطع من القماش وتتميز بالبساطة المتناهية.

وباستثناء خادم زنجي يرتدي ثوباً من نسيج حريري موشى وفي منطقته خنجر مذهب، فإن أحداً لم يكن في الخيمة عندما دخلت إليها صحبة الدكتور رضا توفيق بك، مستشار الأمير الأول. كان رضا بك رجلاً تركياً، شغل قبلاً منصب أستاذ جامعي، كما كان طيلة ثلاث سنوات، قبل عهد كمال أتاتورك، وزيراً للمعارف في الوزارة التركية. ولقد أخبرني أن الأمير عبد الله سيعود بعد دقائق، وأنه كان في تلك اللحظة يبحث مع بعض زعماء البدو الغزوة الأخيرة التي قام بها النجديون على

جنوبي شرقي الأردن. أولئك «الوهابيون»، النجديون، كما أوضح لي الدكتور رضا، لعبوا في الإسلام دوراً لا يختلف عن الدور الذي لعبه المصلحون الطهريون في العالم المسيحي، من حيث إنهم كانوا يعارضون بضراوة عبادة الأولياء والقديسين والخرافات التي كانت قد دبت في الإسلام خلال العصور. وكانوا أيضاً الأعداء الألداء للأسرة الهاشمية التي كان على رأسها والد الأمير، حسين ملك الحجاز. وفي رأي الدكتور رضا، لم يكن بالإمكان رفض آراء الوهابيين الدينية بداهة وارتجالاً. ذلك أنها، في الحق أقرب إلى روح القرآن من الأفكار المنتشرة بين عامة الناس في معظم الأقطار الإسلامية، ويمكن، بالتالي، أن تحدث مع الزمن تأثيراً خيراً مفيداً في التطور الإسلامي الثقافي. إلا أن التعصب لدى أولئك القوم، في رأي الدكتور رضا، جعل من العسير بعض الشيء على غيرهم من المسلمين أن يقدروا الحركة الوهابية حق قدرها. هذا العائق كما قال محدثي، قد لا يكون غير مقبول لدى «بعض الأوساط الأوروبية» التي تنظر إلى إمكان وحدة الشعوب العربية مرة ثانية بهلع واضطراب.

ودخل الأمير بعد قليل ـ كان رجلاً يناهز الأربعين من العمر، معتدل الجسم، ذا لحية قصيرة شقراء. كان يخطو خطواً خفيفاً وفي رجليه خف صغير من الجلد اللماع الأسود، مرتدياً ثياباً عربية فضفاضة من الحرير الأبيض الهاف فوقها عباءة صوفية بيضاء تكاد تشف عما تحتها. وقال الأمير:

ـ «أهلاً وسهلاً».

وكانت تلك أول مرة سمعت فيها هذه التحية العربية اللطيفة. لقد كان في شخصية الأمير عبد الله ما يجذبك إليه ويكاد يسبي منك العقل واللب، كما كانت تتميز بروح «فكاهية قوية» وحرارة في التعبير وحضور النكتة. ولم يكن من الصعب عليك أن تفهم سبب تلك الشعبية التي كان يتمتع بها في تلك الأيام بين أتباعه. وبالرغم من أن كثيراً من العرب لم يكونوا راضين عن الدور الذي كان قد لعبه في الثورة التي قام بها الشريف بوحي من الإنكليز، ضد الأتراك واعتبروها خيانة من قبل المسلمين لإخوان لهم في الدين، فإن الأمير عبد الله كان قد فاز بشيء من الاعتبار بتزعمه القضية العربية ضد الصهيونيين، ولم يكن قد أتى اليوم الذي أدّت فيه سياسته المتميزة باللف والدوران إلى جعل اسمه ممقوتاً في العالم العربي كله.

وإذا كنا نحتسي القهوة من الفناجين الدقيقة التي كان يدور بها علينا الخادم الأسود، أخذنا نتحدث ـ وكان يشترك معنا في الحديث أحياناً الدكتور رضا الذي كان يتكلم الفرنسية بطلاقة ـ عن المصاعب الإدارية في ذلك البلد الجديد، شرقي

الأردن، حيث تعود كل شخص أن يحمل السلاح، وأن لا يطيع سوى قوانين عشيرته نفسها.

«. . . ولكن» قال الأمير عبد الله، «ولكن العرب يتمتعون بقدر كبير من الإدراك وحسن التفهم. حتى البدو شرعوا يدركون الآن أن عليهم أن يقلعوا عن طرائقهم الفوضوية إذا شاءوا أن يتحرروا من سيطرة الأجنبي. إن العداوات والضغائن المستحكمة بين القبائل والتي لا بدّ أن تكون قد سمعت بها مرات عديدة، آخذة الآن في الخمود بصورة تدريجية».

ثم تابع حديثه وأخذ يصف لي القبائل البدوية، الصعبة المراس القوية الشكيمة، التي كانت تقاتل بعضها بعضاً لأتفه الأسباب. كانت عداواتهم الدموية كثيراً ما تدوم أجيالاً عدة، ويتوارثها الأبناء عن الآباء، أحياناً، قروناً طويلة، مما يؤدي إلى تجدد الحروب والأحقاد بعد أن يكون السبب الأصلي قد نسي أو كاد. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لإقرار السلام. فإذا تمكن شاب ينتمي إلى قبيلة الضحية الأخيرة وعشيرته من اختطاف فتاة عذراء من قبيلة الجاني وعشيرته وتزوج منها، فإن دماء ليلة الزفاف ـ دماء قبيلة القاتل ـ تثأر رمزياً وبصورة نهائية، للدم المهراق. ويحدث، أحياناً، أن تمل قبيلتان من عملية الأخذ بالثأر بعد أن تستمر أجيالاً عديدة وتستنزف قوى الفريقين، وعندئذ كثيراً ما يعمد وسيط من قبيلة ثالثة إلى ترتيب عملية «اختطاف» مصطنعة.

«ولقد فعلت ما هو أفضل من هذا» قال لي الأمير عبد الله «لقد عينت لجاناً مهمتها النظر في هذه العداوات الدموية، من رجال يوثق بهم، مهمتها التجول في أنحاء البلاد وتدبير عمليات الاختطاف والزيجات الرمزية، بين القبائل المتخاصمة ولكني» ـ وهنا تلألأت عيناه ـ «أشدّد دائماً على أعضاء هذه اللجان بوجوب العناية والحذر إلى أقصى الحدود عند اختيار العذارى. ذلك أنني لا أودّ أن أرى العداوات الداخلية العائلية تنشأ بسبب من إمكان استياء العريس. . .».

وظهر صبي يناهز عمره الثانية عشرة من وراء أحد الحواجز، واجتاز الغرفة المعتمة التي كنا فيها بخطوات سريعة صامتة، وقفز دونما ركاب، إلى ظهر الجواد الذي كان يثب مرحاً خارج الخيمة، والذي كان أحد الخدم ممسكاً به استعداداً لقدوم الصبي. كان ذلك الصبي ابن الأمير البكر: طلال. وفي جسمه النحيف الأهيف، وفي قفزته السريعة إلى ظهر الجواد، وفي عينيه البراقتين، رأيت مرة أخرى: ذلك الاتصال الحقيقي بالحياة الخاصة الذي كان يمتاز به العرب من كل ما كنت قد عرفت في أوروبا.

وإذ لاحظ الأمير عبد الله إعجابي الواضح بابنه، قال: «إنه، شأن كل طفل عربي آخر، يكبر ونصب عينيه هدف واحد: الحرية. نحن العرب لا نعتقد أننا معصومون عن الخطأ، ولكننا نريد أن نرتكب أخطاءنا بأنفسنا فنتعلم بذلك كيف نتفاداها: تماماً كما تتعلم الشجرة كيف تنمو بالنمو، أو كما تجد المياه الجارية طريقها الصحيح بالسيلان. نحن لا نريد أن يرشدنا إلى الحكمة أناس لا يملكون الحكمة ـ أناس ليس لديهم سوى القوة والسلاح والمال، ولا يعرفون سوى إضاعة الأصدقاء الذين يستطيعون بسهولة أن يحتفظوا بهم أصدقاء...»[1].

* * *

ولم أكن أنوي أن أبقى في فلسطين مدة غير محدودة، وكان يعقوب دي هان هو الذي ساعدني مرة أخرى. وإذ كان يعقوب صحفياً معروفاً، فقد كانت له اتصالات واسعة في أوروبا كلها. وعن طريق توصيته بي تمكنت من الفوز بعقدين مع صحيفتين صغيرتين: إحداهما في هولندا والثانية في سويسرا، لكتابة سلسلة من المقالات تدفع أثمانها بالعملتين الهولندية والسويسرية. ولما كانت هاتان الصحيفتان من صحف الريف التي لا تتمتع بسعة الانتشار، فإنهما لم تكونا قادرتين على أن تدفعا إليّ أجراً كبيراً، ولكن المال الذي كنت أتسلمه منهما، بما فطرت عليه من بساطة الحياة، بدا في نظري أكثر من كافٍ لتمويل الرحلة التي كنت قد أعددت خططها لزيارة أقطار الشرق الأوسط.

أردت أن أذهب إلى سوريا، أولاً. ولكن السلطات الفرنسية، وكانت حديثة العهد هناك وسط سكان يناصبونها العداء، لم ترغب في منح تأشيرة الدخول إلى نمسوي «أجنبي وعدو سابق»، فكانت صدمة مريرة. وإذ لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى الرضوخ، فقد قررت أن أذهب إلى حيفا، ومن هناك بالباخرة إلى اسطنبول التي كان منهاج رحلتي يشملها على أي حال.

ولكن مصيبة حلت بي في أثناء رحلتي بالقطار من القدس إلى حيفا. وذلك

---

(١) في ذلك الحين (١٩٢٣) لم يكن باستطاعة أحد أن يتنبأ بالخلاف الشديد الذي كان مقدراً له، في ما تلا من السنين، أن يطبع العلاقات بين الأمير عبد الله ونجله طلال ـ فيحمل الابن على أن يكره ملاينة أبيه للسياسة البريطانية في العالم العربي، والأب على أن يستاء من صراحة ابنه الحماسية. كذلك لم أستطع أن أرى، لا في تلك المناسبة ولا في غيرها من المناسبات، أية أمارة من أمارات «الاضطراب العقلي» عند طلال، الذي أدى إلى تنازله الإجباري عن عرش الأردن سنة ١٩٥٢.

أنني فقدت معطفاً كنت قد وضعت فيه محفظة جيبي وجواز سفري ولم يبق معي سوى بضع قطع من النقود الفضية في جيب بنطلوني. لذلك وجدت أن من المستحيل عليّ أن أتابع رحلتي إلى اسطنبول، وأنه لم يبقَ لي إلا أن أعود بالحافلة (الأوتوبيس) إلى القدس. وإذ كنت خالي الوفاض، فقد كان عليّ أن أدفع أجرة الركوب عند وصولي، بعد أن أقترض، كالعادة، المال من خالي دوريان. وفي القدس، كان عليّ أن أنتظر أسابيع ريثما يصل إليّ جواز سفر آخر، من القنصلية النمسوية في القاهرة (لم يكن هناك قنصلية نمسوية في فلسطين في ذلك الوقت)، ومبالغ زهيدة أخرى من هولندا وسويسرا.

وهكذا وجدت نفسي في صباح اليوم التالي أمام مكتب الأوتوبيس في ضواحي حيفا، وأنهيت المفاوضات مع إدارة المكتب بشأن الأجرة. وإذ كان قد بقي ساعة واحدة على قيام الأوتوبيس، قد رأيت، قطعاً للوقت، أن أذرع الطريق جيئة وذهوباً، ففعلت مشمئزاً من نفسي إلى أبعد حدود الاشمئزاز، ومن القدر الذي أجبرني على مثل تلك العودة المخزية. إن الانتظار شيء مكروه دائماً، والتفكير في العودة إلى القدس على عقبي مهزوماً أحدث في نفسي مرارة وأسى، خصوصاً وأن دوريان كان دائماً يبدي ريبته في قدرتي على تنفيذ خططي بمثل تلك المبالغ الزهيدة من المال. وفوق ذلك، فقد قدر عليّ أن لا أرى سوريا الآن. والله وحده يعرف ما إذا كنت سأعود إلى هذا الجزء من العالم. فقد كان ممكناً دائماً، طبعاً، أن تمول «فرانكفورتر تزايتونغ» رحلة أخرى إلى الشرق الأوسط في ما بعد، وأن يرفع الفرنسيون الحظر عن دخول «الأجانب والأعداء القدماء»، ولكن ذلك لم يكن مؤكداً، وفي أثناء ذلك سأحرم من رؤية دمشق. . . وتساءلت في مرارة: لماذا قدر عليّ أن لا أرى دمشق؟

ولكن هل قدر عليّ حقاً أن لا أرى دمشق؟ طبعاً ـ لا جواز سفر ولا مال. ولكن هل من الضروري إطلاقاً أن يكون لديّ جواز سفر، وأن يكون معي مال؟

وإذ قد وصلت في تفكيري إلى هذه النقطة، جمدت فجأة في مكاني. إن المرء ليستطيع إذا كان له قدر كاف من الشجاعة والحزم، أن يسافر مشياً على قدميه، مستفيداً من كرم القرويين العرب وحسن ضيافتهم. وإن المرء ليستطيع، أحياناً، أن يجتاز الحدود خلسة دون أن يكون بحاجة إلى أن يهتم بجوازات السفر والتأشيرات عليها.

وقبل أن يتسنى لي أن أفكر في ذلك، كنت قد اتخذت قراري: يجب أن أذهب إلى دمشق.

ولم أحتج إلى أكثر من دقيقتين اثنتين كي أوضح لإدارة مكتب الأوتوبيس أنني قد بدلت رأيي وأنني لم أعد أنوي السفر إلى القدس. كذلك لم أحتج إلى أكثر من بضع دقائق أخرى لابتياع قميص وسروال أزرق من القماش الذي تصنع منه ألبسة العمال، وكوفية عربية (أفضل وقاية من الشمس في بلاد العرب)، وضعتها على رأسي، وبعض الحاجيات الضرورية عبأتها في جوالق كان معي، ولترتيب شحن حقيبة سفري الصغيرة إلى دوريان على أن يتسلمها بعد دفع الأجرة، ومن ثم شرعت في رحلتي الطويلة إلى دمشق سيراً على الأقدام.

ولم يكن بإمكاني تمييز ذلك الشعور الفياض الذي غمرني بالسعادة. كان في جيبي بضع قطع نقدية فقط، وكنت مقدماً على عمل غير قانوني كان يمكن أن يقودني إلى السجن. لقد كنت أجازف بكل شيء معتمداً على عقلي وحده، ولكن إدراكي أنني كنت قد وضعت مصيري كله في كفة القدر بعث فيّ شعوراً بالسعادة.

* * *

وسرت في طريقي إلى الجليل. وبعد الظهر أشرفت على مرج ابن عامر إلى اليمين ثم مررت بالناصرة. وقبل مغيب الشمس وصلت إلى قرية عربية تظللها أشجار الكافور والسرو. وعند باب البيت الأول كان يجلس ثلاثة أو أربعة من الرجال والنساء. وتوقفت عن المسير، وسألت القوم ما إذا كانت تلك قرية «الرينة». ولما أجابوني بالإيجاب، كنت على وشك أن أستأنف سيري، إلا أن المرأة نادتني قائلة:

ـ «يا سيدي، ألا تريح نفسك قليلاً؟» ثم قدمت إليّ إناء من الماء البارد، وكأنما تكهنت بما كنت أعانيه من العطش. وبعد أن ارتويت، سألني واحد من الرجال، وكان واضحاً أنه زوج المرأة:

ـ «ألا تحب أن تشاركنا طعامنا وتقضي ليلتك في بيتنا؟»

إنهم لم يسألوني من أنا ولا إلى أين كنت أقصد، وما كانت غايتي. ونزلت تلك الليلة ضيفاً عليهم.

ما أجمل أن ينزل الإنسان ضيفاً على العربي! حتى الأطفال يسمعون بحسن ضيافة العرب في أوروبا. أن تكون ضيفاً على عربي إنما يعني نفاذك لبضع ساعات نفاذاً صادقاً إلى صميم حياة أولئك الناس الذين يريدون أن يكونوا أخوة لك وأخوات. وليس مجرد تقليد قومي نبيل ذلك الذي يمكن العرب من أن يكونوا مضيافين بهذه الطريقة الفياضة: إنها حريتهم الباطنية.

إنهم متحررون من الشك والريبة في أنفسهم إلى درجة تجعل من اليسير عليهم أن يفتحوا قلوبهم إلى أيما إنسان آخر. إنهم ليسوا بحاجة إلى أيما قدر من أمن الجدران الكاذب، تلك الجدران التي يقيمها كل شخص في أوروبا بينه وبين جاره.

وتعشينا معاً، رجالاً ونساء، جالسين القرفصاء على حصيرة، متحلقين حول طبق كبير مملوء بالثريد المصنوع من اللبن والحنطة المجروشة الخشنة. وكان الذين يضيفونني يقسمون قطعاً من أرغفة الخبز الرقيقة كالورق، ويغرفون بها الثريد، بحذق ومهارة، إلى درجة أنهم كانوا لا يلمسونه بأصابعهم قط! أما أنا فقد قدموا إليّ ملعقة، ولكنني رفضتها وحاولت بنجاح أشاع السرور في نفوس أصدقائي أن أباريهم في طريقتهم البسيطة، والظريفة أيضاً، في الأكل.

وعندما رقدنا لننام ـ وكنا نحواً من دزينة من الأشخاص في غرفة واحدة ـ أخذت أحدق في الدعائم الخشبية فوق رأسي، التي كانت تتدلى منها خيطان مشكوكة بالفلفل والباذنجان المجفف، وفي الكوى الكثيرة التي في الجدران، والمملوءة بالأواني النحاسية والفخارية، وفي أجسام الراقدين من الرجال والنساء، وتساءلت ما إذا كان باستطاعتي أن أحس بالأمن والارتياح أكثر لو كنت في بيتي.

وفي الأيام التالية مشيت عبر كثبان الجليل الناعمة الجذلة. وكانت العيون تظهر لي فجأة، كما أصبحت النباتات أكثر غزارة مما هي عليه في جنوبي فلسطين. وانتصبت جماعات جماعات أشجار الزيتون ذات الأوراق الكثيفة وأشجار السرو القاتمة الطويلة، وكنت لا أزال أرى آخر أزهار الصيف على جوانب الربى.

وكنت أحياناً أسير قسماً من النهار مع الجمالين، وأنعم هنيهة بحرارتهم البسيطة. كنا نشرب الماء من ماطرتي، وندخن معاً لفافة من التبغ، ثم أمشي بمفردي. وكنت أقضي الليالي في بيوت العرب آكلاً خبزهم معهم، وأجوب أياماً طويلة عبر التجويف الحار على طول بحيرة طبريا، عبر البرودة الناعمة حول بحيرة الحولة التي كانت كمرآة من معدن محمرة قليلاً بآخر شعاعات شمس المساء التي كانت ترفرف من فوق سطح الماء. وبقرب الشاطىء كان يعيش صيادو الأسماك العرب في أكواخهم المبنية من حصائر من قش متدلية حول إطار من الأغصان. لقد كانوا فقراء جداً، ولكنهم، كما بدوا، لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من هذه الأكواخ الطلقة والأثواب الحائلة اللون على ظهورهم وقبضة من الحنطة يصنعون منها خبزهم، والسمك الذي يصطادونه بأنفسهم. وكانوا يبدون دائماً وكأن لديهم من الطعام ما

يكفيهم لدعوة المسافر إلى أن يدخل ويشاركهم فيه.

* * *

في أقصى نقطة من شمالي فلسطين كانت تقع مستعمرة المطلة اليهودية التي كانت كما عرفت من قبل، ثغرة بين فلسطين البريطانية وسورية الفرنسية، وبموجب اتفاق بين الحكومتين، كانت تلك المستعمرة، واثنتان غيرها، ستنضم قريباً إلى فلسطين. ولذلك فإن أياً من الحكومتين لم تكن تشرف على شؤون مستعمرة المطلة في تلك الأسابيع القليلة إشرافاً فعالاً مما جعلها في نظري مكاناً مثالياً أستطيع أن أنفذ منه إلى سوريا. وقد كانت أوراق الهوية، كما فهمت، لا تطلب من المسافر إلا عند بلوغه الطريق العمومية في ما بعد، إلا أن المراقبة السورية كانت شديدة جداً. ذلك أنه كان من المستحيل تقريباً على المسافر أن يتوغل كثيراً دون أن يعترضه رجال الدرك. وإذا كانت المطلة لا تزال تعتبر رسمياً جزءاً من سوريا، فإن كل واحد من سكانها الكبار كان يحمل، شأن كل من السكان في جميع أنحاء البلاد، شهادة هوية تصدرها السلطات الفرنسية، وهكذا أصبح الحصول على مثل هذه الورقة لنفسي همي العاجل الأوحد.

وبعد أن قمت بتحريات مباشرة، اقتادني أحدهم إلى بيت رجل آنس فيه الاستعداد للتخلي عن شهادة هويته لقاء مبلغ من المال. وكان ذلك الرجل ضخم الجثة في أواخر العقد الرابع من العمر، وكانت هذه الأوصاف مذكورة في الورقة المجعدة الملوثة بالشحم التي سحبها من إحدى جيوبه. إلا أنه لما كانت الورقة لم تكن تحمل أية صورة له، فإن المشكلة لم تكن مستعصية الحل.

وسألته قائلاً: «كم تريد ثمناً لهذه الورقة؟»

ـ «ثلاثة جنيهات».

وأخرجت من جيبي جميع القطع النقدية التي كانت في حوزتي وعددتها: لقد بلغت خمسة وخمسين قرشاً فلسطينياً، أي ما يزيد قليلاً عن نصف جنيه.

وقلت له: «هذا كل ما عندي. ولما كنت بحاجة إلى أن أحتفظ بقسم منه لما تبقى من رحلتي، فإني لا أستطيع أن أعطيك أكثر من عشرين قرشاً». (أي جزء من خمسة عشر مما كان قد طلب).

وبعد دقائق قليلة من المساومة اتفقنا على مبلغ خمسة وثلاثين قرشاً دفعتها إليه وأخذت الوثيقة. كانت عبارة عن ورقة مطبوعة ذات عمودين ـ أحدهما بالعربية والثاني

بالفرنسية ـ وكانت البيانات والمدلولات الخاصة مكتوبة بالحبر على الخطوط المتقطعة. ولم أقلق كثيراً لما جاء في «الوصف الشخصي»، ذلك أنه كان، شأن هذه الأوصاف دائماً: مبهماً إلى درجة تبعث على الدهش، إلا أن العمر المذكور في الورقة كان ٣٩ سنة ـ في حين أنني كنت في سن الثالثة والعشرين، مما يجعل أيما شرطي، مهما كان مهملاً، أن يلاحظ التباين بين العمرين حالاً، وهكذا كان من الضروري أن أحدث تبديلاً ما في العمر المثبت على شهادة الهوية. ولو أن العمر كان مثبتاً في مكان واحد فقط، إذن لما كان إحداث التبديل أمراً عسيراً عليّ، إلا أنه، لسوء الحظ، كان مثبتاً بالعربية والفرنسية معاً. وبالرغم من حذري الشديد وعنايتي الفائقة، فقد توصلت إلى ما يمكن أن يوصف بالتزوير الذي لا ينطلي على أحد. ذلك أن أيما إنسان ذي عينين في رأسه كان يستطيع أن يرى أن الأرقام قد عدلت في كل من العمودين، إلا أنه لم يكن في الأمر حيلة، وكان عليّ أن أعتمد على حظي وإهمال رجال الدرك.

وفي الصباح التالي قادني عميلي الذي كان قد دلني على صاحب شهادة الهوية إلى واد صغير وراء القرية، وأشار إلى بعض الصخور على مبعدة نصف ميل وقال: «هناك سوريا».

وسرت عبر الوادي، وكان الجو حاراً بالرغم من تلك الساعة المبكرة من الصباح. ولا بدّ أن المرأة العجوز العربية التي كانت جالسة هناك تحت شجرة بالقرب من الصخور التي كانت تقع سوريا وراءها، عانت أيضاً ما كنت أعانيه من حر، ذلك أنها هتفت لي بصوتها الأجش:

ـ «هل لك أن تسقي امرأة عجوز شربة من الماء، يا بني؟» وحللت ماطرتي التي كنت قد ملأتها حديثاً وناولتها إياها، فشربت حتى ارتوت ثم أرجعتها إليّ قائلة:

ـ «ليباركك الله، ويحفظك آمناً، ويحقق لك أماني قلبك».
ـ «شكراً يا أماه، إنني لا أريد أكثر من ذلك».

وعندما استدرت ونظرت إليها ثانية، رأيت شفتي المرأة العجوز تتحركان كأنما تدعوان، وشعرت بابتهاج غريب.

ووصلت إلى الصخور ثم اجتزتها: وأصبحت الآن في سوريا. ولقد رأيت أمامي سهلاً فسيحاً قاحلاً، كما رأيت بعيداً جداً في الأفق، خيالات أشجار وشيئاً كالبيوت، لا بدّ أنها تؤلف مدينة بانياس. ولم يجد منظر ذلك السهل هوى في نفسي،

ذلك أنه كان خالياً من أي شجرة، أو أيكة أختبىء وراءها، مما أصبح ضرورياً بالنظر إلى اقترابي جداً من الحدود. غير أنه لم يكن هناك أي طريق آخر، وشعرت بما يشعر به أحدنا في الحلم إذ يرى نفسه مضطراً إلى أن يمشي عارياً في شارع يعج بالجماهير.

وكان الوقت ظهراًتقريباً عندما وصلت إلى جدول صغير يقطع السهل. وإذ جلست لأخلع حذائي وجوربي، رأيت عن بعد أربعة فرسان متجهين نحوي. ولقد خيل إليّ أنهم من رجال الدرك، فقد كانوا يضعون بنادقهم معارضة فوق سروج جيادهم. إلا أنني ما لبثت أن تحققت من أنهم كانوا من رجال الدرك فعلاً، وشعرت بأنه لم يكن هناك معنى لمحاولتي الهرب. وهكذا استسلمت تاركاً التقادير تجري في أعنتها. ولو أنه قبض عليّ عندئذ، إذن لما أصابني أكثر من بضع ضربات بعقب البندقية، ولأعدت مخفوراً إلى المطلة لا أكثر.

وخوضت في الجدول ثم جلست على الضفة المقابلة وبدأت أجفف رجلي بهدوء، منتظراً اقتراب رجال الدرك مني. وعندما أصبحوا على مقربة مني نظروا إليّ بريبة: فقد كان واضحاً أنني أوروبي، بالرغم من الكوفية العربية التي كانت على رأسي.

وسألني أحدهم بحدة باللغة العربية: «من أين؟»

ــ «من المطلة».

ــ «وإلى أين؟»

ــ «إلى دمشق».

ــ «لأي غرض؟»

ــ «آه حسناً، رحلة ممتعة فقط».

ــ «هل معك أوراق؟»

ــ «طبعاً...».

وقفز قلبي إلى فمي بينما كنت أخرج شهادة هويتي من جيبي ـ ونشر الدركي الورقة وتطلع إليها ـ وعاد قلبي إلى مكانه الصحيح وبدأ ينبض ثانية: ذلك أنني رأيته ممسكاً بالوثيقة رأساً على عقب مما يدل على عدم معرفته القراءة... لقد اكتفى على ما يظهر بالختمين أو الثلاثة الأختام الحكومية إذ طوى الورقة بسماحة وأعادها ثانية إليّ:

ــ «نعم إنها كما ينبغي. اذهب».

وأحسست، لحظة، بدافع إلى أن أهز يده، ولكنني آثرت أن تظل علاقاتنا متسمة بالطابع الرسمي. وأدار الرجال الأربعة رؤوس جيادهم وابتعدوا، بينما واصلت أيضاً مسيري.

وبالقرب من بانياس ضللت طريقي، ذلك أن ما كانت خريطتي تصفه بأنه «طريق صالح لذوات العجل» لم يكن إلا درباً لا يكاد يرى، يتعرج فوق أرض قفرة موحلة وعبر جداول صغيرة، ويؤدي في النهاية إلى تلال مستديرة منتشرة هنا وهناك. وظللت أهبط هنا وأصعد هناك بين تلك الروابي إلى أن التقيت، بعد الظهر، عربيين يسوقان حميراً تحمل عنباً وجبناً إلى بانياس. ومشينا معاً تلك المرحلة الأخيرة، وأعطياني بعض العنب فأكلته، ثم افترقنا عندما بلغنا الحدائق خارج البلدة. وكان هناك جدول صاف ضيق ينساب بسرعة بجانب الطريق، فتمددت على بطني، وغطست رأسي حتى أذني في مياهه الباردة كالثلج، وشربت. . . وشربت حتى ارتويت.

ومع أنني كنت متعباً جداً، فإنني لم أكن أنوي البقاء في بانياس، إذ قدرت أنها لا بد أن يكون فيها مخفر للشرطة، بالنظر إلى كونها أول بلدة في الأراضي السورية. لقد كان اضطرابي يهدأ كلما لقيت رجال الدرك، وبخاصة إذا كانوا من الفرسان السوريين العاديين إذ إن معظمهم كانوا أميين وبالتالي غير قادرين على أن يكتشفوا التزوير الذي أحدثته في شهادة الهوية: ولكن مخفراً للشرطة فيه واحد من الضباط كان شيئاً يختلف تمام الاختلاف. ولذلك تعمدت السير بخطوات سريعة في الأزقة الضيقة والطرق الثانوية، متجنباً شارع السوق الرئيسي حيث قدرت أن مثل هذا المخفر لا بدّ أن يقع. وفي أحد الأزقة سمعت نغماً ينبعث من عوده وصوت رجل يغني للناس الذين كانوا يصفقون له بأيديهم. وجذبتني الجلبة فاقتربت منها. درت حول الزاوية ـ وجمدت في مكاني: ذلك أن قبالتي على مبعدة عشر خطوات تقريباً، رأيت باباً كتب عليه «مخفر الشرطة»، ورأيت عدة شرطيين سوريين، بينهم ضباط، جالسين في الشمس على كراسي دونما مساند للظهر، يشنفون آذانهم بموسيقى رفاقهم. ولم أجد فائدة من التراجع، ذلك أنهم كانوا قد رأوني. وناداني الضباط الذي كان سوريا أيضاً على ما ظهر لي، قائلاً:

ـ «هاي، تعال إلى هنا!»

ولم يكن باستطاعتي إلا أن أطيع الأمر، فتقدمت ببطء ـ ثم خطرت لي فجأة

فكرة، فأخرجت آلة تصويري، وحييت الضابط بالفرنسية، وتابعت كلامي دون أن أنتظر أسئلته:

ــ «إنني آت من المطلة بزيارة قصيرة إلى هذه البلدة، ولكنني لا أحب أن أعود دون أن آخذ صورة لك ولصديقك هنا، الذي طربت لصوته أيما طرب».

إن العرب يحبون الثناء. وبالإضافة إلى ذلك يسرون بأن تؤخذ لهم الصور. وهكذا وافق الضابط مبتسماً، ورجاني أن أرسل إليه الصور بعد تظهيرها (وقد فعلت ذلك في ما بعد مع تحياتي). ولم يخطر له بعد ذلك أن يسألني عن ورقة هويتي بل دعاني بدلاً من ذلك، إلى تناول فنجان من الشاي الحلو وتمنى لي «سفرة سعيدة» عندما نهضبت أخيراً (للذهاب إلى المطلة) وعدت من حيث أتيت، ثم درت حول البلدة، وأكملت طريقي إلى دمشق.

* * *

وبعد أسبوعين تماماً من مغادرتي حيفا وصلت إلى القرية الكبيرة، «مجدل الشمس» التي كانت أكثرية سكانها من الدروز وبعض المسيحيين. واخترت بيتاً بدت عليه آثار النعمة، فطرقت بابه وقلت للشاب الذي فتح لي إنني أكون شاكراً جداً إذا تكرم وسمح لي بالمبيت عندهم تلك الليلة. فرحب بي قائلاً كالعادة: «أهلاً وسهلاً» وفتح الباب على مصراعيه ولم تمض بضع دقائق حتى وجدت نفسي بين أصحاب الدار.

وإذ كنت الآن في أعماق سوريا، وكانت هناك عدة طرق تؤدي إلى دمشق، فقد قررت أن أأتمن مضيفي الدرزي على سري وآخذ مشورته. ولما كنت أعرف حق المعرفة أنه ما من عربي يغدر بضيفه، فقد أفضيت إليه بالحقيقة كاملة، وأعلمته أيضاً أنني كنت مسافراً وليس معي سوى شهادة هوية مزورة. عندئذ أخبرني أنه من الخطر عليّ أن أسلك الطريق العمومية بسبب من أنها كانت مخفورة من مجدل الشمس حتى دمشق، بدوريات رجال الدرك الفرنسيين الذين لا يمكن أن يدعوني أمر بسهولة كما فعل السوريون.

قال مضيفي وهو يشير بيده إلى الشاب الذي كان قد فتح لي الباب: «أعتقد أنني سأرسل ولدي معك. إنه سوف يقودك عبر الجبال، ويساعدك على اجتناب الطرق».

وبعد تناول العشاء جلسنا على الشرفة المكشوفة أمام البيت ودرسنا الطريق التي

يتعين علينا سلوكها في الصباح التالي. وقد نشرت على ركبتي مخططاً ألمانياً مصغراً لفلسطين وسوريا كنت قد جلبته معي من القدس، وكنت أحاول أن أتتبع عليه الطريق التي أشار صديقي الدرزي بسلوكها. وبينما كنا مستغرقين في ذلك، أقبل رجل يرتدي زي ضابط شرطة (سوري على ما بدا لي) يتمشى في شارع القرية. ولقد كان ظهوره من وراء زاوية الشارع مفاجئاً جداً حتى أنني لم أكد أجد متسعاً كافياً من الوقت كي أطوي المخطط ثانية وأخفيه عن ناظريه. والظاهر أن الضابط قد عرف أنني من الغرباء، ذلك أنه لم يكد يجتاز شرفتنا، بعد أن حيّا مضيفي بإيماءة من رأسه، ويصل إلى الزاوية التالية، حتى عاد ومشى نحونا ببطء.

وسألني بالفرنسية بلهجة لم تخل من اللطف: «من أنت؟!»

فأعدت على مسامعه لغوي المعهود من أنني كنت أحد سكان مستعمرة المطلة وأنني أقوم برحلة للترويح عن النفس. وعندما طلب أن يرى شهادة هويتي، لم أجد مفراً من تقديمها إليه. فتطلع إليها بانتباه، ثم افترت شفتاه عن ابتسامة وقال:

ــ «وما ذاك الذي في يدك؟» مشيراً إلى المخطط الألماني. فأجبت أنه لم يكن شيئاً يؤبه له، إلا أنه ألحّ على رؤيته. فأخذه ونشره بمهارة الرجل المعتاد استعمال المخططات، وبعد أن نظر فيه بضع ثوان طواه ثانية وأعاده إليّ وهو يبتسم، ثم قال بلغة ألمانية محطمة:

ــ «لقد خدمت في الجيش التركي أثناء الحرب جنباً إلى جنب مع الألمان». ثم حيانا بالتحية العسكرية، وابتسم ثانية وانصرف.

قال مضيفي: «لقد فهم أنك ألماني. إنه يحبهم ويكره الفرنسيين، ولذا فإنه لن يزعجك».

وفي الصباح التالي شرعت مصحوباً بالدرزي الشاب، في أشق رحلة قمت بها في حياتي مشياً على قدمي. لقد سرنا أكثر من إحدى عشرة ساعة، لم نتوقف أثناءها سوى مرة واحدة عند الظهر مدة عشرين دقيقة تقريباً، صعوداً فوق التلال الصخرية ونزولاً في الأودية العمودية الانحدار، وعبر المهاد النهرية الجافة، وصعوداً فوق التلال ثانية، وبين الصخور الكبيرة المستديرة، وفوق الحصباء المدببة، حتى شعرت أنني لم أعد أقوى على المسير أكثر من ذلك. ولم نكد نصل بعد الظهر إلى بلدة قطنا، في سهل دمشق، حتى كان التعب قد أخذ مني كل مأخذ، وتمزق حذائي وتورمت قدماي، فأردت أن أتوقف وأقضي الليلة في ذلك المكان، ولكن صديقي الشاب

عارض في ذلك بقوة: وكانت حجته أنه كان هناك كثير من رجال الشرطة الفرنسيين يجوبون المكان، وان قطنا كانت بلدة لا قرية، وأننا لا نستطيع أن نجد مأوى لنا دون أن نلفت الأنظار. وأضاف أن الطريقة الوحيدة الباقية هي أن استقل سيارة من تلك السيارات التي كانت تعمل بين قطنا ودمشق. وكانت قروشي العشرون لا تزال معي (ذلك أنني طوال رحلتي من حيفا لم أحتج إلى أن أنفق قرشاً واحداً)، ولحسن الحظ كانت أجرة الركوب إلى دمشق عشرين قرشاً ليس غير.

وفي مكتب شركة النقل المتداعي، في الساحة الرئيسية من البلدة، قيل لي إنه كان عليّ أن أنتظر نصف ساعة إلى أن يحين موعد قيام السيارة التالية، فودعت دليلي المحب، وعانقني كما يعانق الأخ أخاه، وقفل عائداً إلى قريته. وإذ جلست وجوالقي إلى جانبي بالقرب من باب مكتب النقليات، غفوت تحت أشعة شمس الأصيل، ولم أفق إلا عندما شعرت بيد تهزني بخشونة من كتفي: لقد كان شرطياً سورياً. وانهالت الأسئلة المعتادة، فأتبعتها بالأجوبة المعهودة، ولكن الدركي لم يقتنع بها على ما يظهر وقال لي:

ــ «تعـال معي إلى مركز الشرطة وتحدث هناك إلى الضابط المسؤول».

والحق أنني كنت مجهداً إلى درجة أنه لم يعد يهمني سواء اكتشف أمري أم لم يكتشف.

ودخلت إلى غرفة المركز فوجدت «الضابط» وكان في الحقيقة جاويشاً فرنسياً فظاً ضخم الجثة، يرتدي بزة مفكوكة الأزرار، جالساً وراء مكتب رأيت فوقه قارورة عرق تكاد تكون خالية، وكأساً قذرة. وكان ثملاً حتى النهاية، غاضباً مزمجراً، وحدق بعينين يكاد الدم ينفر منهما إلى الشرطي الذي أدخلني عليه وصاح:

ــ «ماذا دهاك الآن؟»

وأوضح له الشرطي باللغة العربية أنه كان قد رآني غريباً جالساً في الساحة الرئيسية، وأوضحت له بدوري باللغة الفرنسية أنني لم أكن غريباً بل مواطناً متقيداً بالقانون.

فصرخ الجاويش عندئذ: «مواطن متقيد بالقانون! إنكم كلكم محتالون نصابون تطوفون البلاد من عاليها إلى دانيها لإزعاجنا فحسب. أين أوراقك؟»

وبينما كنت أتحسس، بأصابع متيبسة، شهادة الهوية في جيبي، ضرب بقبضة يده على الطاولة وجأر:

ـ «لا بأس. أخرج من هنا!» ـ وإذ كنت أقفل الباب ورائي، رأيت يده تمتد إلى قارورته وكأسه.

وبعد ذلك المشي الطويل، ما أعذب الراحة التي وجدتها في الركوب في السيارة من قطنا على الطريق العام إلى غوطة دمشق! هناك في الأفق البعيد كانت غايتي: بحر لا نهاية له من رؤوس الأشجار، وقليل من القباب والمآذن البراقة. وبعيداً جداً، إلى اليمين، انتصبت تلة متوحدة عارية كانت قمتها لا تزال مضيئة بأشعة الشمس، بينما أخذت الظلال الخفيفة تدب صعوداً من قاعدتها. وفوق التلة كانت غمامة فريدة، ضيقة طويلة، تتلألأ بلون الذهب تحت السماء الزرقاء الشاحبة. وفوق السهل شفق وديع أشهب، وجبال بعيدة شامخة إلى اليمين وإلى اليسار، ونسيم عليل منعش.

ومن ثم: جنائن باسقة الأشجار محوطة بأسوار من طين. رجال على صهوات جيادهم، عربات ومركبات وجنود (جنود فرنسيون). وأصبح الغسق أخضر كالماء، ومر ضابط على دراجته البخارية المزمجرة، وعلى عينيه نظارتاه الضخمتان يتقي بهما الغبار، فبدا أشبه بسمكة بحرية من تلك الأسماك التي تعيش في أعماق البحار. ثم: البيوت الأولى. ثم: دمشق، ضجة صاخبة بعد صمت السهل الخلاء. كانت الأضواء الأولى تثب من النوافذ وفي الشوارع، وشعرت بحبور لم أستطع له وصفاً.

ولكن حبوري ما لبث أن انتهى فجأة عندما توقفت السيارة أمام مركز للشرطة في ضاحية دمشق.

فسألت السائق إلى جانبي قائلاً: «ما الأمر؟»

ـ «آه لا شيء. كل السيارات القادمة من الخارج يجب أن تقف أمام مركز الشرطة عند وصولها...».

وانبرى شرطي سوري من المركز وسأل: «من أين أنت قادم؟»

فأجاب السائق: «من قطنا فقط».

ـ «آه حسناً. إذن يمكنك أن تكمل طريقك».

وأدار السائق محرك السيارة فأحدث بذلك جرساً. وتحركت السيارة، ومرة أخرى تنفست الصعداء. إلا أنني ما لبثت أن سمعت صوتاً ينادي على السائق من الشارع: «لقد أفلت الغطاء» ـ وعلى بضع خطوات من مركز الشرطة أوقف السائق السيارة المعمرة كيما يعنى بالغطاء المفتوح الذي كان قد انهدل على جانب الطريق. وبينما كان منهمكاً في ذلك، اقترب الشرطي منا متمهلاً مرة أخرى غير مهتم على ما

ظهر لي إلا بمشكلة السائق. غير أن نظره ما لبث أن وقع عليّ، فتيبست أطرافي عندما رأيت عينيه قد أخذتا تحملقان بي. لقد أخذ يقلب نظره فيّ، ثم اقترب وحوّل بصره إلى أرض السيارة حيث كنت قد وضعت جوالقي.

وسألني بارتياب: «من أنت؟»

وبدأت: «من المطلة. . .» ولكن الشرطي كان يهز رأسه غير مصدق قولي، ثم همس بضع كلمات في أذن السائق، واستطعت أن أتبين كلماته: «جندي انكليزي هارب». ولأول مرة أدركت أن ثيابي الزرقاء، وكوفيتي البنية مع عقالها الموشى بالخيوط الذهبية، وجوالقي المصنوع على النمط العسكري (والذي كنت قد ابتعته من دكان لبيع الخردوات في القدس) جعلني أبدو شبيهاً إلى حد بعيد بمأموري الضبط الإيرلنديين الذين كانت حكومة فلسطين تستخدم في ذلك الحين، وذكرت أنه كان هناك اتفاق بين السلطات الفرنسية والبريطانية على تسليم الهاربين من الخدمة العسكرية. . .

وبلغتي العربية المحطمة حاولت أن أوضح للشرطي أنني لم أكن هارباً من الجندية، ولكنه أبى أن يسمع لي وقال:

ـ «أوضح كل هذا للمفوض».

وهكذا أجبرت على الدخول إلى مركز الشرطة، بينما اعتذر السائق لعدم قدرته على انتظاري، ثم أدار سيارته واختفى عن الأنظار. . . وكان المفوض خارج المركز، إلا أنني أخبرت أنه قد يعود في أية لحظة، وكان عليّ أن أنتظر في غرفة لم يكن فيها سوى مقعد واحد وبابين، إلى جانب الباب الرئيسي وعلى أحد البابين كان مكتوباً بالفرنسية «حارس السجن». بينما كان مكتوباً على الباب الثاني «السجن». وانتظرت وسط تلك البيئة المشؤومة أكثر من نصف ساعة، وكانت كل دقيقة تمرّ تزيد في اقتناعي بأن رحلتي إنما انتهت عند ذلك الحد: ذلك أن كلمة «المفوض» كان لها وقع أكثر شؤماً من كلمة «الضابط»، ولو أن أمري اكتشف الآن، إذن لكان عليّ أن أقضي زمناً ما، لعله أسابيع، في السجن كسجين تحت المحاكمة ثم يحكم عليّ بالسجن ثلاثة أشهر، وهي العقوبة التي تفرض في مثل تلك الحال، وبعد ذلك أسير مشياً على الأقدام، يخفرني دركي على صهوة جواده، إلى حدود فلسطين حيث يمكن أن أعاقب بالطرد خارج البلاد لإقدامي على السفر دونما جواز. والحق أن الكآبة التي تسيطر على جو الغرفة لم تكن شيئاً بالنسبة إلى الكآبة التي استولت على نفسي ساعتئذ.

وفجأة سمعت أزيز سيارة. لقد توقفت عند باب المركز، وبعد هنيهة دخل إلى

الغرفة بخطوات سريعة رجل يرتدي الثياب المدنية والطربوش الأحمر، يتبعه الشرطي الذي كان يحاول، باندفاع، أن ينقل إليه شيئاً ما. لقد كان واضحاً أن المفوض على عجلة من أمره.

لا أعرف كيف حدث ذلك تماماً ولكني أعتقد أن ما فعلته في اللحظة الحاسمة تلك كان نتيجة لتلك الومضات النادرة من العبقرية التي تصنع في ظروف مختلفة ـ ولربما في أناس مختلفين ـ حوادث تغير مجرى التاريخ. فبقفزة واحدة اقتربت من المفوض، ودون أن أنتظر أسئلته، رحت أمطره بالفرنسية بوابل من الشكاوى ضد ذلك الشرطي السمج الأخرق الذي أهانني إذ حسبني، أنا المواطن البريء: أحد الجنود الهاربين فسبب لي بذلك ضياع السيارة عليّ وتخلفي عن الوصول إلى البلدة. وحاول المفوض أن يقاطعني، ولكنني لم أعطه أية فرصة إطلاقاً، وغمرته بسيل من الكلمات التي، كما أعتقد، لم يفهم منها سوى عشرها ولربما الأسماء فقط من مثل «المطلة ودمشق» اللتين كررتهما عدداً من المرات لا يحصى. وكان واضحاً أنه قد تضايق جداً لكونه قد منع من أداء شيء كان عليه أن يفعله على عجل، ولكنني لم أدعه يتكلم بل تابعت الاحتجاج بشدة وعنف، حتى رفع يديه آخر الأمر يائساً وصرخ:

ـ «قف بحق السماء! هل معك أوراق؟»

وذهبت يدي إلى جيبي بصورة آلية بينما ظل ذلك السيل من الجمل يتدفق من فمي، الواحدة تلو الأخرى، ودسست الورقة في يديه. ولا شك في أن الرجل المسكين كان يشعر وكأنه آخذ في الغرق، ذلك أنه اكتفى بأن قلب إحدى زوايا الورقة المطوية، ونظر إلى خاتم الحكومة ورمى بها إليّ قائلاً:

ـ «حسناً، حسناً، اذهب، فقط اذهب!» ولم أنتظر حتى يعيد طلبه كرة أخرى.

* * *

كنت قبل بضعة أشهر قد التقيت في القدس معلماً دمشقياً دعاني إلى أن أحل ضيفاً عليه متى أتيت إلى دمشق، ولذلك أخذت في السؤال عن بيته. وقد تبرع صبي صغير بأن يكون دليلي إليه وسار بي ممسكاً بإحدى يديّ. .

كانت الظلمة دامسة وكنا نسير في المدينة القديمة: في الأزقة الضيقة التي كانت النوافذ البارزة تجعلها مظلمة أكثر من الليل نفسه. وهنا وهناك كنت أستطيع أن أرى على الضوء الأصفر المنبعث من أحد مصابيح الكاز، دكان بائع للفاكهة كومت

في خارجه رؤوس البطيخ وصفت سلال العنب، أناساً كالأشباح. وأحياناً كنت أسمع صوت امرأة يجلجل خلف مشربية. وقال الولد: «هنا». فقرعت الباب وأجابني أحدهم من الداخل، ثم رفعت المزلاج ودخلت إلى فناء مرصوف. وفي الظلام استطعت أن أميز أشجار الليمون الهندي (كريب فروت) مثقلة بثمارها الناضرة وبركة حجرية في وسطها فوارة وسمعت صوتاً ينادي من علٍ:

ـ «تفضل يا سيدي». فارتقيت سلماً ضيقاً ملاصقاً لأحد الجدران الخارجية وسرت في ردهة مكشوفة حيث تلقفني صديقي وضمني إلى صدره مرحباً بي.

وإذ كنت متعباً منهوك القوى، فقد ألقيت بنفسي فوق الفراش الذي قدم إليّ، وكانت الريح تصفر خلال أشجار الفناء أمام البيت وخلال أشجار الحديقة خلفه، ومن بعيد انبعثت أصوات مكتومة كثيرة: صوت مدينة عربية كبرى آخذة في النوم.

* * *

وبانفعال نفساني تواق إلى تفهم جديد، بعينين مفتوحتين على أشياء لم أتخيلها من قبل، كنت أتجول إبان تلك الأيام الصيفية في أزقة السوق الرئيسية في دمشق، ووقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها. إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر: في الاعتبار الكبير الذي كانوا يلقون به ويودعون به بعضهم بعضاً، وفي الطريقة التي كان اثنان منهما يمشيان معاً، يمسك أحدهما بيد الآخر كالأطفال ـ لا لشيء إلا لأنهما كانا يشعران بالودّ كل نحو صاحبه ـ وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً. أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة، أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد، حتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه، يتساءل في ما بينه وبين نفسه ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور فيتقدم التاجر المجاور دائماً ـ التاجر المزاحم ـ ويسأل الزبون عن حاجته، ويبيعه ما يطلب من البضاعة ـ لا بضاعته هو، بل بضاعة جاره الغائب ـ ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوروبا، يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟

وكانت بعض شوارع السوق تغص بالبدو في ألبستهم الفضفاضة: رجال كان يخيل إلي أنهم يسيرون في سبلهم الخاصة، يحملون حياتهم على أكفهم. رجال

طوال ذوو عيون عميقة متقدة يقومون ويقعدون جماعات جماعات أمام الدكاكين. إنهم لم يكونوا يتكلمون كثيراً بعضهم مع بعض ـ ذلك أن كلمة واحدة، جملة واحدة، كانت تلقى بانتباه وتسمع بانتباه مثله فتغني عن محادثات طويلة. أولئك البدو، كما شعرت، لم يكونوا يعرفون الثرثرة ـ ذلك التحدث عن لا شيء ـ التي هي أمارة النفوس البالية. وذكرني ذلك بكلمات القرآن التي تصف الحياة في الجنة «لا تسمع فيها لاغية». وبدا لي السكون إحدى الفضائل البدوية. كانوا يلفون أنفسهم بعباءاتهم الواسعة البنية ـ البيضاء أو السوداء، ويلزمون الصمت. كانوا يمرون بك بنظرة صامتة كنظرات الأطفال، أباة متضعين مرهفي المشاعر والأحاسيس، وإذا خاطبتهم بلسانهم، أضاءت عيونهم السوداء بابتسامة مفاجئة: ذلك أنهم لم يكونوا انطوائيين لا يهتمون إلا بأمورهم الخاصة، كما كانوا يحبون أن يفهمهم الغريب. لقد كانوا «سادةً عظاماً»، متحفظين بالكلية، ومستعدين، مع ذلك، لتقبل أمور الحياة جميعاً. . .

وفي يوم الجمعة كنت تشاهد تبدلاً في أسلوب الحياة في دمشق ـ إعصار خفيف من المرح البهيج، وفي الوقت نفسه: خشوع ومهابة. ولقد فكرت في أيام آحادنا في أوروبا، في شوارع المدينة الصامتة والمخازن المغلقة، وذكرت كل تلك الأيام الفارغة، وضيق الصدر الذي كان ينتج عن ذلك الفراغ. ولكن لماذا لا بدّ أن يكون الحال كذلك؟ الآن بدأت أفهم: لأن الحياة اليومية، بالنسبة إلى معظم الناس في الغرب، عبء ثقيل لا يريحهم منه سوى أيام الآحاد. إن يوم الأحد لم يعد يوم راحة فحسب، بل أصبح أيضاً مهرباً إلى اللاحقيقي، نسياناً خادعاً تكمن وراءه «أيام الأسبوع» مضاعفة الثقل والنذر.

أما بالنسبة إلى العرب، من ناحية أخرى، فإن يوم الجمعة لم يكن يبدو فرصة لنسيان أيام عملهم، لا لأن ثمار الحياة كانت تتساقط بسهولة، ويسر ودونما عناء، بين شقاء أولئك القوم، بل لأن عملهم حتى أكثره إجهاداً، لم يكن يبدو أنه يتعارض مع رغباتهم الشخصية. أما الرتابة، من أجل الرتابة نفسها، فقد كانت مفقودة. وبدلاً من ذلك، كانت هناك صلة باطنية بين العامل وعمله، مما جعل الراحة غير ضرورية له إلا إذا شعر بالتعب. ومثل هذا التوافق بين الإنسان وعمله لا بدّ أن يكون الإسلام قد تصوره الحالة الطبيعية للأشياء، ولذلك لم يفرض أية راحة إجبارية يوم الجمعة. كان الصناع وأصحاب الدكاكين الصغيرة في أسواق دمشق يعملون ساعات قليلة، ثم يتركون دكاكينهم بضع ساعات ينصرفون خلالها إلى المساجد فيؤدون صلاة الجمعة، ويلقون أصدقاءهم بعد ذلك في أحد المقاهي، ليعودوا من ثم إلى دكاكينهم حيث

يعملون بضع ساعات على رِسلهم وكما يشاء كل منهم. كانت هناك دكاكين قليلة غير مغلقة، وكانت شوارع المدينة كلها مليئة بالجلبة والضوضاء شأنها في سائر أيام الأسبوع، باستثناء الفترة التي كان الناس يتجمعون فيها في المساجد للصلاة.

في يوم من أيام الجمعة ذهبت مع صديقي ومضيفي إلى الجامع الأموي. كانت الأعمدة الرخامية الكثيرة التي كانت تحمل السقف المقبّب تلمع تحت أشعة الشمس التي كانت تتساقط من النوافذ ذوات الاعتاب الحجرية. كانت رائحة المسك منتشرة في هواء الجامع، وكانت أرضه مغطاة بقطع من السجاد الأزرق والأحمر، وفي صفوف طويلة مستقيمة كان يقف مئات كثيرة من الرجال وراء الإمام الذي كان يؤم الصلاة. كانوا يركعون ويسجدون فيلمسون الأرض بجباههم ثم ينهضون ثانية: في وحدة منظمة، كالجنود سواء بسواء. كان كل شيء هادئاً جداً، وبينما كان الحشد وقوفاً، كان باستطاعة المرء أن يسمع صوت الإمام الشيخ من الأعماق البعيدة في القاعة الكبيرة، يتلو آيات من القرآن، حتى إذا ما ركع أو سجد تبعه الجمع كلهم كشخص واحد، يركعون ويسجدون لله كأنما هو ماثل أمام أعينهم.

في تلك اللحظة أدركت مبلغ قرب هؤلاء القوم من ربهم ومن دينهم. إن صلاتهم لم تكن تبدو منفصلة عن يوم عملهم مستقلة عنه، بل كانت قسماً منه ـ لم يقصد بها أن تساعدهم على نسيان الحياة، بل على ذكرها عن طريق ذكر الله بطريقة أفضل.

وقلت لصاحبي إذ كنا نغادر المسجد: «ما أغرب وأدهش أن تشعروا أن الله قريب منكم إلى هذا الحد! أود لو أستطيع أن أشعر نفسي هذا الشعور!» فأجابني: «وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، يا أخي، أليس الله، كما يقول كتابنا الطاهر: «أقرب إليكم من حبل الوريد؟»

وقد كان لهذا الإدراك الجديد أبلغ الأثر في نفسي، فقضيت معظم أيامي في دمشق، أطالع كل ما تصل إليه يدي من الكتب عن الإسلام. ومع أن معرفتي باللغة العربية كانت كافية للتحدث بها، فإنها لم تكن قد بلغت في ذلك الحين من القوة بحيث أستطيع أن أقرأ القرآن بلغته الأصلية، وهكذا كان عليَّ أن ألجأ إلى ترجمتين ـ فرنسية وألمانية ـ استعرتهما من إحدى المكتبات. أما في ما يتعلق بالأمور الأخرى، فقد كان عليّ أن أعتمد على مؤلفات للمستشرقين الأوروبيين وعلى إيضاحات صديقي.

ومهما كانت تلك الدراسات والأحاديث مؤلفة من نتف وشذرات فإنها كانت

بمثابة رفع الغشاوة عن عيني. لقد بدأت أميز عالماً من الأفكار كنت حتى ذلك الحين أجهله كلياً.

إن الإسلام لم يبد لي ديناً بالمعنى الشائع للكلمة بمقدار ما بدا طريقة في الحياة، ولا نظاماً لاهوتياً بمقدار ما تبينته منهاجاً للسلوك الشخصي والاجتماعي قائماً على ذكر الله. إنني لم أستطع أن أجد في أيما مكان في القرآن أيما ذكر لحاجة إلى «الخلاص». ليس هناك في الإسلام من خطيئة «أولى» موروثة تقف بين الفرد ومصيره ـ ذلك أنه «ليس للإنسان إلا ما سعى» ـ ولا يطلب أيما نسك أو إماتة لفتح باب خفي إلى الطهارة، ذلك أن الطهارة حق يرثه الإنسان بالولادة، والخطيئة ليست زلة من الصفات الفطرية الإيجابية التي يقال إن الله قد وهبها لكل كائن من الناس. ليس هناك من أثر للثنائية في اعتبار الطبيعة الإنسانية، ذلك أن الروح والجسد يعتبران وحدة صحيحة كاملة.

لقد أجفلت بعض الشيء، في أول الأمر، لا لاهتمام القرآن بالأمور الروحية فحسب بل أيضاً بكثير من وجوه الحياة التي كانت تبدو لي تافهة دنيوية أيضاً. إلا أنني، مع الزمن، بدأت أفهم أنه إذا كان الإنسان حقاً وحدة كاملة من جسد وروح ـ كما يؤكد الإسلام ـ فإنه ليس هناك وجه من وجوه حياته يمكن أن يكون من «التفاهة» بحيث لا يقع داخل نطاق الدين. ومع كل هذا، فإن القرآن لا يدع أتباعه مطلقاً ينسون أن الحياة في هذا العالم ليست إلا مرحلة من طريق الإنسان إلى وجود أسمى، وأن هدفه الأساسي الأخير إنما هو ذو طبيعة روحية. إن الرخاء المادي، كما يقول القرآن، مستحسن ومستحب، ولكنه ليس غاية في ذاته، ولذلك فإن شهوات الإنسان، بالرغم من أن لها ما يبررها، يجب أن تكبح وتضبط عن طريق الإدراك الأخلاقي. وهذا الإدراك يجب أن لا يكون متصلاً بعلاقة الإنسان بربه فحسب، بل بعلاقاته بغيره من الناس كذلك. يجب أن لا يعني بإكمال الفرد روحاً فحسب بل أيضاً بخلق ظروف اجتماعية كتلك التي يمكن أن تكون باعثة على النمو الروحي عند الناس جميعاً بحيث يستطيعون أن يحيوا حياة كاملة.

كل هذا كان، عقلياً وأخلاقياً، يدعو إلى الاحترام أكثر، إلى حد كبير، من أيما شيء سمعته أو قرأته عن الإسلام من قبل. لقد بدا لي أن معالجته مشاكل الروح أعمق جداً من معالجة العهد القديم. ولم تكن فيها، فوق ذلك محاباة هذا الأخير لشعب معين. وإن معالجته مشاكل الجسد، بخلاف العهد الجديد، كانت إيجابية إلى درجة قوية. إن الروح والجسد، كلاً في نطاق حقه، كانا بمثابة وجهين توأمين

للحياة الإنسانية التي أبدعها الله.

وساءلت نفسي: «ألا يمكن أن تكون هذه التعاليم مسؤولة عن الأمن العاطفي الذي أحسسته، كل تلك المدة الطويلة، في العرب؟»

روح وجسد

- ١ -

وسرنا. . . زيد وأنا، على هجينين اثنين. ومرت الأيام، وكانت الليالي قصاراً، ونحن نسير باتجاه الجنوب، بخطوات رشيقة. كان هجينانا في حالة ممتازة، ذلك أنهما كانا قد ارتويا منذ وقت يسير، وتسنى لهما في اليومين الماضيين أن يرعيا في مروج خصبة. وكان يتعين علينا أن نسير أربعة عشر يوماً أخرى قبل أن نصل إلى مكة، كما كان بالامكان أن تطول هذه المدة فيما إذا قضينا بعض الوقت في بلدتي حايل والمدينة. وكلتاهما كانت تقع على طريقنا.

واستحوذ عليّ ضجر لم أعهده من قبل: لجاجة وعجلة لم أجد لهما أي تفسير. كنت حتى ذلك الحين قد اعتدت أن أستمتع بالسفر على مهل، دونما أي دافع معين إلى أن أصل إلى مقصدي بسرعة. لقد حقق كل من الأيام، والأسابيع شيئاً خاصاً به، وكان الهدف دائماً يبدو طارئاً عرضياً، أما الآن فقد بدأت أشعر بما أشعر به من قبل في السنوات التي قضيتها في الجزيرة العربية: رغبة ملحة بالوصول عاجلاً إلى نهاية طريقي. وأية غاية؟ أن أرى مكة؟ لقد ذهبت إلى المدينة المقدسة مراراً عديدة، وعرفت حياتها معرفة دقيقة جداً إلى درجة أني لم أعد آمل أن أكتشف فيها أيما شيء جديد. أو لعلي كنت أتوقع اكتشافاً من نوع جديد؟ لا بد أنه كان كذلك ـ ذلك أن أملاً غريباً وترقباً شخصياً كانا يجذبانني إلى مكة، كأنما ذلك المركز الروحي للعالم الإسلامي بما كان يكتظ فيه من شعوب عديدة من جميع زوايا العالم، كان ضرباً من الوعد، باباً يولجني في عالم أوسع من ذلك الذي كنت أعيش فيه وقتئذٍ. لم يكن ذلك لأنني سئمت جزيرة العرب. لا، لقد أحببت صحاريها وبلدانها، وعادات أهلها كما أحببتها دائماً: وتلك اللمحة الأولى عن الحياة العربية في شبه جزيرة سيناء نحواً من عشر سنوات مضت لم تخيب رجائي قط، كما أن السنوات التي تعاقبت بعد ذلك وطدت رجائي الأول: إلا أنه منذ ليلتي عند البئر منذ يومين اقتنعت داخلياً بأن

جزيرة العرب قد أعطتني كل ما كان لها أن تعطيني.

لقد كنت قوياً، شاباً، وصحيح الجسم. كان باستطاعتي أن أركب ساعات كثيرة دون توقف ودون أن يعتريني أي تعب. كنت أستطيع أن أرتحل ـ ولم أزل أفعل ذلك منذ سنوات ـ كما يرتحل البدوي، دونما خيمة ودون أي من وسائل الراحة التي كثيراً ما كان سكان المدن في نجد يعتبرونها ضرورية في الرحلات الطويلة عبر الصحراء. لقد كنت في وطني أطبق دقائق الحياة البدوية، وأتبع عادات النجديين وطرائقهم. ولكن هل كان ذلك كل شيء؟ ـ هل عشت كل تلك المدة الطويلة في الجزيرة العربية لأصبح عربياً فحسب؟ ـ أو هل كان ذلك إعداداً لشيء يخبئه المستقبل؟

* * * *

كان ذلك الملل الذي اعتراني في هذه الرحلة مع زيد عام ١٩٣٢ شبيهاً نوعاً ما بذلك الملل الشديد الذي خبرته عندما عدت إلى أوروبا بعد أول رحلة قمت بها إلى الشرق الأدنى عام ١٩٢٣: الشعور بأنني قد قصرت عن مشاهدة رؤيا عظيمة كان يمكن أن تتكشف لي لو أنه كان هناك متسع أكبر من الوقت...

ولقد خف ذلك التأثير الأول الذي أحدثه في نفسي اجتياز العالم العربي أثناء عودتي إلى أوروبا، وذلك بفعل الأشهر التي قضيتها في تركيا بعد مغادرتي سوريا في خريف سنة ١٩٢٣. كانت تركيا مصطفى كمال لم تدخل في تلك الأيام مرحلتها «الاصلاحية» المقلّدة، كانت لا تزال تركيةً أصيلة في حياتها وتقاليدها، كما كانت، بسبب من رابطة الإسلام، لا تزال على صلة بمجرى الحياة العربية العام: ولكن دم الأتراك بدا لي ثقيلاً نوعاً ما بالنسبة إلى خفة الدم العربي، ولقد كانوا أقرب إلى الغرب في شعورهم. فعندما سافرت براً من اسطنبول إلى صوفيا فبلغراد لم ألمس أيما انتقال مفاجيء من الشرق إلى الغرب، وكانت المشاهد تتبدل بصورة تدريجية فيختفي عامل ويظهر مكانه عامل آخر. كان عدد المآذن يقل والمسافة بينها تزداد طولاً، وكانت قفاطين الرجال تغيب عن ناظري لأرى بدلاً منها سترات الفلاحين ذوات الزنانير، وأشجار الأناضول وغياضه المتبعثرة تندمج بغابات الشوح الصربية ـ إلى أن وجدت نفسي فجأة، عند الحدود الإيطالية، في أوروبا ثانية.

وإذ جلست في القطار الذي كان يقلني من تريستا إلى فيينا، أخذت انطباعاتي الحديثة عن تركيا تفقد كل حيويتها. والواقع الوحيد الذي بقي كان تلك الأشهر الثمانية عشر التي كنت قد قضيتها في البلدان العربية. ولقد أحسست بصدمة ما عندما

أدركت أنني كنت أنظر إلى تلك المشاهد الأوروبية، التي طالما كانت مألوفة لدي، بعين الغريب. لقد بدا الناس في عيني بشعين جداً، وحركاتهم حادة خرقاء دونما أي صلة مباشرة بما كانوا يريدون ويشعرون حقاً: وفجأة عرفت، بالرغم من ظهورهم بمظهر الذي يعرف هدفه في كل ما كانوا يصدرون عنه، أنهم كانوا يعيشون، دون أن يدركوا ذلك، في عالم من الادعاء والتظاهر. . . وكان واضحاً أن اتصالي بالعرب كان قد بدل بالكلية نظرتي إلى ما كنت أعتبره جوهرياً في الحياة، وذكرت بشيء من الدهش أن كثيراً من الأوروبيين كانوا قد خبروا الحياة العربية قبلي، فكيف كان ممكناً، إذن، أنهم لم يخبروا تلك الصدمة نفسها التي سببتها لي اكتشافاتي هناك؟ أو - لعلهم خبروها؟ - هل أصيب أحدهم بالصدمة في أعماقه، كما أصبت أنا الآن. . ؟

ولقد أخذت جواباً عن سؤالي هذا، بعد سنوات عديدة، في الجزيرة العربية: لقد جاءني من الدكتور «فان درمولن»، الذي كان عندئذٍ وزير هولندا المفوض في جدة. كان الدكتور فان درمولن ذا ثقافة واسعة متعددة الجوانب، وكان متمسكاً بدينه المسيحي بقوة يندر وجودها الآن بين الغربيين. ولذلك لم يكن صديقاً للاسلام كدين. ومع ذلك فقد اعترف لي أنه كان يحب جزيرة العرب أكثر من حبه لأيما بلد آخر رآه من قبل، دون أن يستثني وطنه أيضاً. وعندما أشرفت خدمته في الحجاز على نهايتها قال لي مرة: «أعتقد أنه ما من شخص ذي شعور يستطيع أن يبقى دائماً غير متأثر بسحر الحياة العربية، أو أن ينتزعها من قلبه بعد أن يعيش مع العرب وقتاً ما. فعندما يغادر المرء هذه البلاد فإنه يظل دائماً يذكر جو هذه الأرض الصحراوية ويظل يحن إليها بشوق - حتى ولو كان وطنه في مناطق أغنى وأكثر جمالاً وفتنة. . .».

توقفت في فيينا بضعة أسابيع حيث احتفلت بالمصالحة مع أبي. لقد خبا الآن غضبه لتركي دراساتي الجامعية وللطريقة غير اللائقة التي هجرت بها العيش في كنفه. لقد أصبحت الآن مراسلاً لفرانكفورتر تزايتونغ - ذلك الاسم الذي كان الناس في أوروبا الوسطى يلفظونه بخشية ورهبة في تلك الأيام - وبررت ادعائي الذي كنت أتبجح به من أنني «سأصل إلى القمة».

ومن فيينا سافرت رأساً إلى فرانكفورت لأقدم نفسي شخصياً إلى الصحيفة التي راسلتها أكثر من سنة. ولقد فعلت ذلك باطمئنان كبير، ذلك أن الرسائل التي تسلمتها من فرانكفورت قد أوضحت لي أن عملي كان محل التقدير. ودخلت صرح فرانكفورتر تزايتونغ القديم المعتم، وأرسلت بطاقتي إلى رئيس التحرير، الدكتور سيمون، الذي كان يتمتع بشهرة عالمية وقتئذ.

وعندما دخلت عليه، نظر إليّ لحظة وقد استحوذ عليه الدهش فمنعه من الكلام وأنساه أن ينهض عن كرسيه. ولكنه سريعاً ما استعاد سكينته فنهض وصافحني قائلاً:

ـ «أجلس، أجلس. لقد كنت أتوقع قدومك». ولكنه ظل ينظر إليّ صامتاً حتى أنني بدأت أشعر بالقلق.

ـ «هل في الأمر أي خطأ، يا دكتور سيمون؟»

ـ «لا، لا، لا، لاشيء خطأ ـ أو بالأحرى، كل ما في الأمر خطأ». ثم ضحك وأردف قائلاً: «لقد كنت، بطريقة ما، أتوقع أن ألقى رجلاً متوسط العمر على عينيه نظارتان ذهبيتا الاطار ـ وأنا أجد أمامي ولداً... آه أستميحك عفواً. مهما يكن من أمر، كم تبلغ من العمر؟»

وذكرت فجأة ذلك التاجر الهولندي المرح، في القاهرة، الذي وجه إليّ السؤال نفسه قبل سنة، وانفجرت ضاحكاً:

ـ «إنني فوق الثالثة والعشرين يا سيدي، سأبلغ الرابعة والعشرين عما قريب». ثم أضفت: «هل تجدني أصغر مما ينبغي بالنسبة إلى فرانكفورتر تزايتونغ؟»

فأجاب الدكتور سيمون متمهلاً: «لا... ليس بالنسبة إلى فرانكفورتر تزايتونغ ولكن بالنسبة إلى مقالاتك. لقد اعتقدت، بطريقة ما، أنه ليس باستطاعة شخص أن يتغلب على رغبته الطبيعية في توكيد ذاته، فيترك شخصيته كما كنت تفعل، بالكلية، في مؤخرة مقالاته، إلا إذا كان أكبر منك سناً إلى حد كبير. هذا هو، كما تعلم، سر الصحافة الناضجة: أن تكتب موضوعياً، وبتجرد، عن كل ما ترى وتسمع وتفكر، دون أن تعلق تلك الخبرات مباشرة بخبراتك الشخصية الخاصة... ومن ناحية أخرى، كما خطر لي الآن، لا يستطيع أحد أن يكتب بمثل هذا الاندفاع الكبير، وبمثل هذه الروعة، إلا من كان في مثل شبابك...». ثم تنهد وأضاف: «إنني فعلاً أرجو أن لا تخبو، وأن لا تغدو مغروراً بنفسك ومكدوداً كالآخرين...».

والظاهر أن اكتشاف الدكتور سيمون صغر سني الزائد قد قوى اقتناعه بأنه قد وجد فيّ مراسلاً يرجى منه خير كثير، ولذا وافق موافقة تامة على وجوب عودتي إلى الشرق الأوسط بأسرع ما يمكن. فأما من الناحية المالية فلم يعد هناك أية عقبة تحول دون تنفيذ مثل تلك الرحلة، ذلك أن ألمانيا كانت في السنة السابقة، ١٩٢٣، قد تغلبت على تضخمها المالي، وكان استقرار العملة قد أخذ ينشر موجة من الرخاء. وكانت فرانكفورتر تزايتونغ ثانية في وضع يمكنها من تمويل رحلات مراسليها

الخاصين. إلا أنه كان ينتظر مني، قبل أن أترك ألمانيا مرة أخرى، أن أخرج الكتاب الذي كانت الجريدة قد تعاقدت معي قبلاً على إخراجه. ولذلك فقد قررت الادارة أن ألتحق، في أثناء ذلك، بمكتب رئاسة التحرير كي يتسنى لي أن أكتسب خبرة وافية بأعمال الصحف الكبرى.

وبالرغم من تلهفي للسفر مرة أخرى، فقد كانت تلك الأشهر التي قضيتها في فرانكفورت منعشة ومثيرة إلى حد بعيد، ذلك أن فرانكفورتر تزايتونغ لم تكن مؤسسة كبرى فحسب بل مؤسسة للبحث والاستقصاء تقريباً. لقد كانت تستخدم نحواً من خمسة وأربعين محرراً من الطراز الأول، عدا الكثيرين من المحررين الثانويين والمساعدين في مكاتب الأخبار. وكان العمل التحريري اختصاصياً إلى مستوى رفيع، فكل ناحية من نواحي العالم، وكل موضوع سياسي أو اقتصادي رئيسي في عهدة خبير شهير بارز في حقله: وذلك اتباعاً للتقليد القديم الذي يقضي بأن لا تكون مقالات فرانكفورتر تزايتونغ ورسائلها مجرد انعكاسات زائلة للأحداث العابرة، بل ضرباً من الأدلة والوثائق الخطية التي يمكن للسياسيين والمؤرخين أن يرجعوا إليها. وكان معروفاً لدى الجميع أن وزارة الخارجية في برلين كانت تحيط مقالات فرانكفورتر تزايتونغ الافتتاحية والتحليلية بالاحترام نفسه الذي كانت تسبغه على مذكرات الحكومات الأجنبية (والواقع أن بسمارك قد سمع يقول عن رئيس مكتب برلين في الصحيفة وقتئذ: «إن الدكتور شتاين هو سفير فرانكفورتر تزايتونغ إلى بلاط برلين»). والحق أن العضوية في مثل تلك المؤسسة كانت مبهجة ومرضية إلى حد كبير لشاب في مثل سني، خصوصاً وأن آرائي عن الشرق الأوسط قد لاقت انتباهاً جدياً من المحررين، وكثيراً ما كانت موضوع مؤتمراتهم اليومية. وجاء النصر النهائي في ذلك اليوم، عندما طلب إليّ أن أكتب مقالاً افتتاحياً عن مشكلة نشأت في الشرق الأوسط حينذاك.

لقد أسبغ عملي في فرانكفورتر تزايتونغ على تفكيري الواعي قوة دافعة عظيمة، وبدأت، بصفاء ووضوح أكبر من أيما وقت مضى، أروي خبراتي الشرقية إلى العالم الغربي الذي عدت مرة أخرى جزءاً منه. وكما كنت قد اكتشفت منذ أشهر صلة بين الأمن العاطفي عند العرب والدين الذين كانوا يدينون به، كذلك بدأ يتضح لي أن افتقار أوروبا إلى الوحدة الداخلية الذاتية، وحالتها الأدبية والأخلاقية المضطربة، ربما كانا ناتجين عن فقدانها ذلك الاتصال بمعتقدها الديني الذي صاغ المدنية الغربية.

هنا، كما رأيت، كان مجتمع يبحث عن تنظيم روحي جديد، بعد أن كان قد تخلى عن الله: إلا أنه كان ظاهراً أن عدداً قليلاً من الغربيين كانوا يدركون أي شيء عنه. ذلك أن الأكثرية كانت تفكر، سواء بطريقة واعية أو غير واعية، تقريباً، كما يلي: «بما أن إدراكنا وتجاربنا العلمية وحساباتنا لا تكشف أيما شيء معين محدود عن أصل الحياة الانسانية ومصائرها بعد موت الجسد فإن علينا أن نركز جميع طاقاتنا في إنماء قوانا المادية والعقلية، وأن لا نسمح لأنفسنا بأن تشوشها وتعرقلها الآداب والأخلاق التي هي فوق العقل أو الافتراضات والادعاءات الأدبية والأخلاقية التي تقوم على ظنون وأوهام تزدري بالبرهان العلمي». وهكذا ففي حين أن المجتمع الغربي لم ينكر الله بصورة صريحة، فإنه لم يعد يحله أيما محل في أسلوبه العقلي.

في السنوات السابقة، عندما أصبحت قانطاً من دين آبائي وأجدادي، فكرت في المسيحية بعض الشيء. لقد كان مفهوم المسيحية عن الله، في نظري، اسمى وأفضل إلى حد لا نهاية له من مفهوم العهد القديم، ذلك أنه لم يقصر اهتمام الله ومحبته على أية جماعة من الناس، بل افترض أبوته للانسانية جمعاء. بيد أنه كان هناك عنصر واحد في النظرة الدينية المسيحية ينتقص من عالميته: تمييزه وتفريقه بين الروح والجسد، بين عالم المعتقد وعالم الشؤون العملية.

وبسبب من افتراق المسيحية الباكر هذا عن جميع النزعات والميول التي تهدف إلى توكيد الحياة والمساعي الدنيوية، فقد شعرت أنها كانت قد انقطعت منذ زمن طويل عن أن تقدم قوة أدبية أخلاقية دافقة إلى المدنية الغربية. لقد ألف أتباعها الفكرة القائلة بأنه لم يكن من شأن الدين أن «يتدخل» في الحياة العملية. لقد اكتفوا بأن ينظروا إلى المعتقد الديني نظرتهم إلى تقليد مسكن لم يقصد به أن يغذي أكثر من معنى غامض للفضيلة الشخصية ـ وبخاصة الفضيلة الجنسية ـ في الرجال والنساء إفرادياً. وكان يساعدهم في هذا اتجاه قديم جداً اصطنعته كنيسة، لم تحدث، اتباعاً لمبدأ الفصل بين «ما لله وما لقيصر» في حقل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية، أيما تغيير يذكر، فكانت نتيجة ذلك أن السياسة والتجارة المسيحيتين قد تطورتا في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي كان المسيح قد دعا إليه. لقد فشل الدين الذي اعتنقه الغرب، بسبب من عدم تزويده أتباعه بإرشاد ثابت مقرر في شؤونهم الدنيوية، في ما كان، في رأيي، يبدو أنه رسالة المسيح الحقيقية، وأنه، في الحق، المهمة الرئيسية لكل دين: أن يبين للانسان لا كيف يحس ويشعر إحساساً وشعوراً صالحين فقط بل كيف يحيا حياة صالحة أيضاً. وبشعور غرزي بأن دينه قد خيب أمله بطريقة ما فقد الانسان الغربي، خلال القرون، كل إيمانه الحقيقي بالمسيحية، وبفقده هذا

الإيمان، فقد الاقتناع بأن الكون إنما كان تعبيراً لقوة واحدة منظمة، وأنه لذلك كان يشكل كلاً عضوياً واحداً. وبسبب من أنه فقد هذا الاقتناع كان يعيش الآن في فراغ روحي وأخلاقي.

لقد رأيت، في ترك الغرب التدريجي للمسيحية وانصرافه عنها، ثورة ضد ازدراء الحياة التي بشر بها بولس، والتي أبهمت، قديماً جداً وتماماً جداً، تعاليم المسيح. فكيف، إذن، يستطيع المجتمع الغربي أن يستمر في ادعائه أنه مجتمع مسيحي؟ وكيف يستطيع أن يرجو دونما إيمان ثابت، أن يتغلب على فوضاه الأدبية والأخلاقية الحاضرة؟

عالم يعتريه الجيشان والاضطراب: ذلك كان عالمنا الغربي. سفك دماء وتدمير وعنف إلى حد لم يسبق له مثيل. تهافت في كثير من التقاليد الاجتماعية وتصادم بين المذاهب الفكرية، وصراع مرير في كل مكان في سبيل طرائق جديدة في الحياة: تلك كانت أمارات عصرنا. ومن دخان الحرب العالمية ومجازرها، ومن حروب صغرى لا تحصى وجملة من الثورات والثورات المضادة، من الكوارث الاقتصادية التي فاقت كل الكوارث التي كانت قد سجلت حتى ذلك الحين: من هذه الأحداث الهائلة كلها ظهرت الحقيقة: إن التركيز الغربي الحاضر في التقدم المادي والفني الصناعي لم يستطع مطلقاً أن يحول، وحده، الفوضى الحاضرة إلى شيء يشبه النظام. لقد تبلور اقتناعي الفطري أيام الشباب بأنه «ليس بالخبز وحده يحيا الانسان»، إلى الاقتناع العقلي بأن عبادة «التقدم» التي كانت سائدة في تلك الأيام لم تكن أكثر من عوض سقيم مبهم عن إيمان قديم بالقيم المجردة ـ أي إيمان كاذب اخترعه أناس فقدوا جميع قدرتهم الداخلية على الإيمان بالقيم المجردة وكانوا الآن يخدعون أنفسهم بالاعتقاد بأن الإنسان، بطريقة ما، وبدافع تطوري بحت، يستطيع أن يتغلب على مصاعبه الحالية... إنني لم أفهم كيف أن أياً من الأنظمة الاقتصادية الحديثة التي انبثقت من هذا الاعتقاد المضلل الخادع يستطيع أن يشكل أكثر من مسكّن لبؤس المجتمع الغربي وشقائه: إنها تستطيع، في أفضل الأحوال، أن تداوي بعضاً من أعراضهما، ولكنها لا تستطيع أن تداوي السبب فيهما.

* * *

في أثناء عملي في هيئة تحرير فرانكفورتر تزايتونغ، قمت بزيارات متكررة إلى برلين، حيث كان يقطن معظم أصدقائي، وصدف في إحدى تلك الرحلات أنني التقيت المرأة التي قدر لها أن تصبح زوجتي فيما بعد.

منذ اللحظة التي قدمت فيها إلى «ألسا»، فتنتُ بقوة، ليس فقط بجمال مظهرها الناعم ـ بوجهها الصغير وعينيها الحادتين الزرقاوين والفم الحساس الذي كان يدل مقدماً على الأنس والدعة ـ بل إلى درجة أكبر بالطريقة الوجدانية التي كانت تنظر بها إلى الناس والأشياء. لقد كانت رسامة. ولعل تصويرها، كما عرفت فيما بعد، لم يكن بارزاً ومشهوداً له، ولكنه على كل حال كان يحمل طابع الصفاء الشديد نفسه الذي كان يتجلى في جميع كلماتها وحركاتها. وبالرغم من أنها كانت تكبرني بنحو من خمسة عشر عاماً ـ أي أنها كانت على وشك أن تنهي العقد الرابع من عمرها ـ فإن وجهها الناعم الأملس وجسمها اللدن الأهيف جعلاها تبدو أصغر مما كانت إلى حد بعيد، ولعلها كانت أجمل مثال للجنس الشمالي الأوروبي لقيته في حياتي. كان أرملة وكان لها ابن في السادسة من عمره تحبه حباً جماً.

ولا بد أن الاعجاب كان متبادلاً منذ البداية. ذلك أننا، بعد لقائنا الأول، كنا كثيراً ما نرى بعضنا بعضاً. وإذ كنت أحمل تلك الانطباعات الكثيرة عن العالم العربي فقد نقلتها، بالطبع، إلى ألسا. وأظهرت هي بدورها، بخلاف الأكثرية من أصدقائي، تفهماً للمشاعر والأفكار القوية، وإنما غير الكاملة حتى ذلك الحين، التي أحدثتها تلك الانطباعات في نفسي وعطفاً عليها: إلى درجة أنني شعرت شعوراً قوياً أنها، هي وحدها، تستطيع أن تفهم ما أقصد إليه، وتستطيع أن تساعدني في بحثي...

ـ ٢ ـ

وانقضى يوم آخر من أيام الارتحال.. لقد ران علي صمت وهدوء، بينما كان الليل وديعاً من حولي. كانت الريح تنزلق على الكثبان وتموج الرمال عند انحداراتها. وفي دائرة ضوء النار الضيقة استطعت أن أرى صورة زيد وهو منهمك بقدوره وحلله، وأخراجنا قابعة بالقرب منا حيثما كنا قد قذفنا بها عندما وقفنا لقضاء الليل، ومعها شدادانا بغزالاتهما الطويلة. وعلى مبعدة قليلة، كان الهجينان جاثمين على الأرض، متعبين بعد ذلك المسير الطويل، وعنقاهما ممدودتان فوق الرمل، ووراءهما الصحراء الخالية لا تكاد ترى تحت نور النجوم، إلا أنها قريبة منك قرب خفقات قلبك إليك.

إن هناك مناظر طبيعية أخرى كثيرة في العالم، ولكن أحدها لا يمكن، في اعتقادي، أن يصوغ الروح الانسانية بمثل هذه الطريقة السامية إلى أبعد الحدود. إن الصحراء بخشونتها وعريها تجرد رغبتنا في أن نفهم الحياة، من كل الخدع والمراوغات، من كل الأوهام والأضاليل المتعددة المتشعبة التي بها يمكن لطبيعة أكثر

سخاء وجوداً أن تخلب عقل الإنسان وتجعله يسلط تخيلاته الخاصة على العالم من حوله. إن الصحراء عارية نظيفة لا تقبل أنصاف الحلول. إنها تجرف من قلب الإنسان كل النزوات والأوهام المحببة التي يمكن أن تستعمل كقناع للتفكير الراغب، وهكذا تجعله حراً لكي يسلم نفسه إلى «كلي» مجرد لا صورة له: أبعد من كل ما هو بعيد، ومع ذلك فهو أقرب من كل ما هو قريب.

منذ أن بدأ الإنسان يفكر، كانت الصحراء، ولا تزال، مهد كل اعتقاداته بإله واحد. صحيح أن البشر، حتى في بيئات أقل خشونة وأجواء أكثر اعتدالاً كانت لهم لمحة عن وجود الله ووحدانيته، ولكن هذه المفاهيم الأولى لم تكن قط أكثر من حاصل شعور غامض مبهم، وتكهن لا معرفة أكيدة، إلى أن انبثقت المعرفة بيقين يبهر الأبصار لأهالي الصحراء ومن الصحراء. فمن عليقة شوك مشتعلة في صحراء مدين دوى صوت الله إلى موسى، وفي قفر صحراء فلسطينية تلقى المسيح رسالة «مملكة الله»، وفي غار حراء، في التلال الصحراوية قرب مكة نودي لأول مرة على محمد العربي.

لقد جاءه النداء في ذلك الشعب الضيق الصدر الجاف بين التلال الصحراوية، ذلك الوادي الذي تحرقه شمس الصحراء: النداء إلى توكيد الحياة الروحية الجسدية معاً. النداء الذي كان مقدراً له أن يهب كياناً وهدفاً لأمة من القبائل لا شكل لها ولا كيان، وأن ينتشر، عن طريقها، خلال عقود معدودات، انتشار النور والأمل، غرباً حتى المحيط الأطلسي وشرقاً إلى سور الصين العظيم، وأن يبقى قوة روحية حتى يومنا هذا، بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً، عمرت برغم كل انحلال سياسي، وعاشت إلى ما بعد المدنية العظيمة التي أتى بها إلى حيز الوجود: النداء الذي جاء للنبي العربي.

* * *

كنت أنام وأستيقظ. كنت أفكر بالأيام التي انقضت ولم تمت بعد، ومن ثم أنام وأحلم، لأستيقظ مرة أخرى فأستوي جالساً، وتمتزج الأحلام بالذكريات امتزاجاً حلواً.

وكان الصباح قد اقترب، والنار قد خبت كلها. وكان زيد نائماً وهو ملتف بحرامه، وكان هجينانا قابعين دونما حراك كأنهما رابيتان من الأرض. كانت النجوم لا تزال ترى، مما يحملك على الاعتقاد بأنه لا يزال لديك متسع من الوقت للنوم: إلا أن

خطاً ضعيفاً من النور ينبثق من السماء فوق خيط أسود مؤذناً بانبلاج الفجر: وقت صلاة الصبح.

وبانحراف قليل فوقي، رأيت إلى نجمة الصباح، التي يدعوها العرب «الزهرة» ولو سألتهم عنها لقالوا لك إن الزهرة كانت في ما مضى إحدى النساء...

كان هناك مرة ملاكان: هاروت وماروت، نسيا أن يكونا متواضعين، كما ينبغي للملائكة أن يكونوا، وأخذا يتبجحان بعفتهما التي لا يمكن أن تقهر: «إننا مخلوقان من نور. نحن فوق الذنوب والرغبات، لا كأبناء البشر الضعفاء، أبناء أرحام الأمهات المظلمة». ولكنهما نسيا أن عفتهما لم تكن ناتجة عن قوتهما بالذات، ذلك أنهما لم يكونا عفيفين طاهرين إلا لأنهما لم يعرفا أية رغبة ولذلك لم يدعيا قط إلى مقاومتها. ولم تعجب عجرفتهما الرب فقال لهما: «انزلا إلى الأرض وأديا امتحانكما هناك». وهبط الملاكان الفخوران إلى الأرض، وأخذا يتجولان مرتديين جسمين إنسانيين، بين أبناء البشر. وفي الليلة الأولى عينها التقيا امرأة كانت على جانب عظيم من الجمال حتى أن الناس كانوا يدعونها بالزهرة. وعندما رآها الملاكان، بعيونهما وأحاسيسهما البشرية التي كانت لهما عند ذاك، اضطربا، ونشأت فيهما الرغبة في امتلاكها، كأنما كانا من أبناء البشر تماماً. وقال كل منهما لها: «تعالي إلي»، إلا أن الزهرة أجابت: «ولكن هناك زوجاً لي. فإذا أردتماني فإن عليكما أن تخلصاني منه». فذبح الملاكان زوجها. وبينما كانت أيديهما لا تزال ملوثة بالدماء التي أراقاها ظلماً، أشبعا شهوتهما المشتعلة مع المرأة. بيد أنه ما إن خبت فيهما الرغبة، حتى أدرك الملاكان السابقان أنهما قد أثما إثماً مزدوجاً في ليلتهما الأولى على الأرض ـ قتلاً وزناً ـ وأنه لم يكن هناك أي معنى لتبجحهما وفخرهما... وقال الرب: «اختارا بين العقاب في الدنيا وبين العقاب في الآخرة». وفي مرارة من تبكيت الضمير، اختار الملاكان الساقطان العقاب في هذه الحياة الدنيا. وأمر الله أن يعلقا على سلاسل بين السماء والأرض، وأن يظلا معلقين على تلك الصورة حتى يوم الحساب، نذيراً للملائكة والناس بأن كل فضيلة إنما تحطم نفسها إذا فقدت التواضع والخضوع. وبما أنه لا يتسنى لأية عين بشرية أن ترى الملائكة، فقد حول الله الزهرة إلى نجمة في السماء بحيث يتمكن الناس من أن يروها دائماً، وأن يذكروا إذ يذكرون قصتها، مصير هاروت وماروت.

إن مجمل هذه الأسطورة أقدم كثيراً من الإسلام. والظاهر أنها نشأت من إحدى تلك الأساطير التي كان الساميون القدماء يحوكونها حول آلهتهم عشتار، التي عرفها

اليونان بأفروديت، وكلتاهما لا تعدو أن تكون الكوكب الذي نعرفه اليوم بالزهرة (فينوس). ولكن قصة هاروت وماروت، بالشكل الذي سمعتها به، إنما هي ابتكار نموذجي من العقل الإسلامي وصورة عن الفكرة القائلة بأن الطهارة المجردة، أو العصمة من الإثم، لا يمكن أن يكون لها أي مغزى أخلاقي ما دامت تقوم على انعدام مجرد للدوافع والرغبات: أليست الضرورة المتكررة إلى الاختيار بين الحق والباطل هي المقدمة المنطقية للأخلاق جميعاً؟

إن هاروت وماروت المسكينين لم يكونا يعرفان ذلك. فبسبب من أنهما كملاكين، لم يتعرضا للإغراء قط، اعتبرا نفسيهما طاهرين وأرفع من الإنسان أخلاقياً ـ غير مدركين أن إنكار «شرعية» الدوافع الجسمانية يتضمن، بصورة غير مباشرة، إنكاراً لكل القيم الأخلاقية في المساعي البشرية: ذلك لأن وجود الدوافع والاغراءات والتناقضات ـ أي إمكان «الاختيار» ـ هو وحده الذي يجعل الإنسان، والإنسان وحده، كائناً أخلاقياً: كائناً ذا روح.

على أساس من هذا المفهوم يعتبر الإسلام من دون سائر الأديان السامية جميعاً روح الإنسان ناحية واحدة من «شخصية»، لا ظاهرة مستقلة، وبالتالي، فإن نمو الإنسان الروحي، في نظر الإسلام مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحي طبيعته الأخرى. إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهي ليست نتيجة أي «خطيئة أولى» ـ ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام ـ بل قوى إيجابية وهبها الله للانسان فيجب أن يتقبلها وأن يفيد منها بحكمة على أنها كذلك. ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست في كيف يكبت مطاليب جسده، بل كيف يوفق بينها وبين مطاليب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة.

إن جذور هذا التوكيد الإيجابي للحياة الإنسانية إنما توجد في النظرة الإسلامية القائلة بأن الإنسان مفطور على الخير. وبخلاف الفكرة المسيحية القائلة بأن الإنسان يولد مكسواً «بالخطيئة الأولى»، أو العقيدة الهندوسية القائلة بأنه منحط ونجس أصلاً، ويجب أن يتعثر عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو الكمال، بخلاف ذلك كله يقول القرآن الكريم: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، أي في حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا من طريق السلوك السيء من بعد ـ ﴿ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

- ٣ -

وبدا لأعيننا نخيل حايل.

وتوقفنا بجانب برج قديم خرب، كي نعد أنفسنا لدخول البلدة. ذلك أن العادة العربية القديمة، التي تعنى دائماً بالذوق والجمال الشخصيين، تتطلب من المسافر أن لا يدخل أية بلدة إلا وهو في أحسن لباسه، وإلا وهو نشيط ونظيف كأنما لم يمتط هجينه إلا منذ لحظات. وهكذا أفدنا مما تبقى معنا من الماء لغسل أيدينا ووجهينا، وقصصنا لحيتينا اللتين أهملناهما منذ زمن طويل، وسحبنا من الأخراج أشد ثيابنا بياضاً، ثم نفضنا عن عباءتينا وعن شرابتي خرجينا غبار تلك الأسابيع التي قضيناها في الصحراء ووضعنا على هجينينا أجمل حليهما وزخرفهما. لقد أصبحنا، الآن على استعداد لأن نقدم أنفسنا في حايل.

وحايل بلدة عربية تماماً بأكثر من بغداد أو المدينة، مثلاً، إلى حد بعيد، فليس فيها أية عناصر من أي بلد أو شعب غير عربي. إنها صافية غير مخلوطة ككأس من الحليب الطازج، وليس في سوقها أثر لأي لباس أجنبي، ذلك أن عينيك لا تقعان فيها إلا على العباءة والكوفية والعقال. كانت شوارعها أكثر نظافة من شوارع أية مدينة أخرى في الشرق الأوسط، بل أنظف من أية مدينة أخرى في نجد، المشهور بنظافته غير الشرقية (ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن سكان نجد، إذ كانوا أحراراً دائماً، قد احتفظوا بمستوى من احترام الذات أعلى من أيما مكان آخر في الشرق) أما بيوتها فكانت مبنية من طبقات أفقية مستوية من اللبن المرصوص، مرممة ترميماً حسناً، باستثناء جدران المدينة المهدمة التي شهدت الحرب الأخيرة بين ابن سعود وبيت ابن رشيد، كما شهدت احتلال ابن سعود لمدينة حايل عام ١٩٢١.

وإذ وصلنا إلى قلعة الأمير، حيث عزمنا على أن نقضي اليومين التاليين، وجدنا مضيفنا يترأس اجتماعاً في الخلاء خارج أبواب القلعة. كان الأمير ابن مساعد ينتمي إلى فرع جلوي من آل سعود، كما كان شقيقاً لإحدى زوجات الملك. وبسبب من أنه كان من أقوى حكام الملك، فقد كان يدعى «أمير الشمال» لأنه لم يكن يسيطر على مقاطعة جبل شمر فحسب بل على جميع الجزء الشمالي من نجد، حتى حدود سوريا والعراق - وهي مساحة تعادل مساحة فرنسا تقريباً.

كان الأمير (وكان صديقاً قديماً لي) وبضعة شيوخ من البدو جالسين على مقعد طويل ضيق من الطوب، مبني بمحاذاة جدار القلعة. وفي صف طويل عند أقدامهم كان يقبع «رجاجيل» ابن مساعد، أولئك الحراس المدججين بالبنادق والسيوف

الحدباء الذين لم يكونوا يتركونه طوال النهار، لا لحمايته فحسب، بل إظهاراً لهيبته وسلطته إلى درجة أكبر. وإلى جانب هؤلاء كان مربو الصقور بطيورهم الجاثمة على قبضاتهم المكسوة بالقفازات، فالخدم، فالبدو، فحشد من الأتباع الصغار والكبار، فخدام الاسطبلات والزرائب ـ كلهم يشعرون أنهم بشر سواء، بالرغم من الفروق الكائنة بين منازلهم ودرجاتهم. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك في هذه البلاد التي لا يخاطب فيها أحد أحداً بكلمة «مولاي» إلا الله في الصلاة؟ وفي مواجهتهم كان هناك كثير من البدو وأهالي البلدة جالسين القرفصاء، جاءوا يحملون شكاواهم ويعرضون خلافاتهم على الأمير كي يقضي لهم بما يرى.

وأنخنا هجينينا خارج الدائرة، وعهدنا بهما إلى اثنين من الأتباع هرعا إلينا، وسرنا إلى الأمير فنهض ونهض معه كل من كان جالساً إلى جانبه على المقعد وعلى الأرض، ومد إلينا يده وقال مرحباً:

ـ «أهلاً وسهلاً ـ حياكم الله وعافاكم!»

وقبّلت الأمير في مقدمة أنفه وفي جبهته وقبّلني في خدي وجذبني نحو المقعد إلى جانبه. أما زيد فقد وجد لنفسه مكاناً بين «الرجاجيل».

وقدمني ابن مساعد إلى ضيوفه الآخرين. لقد كانت بعض الوجوه جديدة علي كما كنت قد عرفت بعضها في سنوات ماضية. ومن بين هؤلاء كان غضبان ابن رمال، أعظم شيوخ سنجارة من شمر ـ ذلك المحارب القديم البهيج الذي كنت أدعوه دائماً «عمي». إن مظهره الرث لم يكن ليمكن أحداً من أن يخمن أنه كان واحداً من أقوى زعماء القبائل في الشمال، وأنه كان قد حمل زوجته الشابة بمقادير عظيمة من الجواهر والذهب حتى أنه كان يقال إنها ينبغي لها أمتان تساعدانها كلما أرادت الخروج من بيتها الشعري الكبير ذي الستة عشر عموداً. وبرقت عيناه عندما عانقني، وهمس في أذني قائلاً:

ـ «أليس من زوجة جديدة بعد؟» مما لم أستطع أن أجيب عنه إلا بابتسامة وهزة من كتفي.

والظاهر أن ابن مساعد قد سمع ذلك المزاح، ذلك أنه ضحك عالياً وقال:

ـ «إن المسافر المتعب لا يحتاج إلى زوجات، بل يحتاج إلى «القهوة» ـ ثم نادى: «قهوة!»

وأعاد الخادم الأقرب إلى الأمير النداء: «قهوة!» فتناوله الخادم الذي كان واقفاً

في الطرف الأقصى: «قهوة!» - وهكذا إلى أن بلغ الأمر باب القلعة ورجع صداه من الداخل. وما هي إلا لحظة حتى ظهر خادم يحمل الدلة النحاسية في يده اليسرى وبضعة فناجين صغيرة في يده اليمنى، وصب في الفنجان الأول للأمير، وفي الثاني لي، ثم للضيوف الآخرين حسب منازلهم. وكان الفنجان يملأ مرة أو مرتين، حتى إذا ما أشار الضيف إلى أنه قد اكتفى ملىء الفنجان مرة أخرى وقدم إلى الرجل الذي يليه.

وكان الأمير، على ما بدا لي، في شوق إلى أن يقف على نتائج رحلتي إلى حدود العراق، ولكنه كبت شوقه واكتفى بأسئلة مختصرة عما حدث لي في أثناء الطريق، مؤجلاً الحصول على معلومات أوفى إلى حين انفراده بي، ثم تابع جلسته القضائية التي كانت قد توقفت بسبب وصولي.

مثل هذه المحكمة غير الرسمية لا يمكن تصورها في الغرب. فالأمير، كحاكم وقاض، ينظر إليه بكل تبجيل واحترام - إلا أنه ليس هناك أيما أثر للخنوع أو الذل في الاحترام الذي يظهره البدو له. إن كلاً من المدعي والمدعى عليه يظل واعياً، بفخر وزهو، لإنسانيته الحرة. إن حركاتهما وإشاراتهما لا تتوقف ولا تنقطع، وكثيراً ما تكون أصواتهما مرتفعة توحي بوثوقهما من أقوالهما، وكل منهما يخاطب الأمير كما يخاطب أخاً كبيراً له، فيدعوه - كما هي هي عادة البدو مع الملك ابن سعود نفسه - باسمه الأول، لا بلقبه. ومن ناحية أخرى فليس هناك من أثر للعجرفة أو الغطرسة في سلوك ابن مساعد. إن وجهه الوسيم، بلحيته القصيرة السوداء، وقامته المعتدلة، وجسمه المربوع بعض الشيء تعبر كلها عن ذلك الكبح الذاتي الطبيعي وعزة النفس السهلة التي كثيراً ما تصاحب القوة والسطوة في جزيرة العرب. إنه رزين وحازم لا يطيل، وبكلمات جازمة يعطي أحكامه في القضايا البسيطة، ويحيل المعقدة منها إلى قاضي المنطقة.

ليس من السهل أن يتولى المرء السلطة العليا في منطقة بدوية واسعة، ذلك أن المعرفة الدقيقة بالقبائل المختلفة، والصلات العائلية، والشخصيات الكبيرة، والمراعي العشائرية، والتاريخ الماضي، والأطباع والأمزجة الحاضرة، كلها ضرورية لإصابة الحلول الصحيحة لشكاوى البدو وقضاياهم. إن لباقة القلب مهمة هنا كمضاء العقل سواء بسواء، وكلاهما يجب أن يعملا معاً بإحكام كبير ودقة متناهية بسبيل تفادي أيما خطأ في الحكم. ذلك أن البدو، كما أنهم لا ينسون معروفاً أسدي إليهم، لا ينسون أبداً كل حكم قضائي يعتبرونه غير عادل. ومن ناحية أخرى فإن الحكم

العادل يكاد يتقبل دائماً بقبول حسن وروح طيبة حتى من قبل أولئك الذين يكون هذا الحكم في غير مصلحتهم. ولعل هذه المطالب متوفرة في ابن مساعد بأكثر مما تتوفر في أي من أمراء ابن سعود الآخرين. إنه هادىء وخال من التناقضات الباطنية بحيث إن غريزته تكاد تدله دائماً على الطريق الصحيح كلما واجه مشكلة من المشكلات. إنه في الحياة كذلك السباح الذي يدع المياه تحمله فيسيطر عليها بأن يكيف نفسه حسبها.

* * *

كان بدويان عليهما عباءتان رثتان يعرضان الآن خلافهما على ابن مساعد بكلمات وإشارات مهتاجة. والبدو بصورة عامة، ليس التعامل معهم بالأمر اليسير. وإن فيهم دائماً شيئاً لا يمكن التنبؤ به، سرعة في التهيج لا تعرف التراضي ولا التسوية ـ دائماً الجنة والنار قريبتين بعضهما من بعض ـ ولكنني استطعت أن أرى الآن كيف يخمد ابن مساعد عواطفهم الفائرة ويسكن من روعهم بكلماته الهادئة. إن أحداً ليعتقد أنه لا بد أن يأمر أحدهما بأن يلزم جانب الصمت بينما يثبت الآخر صحة ما يدعيه من حق. ولكن لا ـ إنه يتركهما يتكلمان معاً في الوقت نفسه، يتباريان في الصراخ أحدهما على الآخر، وبين الفينة والفينة يتدخل بكلمة صغيرة هنا وسؤال هناك ـ كما ينغمس مباشرة في مناقشتهما الحامية، ثم يتظاهر بالانسحاب منها ليدخل مرة ثانية بعد قليل بإبداء ملاحظة في محلها، إنه لمشهد مدهش هذا التكيف العقلي الذي يصطنعه الأمير إزاء واقع يبسطه رجلان مغضبان بمثل هذا القدر من التناقض، لا بسبيل البحث عن الحقيقة بالمعنى القضائي بقدر ما هو بسبيل الكشف البطيء عن واقع موضوعي خفي. إن الأمير ليقترب من هذا الهدف في سراح ورواح، وبين كر وفر، وبسحب الحقيقة ـ كأنما بخيط دقيق ـ بأناة وصبر وبطريقة لا يكاد يلحظها المدعي والمدعى عليه ـ إلى أن يتوقفا فجأة وينظرا بعضهما إلى بعض في دهش، ويدركا أن الحكم قد أعطي ـ حكماً عادلاً ومن الوضوح بحيث لا يتطلب أي زيادة في الإيضاح والشرح. . . وعندئذ يقف أحد الاثنين بتردد، ثم يعدل من عباءته ويجذب خصمه السابق من كمه جذباً ودياً: «تعال» ـ ويتراجعان معاً وقد استولى عليهما الدهش وسري عنهما في الوقت نفسه، وتتمتم شفتاه بالدعاء للأمير بالسلام.

إن المشهد لمدهش ـ قطعة فنية حقيقية: نموذج، كما يخيل إلي، من ذلك التعاون المثمر بين القضاء والحق الذي لا يزال في المحاكم والبرلمانات الغربية في دور الطفولة ـ ولكنه يتجلى هنا بكماله كله في ساحة السوق المغبرة تجاه قلعة أمير عربي. . .

ثم انتقل ابن مساعد بعد أن اتكأ بتراخٍ على الحائط من اللبن، إلى القصية التالية. وكان وجهه المليء بالقوة والحزم، المتغضن ذو العينين العميقتين، وجه زعيم حقيقي، يمثل بصورة كاملة أعظم فضيلة لبني قومه: لبابة القلب.

وكان واضحاً أن بعض الحضور الآخرين كانوا يحسون إعجاباً مماثلاً، فقد أتلع واحد من الذين كانوا يجلسون على الأرض قبالتي ـ وكان بدوياً من قبيلة حرب وواحداً من حرس الأمير ـ عنقه نحوي والابتسامة تعلو وجهه وقال:

ـ «أليس هو كذلك السلطان الذي قال فيه المتنبي:

قد زرتُه وسيوفُ الهندِ مغمدةٌ وقد نظرتُ إليه والسيوف دمُ
فكان أحسن خلق الله كلهمُ وكان أحسن ما في الأحسن الشيمُ».

ولم أجد من الغريب أن أسمع بدوياً أمياً يتلو أبياتاً لشاعر عربي عظيم عاش في القرن العاشر ـ وبكل تأكيد لم يكن هذا الاستغراب بالمقدار نفسه لو كنت أسمع فلاحاً ألمانياً يستشهد بغوته أو متعهد شحنٍ انكليزياً يستشهد ببلايك أو شلي. ذلك أنه بالرغم من انتشار الثقافة في الغرب انتشاراً أوسع فإن الأميركي أو الأوروبي العادي لا يشارك بنصيب حقيقي من أنوار الثقافة الغربية الساطعة. بينما من ناحية أخرى، تشارك جماهير غفيرة من المسلمين غير المثقفين، وأحياناً الأميين أنفسهم، يومياً وبصورة واعية بمآثر ماضيهم الثقافية. وكما أن هذا البدوي قد تمكن من أن يذكر أبياتاً من الشعر للمتنبي تناسب المقام وتمثل حالة شهدها بنفسه، كذلك فإن كثيراً من الفرس الفقراء الذين لم يعرفوا في حياتهم المدرسة ـ من الحمالين في السوق والسقاة والجنود في مراكز الحدود النائية ـ يحملون في ذاكرتهم عدداً لا يحصى من أبيات حافظ الشيرازي أو جامي أو الفردوسي، ويرددونها بمتعة ظاهرة في أحاديثهم اليومية. وبرغم أن هؤلاء المسلمين قد فقدوا إلى حد كبير ذلك الابداع الذي جعل تراثهم الثقافي على مثل هذه العظمة، فإن لهم، حتى الآن، اتصالاً حياً بذرى هذا التراث.

ـ ٤ ـ

ــ «ألا تسعدني بتناولك طعام العشاء معي الآن، يا محمد؟» كذلك أيقظني صوت الأمير ابن مساعد من هواجسي فرفعت رأسي، وكانت الجلسة القضائية على ما يبدو قد انتهت. وأخذ المتقاضون ينصرفون واحداً بعد آخر، ونهض ابن مساعد

ونهض معه ضيوفه وحراسه. وانقسم ذلك الحشد من «الرجاجيل» كيما يفسحوا لنا طريقاً للمرور. وإذ تخطينا الباب عادوا فتجمعوا وتبعونا إلى فناء القلعة.

وبعد قليل جلسنا، الأمير وغضبان بن رمال وأنا، معاً، لتناول وجبة مؤلفة من طبق عظيم من الأرز وضعت فوقه شاة مشوية بأكملها. ولم يكن هناك غيرنا سوى اثنين من خدم الأمير وزوج من الكلاب السلوقية في الغرفة.

ووضع غضبان الشيخ يده على كتفي وقال: «إنك لم تجب عن سؤالي بعد، أما من زوجة جديدة حتى الآن»؟

وضحكت لإلحاحه وقلت: «إن عندي زوجة في المدينة، كما تعلم، فلماذا يجب أن أتخذ واحدة أخرى؟»

ـ «لماذا؟ وقاني الله! زوجة واحدة ـ وأنت لا تزال شاباً؟ ماذا؟ إنني عندما كنت في مثل سنك...».

فقاطعه الأمير ابن مساعد قائلاً: «يقولون لي إنك لا تزال تحسن الزواج حتى الآن، يا شيخ غضبان».

ـ «إنني شيخ متهدم، يا أمير، أطال الله عمرك، ولكنني أحياناً أحتاج إلى جسم فتاة يدفىء عظامي الهرمة... ولكن قل لي.. (واستدار الشيخ غضبان إلي) «ما شأن تلك الفتاة المطيرية التي تزوجت منها منذ سنتين؟ ماذا فعلت بها؟»

فأجبت: ! آه لا شيء. وهذه هي المسألة تماماً».

ـ « لا شيء...» قال الرجل العجوز وقد اتسعت حدقتاه. «وهل كانت على هذا القدر من القبح؟!»

ـ «لا، بالعكس لقد كانت جميلة جداً...».

وسأل ابن مساعد: «ما هي القضية؟ عن أية فتاة مطيرية تتحدثان؟ أعلمني يا محمد».

وهكذا شرعت في أن أعلمه بذلك الزواج الذي لم يؤد إلى شيء.

•

كنت حينذاك أعيش في المدينة، وحيداً ودونما زوجة. وكان من عادة بدوي من قبيلة مطير، وكان اسمه فهد، أن يقضي ساعات كل يوم في «قهوتي» ينادمني ويقص علي قصصاً خيالية عن مآثره تحت إمرة لورنس أثناء الحرب العظمى. وفي ذات يوم

قال لي: «لا يحسن بالانسان أن يعيش وحيداً كما تعيش أنت. ذلك أن دمك لا بد أن يتجمد في عروقك: يجب أن تتزوج». وعندما طلبت إليه مازحاً أن يأتيني بعروس أجاب: «ذلك أمر يسير. إن ابنة صهري مطرق، زوج شقيقتي، هي الآن في سن الزواج، وأنا بصفتي خالها، أستطيع أن أخبرك أنها على جانب عظيم من الجمال». وأحببت أن أستمر في مزاحي، فطلبت إليه أن يعرف ما إذا كان أبوها يرغب في مصاهرتي. ولكن مطرقاً نفسه ما لبث أن جاءني في اليوم التالي. وعلامات الارتباك بادية عليه. وبعد بضعة فناجين من القهوة، وتردد طويل، أخبرني أخيراً أن فهداً قد كلمه برغبتي المزعومة في الزواج من ابنته. «إنني أتشرف بمصاهرتك، ولكن رقية لا تزال طفلة ـ إنها تبلغ من العمر إحدى عشرة سنة فحسب...».

واستبد الغضب بفهد عندما سمع بزيارة مطرق. «النذل! يا له من وغد كذاب! إن عمر الفتاة خمسة عشر عاماً. إنه لا يحب أن يزوجها من رجل غير عربي ـ، وهو، من ناحية أخرى يعرف أنك من المقربين إلى ابن سعود، ولذلك فإنه لا يريد أن يسيء إليك ويغضبك برفض طلبك رفضاً مكشوفاً، ويزعم أنها لا تزال طفلة. ولكنني أقول لك: أن نهديها هما هكذا»ـ وأخذ يصف بيديه نهداً فاتناً ـ «تماماً كرمانة دانية القطوف».

وتألقت عينا غضبان الشيخ لدى سماعه هذا الوصف: «عمرها خمسة عشر عاماً جميلة وعذراء...» ثم يقول: «لا شيء! ماذا كنت تريد أكثر من ذلك؟»

ـ حسناً، صبراً حتى أخبرك بقية القصة. يجب أن أعترف أنني أخذت أهتم بالأمر أكثر فأكثر، ولعل مقاومة مطرق استفزتني بعض الشيء. لقد أهديت إلى فهد عشرة جنيهات ذهبية فبذل جهده في إقناع ذوي الفتاة بتزويجها مني. وأرسلت هدية مماثلة إلى أمها، أخت فهد. إنني لا أعرف تماماً ماذا حدث في ما بينهم. كل ما أعرف أن الاثنين حملاً مطرقاً على الاقتناع بالموافقة على الزواج...».

فقال ابن مساعد: «يبدو أن فهداً هذا كان امرءاً مكاراً. إنه وأخته كانا لا شك يتوقعان منك عطية أكبر. وماذا حدث بعد ذلك؟»

واستأنفت حديثي وأخبرتهما كيف عقد القران بعد بضعة أيام في غياب العروس التي كانت حسب العادة، ممثلة بأبيها كوكيل شرعي لها وحامل لموافقتها ـ التي يشهد عليها شاهدان ـ وتلت ذلك حفلة زفاف فخمة، وقدمت الهدايا المعتادة إلى العروس (ولم أكن قد رأيتها إطلاقاً بعد)، وأبويها وعدد من أقربائها ـ وكان أبرزهم، طبعاً، فهد. وفي الليلة نفسها جيء بعروسي إلى بيتي، تصحبها أمها وبعض النسوة

المحجبات، بينما أخذت النسوة ينشدن أهازيج الزفاف من على سطوح البيوت المجاورة، بمصاحبة الطبول اليدوية.

وفي الساعة المعينة دخلت الغرفة التي كانت عروسي وأمها تنتظرانني فيها فلم أستطع أن أميز إحداهما من الأخرى، ذلك أن كلاً منهما كانت مغطاة بعباءة صفيقة سوداء ولكن ما إن لفظت الكلمات المألوفة: «أنتِ مرخوصة» حتى نهضت إحدى المرأتين المحجبتين وغادرت الغرفة بصمت. وهكذا عرفت أن المرأة التي بقيت في الغرفة كانت زوجتي.

ــ «وبعد ذلك يا ابني، ماذا حدث بعد ذلك؟» قال ابن رمال إذ رآني قد توقفت عن متابعة قصتي عند هذه النقطة. أما الأمير فقد كان ينظر إلي نظرة فاحصة:

ــ «بعد ذلك... هناك جلست الفتاة المسكينة، مذعورة أشد الذعر إذ رأت أنها قد سلمت بمثل تلك الطريقة إلى رجل مجهول. وعندما طلبت إليها، بأكثر ما أستطيع من اللطف أن ترفع الحجاب عن وجهها، لم يكن منها إلا أن لفت العباءة حولها بصورة أكثر إحكاماً».

فهتف ابن رمال: «إنهن يفعلن هكذا دائماً! إنهن يذعرن دائماً في بدء ليلة الزفاف، وفوق ذلك فإن مما يلائم الفتاة أن تكون حيية، ولكنهن بعد ذلك يكنَّ سعيدات ـ ألم تكن عروسك كذلك؟»

فأجبت: «ليس تماماً. كان عليّ أن أرفع النقاب عن وجهها بنفسي. وإذ فعلت ذلك وقع نظري على فتاة عظيمة الجمال ذات وجه بيضاوي الشكل حنطي اللون، وعينين كبيرتين جداً وضفائر متدلية حتى الوسائد التي كانت جالسة عليها. ولكنه كان في الحق وجه طفلة ـ إن عمرها لم يكن ليزيد عن أحد عشر عاماً، تماماً كما ادعى والدها... إن جشع فهد وأخته قد جعلهما يصورانها لي فتاة في سن الزواج، بينما كان مطرق المسكين بريئاً من كل كذب».

والظاهر أن ابن رمال لم يفهم ما كنت أرمي إليه، فسألني: «وإذا كان عمرها أحد عشر عاماً؟ إن الفتاة تنمو وتكبر، أليس كذلك؟ وهي تنمو وتكبر بسرعة أكبر في فراش زوجها...؟»

ولكن الأمير ابن مساعد قال: «لا، يا شيخ غضبان. إنه ليس نجدياً مثلك. إن في رأسه لعقلاً أكبر من عقلك». ثم ابتسم لي وأردف: «لا تصغ إلى غضبان، يا محمد. إنه نجدي، وعقول معظمنا، نحن معشر النجديين، ليست هنا» ـ وأشار إلى

رأسه ـ «ولكن هنا» ـ وأشار إلى موضع آخر في جسمه!

وضحكنا جميعاً، ولم يلبث غضبان أن تمتم قائلاً: «إذن لا بد أن يكون لي عقل أكبر من عقلك، أيها الأمير».

ونزولاً عند إلحاحهما، واصلت قصتي فأخبرتهما أن حداثة عروسي المتناهية مهما كانت آراء غضبان الشيخ في الموضوع، لن تشكل إغراء بالنسبة إلي. إنني لم أستطع أن أشعر بأكثر من الشفقة على فتاة وقعت ضحية خدعة دنيئة من قبل خالها. لقد عاملتها كما يعامل المرء طفلة ما، مؤكداً لها أن ليس هناك ما تخشاه مني، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة، وكان ارتجافها يفصح عن ذعرها. وبحثت في رف من الرفوف فوجدت قطعة من الشوكولاته قدمتها إليها. ولكنها، إذ لم تكن قد رأت الشوكولاته في حياتها، رفضتها بهزة عنيفة من رأسها. وحاولت أن أسري عنها بأن أقص عليها قصة مسلية من ألف ليلة وليلة. ولكنها لم تبد أنها فهمتها حتى ولا وجدت فيها ما يضحك. وأخيراً نطقت بكلماتها الأولى: «إن رأسي يوجعني...» فأتيت ببضع حبات من الأسبرين ووضعتها في يدها مع كأس من الماء، ولكن ذلك لم يؤد إلا إلى زيادة ذعرها وهلعها، ولم أعرف إلا في ما بعد أن بعض صديقاتها كن قد أخبرنها أن أولئك الأجانب الذين يقدمون من البلدان الغريبة يخدرون زوجاتهم أحياناً في ليالي زفافهن كي يغتصبوهن بسهولة أكبر. وبعد ساعتين أو نحو ذلك نجحت في إقناعها بأنني لم أكن أنوي الاعتداء عليها بحال، وغفت أخيراً كما تغفو كل طفلة مثلها، بينما أعددت أنا نفسي فراشاً على السجادة في زاوية من زوايا الغرفة.

وفي الصباح أرسلت في طلب أمها وطلبت إليها أن تعود بالفتاة إلى البيت. وصعقت المرأة، ذلك أنها لم تسمع من قبل في حياتها أن رجلاً قد رفض لقمة سائغة كهذه ـ عذراء في الحادية عشرة من العمر ـ ولا شك أنها اعتقدت بأن فيّ عيباً جوهرياً.

ـــ «ثم ماذا؟» قال غضبان.

ـــ «لا شيء ـ لقد طلقت الفتاة، بعد أن تركتها في الحالة نفسها التي جاءتني بها. ولم تكن صفقة خاسرة بالنسبة إلى عائلتها التي احتفظت بالفتاة والمهر الذي كنت قد دفعته بالإضافة إلى الهدايا الكثيرة. أما بالنسبة إليّ، فقد سرت شائعة بأنني خالٍ من الرجولة، بل إن عدداً من مريدي الخير حاولوا إقناعي بأن إحداهن ـ ولربما كانت زوجة قديمة لي ـ قد رمتني بتعويذة لم يكن لي خلاص منها إلا بتعويذة معاكسة».

فاستضحك الأمير قائلاً: «عندما أفكر بزواجك بعد ذلك في المدينة وبابنك، يا محمد، فإنني أثق بأنك قد صنعت فعلاً تعويذة معاكسة...».

— ٥ —

وفي ساعة متأخرة من الليل، بينما كنت أتأهب للذهاب إلى الفراش في الغرفة التي وضعت تحت تصرفي في القصر، وجدت زيداً أكثر صمتاً من العادة. كان واقفاً عند الباب، وكان واضحاً أنه كان مستغرقاً في أفكار بعيدة، ذلك أن ذقنه كانت مستندة إلى صدره، وكانت عيناه ثابتتين على قطعة السجاد الخراسانية الثمينة التي كانت تغطي أرض الغرفة.

ـ «ما هو شعورك، يا زيد، إذ عدت الآن إلى البلدة التي قضيت فيها أيام شبابك، بعد كل هذه السنين؟» ـ ذلك أنه في الماضي كان يرفض دائماً دخول حايل كلما سنحت لي فرصة زيارتها.

ـ «لا أدري بالضبط يا عمي»، أجاب زيد ببطء. «إحدى عشرة سنة... لقد مضت إحدى عشرة سنة منذ أن كنت هنا لآخر مرة. أنت تعرف أن قلبي لم يكن يدعني آتي إلى هنا من قبل كي أرى أهل الجنوب يحكمون في قصر ابن رشيد. ولكنني أخذت في أن أقول لنفسي مؤخراً، بكلمات الكتاب: ﴿اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾. لا شك في أن الله قد أعطى الملك لآل ابن رشيد، ولكنهم لم يعرفوا كيف يسوسونه كما كان ينبغي لهم أن يسوسوه. لقد كانوا كرماء على أهلهم ولكن أشداء على أقاربهم متناهين في كبريائهم. لقد سفكوا الدماء، وكان الأخ يقتل أخاه. وهكذا فقد نزع الله حكمهم وأعاده إلى ابن سعود. أعتقد أنني يجب أن لا أحزن بعد الآن، ألم يأتِ في الكتاب: ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾؟

ولقد كان في صوت زيد تسليم حلو، تسليم لا يتضمن أكثر من قبول شيء قد حصل فعلاً فليس بالإمكان إبطاله. هذا الاذعان في الروح الإسلامية لثبات الماضي وعدم إمكان تبدله ـ التسليم بأن كل ما حدث كان لا بد أن يحدث بهذه الطريقة عينها، وأنه لم يكن ممكناً أن يحدث بأية طريقة أخرى ـ كثيراً ما يحسبه الغربيون خطأ «قدرية» فطرية في الاستشراف الإسلامي. ولكن إذعان المسلم للقدر يتعلق بالماضي

وليس بالمستقبل: إنه ليس رفضاً للعمل والأمل والتحسين، بل رفض لاعتبار الواقع الماضي أي شيء سوى شيء من صنع الله.

وأردف زيد: «وأكثر من ذلك، فإن ابن سعود لم يعامل شمر معاملة سيئة. وهم يعرفون ذلك. ألم يؤيدوه بسيوفهم منذ ثلاث سنوات عندما قام ضده ذلك الكلب، الدويش؟»

لقد فعلوا حقاً بهذا التسامح النبيل الذي يبديه العرب الأصليون أحياناً حتى في ساعات انهزامهم. ففي تلك السنة المشؤومة، ١٩٢٩، عندما اهتزت مملكة ابن سعود من أساسها تحت ضربات الثورة البدوية الكبرى التي قادها فيصل الدويش، وضعت كل قبائل شمر جانباً عداواتها السابقة للملك والتفت حوله وأسهمت بنصيب كبير في انتصاره الذي أحرزه على الثوار. هذه المصالحة كانت جديرة بالاعتبار بحق، ذلك أن ابن سعود لم يكن قد مضى على فتحه حايل بقوة السلاح ـ وبذلك وطد سيادة الجنوب على الشمال من جديد ـ سوى سنوات معدودات. وهو جدير بالاعتبار والتقدير إلى حد أكبر بالنظر إلى التنافر المتبادل والمتناهي في القدم ـ الذي يذهب أعمق من أي صراع عائلي على السلطة ـ بين قبيلة شمر وأهل نجد الجنوبي الذين كان ابن سعود منهم. وهذا التنافر (الذي مع ذلك لم تقض عليه المصالحة الأخيرة قضاء تاماً) هو، إلى حد بعيد، تعبير عن التنافس التقليدي بين الشمال والجنوب، هذا التنافس الذي امتد عبر تاريخ العرب كله، والذي له ما يقابله لدى كثير من الأمم أيضاً. ذلك أنه كثيراً ما يحدث أن فرقاً ضئيلاً في طريقة الحياة الداخلية ينتج عداوة بين القبائل التي تجمع بينها روابط وثيقة أشد من تلك التي تؤدي إليها الفروق العنصرية بين أمتين متجاورتين مختلفتين كل الاختلاف.

وبالإضافة إلى التنافس السياسي، فإن هناك عاملاً آخر يلعب دوراً عظيماً في اختلاف الاتجاهات العاطفية بين الشمال والجنوب في جزيرة العرب. ففي الجنوب من نجد، في جوار الرياض، قام المصلح الديني، محمد بن عبد الوهاب منذ مئتي عام تقريباً، فأثار في القبائل ـ وكانوا مسلمين بالاسم فقط ـ حماسة دينية جديدة. في ذلك البيت الذي لم يكن عظيماً عند ذاك، آل سعود، شيوخ بلدة الدرعية الصغيرة، فاز المصلح بالذراع الحديدية التي أعطت قوة العمل لكلمته الملهمة. وفي بضع عشرات من السنين، جعل جزءاً كبيراً من شبه الجزيرة تحت لواء الحركة الدينية المتوقدة التي لا تلين والتي تعرف بـ«الوهابية». في جميع الحروب والفتوحات الوهابية التي حدثت طيلة السنوات المئة والخمسين الأخيرة، كان أهل الجنوب هم

الذين رفعوا عالياً أعلام التوحيد، في حين أن الشمال لم يسر معهم إلا بهمة فاترة ودونما رغبة. ذلك أنه بالرغم من أن قبيلة شمر نفسها هي من الوهابيين نظرياً، فإن قلوبهم ظلت بعيدة عن اليقين الديني المتقد عند أهل الجنوب. ويعود السبب في ذلك إلى أن شمر، إذ كانت تعيش بالقرب من سوريا والعراق وكانت على اتصال دائم بهما من طريق التجارة، قد اكتسبت، خلال العصور، استشرافاً مائعاً واستعداداً للمصالحة والوئام لم يعرفه الجنوبيون الذين كانوا يعيشون في عزلة أشد. إن رجال الجنوب رجال لا يعرفون إلا التطرف في كل شيء. وطيلة السنوات المئة والخمسين الأخيرة لم يحلموا إلا بالجهاد ـ رجال فخورون يعتبرون أنفسهم الممثلين الحقيقيين الوحيدين للاسلام، وأن سائر الشعوب الإسلامية ضالة في الدين.

ومع كل هذا، فإن الوهابيين ليسوا، بالتأكيد، أتباع مذهب مستقل خاص. فالمذهب يستلزم وجود مبادىء وتعاليم مستقلة تميز أتباعه عن جميع الأتباع الآخرين للدين نفسه. ولكن الوهابية ليس فيها أية مبادىء وتعاليم مستقلة ـ بل على العكس: لقد حاولت هذه الحركة أن تقضي على جميع البدع والقشور الداخلية التي نمت خلال العديد من العصور حول تعاليم الإسلام الأولى، وأن تعود إلى رسالة النبي الأصلية. ولا شك أن هذه المحاولة كانت بوضوحها الذي لا يرقى إليه الشك، محاولة عظيمة كان يمكن أن تؤدي، مع الزمن، إلى تحرير الإسلام تحريراً كاملاً من جميع الخرافات التي حجبت رسالته وأبهمتها. والحق أن جميع حركات النهضة في الإسلام اليوم ـ حركة «أهل الحديث» في الهند، وحركة السنوسي في شمالي أفريقيا، ونشاط جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري ـ يمكن أن ترجع إلى الدافع الروحي الذي حركه في القرن الثامن عشر محمد بن عبد الوهاب. إلا أن التطور النجدي لتعاليمه يعاني نقصين منعاه من أن يصبح قوة ذات مصير روحي. وأحد هذين النقصين هو الضيق الذي يسعى ذلك التطور النجدي إلى أن يقصر به جميع المساعي الدينية على التمسك بحرفية التعاليم، ضارباً صفحاً عن ضرورة النفاذ إلى مضامينها الروحية. وثاني هذين النقصين متأصل في الخلق العربي نفسه: في الشعور المتحمس المتأكد من صلاح نفسه والذي لا يقر لأحد بحق المخالفة. ذلك الشعور المتحمس يتميز به السامي القح كما يتميز أحياناً بنقيضه: اللامبالاة التامة بأمور الدين. وأنها لصفة مفجعة من صفات العرب أن يكون عليهم دائماً أن يتأرجحوا بين هذين القطبين، وأن لا يستطيعوا أبداً أن يجدوا طريقاً وسطاً. قبل محمد بن عبد الوهاب، كان عرب نجد أكثر بعداً عن الإسلام من أي مجموعة أخرى في العالم الإسلامي، بينما أخذوا منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب يعتبرون أنفسهم لا أبطال

الدين وفرسانه فحسب، بل تقريباً أصحابه الوحيدين أيضاً.

إن معنى الوهابية الروحي ـ الجهد بسبيل تجديد روحي وديني للمجتمع الإسلامي ـ قد أفسد في اللحظة نفسها عندما تحقق هدفها الظاهري ـ إدراك القوة السياسية والاجتماعية ـ بتأسيس المملكة السعودية في نهاية القرن الثامن عشر وتوسعها في الجزء الأكبر من الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. فحالما تحقق أتباع محمد بن عبد الوهاب بالقوة، أصبحت فكرته مومياء: ذلك أن الروح لا تستطيع أن تكون عبداً للقوة، والقوة لا تريد أن تكون عبداً للروح.

أحلام

- ١ -

أن تكون صديقاً لأمير عربي عظيم وضيفاً عليه إنما يعني أن ينظر إليك وأن تعامل كصديق وضيف من قبل موظفيه جميعاً، من قبل «رجاجيله»، من قبل أصحاب الحوانيت في عاصمته، وحتى من قبل بدو السهول الواقعة تحت سلطته. فالضيف نادراً ما يعبر عن رغبة دون أن تحقق حالاً، متى كان بالإمكان تحقيقها، ومن ساعة إلى أخرى يغمره ذلك الكرم الفياض الحماسي في سوق البلدة بمثل ما يغمره في قاعات القصر وردهاتها الكبيرة.

ولقد خبرت ذلك، كما خبرته مراراً عديدة من قبل، في إبّان اليومين اللذين توقفت فيهما في حايل. فعندما كنت أرغب في شرب القهوة، كان صوت «الهاون» النحاسي العذب يدوي في غرفة استقبالي الخاصة. وعندما ذكرت لزيد، في الصباح، اتفاقاً وعلى مسمع من أحد خدم الأمير، شداداً جميلاً كنت قد رأيته في السوق قبل ذلك بقليل، فإن ذلك الشداد لم يلبث أن جيء به إليّ مع العصر ووضع عند قدمي. وكانت الهدايا تنهال عليّ مرات في اليوم الواحد: زبون طويل من الصوف الكشميري المزهر، أو كوفية موشاة، أو جعد أبيض بغدادي للشداد، أو خنجر نجدي معقوف ذو قبضة فضية... بينما أنا، لما كنت أصطحب في سفري أخف الأمتعة دائماً، لم أستطع أن أقابل ابن مساعد بشيء إلا بإهدائه خريطة مكبرة انكليزية لجزيرة العرب كتبت عليها أسماء الأماكن باللغة العربية، فسر بها سروراً عظيماً.

ولقد كان كرم ابن مساعد شديد الشبه بكرم ابن سعود، مما لم يكن مستغرباً إطلاقاً إذا أخذت العلاقة الوثيقة بينهما بعين الاعتبار، ذلك أنهما لم يكونا قريبين فحسب، بل تقاسما ـ منذ أن كان ابن سعود شاباً وابن مساعد حدثاً ـ معظم المتاعب والمصاعب والتقلبات، وأحلام الملك في أوائل حكمه. وأكثر من ذلك فإن روابطهما

الشخصية إنما توطدت منذ سنوات عديدة من طريق زواج ابن سعود من جوهرة، أخت ابن مساعد ـ المرأة التي كانت تعني بالنسبة إلى ابن سعود أكثر من أية امرأة أخرى تزوجها قبلها أو بعدها.

* * *

وبالرغم من أن ابن سعود قد منح صداقته أناساً كثيرين، فإن عدداً قليلاً منهم أعطوا امتياز الوقوف على أعمق ناحية من طبيعة ابن سعود، ولربما على أعمها: قدرته العظيمة على الحب، تلك القدرة التي كان يمكن، لو قدر لها أن تتكشف وتستديم، أن تقوده إلى ذروات أعلى وأمجاد أسمى.

لقد كانت جوهرة، أم ولديه محمد وخالد، حب ابن سعود الأعظم. وحتى الآن بعد أن مضى على وفاتها نحو من ثلاث عشرة سنة، لا يذكرها الملك إلا وتقف الغصة في حلقه.

ولا بد أن جوهرة كانت امرأة غير عادية ـ لا جميلة فحسب (فلقد عرف ابن سعود كثيرات من النساء الجميلات في حياته الزوجية) بل كانت تتمتع أيضاً بذلك الذكاء الأنثوي الفطري الذي يجمع طرب الروح إلى سرور الجسد. وابن سعود لا يسمح لعواطفه بالاسترسال في علاقاته مع النساء، ولكن الظاهر أنه قد فقد مع جوهرة سعادة لم يجدها بعد ذلك قط. فبرغم أنه كانت له، حتى في حياتها، زوجات أخريات، فإنه احتفظ بحبه الحقيقي لها وحدها من دونهن جميعاً كأنما كانت زوجته الوحيدة. كان ينظم لها الأشعار الغرامية. ومرة، في إحدى لحظات انبساطه قال لي: «كلما أظلمت الدنيا في عيني ولم أتبين طريقي للخروج من المتاعب والأخطار التي تحيط بي، كنت أجلس وأنظم قصيدة لجوهرة، وعندما أفرغ منها كنت أشعر أن الدنيا تتفتح لي فأعرف ما كان علي أن أفعل».

ولكن جوهرة توفيت أثناء وباء الانفلونزا الذي انتشر انتشاراً عظيماً سنة ١٩١٩ والذي قضى أيضاً على ابن سعود البكر، تركي، الذي كان أحب أبنائه إليه. وهذه الخسارة المزدوجة تركت في حياته جرحاً لا يندمل.

ولم يكن حب ابن سعود هذا الحب الكامل وقفاً على زوجته وأولاده، ذلك أنه كان يحب أباه كما لم يحب إلا القلائل آباءهم. إن أباه، الإمام عبد الرحمن، الذي كنت قد تعرفت إليه في السنوات الأولى في الرياض، برغم أنه كان رجلاً لطيفاً وتقياً، لم يكن قطعاً شخصية بارزة بمثل ما كان ابنه عبد العزيز، ومع ذلك فإن ابن سعود

حتى بعد ان أنشأ ملكاً لنفسه وأصبح حاكم البلاد غير منازع، كان يصطنع تجاه أبيه سلوكاً متواضعاً إلى أبعد حدود التواضع، حتى أنه لم يكن يسمح لنفسه مطلقاً ولم يكن يرضى بأن يطأ أرض غرفة من غرف القصر إذا كان عبد الرحمن في الغرفة التي تحتها، وكان يقول:

ـ «كيف أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أمشي فوق رأس أبي؟» وكان لا يجلس مطلقاً في حضرة الشيخ إلا إذا دعاه إلى ذلك علانية. إنني لا أزال أذكر الحرج الذي سببه لي هذا التواضع الملكي يوماً في الرياض (أعتقد أنه كان في شهر كانون الأول ١٩٢٧). كنت أقوم بإحدى زياراتي المعتادة إلى والد الملك في جناحه في القصر الملكي، وكنا جالسين فوق الوسائد على الأرض وكان الشيخ مسترسلاً في الكلام على إحدى المسائل الدينية المحببة إليه. وفجأة دخل إلى الغرفة أحد الخدم وأعلن: «الشيوخ!» وفي اللحظة التالية كان ابن سعود يقف عند عتبة الباب. ولقد أردت، طبعاً، أن أنهض ولكن الإمام عبد الرحمن أمسكني من معصمي وأجلسني كأنما كان يقول: «أنت ضيفي أنا». وشعرت بارتباك عظيم لا أستطيع له وصفاً لاضطراري إلى البقاء جالساً، بينما ترك الملك، بعد أن سلم على أبيه، واقفاً عند عتبة الباب، منتظراً كما كان واضحاً، الإذن بالدخول إلى الغرفة. إلا أنه لا بد أن يكون قد اعتاد مثل تلك الأطوار الغريبة من قبل والده، ذلك أنه تغاضى عن وجودي بشبه ابتسامة كي يسري عني. وفي الوقت نفسه مضى الإمام عبد الرحمن في حديثه كأنما لم يحدث ما أوجب انقطاعه عني. وبعد بضع دقائق رفع بصره وأومأ إلى ابنه بهزة من رأسه قائلاً:

ـ «اقترب يا ولدي، واجلس». لقد كان الملك وقتئذ في السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين من عمره.

وبعد تلك الحادثة ببضعة أشهر ـ وكنا في مكة حينذاك ـ جاءت الأخبار تنقل إلى الملك وفاة أبيه في الرياض. إنني لن أنسى ما حييت كيف حدق الملك بالرسول بضع دقائق كأنه لم يفهم عنه، واليأس الذي اكتنف ببطء ووضوح الملامح التي كانت في العادي من الأحوال على قدر عظيم من الوداعة والهدوء، وكيف قفز مزمجراً زمجرة هائلة: «لقد مات أبي!» وكيف أنه أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهوباً بخطوات واسعة، جاراً عباءته وراءه على الأرض وكيف أنه قفز درجات السلم متخطياً حرسه الذين غمر الأسى وجوههم، غير عارف إلى أين كان يتجه ولماذا، صارخاً: «لقد مات أبي! لقد مات أبي!» لقد رفض، طيلة يومين بعد ذلك، أن يرى أحداً ولم يتناول طعاماً ولا شراباً: وكان يقضي آناء الليل وأطراف النهار في الصلاة.

كم من الأبناء في متوسط العمر، كم من الملوك الذين شادوا ملكهم بسواعدهم وقوتهم، كانوا يحزنون لموت آبائهم تلك الميتة الهادئة بعد ذلك العمر الطويل كما فعل ابن سعود؟

ـ ٢ ـ

ذلك أن عبد العزيز بن سعود إنما شاد بساعديه ملكه الواسع الأطراف. فعندما كان طفلاً، كانت سلالته قد فقدت كل ما كان قد تبقى لها من قوة في أواسط الجزيرة العربية، وخلفتها السلالة التي كانت في ما مضى تابعة لها: آل ابن الرشيد، من حايل. تلك كانت أياماً مرة لعبد العزيز. لقد كان على الصبي الأبي المتحفظ أن يشهد أميراً غريباً يحكم مدينة آبائه وأجداده باسم ابن الرشيد: ذلك أن أفراد عائلة ابن سعود ـ التي كانت تسيطر في ما مضى على معظم جزيرة العرب ـ قد أصبحوا الآن يتناولون منه مرتبات معلومة وأصبح يتحملهم بعد أن أمن جانبهم. إلا أن تلك الحالة أصبحت لا تطاق في النهاية حتى بالنسبة إلى عبد الرحمن، والد عبد العزيز، فغادر الرياض مع عائلته كلها، رجاء أن يقضي ما تبقى من أيامه في بيت صديقه القديم، شيخ الكويت. إلا أنه لم يكن عارفاً بما يخبىء له المستقبل، إذ لم يكن عارفاً بما في فؤاد ولده.

ومن بين أفراد العائلة كلها كان هناك شخص واحد يعرف القليل مما كان يعتمل في ذلك الفؤاد المتحمس: عمته الصغرى. إنني لا أعرف عنها الشيء الكثير ولكنني أعرف أن الملك كان يذكرها باحترام كبير كلما أخذ في الحديث عن أيام شبابه.

«لقد كانت تحبني فيما أعتقد، أكثر مما كانت تحب أولادها أنفسهم، كانت عندما تنفرد بي، تضعني في حجرها وتنبئني بالأمور العظيمة التي كان علي أن أحققها إذا ما كبرت. كانت تقول لي: عليك أن تحيي عظمة بيت ابن سعود. وكانت تكرر قولها: ولكني أريدك أن تعلم، يا عزيز، إنه حتى عظمة بيت ابن سعود يجب أن لا تكون غاية مساعيك. إن عليك أن تجاهد لعظمة الإسلام. إن قومك لفي أمسّ الحاجة إلى قائد يرشدهم إلى طريق النبي الكريم ـ وإنك أنت ستكون ذلك القائد. لقد بقيت كلماتها هذه، ولا تزال، في قلبي دائماً».

لقد أحب عبد العزيز، طوال حياته، أن يتكلم عن الإسلام كرسالة أئتمن عليها. كانت فصاحته البالغة كثيراً ما تنجح في إقناع الكثيرين ـ ولربما في إقناع نفسه ذاتها أن هذا المثل الأعلى كان لا يزال غايته وهدفه.

مثل هذه الذكريات الطفولية كثيراً ما كان يقصها علينا الملك إبّان الاجتماعات الخاصة التي كانت تجري في الرياض بعد صلاة العشاء عادة. فحالما تنتهي الصلاة في مسجد القصر، كنا نتحلق حول الملك في إحدى الغرف الصغيرة لنصغي ساعة إلى قراءة من أحاديث النبي أو تفسير القرآن. وكان الملك بعد ذلك، يدعو اثنين أو ثلاثة منا لمرافقته إلى غرفة داخل جناحه الخاص. وفي إحدى الأمسيات، كما أذكر، بينما كنا نغادر المجلس إثر الملك، لفت نظري مرة أخرى طوله المهيب الذي كان يشمخ به عالياً على كل من حوله. ولا بد أنه لحظ نظرتي المعجبة، ذلك أنه ابتسم ابتسامة مقتضبة ثم أخذني بيدي وقال:

ــ «لماذا تنظر إلي مثل هذه النظرة، يا محمد؟»

ــ «كنت أفكر يا طويل العمر، في أن أحداً لا يمكن إلا أن يعرف الملك في شخصك عندما يرى إلى رأسك يرتفع إلى مثل هذا العلو فوق رؤوس الجميع».

فضحك ابن سعود وقال وهو لا يزال ممسكاً بيدي ويسير متمهلاً عبر الردهة: «نعم إن من المبهج أن يكون المرء في مثل هذا الطول. إلا أنه جاءني وقت لم يسبب لي فيه طولي إلا وجع القلب. كان ذلك منذ سنوات طويلة، عندما كنت صبياً أعيش في قصر الشيخ مبارك في الكويت. كنت رقيق البنية فارع الطول: أطول من سني إلى حد كبير. وكان الصبية الآخرون في القصر ـ أبناء عائلة الشيخ وأبناء عائلتي أنفسهم ـ يجعلونني هدفاً لنكاتهم وهزلهم، كأنما كنت فلتة من فلتات الطبيعة. وقد سبب لي هذا حزناً وغماً شديدين، حتى أنني أنا نفسي فكرت أيضاً في أنني حقاً فلتة من فلتات الطبيعة... وقد بلغ مني الخجل من طولي مبلغاً عظيماً، حتى أنني كنت أخفض رأسي وكتفي عندما أمشي بين غرف القصر أو في شوارع الكويت، كيما أبدو أقصر مما أنا في الحقيقة».

ووصلنا عندئذ إلى الجناح الخاص بالملك، وكان ابنه الأكبر الأمير سعود، ولي العهد، ينتظره هناك. لقد كان في مثل سني تقريباً، ومع أنه لم يكن يبلغ من الطول ما بلغه والده، فقد كانت له الهيبة نفسها. وكانت حركاته تنم عن الشمم والاطمئنان الذاتي اللذين يمتاز بهما العربي الأصيل المحتد، وكان تعبير وجهه الجريء الصريح يدل على استقامة خلقه التي حببته كثيراً إلى شعبه[1].

---

(١) بعد إنجاز هذا الكتاب في أصله الانكليزي بوقت قصير (١٩٥٣) ارتقى الأمير سعود عرش المملكة العربية السعودية عند وفاة والده. ولقد تحقق ما كان يؤمل منه في الطريقة الحكيمة، والجريئة في الوقت نفسه، =

وجلس الملك على الوسائد التي كانت ممدودة على الأرض بمحاذاة الحائط وأشار إلينا بالاقتداء به، ثم أصدر أمره: «قهوة» فلم يكن من العبد المسلح الواقف عند الباب إلا أن نادى في الردهة: «قهوة!» وتكرر هذا النداء التقليدي على ألسنة الخدم الآخرين المنتظرين في الردهة «قهوة!» «قهوة!»، إلى أن وصل إلى «مطبخ القهوة» الخاص بالملك على مبعدة غرف عدة. وفي لحظات ظهر خادم متمنطق بخنجر مذهب يحمل في إحدى يديه الدلة النحاسية وفي الثانية الفناجين الصغيرة. وتناول الملك الفنجان الأول، وأديرت الفناجين الأخرى على الضيوف بترتيب جلوسهم في مثل هذه المناسبات غير الرسمية. كان ابن سعود يتكلم بحرية عن أي شيء كان قد حدث له ـ عما كان يجري في أقطار الدنيا النائية، عن اختراع جديد غريب لفت نظره إليه، وعن الناس والعادات والمؤسسات. غير أنه كان يحب، أكثر ما يكون التحدث عن خبراته الخاصة، ويشجع الآخرين على الاشتراك في الحديث. وفي تلك الأمسية بالذات، بدأ الأمير سعود الكلام عندما التفت إلي وقال ضاحكاً:

ـ «لقد أبدى لي أحدهم بعض الشك فيك، يا محمد، إذ قال إنه لم يكن على ثقة من أنك جاسوس إنكليزي وأنك تدعي الإسلام ادعاء.. ولكن لا تقلق: لقد استطعت أن أؤكد له أنك مسلم بحق».

وإذا لم استطع أن أمسك عن الإجابة، فقد قلت: «لقد كان هذا تلطفاً كبيراً منك، أيها الأمير، أطال الله عمرك. ولكن كيف قدرت أن تكون واثقاً من صحة إسلامي إلى هذا الحد ـ؟ أليس الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب؟»

فأجاب الأمير سعود: «هذا صحيح، ولكنني في هذه الحالة بالذات قد أعطيت فراسة خاصة... أن حلماً رأيته في الأسبوع الماضي هو الذي أعطاني هذه الفراسة.. لقد رأيت نفسي واقفاً أمام أحد المساجد، أتطلع إلى مئذنته. وفجأة ظهر في المئذنة رجل وضع يده إلى جانب فمه وأخذ يدعو إلى الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، وأكمل الآذان حتى نهايته وقال: لا إله إلا الله ـ وعندما أمعنت النظر في الرجل وجدت أنه كان أنت ـ وعندما استيقظت أيقنت، بالرغم من أنني ما شككت في ذلك قط، إنك مسلم صحيح الإسلام: ذلك أن الحلم الذي يذكر فيه اسم الله لا يمكن أن يكون غير صحيح».

= التي يعالج بها مشاكل مملكته ـ مشاكل اتسمت بطابع من التعقد والأهمية الدولية بأكثر حواً من تلك التي جابهت والده العظيم.

ولقد تأثرت جداً بذلك التأكيد الذي لم ألتمسه على إخلاصي من قبل ابن الملك، وبالايماءة الجادة التي أيد بها الملك رواية الأمير سعود. وتناول الملك الحديث فقال:

ـ «إن الله كثيراً من ينير قلوبنا بالأحلام التي تنبىء بالمستقبل أحياناً وتضيء الحاضر أحياناً أخرى. ألم تر أنت نفسك مثل هذه الأحلام، يا محمد؟»

فأجبت: «دون شك، أيها الإمام، كان ذلك منذ زمن بعيد، قبل أن أفكر في أن أصبح مسلماً بوقت طويل، قبل أن تطأ قدماي أي بلد إسلامي. لا بد أنني كنت في التاسعة عشرة من عمري وقتئذ، وكنت أسكن في بيت أبي في فيينا. لقد كنت مهتماً إلى أبعد الحدود في علم حياة الإنسان الباطنية». (وكان ذلك أقرب تحديد لعلم النفس التحليلي استطعت أن أعطيه إلى الملك)، «وكان من عادتي أن أحتفظ بالقرب من سريري بقلم وورقة كيما أدون عليها أحلامي حالماً أستيقظ من النوم. ولقد وجدت، بهذا، أنني كنت أستطيع أن أذكر أحلامي طويلاً ولزمن غير محدود، حتى ولو لم أبقها في ذاكرتي بصورة دائمة. في تلك الرؤيا بالذات، رأيت نفسي في برلين، مسافراً في ذلك القطار الذي يسير هناك تحت الأرض ـ أحياناً في نفق تحت الأرض وأحياناً أخرى فوق الجسور الممتدة عالياً فوق الشوارع. وكانت الحافلة مزدحمة بحشد كبير من الناس حتى أنه لم يكن هناك محل للجلوس، مما اضطر الجميع إلى الوقوف ملتصقين بعضهم ببعض غير قادرين على الحركة، ولم يكن هناك سوى بصيص من النور ينبعث من مصباح كهربائي واحد. وبعد هنيهة خرج القطار من النفق، ولكنه لم يصعد إلى واحد من تلك الجسور العالية، بل خرج، عوضاً عن ذلك، إلى سهل فسيح منعزل من الطين. وإذ تشبثت الدواليب بالطين فقد توقف القطار ولم يعد باستطاعته أن يتقدم أو يتأخر خطوة واحدة.

«وترك جميع المسافرين بما فيهم أنا، الحافلات وأخذوا يتطلعون حولهم. وكان السهل حولنا لا نهاية له، خالياً من كل شيء من البيوت والأشجار وحتى من الحجارة. واستولت الحيرة على قلوب الركاب وأخذوا يتساءلون كيف كان بإمكانهم أن يجدوا طريقهم إلى حيث كان سائر الأحياء يعيشون، وما الذي جاء بهم إلى ذلك القفر الموحش. ولقد غشي السهل نور أشهب، كما لو كان الوقت بعيد الفجر الباكر.

«وبطريقة ما، لم أشارك الآخرين قلقهم وحيرتهم، فقد شققت طريقي بين الجموع ورأيت، على مبعدة عشر خطوات مني تقريباً، هجيناً رابضاً على الأرض. لقد كان مشدوداً تماماً، وبالطريقة نفسها التي رأيت، في ما بعد، الهجن تشد بها في

بلدك هذا، أيها الإمام. وفي الشداد كان جالساً رجل يرتدي عباءة مخططة باللونين الأبيض والبني، ذات كمين قصيرين. أما كوفيته فقد كانت مسدلة على وجهه حتى أنني لم أستطع أن أميز ملامحه. وأدركت في صميمي أن الهجين إنما كان ينتظرني أنا، وأن الراكب الساكن إنما كان دليلي: وهكذا، دونما كلمة، علوت ظهر الهجين خلف الشداد، كما يركب الرديف في بلاد العرب. وفي اللحظة التالية، نهض الهجين وسار بخطوات واسعة مرحة وشعرت بسعادة لا أستطيع لها وصفاً. في تلك المشية السريعة الناعمة سرنا ما بدا لي بادىء الأمر ساعات، ثم أياماً، ثم أشهراً، إلى أن لم أعد أستطيع أخيراً أن أحصي الزمن. وفي كل خطوة من خطوات الهجين كانت سعادتي تزداد وترتفع إلى أن خلت نفسي كأنما كنت أسبح في الهواء. وفي النهاية أخذ الأفق إلى يميننا يحمر تحت أشعة الشمس التي كانت على وشك الشروق، إلا أنني رأيت بعيداً في الأفق أمامنا، نوراً آخر: لقد كان منبعثاً من وراء باب ضخم مفتوح، قائم على دعامتين - نوراً أبيض يبهر الأبصار، لا أحمر كنور الشمس المشرقة عن يميننا. نوراً بارداً أخذ يزداد بريقاً باطراد كلما اقتربنا، وجعل السعادة التي كانت تغمرني تفيض إلى درجة لا أستطيع لها وصفاً. وإذ اقتربنا من ذلك الباب ومن نوره، سمعت صوتاً من مكان ما يعلن: هذه هي مدينة أقصى الغرب! وأفقت من حلمي».

وهتف ابن سعود عندما انتهيت: «سبحان الله! أو لم ينبئك هذا الحلم بأنه كان مقدراً لك أن تعتنق الإسلام؟»

فهززت برأسي: «لا، يا طويل العمر، وأنى كان لي أن أعرف ذلك؟ إنني لم أكن قد فكرت قط بالإسلام، ولم أكن قد رأيت مسلماً قط.. فإنما بعد سبع سنوات، أي بعد أن كنت قد نسيت ذلك الحلم بزمن طويل، اعتنقت الإسلام. وأنا لم أذكر هذا الحلم إلا حديثاً، عندما وجدته مكتوباً على إحدى أوراقي، تماماً كما دونته تلك الليلة عندما استيقظت».

فقال الملك: «ولكن الله إنما أظهرك في الحق على حظك في ذلك الحلم، يا ولدي! ألا ترى أنت ذلك بوضوح؟ إن مجيء ذلك الحشد من الناس، وأنت معهم، إلى ذلك القفر الخالي من أيما طريق، وحيرتهم: أليست هذه هي حالة أولئك الذين تصفهم سورة الفاتحة بـ«الضالين»؟ والهجين الذي كان ينتظرك مع راكبه: ألم يكن هو الهداية التي كثيراً ما يأتي القرآن على ذكرها؟ والراكب الذي لم يكلمك، والذي لم تستطع أن تتبين ملامحه: من كان يمكن أن يكون غير النبي، ﷺ؟ لقد كان يحب أن يلبس عباءة ذات كمين قصيرين... ثم، ألا ينبئنا كثير من كتبنا بأنه في كل مرة

يظهر فيها الحلم لغير المسلمين، أو الذين لم يصبحوا مسلمين بعد، فإنما يكون وجهه مغطى دائماً؟ وذلك النور الأبيض البارد الذي رأيته في الأفق: ماذا كان يمكن أن يكون سوى نور الإيمان الذي يضيء من غير أن يشتعل؟ إنك لم تبلغه في حلمك لأنك كما أخبرتنا، لم تعرف إلا بعد سبع سنوات بعد ذلك أن الإسلام هو الحق نفسه. . .».

فقلت: «قد تكون على حق، يا طويل العمر، ولكن ما قولك في المدينة التي كانت «مدينة أقصى الغرب»، والتي كان ذلك الباب في الأفق سيؤدي بي إليها؟ ـ لأن الإسلام على أية حال، لم يقدني نحو الغرب، بل قادني، بالأحرى، بعيداً عن الغرب».

وصمت ابن سعود لحظة مفكراً، ثم رفع رأسه وابتسم تلك الابتسامة العذبة التي أحببتها وقال: «ألا يمكن أن تكون قد عنت يا محمد، أن بلوغك الإسلام سيكون «أقصى نقطة في الغرب» في حياتك. ـ وإن حياة الغرب بعد ذلك، لن تعود حياتك؟»

وبعد هنيهة تكلم الملك ثانية وقال: «لا يعلم المستقبل أحد غير الله. ولكنه يشاء أحياناً أن يعطينا، عن طريق الحلم، لمحة عما سيحدث لنا في المستقبل. أنا نفسي قد رأيت مثل هذه الأحلام مرتين أو ثلاثاً، وكانت هذه الأحلام تصدق دائماً. والحق أن أحدها قد جعلني ما أنا عليه الآن. . . كنت وقتئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنا نعيش عيشة المنفيين في الكويت، ولكنني لم أكن أحتمل التفكير في حكم ابن رشيد لموطني. وكثيراً ما كنت أستعطف والدي، عليه رحمة الله، وأقول: «قاتل، يا أبي، واطرد آل الرشيد، فإن أحداً ليس أحق منك بعرش الرياض!» ولكن والدي كان لا يصغي إلى التماساتي الحارة وينعتها بالأوهام والتخيلات، وكان يذكرني بأن محمد بن الرشيد كان أقوى سلطان في بلاد العرب، وأنه كان المسيطر على المملكة التي كانت ممتدة من صحراء سوريا في الشمال إلى رمال الربع الخالي في الجنوب، وأن كل قبائل البدو كانت ترتجف هلعاً أمام قبضته الحديدية. إلا أنني، في إحدى الليالي، رأيت حلماً غريباً. رأيت نفسي ممطياً صهوة جواد في سهل متوحد في الليل، ورأيت أمامي، على صهوة جواد أيضاً، محمد بن الرشيد الهرم، مغتصب مملكة عائلتي. لقد كنا كلانا أعزلين من السلاح، ولكن ابن رشيد كان يحمل في يده المرفوعة إلى فوق فانوساً كبيراً مضيئاً. وإذ رأى اقترابي عرف بي عدوه وأدار وجه جواده حاثاً إياه على الفرار، ولكنني دفعت جوادي في أثره وأمسكت بإحدى زوايا

عباءته ثم بذراعه ثم بالمصباح ـ فأطفأته. وعندما صحوت، أيقنت أنني سوف أستخلص الحكم من آل الرشيد».

* * *

وفي السنة التي رأى فيها ابن سعود ذلك الحلم، أي سنة ١٧٩٨، مات محمد ابن الرشيد. ولقد بدا لعبد العزيز أن تلك كانت الفرصة المؤاتية كي يضرب ضربته، ولكن أباه عبد الرحمن لم يكن يميل إلى أن يخاطر بحياته الآمنة في الكويت في مهمة مشكوك في نجاحها إلى حد كبير. ولكن رغبة الابن كانت أقوى وأعند من همة الأب، فوافق هذا آخر الأمر. وبمساعدة صديقه مبارك، شيخ الكويت، جمع الأب عدداً قليلاً من القبائل التي كانت لا تزال على إخلاصها لعائلته، وخاض الميدان ضد آل الرشيد بالطريقة العربية القديمة، بالهجن والجياد والبيارق القبلية، ولكنه لم ينجح أمام قوى العدو المتفوقة وعاد ـ ولعله كان في صميمه مرتاحاً بأكثر مما كان مستاء للنتيجة ـ إلى الكويت مصمماً على أن لا يعكر أواخر أيامه بمثل تلك المغامرات الحربية.

ولكن الابن لم يستسلم بسهولة. لقد كان دائماً يذكر ذلك الحلم الذي انتصر فيه على ابن الرشيد وعندما أقلع أبوه عن كل ادعاء بالملك على نجد، كان ذلك الحلم هو الذي دفع عبد العزيز الشاب إلى أن يأخذ على نفسه بلوغ الحكم. لقد جمع من حوله عدداً من أصدقائه ـ كان من بينهم عبدالله بن جلوي وابن مساعد ـ وبعضاً من البدو المغامرين، إلى أن بلغ مجموع الزمرة الأربعين عداً. وخرجوا راكبين من الكويت، كاللصوص، خلسة، دونما بيارق أو طبول أو غناء، وساروا متفادين طريق القوافل ومختبئين في النهار إلى أن وصلوا إلى جوار الرياض حيث نزلوا في وادٍ منعزل. وفي اليوم نفسه انتقى عبد العزيز خمسة رفاق من أصل الأربعين، وخاطب الباقين بقوله:

ــ «ها نحن أولاء، الستة، قد وضعنا مصائرنا بين يدي الله. إننا ذاهبون إلى الرياض ـ لنفتحها أو نفقدها إلى الأبد. فإذا سمعتم أصوات القتال من البلدة فتعالوا إلى نجدتنا. أما إذا لم تسمعوا شيئاً حتى غروب شمس الغد فستعلمون أننا قد متنا جميعاً، وليتقبل الله أرواحنا. فإذا حدث ذلك، فعودوا سراً وبأسرع ما تستطيعون، إلى الكويت».

وخرج الرجال الستة مشياً على الأقدام. وعند الغروب وصلوا إلى البلدة

ودخلوها من إحدى الثغرات التي كان محمد بن الرشيد قد أحدثها في جدران المدينة المقهورة لإذلال سكانها. وتوجهوا بأسلحتهم المخبأة تحت عباءاتهم، رأساً إلى بيت الأمير الرشيدي. لقد كان البيت مقفلاً، ذلك أن الأمير، خوفاً من اعتداء السكان، كان من عادته أن يمضي لياليه في القلعة المقابلة للبيت. وطرق عبد العزيز ورفاقه الباب، ففتحه عبد لم يلبثوا أن انقضوا عليه، فشدوا وثاقه وكموا فمه منعاً له من الصراخ. وحل الشيء نفسه بسائر سكان البيت ـ وكانوا في تلك الساعة عدداً قليلاً من العبيد والنساء. ودعا المغامرون الستة أنفسهم إلى تناول بعض التمر من خزانة الأمير، وأمضوا الليلة يتناوبون قراءة القرآن.

وفي الصباح فتحت أبواب القلعة وخرج الأمير محاطاً بحراسه وعبيده المسلحين. وصرخ عبد العزيز: «يا رب، إن عبد العزيز بن سعود بين يديك». ثم كرّ ورفاقه القلائل بسيوفهم المجردة على العدو الذي أخذته المفاجأة. ورمى عبد الله بن جلوي برمحه على الأمير، ولكنه تفاداه في الوقت المناسب، فنفذ الرمح مرتعش الساق، في حائط القلعة المصنوع من اللبن ـ وهو يرى هناك حتى هذا اليوم. وتراجع الأمير مذعوراً إلى بوابة القلعة، في حين لحق به عبد الله بمفرده إلى داخلها. أما عبد العزيز ورفاقه الأربعة فقد هاجموا الحراس الذين، بالرغم من تفوقهم العددي، كانوا مضطربين بحيث لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بفعالية. وبعد لحظة ظهر الأمير فوق سطح القلعة، وقد ضيق عليه ابن جلوي الخناق، يتضرع إليه أن يبقي على حياته. ولكن ابن جلوي لم يجب ملتمسه، وعندما وقع الأمير على سور السطح وتلقى الضربة المميتة من سيف ابن جلوي، صرخ عبد العزيز من أسفل: «تعالوا يا رجال الرياض! إنني هنا، أنا عبد العزيز، ابن عبد الرحمن آل سعود، حاكمكم الشرعي!» وهرع رجال الرياض، الذين كانوا يكرهون مضطهديهم الشماليين، بسلاحهم إلى نصرة أميرهم ودخل رجاله الخمسة والثلاثون المدينة من أبوابها على هجنهم الرامحة، مكتسحين كالعاصفة كل مقاومة اعترضت طريقهم. وفي خلال ساعة واحدة، أصبح عبد العزيز حاكم الرياض دون منازع.

كان ذلك في عام ١٩٠١، وكان عبد العزيز في الحادية والعشرين من سنه. كانت أيام صباه تشرف على نهايتها، وكان يقترب من المرحلة الثانية في حياته، مرحلة الرجل والحاكم الناضج.

وخطوة خطوة، ومقاطعة إثر مقاطعة، استخلص ابن سعود نجداً من آل الرشيد، مرجعاً إياهم عنوة إلى بلادهم، جبل شمر، وعاصمتها حايل. ولقد قدر هذا

التوسع كأنما قامت به هيئة أركان حربية تستعين بالخرائط وعلوم تمرين الجنود وإيوائهم في ميادين القتال والمعرفة الجغرافية ـ السياسية ـ مع أن ابن سعود لم يكن لديه هيئة أركان حرب، ولعل عينه لم تكن قد وقعت على خريطة. واستمرت فتوحاته بصورة لولبية، وكان محورها الدائم الرياض. ولم يكن ابن سعود يقدم على أية خطوة أخرى قبل أن يثبت قدمه في المنطقة السابقة ويوطد مركزه فيها. ولقد بسط سيطرته بادىء الأمر على المناطق الشرقية والشمالية من الرياض ثم على الصحارى الغربية، أما تقدمه نحو الشمال فكان بطيئاً، ذلك أن آل الرشيد كانوا لا يزالون يملكون هناك قوى لا بأس بها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأتراك، الذين كانوا قد عقدوا معهم حلفاً قوياً في العقود الماضية، يساعدونهم ويشدون أزرهم. وكذلك فقد كان الفقر أحد العوامل التي وقفت في طريقه، فالمناطق النجدية الجنوبية لم تستطع أن تقدم لابن سعود موارد تكفي لتموين جماعات كبيرة من المقاتلين لأي فترة في الوقت.

ـ «في أحد الأوقات»، كذلك قال لي ابن سعود مرة، «بلغ مني الفقر مبلغاً عظيماً حتى أنني اضطررت إلى أن أرهن سيفي المرصع بالجواهر، والذي كان الشيخ مبارك قد أعطاني إياه، لدى مرآب يهودي في الكويت. إنني لم أكن أستطيع أن أبتاع حتى سجادة لشدادي، ولكن الأكياس الفارغة التي كنت أضعها تحت الجعد كانت تقوم مقامها».

ولقد كانت هناك مشكلة أخرى مهمة جعلت مهمة ابن سعود في أوائل عهده عسيرة جداً: موقف القبائل البدوية.

فبالرغم من كل مدتها وقراها، فإن أواسط الجزيرة العربية أرضٌ أهلها من البدو. وكانت مؤازرتهم أو خصومتهم هي التي تقرر الأحداث في الحروب بين ابن سعود وابن الرشيد في كل مرحلة. لقد كانوا مترددين متقلبين في الرأي، وكانوا ينضمون إلى أي من الفريقين يتضح لهم في اللحظة ذاتها أن كلمته هي الراجحة أو يتوقعون من الانضمام إليه قدراً أكبر من الأسلاب والغنائم. ومن أبطال هذه المخاتلة وهذا النفاق كان فيصل الدويش، زعيم شيوخ قبيلة مطير القوية، والذي كان ولاؤه يستطيع أن يرجح كفة أي من البيتين المتنافسين. وكان يأتي إلى حايل فيحمله ابن الرشيد العطايا والهبات، فلا يلبث أن يخذله ويأتي إلى الرياض فيقسم يمين الإخلاص لابن سعود، ثم يخونه بعد شهر واحد فحسب. لقد كان خائناً للجميع، شجاعاً مكاراً، مبتلى بنهم شديد إلى القوة والسلطان، فكم من ليلة لم ينم فيها ابن سعود بسبب فيصل الدويش.

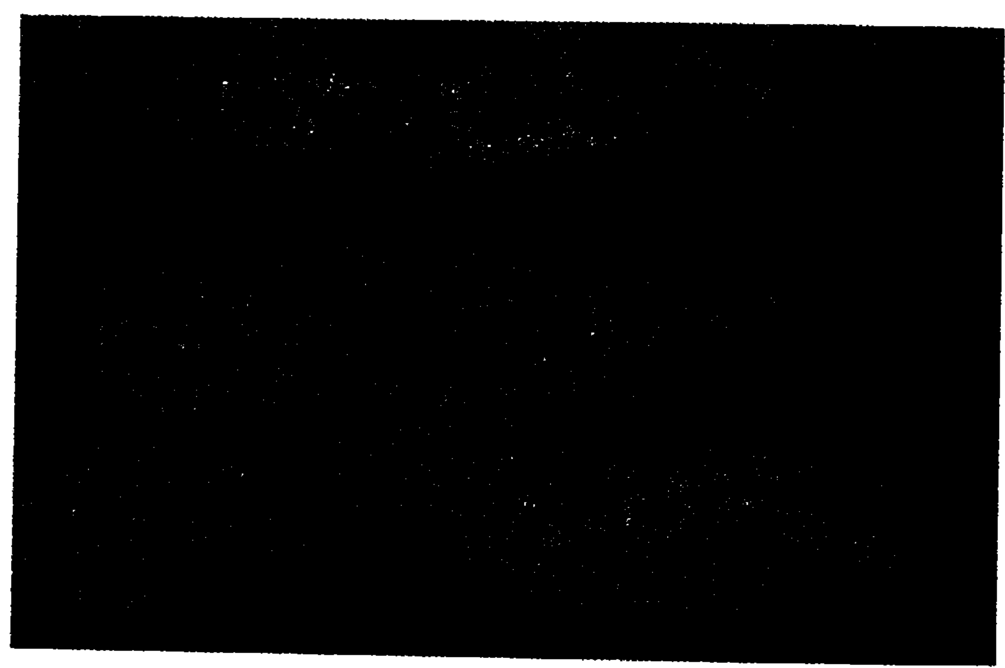
وإذ أحدقت هذه المصاعب بابن سعود، فقد فكر في خطة ـ لعله لم يقصد منها بادىء الأمر سوى أن تكون مناورة سياسية، إلا أنه قدر لها في ما بعد أن تنقلب إلى فكرة عظيمة استطاعت أن تبدل وجه شبه الجزيرة كله: خطة توطين القبائل الرحل. فقد كان واضحاً أن البدو، متى استقروا، لا بدّ أن يقلعوا عن لعبتهم المزدوجة بين الفريقين، ذلك أنه كان من السهل عليهم، في حياتهم البدوية غير المستقرة، أن يطووا بيوتهم الشعرية في لحظة واحدة وأن يسيروا بقطعانهم من جهة إلى أخرى ومن جانب إلى جانب، ولكن حياة الاستقرار لا بدّ أن تجعل ذلك مستحيلاً عليهم، إذ إن انتقالهم إلى محالفة العدو لا بدّ أن يجلب معه خطر فقدان بيوتهم ومزارعهم، وليس أعز على قلب البدوي مما تملك يداه.

وقد جعل ابن سعود توطين البدو أهم نقطة في برنامجه، وقد ساعدته في ذلك إلى حد كبير تعاليم الإسلام التي تؤكد دائماً فضل الحضارة على البداوة. وأرسل الملك المعلمين الدينيين يفقهون البدو في الدين ويبشرون بالفكرة الجديدة التي لاقت نجاحاً لم يكن يتوقعه لها أحد، وبرزت إلى حيز الوجود مؤسسة «الإخوان» ـ كما أخذ البدو المتحضرون يسمون أنفسهم. وأول هجرة (مستقر) للإخوان كانت هجرة مطير، قبيلة الدويش، وقد أطلقوا عليها اسم الأرطاوية، ونمت في بضع سنين إلى بلدة عدد سكانها ثلاثون ألف نسمة، ولم تلبث أن حذت حذوها قبائل عديدة أخرى.

وأصبحت حماسة الإخوان الدينية وقوتهم الحربية أداة فعالة في يدي ابن سعود. ومن ذلك الحين فصاعداً اتخذت حروبه مظهراً جديداً: ذلك أنها بعد أن حمل لواءها الإخوان بحميتهم الدينية، تخلت عن صفتها السابقة كنزاع عائلي على السلطة وأصبحت جهاداً دينياً. وفي نظر الإخوان، على الأقل، كان هذا التجدد الديني يتضمن أكثر من معنى شخصي، ففي تمسكهم تمسكاً لا يعرف اللين والمهاودة بتعاليم المصلح العظيم في القرن الثامن عشر، محمد بن عبد الوهاب (التي كانت تهدف إلى أن تعيد إلى الإسلام الطهارة الصارمة التي تميز بها في أيام السلف الصالح وترفض كل البدع التي أدخلت عليه في ما بعد)، فإن الإخوان، لا شك، كثيراً ما كان يستحوذ عليهم شعور مغالى فيه من التقى والورع الشخصيين، إلا أن ما كان يرغب فيه معظمهم فوق كل شيء آخر لم يكن التقى الشخصي فقط بل إقامة مجتمع جديد يمكن أن يدعى إسلامياً بحق. صحيح أن كثيراً من مفاهيمهم كانت بدائية وأن حماستهم الدينية كثيراً ما قاربت الغلو.

وفي سنة ١٩١٣، وكانت قوة الإخوان الهائلة تحت تصرفه، شعر ابن سعود أخيراً بأنه كان يملك القدرة الكافية على غزو منطقة الأحساء على الخليج الفارسي، والتي كانت في ما مضى تابعة لنجد، واحتلها الأتراك منذ خمسين سنة.

لم تكن محاربة الأتراك خبرة جديدة بالنسبة إلى ابن سعود، ذلك أنه كان قد لاقى، مرة بعد أخرى، فصائل تركية، وبخاصة مدفعية الميدان، ضمن جيوش ابن الرشيد، ولكن الهجوم على الأحساء، التي كان يحكمها الأتراك مباشرة، كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً، ذلك أنه يجعله يصطدم بدولة عظمى وجهاً لوجه. ولكن ابن سعود لم يكن باستطاعته أن يختار، فما لم يخضع الإحساء وميناءها لسيطرته فإنه يبقى معزولاً عن العالم الخارجي دائماً، وغير قادر على أن يحصل على ما كان في أمسّ الحاجة إليه من الأسلحة والذخائر وكثير من ضروريات الحياة. كانت الغاية تبرر المغامرة، ولكن الخطر كان كبيراً جداً، حتى أن ابن سعود تردد طويلاً قبل أن يقوم بأي هجوم على الأحساء وعاصمتها، الهفوف. وهو لا يزال مولعاً، حتى الآن بأن يروي الظروف التي اتخذ فيها قراره النهائي.



حقول الأرز في الهفوف

«لقد كنا على مرأى من الهفوف. ومن الرابية التي كنت جالساً عليها استطعت

أن أرى بوضوح أسوار القلعة الحصينة التي كانت تشرف على البلدة. كان فؤادي مثقلاً بالحيرة. وكنت أوازن بين فوائد هذا العمل وأخطاره. لقد شعرت بالملل وبالشوق إلى السلام والحنين إلى البيت؟ وعندما فكرت في البيت رأيت وجه زوجتي جوهرة ماثلاً أمام عيني. وبدأت أفكر في بعض الأبيات التي يمكن أن أقولها لو كانت حينذاك إلى جانبي. وقبل أن أشعر بذلك، شغلت بنظم قصيدة لها، ناسياً بالكلية أين كنت ومبلغ الخطورة في القرار الذي كان عليّ أن أتخذه، وحالما أصبحت القصيدة جاهزة في فكري كتبتها على ورقة ووضعتها في مظروف ختمته وناديت واحداً من سعاتي وأمرته قائلاً: «خذ أسرع ذلولين واركب إلى الرياض وسلم هذا إلى أم محمد. وبينما كان الساعي يختفي في غمامة الغبار الرملي، وجدت فجأة أنني وصلت إلى قرار بشأن الحرب: إنني مهاجم الهفوف، وإن الله لا بدّ أن ينصرني».

وكانت ثقته في محلها، فقد حمل مقاتلوه حملة جريئة وهجموا على القلعة كالصواعق، فاستسلم الأتراك وأذن لهم بالانسحاب بأسلحتهم ومعداتهم إلى الشاطىء حيث أبحروا إلى البصرة. إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن مستعدة للتخلي عن الهفوف بسهولة، وهكذا قررت في استانبول إرسال حملة تأديبية ضد ابن سعود، ولكن نيران الحرب العظمى اندلعت قبل إنفاذها، وأجبرت الأتراك على إرسال قواهم الحربية كلها إلى أماكن أخرى. وبنهاية الحرب زالت الدولة العثمانية من الوجود.

وإذ فقد ابن الرشيد مؤازرة الأتراك وأصبح محصوراً في الشمال بالأراضي التي كانت تديرها بريطانيا وفرنسا، فإنه لم يعد يستطيع أن يبدي أية مقاومة فعالة ضد ابن سعود. واستطاعت قوى الملك، بقيادة فيصل الدويش الذي كان في ذلك الحين من أعظم قواد ابن سعود، أن تستولي على حايل في عام ١٩٢١، وبذلك فقد آل الرشيد آخر معقل لهم.

وبلغ توسع ابن سعود الذروة في ١٩٢٤ - ١٩٢٥ عندما فتح الحجاز، بما فيه مكة والمدينة وجدة، وأخرج عائلة الشريف التي كانت قد استولت على الحكم هناك بعد ثورة الشريف حسين الأتراك في عام ١٩١٦ بمعاضدة الانكليز. وباستيلائه على هذه الأرض المقدسة، وأظهر ابن سعود ظهوراً كاملاً أمام أنظار العالم الخارجي، وكان عندئذ في الخامسة والأربعين من العمر.

لقد ملأ وصول ابن سعود إلى هذه المرتبة، بصورة لم يبق لها مثيل وفي وقت كان معظم أقطار الشرق الأوسط يستسلم فيه لتوغل النفوذ الغربي، أقول ملأ وصول ابن سعود إلى الحكم العالم العربي بالأمل في أنه قد جاء أخيراً زعيم وقائد عربي

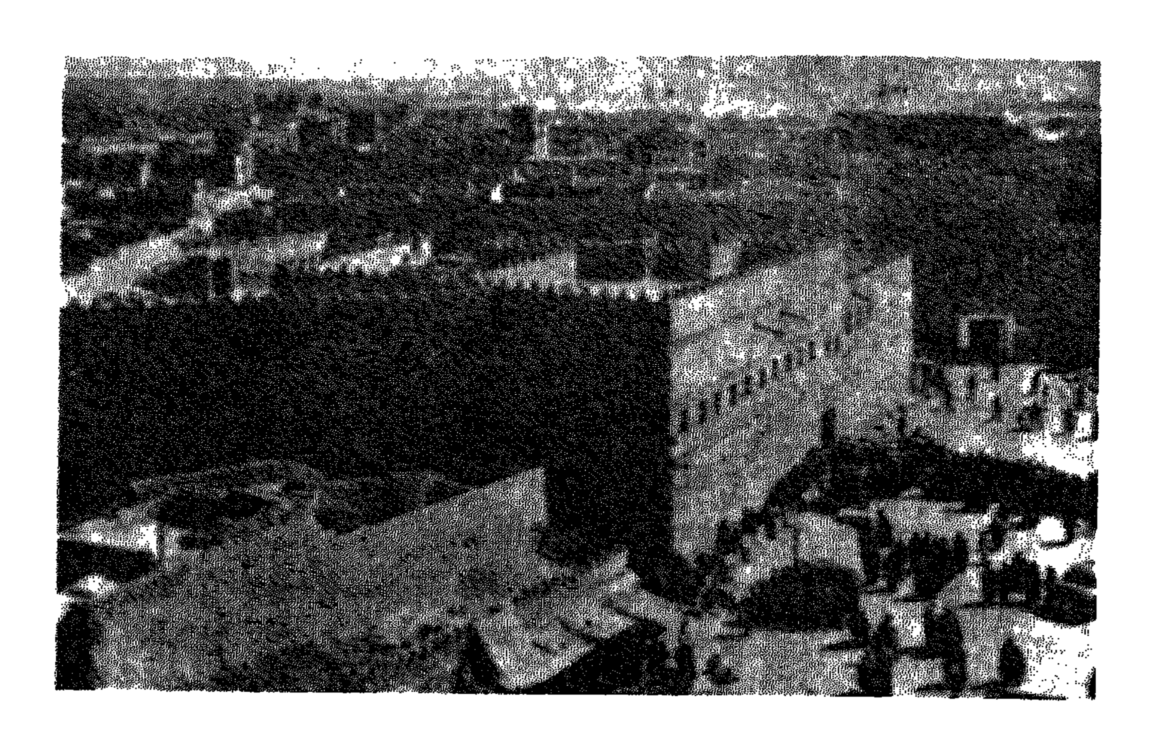
يخلّص الأمة العربية كلها من عبوديتها. وتطلعت إليه جماعات إسلامية عديدة من غير العرب لإحياء الفكرة الإسلامية بأكمل معانيها وذلك بإقامة دولة تكون فيها الكلمة العليا لروح القرآن وحده.

إن سلطته الشخصية الهائلة، ولكنها لا ترتكز على وسائل القوة بقدر ما ترتكز على قوة شخصيته. وهو معتدل في كلامه وسلوكه كما أن روحه الديموقراطية بحق تمكنه من أن يتكلم مع البدو الذين يأتون إليه بثيابهم الرثة القذرة كأنما هو واحد منهم، وأن يسمح لهم بأن ينادوه باسمه الأول: عبد العزيز. ومن ناحية أخرى فإنه يستطيع أن يشمخ على أصحاب المناصب الرفيعة ويحتقرهم كلما آنس منهم الخنوع. إنه يحتقر كل وضيع متعاظم محدث النعمة. ولا أزال أذكر حادثة جرت في مكة، أثناء تناول العشاء في القصر الملكي، عندما جعد رئيس عائلة من أشرف العائلات أنفه «للفجاجة البدوية» عندما رأى بعضاً من النجديين الحاضرين يلتهمون الأرز بنهم بقبضات كبيرة. ولكي يدلل على تهذيبه، أخذ الارستقراطي المكي يأكل بأناقة بأطراف أصابعه ـ عندما دوى صوت الملك فجأة: «أنتم معشر اللطفاء تعبثون بطعامكم بكثير من التيقظ والحذر، هل ذلك لأنكم معتادون على نبش الأقذار بأصابعكم؟ نحن معشر النجديين لا نخاف أيدينا، إنها نظيفة ـ ولذلك فإننا نقبل على طعامنا بلذة وشوق وبقبضة يدنا كلها!»

وفي بعض الأحيان، عندما يكون ابن سعود في فترة من الاستجمام، تطفو ابتسامة لطيفة على وجهه وتعطي صفة تكاد تكون روحية لجمال وجهه. وإني واثق من أنه لو لم تكن الموسيقى تعتبر شيئاً يستلزم اللوم والزجر في نظر الوهابية التي يتبعها ابن سعود، إذن لعبر دونما شك عن نفسه، فيها، إلا أنه والحالة هذه يظهر ميله الموسيقي في قصائده القصيرة، وتصويره الرائع لتجاربه وخبراته، وأناشيده الحربية والغزلية التي انتشرت في كل نجد، والتي يغنيها الرجال وهم ممتطون صهوات هجنهم عبر الصحراء، والنساء في إبان عزلتهن في غرفهن. وهذا الميل إنما يتكشف أيضاً في حياته اليومية التي تتبع نمطاً منتظماً يلائم مقتضيات منصبه الملكي. وكيوليوس قيصر، يملك ابن سعود، إلى درجة عليا، القدرة على اتباع عدة سلاسل من التفكير في وقت واحد، دون أن ينتقص أبداً من القوة التي يجابه بها كل مشكلة بمفردها. وهذه الموهبة العجيبة هي التي تمكنه من أن يدير شخصياً كل شؤون مملكته الواسعة دون أن يعاني أيما اضطراب أو تهافت من جراء الإجهاد في العمل وأن يجد، مع ذلك، الوقت والميل إلى معاشرة النساء. إن لديه حماساً غرزياً يكاد لا يخطىء عن دوافع الناس الذين يتعامل معهم، وليس نادراً ـ كما أتيح لي أن أشهد

بنفسي - ما يستطيع أن يقرأ أفكار الناس قبل أن يفصحوا عنها، ويشتمّ موقف الرجل منه في اللحظة التي يدخل فيها هذا إلى الغرفة. وهذه المقدرة هي التي مكنت ابن سعود من أن يحبط عدداً من المحاولات المحكمة للقضاء على حياته، وأن يتخذ كثيراً من القرارات الفورية الموفقة في الأمور السياسية.

وبالاختصار فإن الذي يبدو أن ابن سعود يملك كثيراً من الصفات التي كان باستطاعتها أن تجعل منه رجلاً عظيماً.



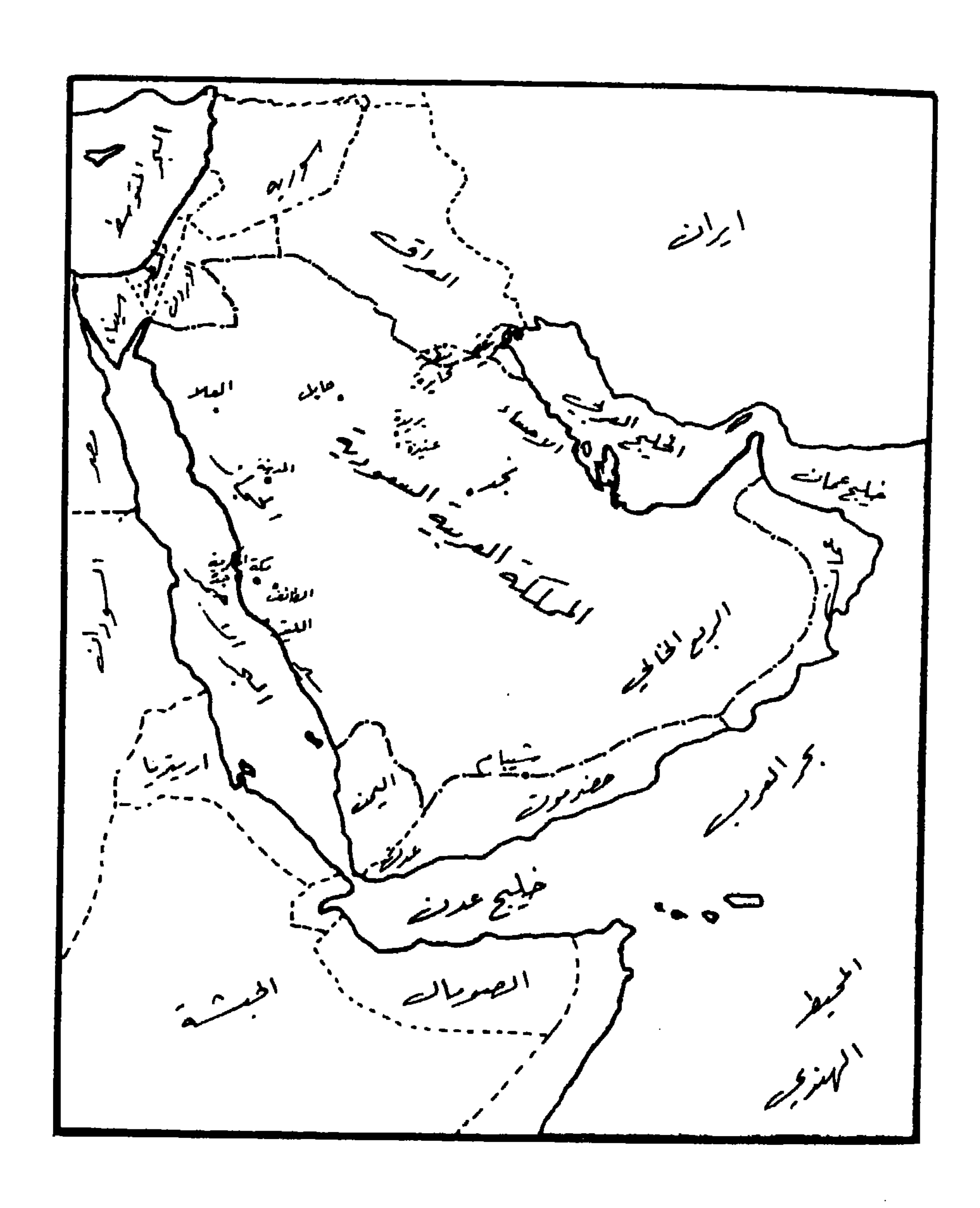
الرياض، أيام الملك عبد العزيز



قافلة في الصحراء



الملك عبد العزيز، تغمده الله برحمته



خريطة المملكة العربية السعودية

منتصف الطريق

ـ ١ ـ

لقد تركنا حايل، وكنا في طريقنا إلى المدينة المنورة: ولكننا كنا الآن ثلاثة ـ ذلك أن واحداً من رجال ابن مساعد يدعى منصور، كان قد رافقنا لجزء من الطريق في مهمة كلفه الأمير بقضائها.

وكان منصور من الملاحة بحيث إنه لو ظهر في شوارع مدينة غربية، إذن لاستدارت النساء للتطلع إليه. كان فارع الطول، ذا وجه صارم يوحي بالرجولة الكاملة. وكانت بشرته بيضاء ضاربة إلى السمرة ـ وهي علامة ثابتة على طيب المحتد بين العرب ـ وعيناه سوداوان تعاينان العالم برغبة وشوق. ولم يكن فيه شيء من رقة زيد أو وداعته. ولكن منصوراً، شأن زيد، قد رأى الشيء الكثير من الدنيا، ولذا كان رفيقاً تلذ صحبته في السفر.

وفي التراب الأصفر ـ الأشهب المفروش بالحصى، والذي حل الآن محل رمال النفود، استطعنا أن نلحظ الحياة الحيوانية التافهة التي تملأه: عظّاءات شهباء صغيرة تتمعج بين أقدام راحلتينا بسرعة هائلة، وتحتمي تحت عليقة شائكة لترقب مرورنا بأعين مضطرمة، وجرابيع شهباء صغيرة ذات أذناب كثة، تشبه السناجيب، التي يستطيب بدو نجد لحمها، وهو في الحق من ألذ ما ذقت في حياتي. وهناك أيضاً الضب الذي يبلغ طوله قدماً واحداً، والذي ينمو على جذور النبات ويشبه طعمه شيئاً بين الدجاج والسمك، والخنافس السوداء ذات الأرجل الأربع، والتي لها حجم كحجم بيضة الدجاج، تدحرج بصبر مدهش كرة من روث الجمال الجاف، تدفعها إلى الوراء برجليها الخلفيتين القويتين، بينما يتكىء جسمها على رجليها الأماميتين، فتدحرج الصيد الثمين إلى بيوتها، وتقع على ظهورها إذا اعترضت طريقها حصاة، ثم تستوي بعسر على أرجلها ثانية، وتدحرج الكرة بضع بوصات أخرى، لتتعثر مرة ثانية،

وتنهض كرة أخرى، وتأخذ في العمل دونما كلل. . . وأحياناً يقفز أرنب أشهب في خطوات واسعة من تحت العليقات الشهباء، كما نصادف غزلاناً على بعد لا يسمح بصيدها، فتختفي في التلال الزرقاء بين التلال.

وسألني منصور: «قل لي، يا محمد، كيف حدث أن أتيت لتعيش بين العرب؟ وكيف اعتنقت الإسلام؟»

فاعترض زيد: «أنا أخبرك كيف حدث ذلك. لقد أغرم بالعرب أولاً ثم بدينهم. أليس هذا صحيحاً، يا عمي؟»

ـ «إن ما يقوله زيد لصحيح، يا منصور. منذ سنوات عدة، عندما أتيت إلى بلاد العرب لأول مرة، فتنت بالطريقة التي تعيشون بها معشر العرب. وعندما بدأت أتساءل بماذا تفكرون وبماذا تؤمنون، بدأت أعرف الإسلام».

ـ «وهل وجدت دفعة واحدة، يا محمد، أن الإسلام هو كلمة الله الحق؟»

فأجبت: «كلا، إن هذا لم يحدث بمثل هذه السرعة. إني لم أكن أؤمن عندئذ بأن الله قد خاطب الإنسان مباشرة مطلقاً، وكنت أؤمن بأن الكتب التي ادعى الناس أنها كلام الله لم تكن إلا من صنع أناس حكماء. . .».

وحدّق منصور إليّ بريبة تامة وقال: «كيف يمكن أن يكون ذلك، يا محمد؟ ألم تكن تؤمن حتى بتوراة موسى أو بإنجيل عيسى؟ ولكنني اعتقدت دائماً أن أهل الغرب يؤمنون بها على الأقل؟»

فقلت: «إن بعضهم يؤمن بها، يا منصور، والبعض الآخر لا يؤمن. أما أنا فقد كنت من هؤلاء الآخرين. . .».

ثم أوضحت له أن كثيراً من الناس في الغرب قد أقلعوا منذ أمد طويل عن اعتبار الأسفار المنزلة والكتب المقدسة ـ كتبهم هم وكتب الآخرين أيضاً ـ وحياً حقيقياً من عند الله، بل أصبحوا يرون فيها، بدلاً من ذلك، تاريخ تلهفات الإنسان وأشواقه الدينية كما تطورت عبر العصور.

ثم أردفت قائلاً: «ولكن نظرتي هذه تزعزعت حالما بدأت أعرف شيئاً عن الإسلام. لقد بدأت أعرف عنه عندما وجدت أن المسلمين كانوا يعيشون بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي كان الغربيون يعتقدون أنها الطريقة التي يجب أن يتبعها الإنسان في العيش. وفي كل مرة تعلمت فيها شيئاً جديداً عن الإسلام، كان

يخيل إليّ أنني اكتشفت شيئاً كنت أعرفه دائماً دون أن أعرف. . . ».

وهكذا أخذت أخبر منصوراً عن أول رحلة قمت بها إلى الشرق الأدنى عام ١٩٢٢ ـ كيف كونت فكرتي الأولى عن العرب في صحراء سيناء، وعما رأيت وشعرت في فلسطين ومصر وشرق الأردن وسوريا، وكيف ألهمت، أول ما ألهمت، في دمشق، بأن طريقاً جديداً إلى الحق كان قد أخذ ينقشع أمامي منذ ذلك الحين، وكيف عدت إلى أوروبا بعد زيارتي تركيا ووجدت أن من الصعب عليّ أن أعيش مرة أخرى في العالم الغربي: ذلك أنني، من ناحية، كنت تواقاً إلى أن أتفهم، تفهماً أعمق، القلق الذي أحدثته أول معرفة لي بالعرب وثقافتهم، رجاء أن يعينني ذلك التفهم على أن أفهم بطريقة أفضل ما كنت أنا نفسي أتوقع من الحياة، ومن ناحية أخرى كنت قد وصلت إلى نقطة اتضح لي عندها أنني لن أستطيع بعد أن أنسجم مع أهداف المجتمع الغربي.

* * *

في ربيع سنة ١٩٢٤، أرسلتني صحيفة «فرانكفورتر تزايتونغ» في رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط، بعد أن أنجزت أخيراً الكتاب الذي وصفت فيه أسفاري السابقة (وقد نشر بعد بضعة أشهر من سفري، وبالرغم من أن اتجاهه المعادي للصهيونية وميله غير العادي إلى العرب أحدث ما يشبه الدوي في الصحافة الألمانية، فإن عدد النسخ التي بيعت منه لم يكن كبيراً جداً).

مرة أخرى قطعت البحر الأبيض المتوسط ورأيت أمامي شاطىء مصر. وكانت رحلتي بالقاطرة من بور سعيد إلى القاهرة بمثابة تقليب صفحات كتاب مألوف. وبين قناة السويس، وبحيرة المنزلة كشف الأصيل المصري عن نفسه، وكان البط البري يسبح في الماء ونبات الطرفاء تهتز أغصانه ذات الشكل المروحي الجميل. وظهرت القرى في السهل، الذي كان أول الأمر مكسواً بالخضار المتباعدة بعضها عن بعض. وكانت الجواميس السوداء وإلى جانبها الإبل أحياناً، تجر المحاريث بقوائمها المتكاسلة في تربة الربيع. وإذ استدرنا نحو الغرب من قناة السويس اكتنفتنا النضارة المصرية، وعندما وقع نظري للمرة الثانية على النساء النحيلات الفارعات الطول اللواتي كن يتمايلن باتزان لا يوصف ويخطين بخطوات واسعة فوق الحقول يحملن الجرار على رؤوسهن وأيديهن ممدودة إلى الجانبين، قلت في ذات نفسي: ليس في العالم كله ـ من أكمل سيارة إلى أعظم جسر ضاع في الغرب والذي هو مهدد بالضياع

في الشرق ـ هذا الجمال الذي ليس شيئاً سوى تعبير عن التوافق السحري بين النفس البشرية وبين العالم المحيط بها. . .

كنت هذه المرة مسافراً في الدرجة الأولى. ولم يكن في الديوان في العربة سوى مسافرين غيري: تاجر يوناني من الاسكندرية سريعاً ما جعلني، بالسهولة التي يتميز بها الشرقيون جميعاً، أخوض معه في حديث نشيط، وكان يرسل النكات الظريفة عن كل ما تقع عليه أعيننا، وعمدة مصري كان ـ من القفطان الحريري الثمين وسلسلة الساعة الذهبية الغليظة البارزة من حزامه ـ رجلاً بادي الغنى إلا أنه كان مقتنعاً ببقائه مجرداً من كل علم. والواقع أنه حالما اشترك معنا في الحديث اعترف بأنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك فقد كان يظهر ذوقاً سليماً حاداً.

كنا نتحدث، كما أذكر عن بعض المبادىء الاجتماعية في الإسلام، تلك المبادىء التي كانت في ذلك الوقت تشغل حيزاً كبيراً من تفكيري. ولم يوافق رفيقي اليوناني المسافر موافقة كلية على إعجابي بالعدالة الاجتماعية في الشريعة الإسلامية.

قال: «إن الشريعة الإسلامية ليست عادلة بالمقدار الذي تعتقد، يا صديقي العزيز» ـ ثم تحول من الفرنسية التي أخذنا نتحدث بها، إلى العربية كي يفهم رفيقنا المصري الحديث، واستدار إليه قائلاً: «إنكم تقولون إن دينكم عادل جداً، فهل تستطيع مثلاً أن تقول لنا لماذا يبيح الإسلام للمسلمين أن يتزوجوا من الفتيات المسيحيات أو اليهوديات، ولا يبيح لبناتكم وإخواتكم أن يتزوجن من المسيحيين أو اليهود؟ هل تسمي هذا عدلاً، إيه؟»

ـ «طبعاً أسميه»، أجاب العمدة الوقور دون أن يتردد لحظة واحدة. وسأخبرك لماذا جاءت شريعتنا الإسلامية بهذا. نحن المسلمين لا نعتقد بأن المسيح ـ عليه السلام ـ هو ابن الله، ولكننا نعتبره فعلاً، كما نعتبر موسى وإبراهيم وسائر الأنبياء، رسول صدق من عند الله، وأنهم جميعاً قد أرسلوا إلى الناس بالطريقة نفسها التي أرسل بها خاتم النبيين، محمد ﷺ وهكذا، فإذا تزوجت فتاة مسيحية أو يهودية من رجل مسلم فإن بإمكانها أن تطمئن إلى أن أحداً من الأشخاص المقدسين في نظرها لا يمكن أن يؤتى على ذكره بين أفراد عائلتها الجديدة إلا بكل تبجيل واحترام. في حين أنه، من ناحية أخرى، إذا تزوجت فتاة مسلمة من غير مسلم فإن من تعتبره رسول الله خليق بأن يذم ويساء إليه. . . ولربما من قبل أولادها أنفسهم: «أفلا يتبع الأولاد عادة دين أبيهم؟ وهل تعتقد أنت أن من العدل تعريضها لمثل هذا الإيلام والإذلال؟»

ولم يجد اليوناني ما يجيب به عن هذا إلا هزة من كتفيه، أما أنا فقد بدا لي أن العمدة البسيط الأمي، بذلك الذوق السليم الذي يتميز به أبناء جنسه إلى حد بعيد، قد أصاب الكبد من مسألة على جانب عظيم من الأهمية. ومرة أخرى، كما حدث لي مع ذلك «الحاجي» الهرم في القدس شعرت أن باباً جديداً إلى الإسلام كان يفتح لي.

* * *

وبمقتضى ظروفي المادية التي تبدلت، أصبحت الآن قادراً على أن أعيش في القاهرة بطريقة لم أكن أحلم بها قبل ذلك ببضعة أشهر. لم أعد بحاجة إلى أن أعد الملاليم. ومضت الأيام التي كان عليّ فيها أن أعيش على الخبز والزيتون واللبن في أثناء إقامتي الأولى في القاهرة. إلا أنني، من ناحية واحدة، حافظت على «تقاليدي» الماضية. فبدلاً من أن أقطن أحد أحياء القاهرة الحديثة، استأجرت غرفة في بيت صديقتي العجوز، تلك المرأة البدينة من تريستا، التي استقبلتني بذراعين مفتوحتين وقبلة أمومية على الخدين.

وفي اليوم الثالث لوصولي سمعت، عند الغروب، صوت مدفع خفيض من القلعة. وفي اللحظة نفسها انبعثت هالة من النور في أعالي المئذنتين القائمتين على جانبي مسجد القلعة، واقتدت جميع مآذن المدينة بذلك فأضاءت أنوارها: فعلى كل مئذنة هالة مماثلة من النور. وفي القاهرة القديمة قامت حركة غريبة وأصبحت خطوات الناس أعجل، وفي الوقت نفسه أكثر ابتهاجاً، كما أصبحت الجلبة المتعددة النغمات في الشوارع أكثر علواً ووضوحاً: لقد كان باستطاعتك أن تحس، وأن تسمع تقريباً، توتراً جديداً يسري ويرتعش في جميع الجهات.

كل هذا حدث لأن الهلال الجديد أعلن قدوم الشهر الجديد. وكان ذلك الشهر شهر رمضان، أقدس أشهر السنة الإسلامية. إنه يحيي ذكرى ذلك الوقت الذي مضى عليه أكثر من ثلاثة عشر قرناً، والذي أنزل فيه أول ما أنزل من القرآن، إن كل مسلم مفروض عليه أن يصوم صوماً كاملاً في هذا الشهر. فالرجال والنساء، باستثناء أولئك المرضى، محرم عليهم أن يتناولوا طعاماً أو شراباً (وحتى أن يدخنوا) منذ اللحظة التي ينبثق فيها الفجر حتى اللحظة التي تغرب فيها الشمس: مدة ثلاثين يوماً. وفي إبان هذه الأيام الثلاثين كان الناس يتجولون في شوارع القاهرة بعيون متقدة مضيئة، كأنما سموا إلى مناطق مقدسة. وفي الليالي الثلاثين كنت تسمع طلقات المدافع والغناء،

وأصوات المرح، بينما تضيء المساجد بالأنوار حتى مطلع الفجر.

إن الغاية من شهر الصيام هذا، كما علمت، غاية مزدوجة. إن على الفرد، أولاً، أن يمتنع عن تناول الطعام والشراب حتى يشعر في جسمه هو بما يشعر به الفقراء والجائعون، وبهذا تثبت المسؤولية الاجتماعية في الوعي البشري كفرض ديني. وأما الغاية الثانية من الصيام في رمضان فهي ضبط النفس ـ وهي ناحية من نواحي أخلاق الفرد التي تشدد عليها التعاليم الإسلامية جميعاً (كما في التحريم الكلي، مثلاً، للمسكرات التي يعتبر الإسلام أنها سبيل سهل إلى الهرب من الوعي والمسؤولية). في هذين العنصرين ـ الأخوة الإنسانية وضبط الذات ـ بدأت أميز الخطوط الكبرى في استشراف الإسلام الأخلاقي.

وفي اجتهادي لأخذ صورة أكمل عما كان الإسلام يعنيه في الحق، أخذت فائدة كبرى من الإيضاحات والتفاسير التي تمكن من تزويدي بها بعض أصدقائي المسلمين القاهريين. وكان من أبرزهم الشيخ مصطفى المراغي، من أشهر علماء الإسلام في ذلك الوقت، وألمع علماء الجامع الأزهر، بما لا يقبل الشك (وقد قدر له أن يصبح شيخه بعد ذلك ببضع سنوات). ولا بدّ أنه كان في منتصف العقد الخامس من العمر في ذلك الحين، إلا أن جسمه الممتلىء العضلي كانت له خفة ابن عشرين وحيويته. وبالرغم من علمه وسعة اطلاعه ووقاره فإنه كان دائماً فكهاً وبشوشاً. وإذا كان الشيخ المراغي تلميذاً للمصلح المصري العظيم محمد عبده، ورافق في صباه تلك الجذوة المتقدة، جمال الدين الأفغاني، فقد كان هو نفسه مفكراً وناقداً ثاقب الرأي. إنه لم يتوان قط عن أن يشعرني بأن المسلمين في العهود الحديثة قد قصروا في الحق تقصيراً كبيراً عن مُثُل دينهم، وأن شيئاً لا يمكن أن يكون أكثر خطأً من قياس القوى والإمكانات في رسالة محمد بمقياس حياة المسلمين وتفكيرهم في الأيام الحاضرة.

قال: «تماماً مثلما يكون من الخطأ أن نرى في سلوك المسيحيين سلوكاً غير محب بعضهم نحو بعض، دحضاً لرسالة الحب التي جاء بها المسيح...».

بهذا الإنذار، عرفني الشيخ المراغي بالأزهر

دخلنا إلى صحن الجامع فوجدت التلاميذ، وكانوا يرتدون الجبات الطويلة السوداء ويضعون العمائم على رؤوسهم، جالسين على حصر من قش، يقرأون بأصوات منخفضة في كتبهم ومخطوطاتهم. وكانت المحاضرات تلقى في قاعة المسجد الكبرى حيث كان عدد من المدرسين يجلسون، على حصر كذلك تحت الدعامات التي كانت تقطع القاعة في صفوف طويلة. وفي شبه دائرة أمام كل مدرس

كان فريق من الطلاب يجلسون القرفصاء. ولم يكن المدرس ليرفع من صوته أبداً، وهكذا فقد كان واضحاً أن الانتباه والتركيز إلى أقصى الحدود كانا ضروريين بسبيل التقاط كل كلمة تخرج من فمه، وكان لا بدّ لي من الاعتقاد بأن مثل هذا الاستغراق من شأنه أن يفضي إلى المعرفة الحقيقية، ولكن الشيخ المراغي سريعاً ما بدد أوهامي إذ قال:

ـ «هل ترى إلى أولئك العلماء هناك؟ إنهم مثل تلك البقرات المقدسة في الهند، التي تلتهم، كما قيل لي، كل ما تستطيع العثور عليه في الشوارع من أوراق مطبوعة... أجل، إنهم يزدردون كل الصفحات المطبوعة من الكتب التي كتبت منذ قرون عديدة، ولكنهم لا يهضمونها. إنهم لم يعودوا يفكرون لأنفسهم. إنهم يقرأون ويرددون، يقرأون ويرددون ـ والتلاميذ الذين يصغون إليهم لا يتعلمون إلا أن يقرأوا ويرددوا، جيلاً بعد جيل».

وقاطعته قائلاً: «ولكن الأزهر، يا شيخ مصطفى، على كل حال، مركز العلوم الإسلامية وأقدم جامعة في العالم! إن المرء لتقع عينه على اسمه في كل صفحة تقريباً من التاريخ الإسلامي الثقافي. وما قولك بالمفكرين ورجال الدين والمؤرخين والفلاسفة والرياضيين العظام الذين أخرجهم الأزهر خلال القرون العشرة الأخيرة؟»

فأجابني بمرارة: «لقد انقطع عن إخراجهم منذ عدة قرون. لربما كان في هذا بعض المبالغة، ذلك أن مفكراً مستقلاً كان يظهر من الأزهر بين الحين والحين حتى في الأزمنة الحديثة. ولكن الأزهر، بصورة عامة، أصيب بالعقم الذي يشكو منه العالم الإسلامي كله اليوم، وانطفأت جذوته المتقدة. إن أولئك المفكرين المسلمين المتقدمين الذين ذكرتهم لم يحلموا قط بأن أفكارهم، بعد هذه القرون العديدة، بدلاً من أن تستمر وتنمو وتتطور، يقدر لها أن تعاد وتعاد، كأنما هي حقائق نهائية غير قابلة للخطأ. فلو أردنا أن نبدل حالتنا بأحسن منها، فإن علينا أن نشجع التفكير الحي بدلاً من تقليد ما سبق من الأفكار...».

ولقد ساعدني وصف الشيخ المراغي الحاسم للأزهر على أن أدرك سبباً من أعمق أسباب الانحطاط الثقافي الذي يبهر المرء في كل مكان في العالم الإسلامي. ألم يكن هذا التحجر العلمي لهذه الجامعة القديمة منعكساً، إلى درجات مختلفة في العقم الاجتماعي للحاضر الإسلامي؟ ألم تكن صورة هذا الركود العقلي لتوجد في الرضا الساكن الذي يكاد يكون متراخياً عديم الإحساس، من قبل هذا العدد الكبير من المسلمين لهذا الفقر غير اللازم الذي يعيشون فيه وباحتمالهم الأبكم لأنواع الأذى

الاجتماعي الكثيرة التي يتعرضون لها؟

وتساءلت في ذات نفسي: هل من العجيب، إذن، أن ينتشر في الغرب كله مثل هذا العدد الكبير من الآراء الخاطئة عن الإسلام نفسه، معززة بمثل هذه الأدلة المحسوسة عن انحطاط المسلمين؟ هذه الآراء الشائعة هناك يلخصها الغربيون على الوجه الآتي: إن سقوط المسلمين عائد قبل كل شيء إلى الإسلام الذي هو، بالنظر إلى كونه بعيداً جداً عن أن يكون مذهباً دينياً يضاهي المسيحية أو اليهودية، مزيج غير مقدس من الغلو الصحراوي والخرافة والقدرية الخرساء يحول بين أتباعه وبين الاشتراك في تقدم الإنسانية نحو الأنظمة الاجتماعية العليا، وبدلاً من أن يحرر الإسلام الروح الإنسانية من أغلال الإبهامية، تراه يحكم هذه الأغلال ويشدها. وهكذا يعتقد معظم الغربيين أنه كلما كان تحرير المسلمين من تعلقهم بالمعتقدات والعادات الاجتماعية الإسلامية أعجل وأقرب، وحملوا على أن يتبينوا الطريقة الغربية في الحياة، كان أفضل لهم ولسائر العالم...

وكانت ملاحظاتي الخاصة قد أقنعتني الآن بأن رأس الغربي العادي كان يحمل صورة مشوهة بالكلية عن الإسلام. إن ما رأيته في صفحات القرآن لم يكن نظرة عالمية «مادية» غير ناضجة، بل على العكس، وعياً للإله كثيفاً يعبر عن نفسه بتقبل عاقل للطبيعة التي هي من صنع الله: تلازم متناغم بين العقل والدافع الحسي، بين الحاجة الروحية والحاجة الاجتماعية. لقد كان واضحاً عندي أن تأخر المسلمين لم يكن ناجماً عن أي نقص في الإسلام، بل من عدم عملهم هم أنفسهم بتعاليمه.

ذلك أن الإسلام، في الحق، هو الذي حمل المسلمين الأولين إلى أعالي الذروات الثقافية بتوجيه طاقاتهم كلها نحو التفكير الواعي كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة خلق الله، وبالتالي لفهم إرادته. إن الإسلام لم يطلب إليهم قط أن يؤمنوا بعقائد يعسر أو يتعذر فهمها، والحق أنه ما من عقيدة كهذه يمكن أن توجد في رسالة النبي ﷺ: وهكذا فإن التعطش إلى المعرفة الذي تميز به تاريخ المسلمين الأول لم يحمل، كما حمل في سائر أنحاء العالم، على أن يؤكد ذاته في صراع مؤلم ضد الإيمان. وبالعكس، لقد انبثق من ذلك الإيمان وحده. لقد أعلن النبي العربي أن «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، وهكذا جعل أتباعه يفهمون أنهم باكتسابهم المعرفة فقط يتسنى لهم أن يعبدوا الله عبادة تامة. وعندما تدبروا قول النبي ﷺ: «ما خلق الله داء إلا وخلق له دواء» أدركوا أنهم بالبحث عن الأدوية المجهولة يسهمون في تحقيق إرادة الله على الأرض. وهكذا اكتسى البحث الطبي ثوب القداسة لكونه فرضاً دينياً.

لقد قرأ المسلمون الآية القرآنية الكريمة: ﴿وخلقنا من الماء كل شيء حي﴾. وفي محاولتهم للنفاذ إلى معنى هذه الكلمات بدأوا يدرسون الكائنات الحية وقوانين نموها، وهكذا أنشأوا علم البيولوجيا. لقد أشار القرآن إلى انسجام النجوم وحركاتها كشواهد على عظمة خالقها، ومن أجل ذلك اشتغل المسلمون بالعلوم الفلكية والرياضية بحمية واندفاع احتفظ بهما في الأديان الأخرى للصلاة وحدها. ونظام كوبيرنيكوس الذي أثبت دوران الأرض حول محورها ودوران الكواكب حول الشمس، انتشر في أوروبا في مطلع القرن السادس عشر (وقابله القسس بالسخط لأنهم رأوا فيه تناقضاً لتعاليم كتابهم المقدس الحرفية): ولكن أسس هذا النظام كانت قد وضعت في الحقيقة قبل ذلك بستمائة سنة، في البلدان الإسلامية. ذلك أن علماء الفلك المسلمين في القرنين التاسع والعاشر كانوا قد توصلوا إلى الاستنتاج أن الأرض كروية وأنها تدور حول محورها، كما قاموا بحسابات دقيقة لخطوط الطول وخطوط العرض، وكثير منهم تمسكوا ـ دون أن يتهموا بالكفر إطلاقاً ـ بأن الأرض تدور حول الشمس. وبالطريقة نفسها عكفوا على الكيمياء والفيزياء والفسيولوجيا وعلى سائر العلوم التي قدر للعبقرية الإسلامية أن تجد فيها أخلد آثارها. وهم في بنائهم ذلك الأثر لم يفعلوا أكثر من اتباع عظمة نبيهم في كثير من أحاديثه: «إن العلماء ورثة الأنبياء». وقال: «من خرج في سبيل العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع». وقال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة». وقال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». وفي رواية أخرى: «كفضلي على أدناكم».

وخلال المدة الإنشائية في التاريخ الإسلامي كلها ـ أي إبان القرون الخمسة الأولى التي تلت عصر النبي ﷺ ـ لم يكن للعلم والتعلم بطل أعظم من المدينة الإسلامية، ولا وطن آمن من الأراضي التي كانت تعلو فيها كلمة الإسلام.

كذلك تأثرت الحياة الاجتماعية بتعاليم القرآن. ففي الزمن الذي كان الوباء يعتبر في أوروبا المسيحية قصاصاً من الله لم يكن للإنسان إلا أن يخضع له بأناة وصبر ـ في ذلك الزمن، وقبله بوقت طويل، اتبع المسلمون وصية نبيهم التي أمرتهم بمحاربة الأوبئة بعزل البلدان والمناطق المصابة. وفي الزمن الذي كان الاستحمام يعتبر، حتى في نظر ملوك المسيحية وأشرافها، نعيماً ورفاهاً يكاد يكون شائناً معيباً، كان في بيوت المسلمين، حتى أفقرهم غرفة استحمام واحدة على الأقل، بينما كانت الحمامات العامة المتقنة شيئاً عادياً في كل مدينة إسلامية (في القرن التاسع مثلاً، كان

في قرطبة ثلاثمائة منها) وكل ذلك استجابة لقول النبي ﷺ: «النظافة من الإيمان». ولم يجد المسلم تعارضاً مع مطالب الحياة الروحية إذا ما استمتع بجمال الحياة المادية، ذلك أن النبي ﷺ قد قال: «إن الله يحب أن يرى في عبده أثراً من نعمته».

والخلاصة أن الإسلام قد حرص على النشاط الثقافي الذي يشكل صفحات من أنصع صفحات التاريخ الإنساني. لقد أعطى هذا المحرض بقوله: «نعم» للعقل و«لا» للإبهامية، «نعم» للعمل و«لا» للركود، «نعم» للحياة و«لا» للإماتة، وقهر الجسد لخلاص النفس. فليس عجيباً إذن، أن الإسلام، حالما انطلق خارج حدود جزيرة العرب، اكتسب أتباعاً جداً وأخذ الناس يدخلون فيه أفواجاً. ورأى سكان سوريا وشمالي أفريقيا، وسكان إسبانيا بعد ذلك بوقت قصير، أنفسهم فجأة تجاه دين ينكر مبدأ «الخطيئة الأولى» ويشدد على الكرامة الفطرية للحياة الأرضية الدنيوية، وهكذا التحقوا زرافات بالدين الجديد الذي علمهم أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض. هذا، «لا أسطورة التسليم بحد السيف» هو التفسير لانتصار الإسلام المدهش في فجر تاريخه العظيم.

لم يكن المسلمون هم الذين جعلوا الإسلام عظيماً: بل لقد كان الإسلام هو الذي جعل المسلمين عظماء. إلا أنهم ما إن أصبح إيمانهم عادة وانقطع عن أن يكون منهاجاً في الحياة يتبع بوعي وإدراك، حتى خبت تلك القوة الدافعة الخلاقة التي كانت من وراء مدينتهم وأفسحت المجال إلى الاسترخاء والعقم والانحطاط الثقافي.

هذا الإدراك الجديد الذي اكتسبت، والتقدم الذي كنت أتحقق به في اللغة العربية (كنت قد اتفقت مع تلميذ أزهري على أن يعطيني دروساً يومية) جعلاني أشعر أنني الآن، أخيراً، كنت أملك ما يشبه المفتاح إلى التفكير الإسلامي. إن هذا العالم الإسلامي لم يعد يبدو لي الآن غريباً وبعيداً بالكلية عن المشاركات الغربية. ولقد خطر لي أنه لو كان باستطاعة المرء أن يتحقق بدرجة معينة من الانفصال عن عاداته الماضية الخاصة في التفكير، وأن يعتقد بأنه من الممكن أن لا تكون وحدها الصحيحة، إذن لأصبح العالم الإسلامي الذي كان غريباً في وقت مضى، قابلاً للفهم والإدراك...

ولكن بالرغم من أنني وجدت في الإسلام أشياء كثيرة راقت لتفكيري، وغرائزي أيضاً، فإني لم أجد أنه من المستحب لرجل فطن عاقل أن يمثل في جميع تفكيره ونظرته كلها إلى الحياة، إلى نظام لم يستنبطه هو نفسه.

قلت لصديقي اللوذعي الشيخ المراغي في إحدى المناسبات: «قل لي، يا شيخ مصطفى، لماذا يجب أن يكون من الضروري للمرء أن يقتصر على تعليم واحد معين وعلى مجموعة واحدة معينة من الوصايا؟ ألا يمكن أن يكون من الأفضل له أن يترك كل إلهام أخلاقي لصوته الداخلي؟»

فأجاب: «إن ما تقوله في الحقيقة، يا أخي الشاب، هو لماذا يجب أن يكون هناك أي دين نظامي. والجواب بسيط: إن عدداً قليلاً جداً من الناس ـ الأنبياء وحدهم ـ قادرون حقيقة على أن يفهموا الصوت الداخلي الذي يتكلم في ذواتهم. إن معظمنا مقيدون بالمصالح والرغبات الشخصية ـ ولو قدر لكل واحد منا أن يتبع بما يمليه فؤاده فحسب، إذن لسادت بيننا الفوضى الأخلاقية سيادة تامة، ولما استطعنا قط أن نتفق على أي طريقة من طرائق السلوك. إنك تستطيع أن تسأل، طبعاً، ما إذا لم يكن هناك شذوذ لهذه القاعدة العامة ـ أعني أناساً متنورين يشيرون بأنهم ليسوا بحاجة إلى أن «يرشدوا» في ما يعتبرونه حقاً أو باطلاً. ولكنني عندئذ أسألك بدوري: ألا يمكن لكثير: وكثير جداً، من الناس أن يدّعوا هذا الحق الاستثنائي لأنفسهم؟ وماذا تكون النتيجة؟»

* * *

وهكذا تابعت سرد قصة سبيلي إلى الإسلام على منصور: «لقد تكشف لي الإسلام، إذن، رويداً رويداً. . . من حديث هنا وكتاب هناك، من نظرة هنا وملاحظة هناك ـ بروية وبطء إلى درجة لم أشعر معها بهذا التكشف. . .».

ـ ٢ ـ

وعندما نزلنا في البر لقضاء الليل، بدأ زيد في إعداد الخبز، وجلسنا بعد أن انتهى منه وأخذنا نأكله مع الزبدة والتمر. وأستطيع أن أقول إنه ليس في العالم خبز ألذ من خبز صنع في البر.

ولقد شبع منصور، كما شبعنا أنا وزيد، ولكنه لم يكن قد أرضى فضوله بعد. ذلك أنه استمر، أثناء جلوسنا حول النار، يمطرني بالأسئلة عن كيفية اعتناقي الإسلام آخر الأمر ـ وبينما كنت أحاول أن أفسر ذلك له، عجبت لمقدار الصعوبة في التعبير، بكلمات، عن الطريق الطويل الذي قطعته إلى الإسلام.

ـ «ذلك أن الإسلام، يا منصور، قد دخل إلى نفسي كما يدخل السارق خلسة إلى البيت دونما صوت أو جلبة: إلا أنه يختلف عن السارق من حيث إنه قد دخل إلى نفسي ليبقى هناك إلى الأبد. ولكن لقد أنفقت سنين عديدة قبل أن أكتشف أنني سأصبح مسلماً...».

وإذ فكرت في تلك الأيام الماضية التي أنفقتها في رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط ـ عندما بدأ الإسلام يحتل تفكيري بصورة جدية ـ خيل إليَّ أنني كنت حتى في ذلك الحين واعياً أنني كنت أتابع رحلة استكشافية. في كل يوم كانت هناك انطباعات جديدة، وفي كل يوم كانت تنشأ في ذاتي أسئلة جديدة فأجد عنها أجوبة جديدة من الخارج، كانت توقظ صدى لشيء كان قد خبيء في مكان ما في مؤخرة ذهني. وإذ زادت معرفتي بالإسلام، شعرت، مرة بعد مرة، أن حقيقة كنت أعرفها دائماً، دون أن أشعر بذلك، كانت تتكشف لي وتثبت لديّ بصورة تدريجية.

في أوائل صيف عام ١٩٢٤، خرجت من القاهرة في تجوال طويل كان من المقدر له أن يستغرق سنتين. وقضيت عامين اثنين تقريباً في الارتحال عبر بلدان عريقة في تاريخها ولكنها جديدة في تأثيرها على ذهني. كنت أسافر ببطء، وأتوقف فترات طويلة. لقد زرت شرق الأردن ثانية، وقضيت بضعة أيام مع الأمير عبد الله أستمتع بتلك الأرض البدوية التي كانت لا تزال على فطرتها ولم تكن قد أجبرت بعد على أن تغير من صفتها بتأثير العوامل الغربية.. ولما كانت صحيفة فرانكفورتر تزايتونغ قد حصلت لي هذه المرة على تأشيرة فرنسية فقد استطعت أن أرى سوريا للمرة الثانية. وأتيت إلى دمشق ثم ذهبت. واحتوتني حيوية بيروت بعض الوقت، وسريعاً ما نسيتها في وسن طرابلس الشام المتطرف وسعادتها الصامتة. كانت السفن الشراعية الصغيرة ملقية مراسيها في الميناء المفتوحة، وصواريها تصرف صريفاً ناعماً. وعلى كراسي واطئة دون مساند، أمام مقهى على رصيف الميناء، جلس الطرابلسيون يحتسون قهوتهم ويدخنون النارجيلة في شمس الأصيل. في كل مكان سلام ورضاء وما يكفي للشبع، وحتى الشحاذون أنفسهم كانوا يتمتعون بدفء الشمس، كأنما يقولون: ما أحسن أن يكون الإنسان شحاذاً في طرابلس!»

ووصلت إلى حلب، فذكرتني أبنيتها وشوارعها بالقدس. ولكن حياة حلب الداخلية كانت تختلف تمام الاختلاف عن حياة القدس. كانت التيارات القومية المتنافرة تطغى على حياة القدس، كتشنج مؤلم معقد. فعلى أنقاض عالم من التفكر والانفعال الديني العميق تولدت، كغمامة من السم، كراهية غامضة استبدت بالناس

والأشياء جميعاً. ولكن حلب ـ بالرغم من كون سكانها مزيجاً من العرب والأرمن ـ مع لمحة من تركيا المجاورة ـ كانت متناغمة، هادئة. كانت بيوتها، بواجهاتها الحجرية، وشرفاتها الخشبية، حية حتى في هدوئها. كما أن إقبال الصناع في أسواقها القديمة على أعمالهم إقبالاً هادئاً، وساحات الخانات الكثيرة، بأروقتها الكثيرة المليئة ببالات البضائع، والاقتصاد إلى جانب الجشع المرح، الخاليين معاً من كل حسد، وانعدام كل تعجل، والطمأنينة التي كانت تلف الغريب وتجعله يتمنى لو أن حياته نفسها كانت مطمئنة آمنة، كل ذلك يسيل معاً في لحن قوي، أخاذ.

ومن حلب ذهبت بالسيارة إلى دير الزور وهي بلدة صغيرة في الشمال الأقصى من سوريا، ومن هناك قصدت أن أسافر إلى بغداد على طريق القوافل القديم المحاذي لنهر الفرات، وإنما في تلك الرحلة لقيت زيداً لأول مرة.

وبخلاف طريق دمشق ـ بغداد، التي كثيراً ما قطعتها السيارات منذ عدة أعوام، فقد كان الطريق على طول الفرات غير معروف جيداً في ذلك العام ١٩٢٤. والواقع أن سيارة واحدة فقط قطعتها قبلي منذ بضعة شهور. ولم يسبق قط لسائق سيارتي الأرمني أن ذهب إلى أبعد من دير الزور، ولكنه كان واثقاً من أنه يستطيع أن يجد طريقه بصورة ما. ومهما يكن، فقد شعر بالحاجة إلى مزيد من المعلومات الملموسة، وهكذا ذهبنا معاً إلى السوق للسؤال عنها.

وكانت سوق دير الزور ممتدة من أول البلدة إلى آخرها، كما كانت دير الزور نفسها بلدة سورية قروية وحاضرة بدوية، على أنها كانت أقرب إلى الثانية منها إلى الأولى، إن عالمين اثنين قد التقيا هناك بصورة غريبة، لا أثر فيها للتكلف والتصنيع، ففي إحدى المتاجر كانت تباع بطاقات البريد المصورة الحديثة المطبوعة طبعاً رديئاً، في حين كان عدد من البدو يتكلمون بجواره عن الأمطار في البر وعن الخصومات الجديدة بين القبيلة السورية بِشر وقبيلة شمر في العراق. وذكر أحدهم الغزوة التي شنّها الزعيم النجدي، فيصل الدويش، منذ وقت قصير، داخل العراق الجنوبي، وكثيراً ما أتوا على ذكر «رجل الجزيرة العظيم» ابن سعود.

كانت البنادق القديمة التي تحشى من الفوهة، ذات الأسطوانات الطويلة والبنادق المطعمة بالفضة ـ البنادق التي توقف الكل عن ابتياعها، مؤثرين عليها البنادق الحديثة الآلية الأكثر فعالية ـ تخلق وجوداً حياً حالماً بين الجلابيات المستعملة من قارات ثلاث، وشدود الهجن النجدية، ودواليب جوديير، والمصابيح من لايبزغ، والعباءات البدوية البنية من الجوف. غير أن البضائع الغربية لم تبد غريبة وسط

البضائع القديمة، ذلك أن فوائدها قد جعلتها ذات أهمية طبيعية. وكان يبدو أن البدو، بما فطروا عليه من شعور يقظ بالحقيقة، يعتادون هذه الأشياء كلها التي كانت حتى الأمس بعيدة عن معرفتهم، ويستعملونها دون أن يخلفوا عهدهم مع ذواتهم القديمة، هذا الاستقرار الداخلي، كما فكرت، يجب أن يسبغ عليهم القوة على احتمال بداءة العهد الجديد، ولربما دون أن يرزحوا تحتها ـ ذلك أنها كانت الآن تقترب من هؤلاء الناس الذين كانوا حتى الأمس القريب منعزلين إلى أبعد الحدود: ولكن طرقها لم يكن طرقاً عدوانياً على بابهم، ذلك أنهم تقبلوا كل تلك الجدة بفضول بريء، وقلبوها بين أصابعهم، إذا صح التعبير، من جميع النواحي، متفكرين بفوائدها الممكنة. ما أقل ما أدركت عندئذ استطاعة «الجدة» الغربية أن تفعل للبدو، البسطاء، الأميين.

وبينما كان سائق سيارتي الأرمني يتقصى المعلومات من جماعة البدو شعرت بشخص يجذب كمي جذبة عنيفة فاستدرت ورأيت أمامي عربياً وسيماً قاسي الملامح في أوائل العقد الرابع من عمره.

وقد وجه إليّ الحديث بصوت متمهل أجش فقال: «عن إذنك يا أفندي، سمعت أنك مسافر بالسيارة إلى بغداد وأنك لست على ثقة من معرفتك بالطريق. دعني أذهب معك فقد يكون بوسعي أن أساعدك».

وأجبت الرجل حالاً وسألته من يكون.

أجاب: «أنا زيد بن غانم. إنني أخدم في العقيل في العراق».

ولم ألاحظ إلا ساعتئذ لون زبونه الخاكي والنجمة ذات السبعة الرؤوس، وقد كانت شعار شرطة الصحراء في الجيش العراقي، على عقاله الأسود. هذا النوع من الجيش، المعروف بـ «عقيل»، كان موجوداً في عهد الأتراك: عبارة عن فرقة من المتطوعين معظمهم من أواسط جزيرة العرب، الذين كانت السهول الصحراوية مواطنهم والهجن أصدقاءهم. إن دماءهم المتعطشة للمغامرات أخرجتهم من بلادهم القاسية الصارمة إلى عالم فيه مال أكثر، وحركة أعظم، وتبدل أزيد بين اليوم والغد.

وأعلمني زيد أنه كان قد حضر إلى دير الزور صحبة أحد ضباطه في مهمة تتعلق بإدارة الحدود السورية ـ العراقية. وفي حين أن الضابط قد عاد إلى العراق فقد بقي زيد لإنجاز شأن من شؤونه الخاصة، وهو يفضل الآن أن يعود معي على أن يسلك طريق دمشق التي كانت معروفة أكثر من طريق الفرات، إلا أنها أكثر التفافاً وطولاً. وقد اعترف لي صراحة أنه لم يسبق له أن سافر على الطريق المحاذية للفرات، وأنه

يعرف، كما أعرف أنا تماماً، أن النهر لن يكون دليلنا دائماً بالنظر إلى تشعب الطريق والتواءاتها ـ وأضاف قائلاً: «ولكن. . . إن الصحراء هي الصحراء، والشمس والنجوم هي نفسها وإن شاء الله سنجد طريقنا». لقد أعجبتني ثقته بنفسه، ولذلك وافقت مسروراً على أن أصحبه معي.

وفي الصباح التالي غادرنا دير الزور وراحت سيارتنا من طراز فورد تنهب صحراء حمادة الكبرى: سهل لا نهاية له من الحصباء، ناعم ومستو أحياناً كالإسفلت، وأحياناً أخرى يمتد في تموجات من الأفق إلى الأفق. وكان الفرات يظهر لنا أحياناً إلى يسارنا، موحلاً، هادئاً، ذا ضفاف منخفضة: فتظنه بحيرة صامتة، إلى أن تقع عينك فجأة على زورق أو قطعة مسرعة من الخشب، وعندئذ تتضح لك قوة التيار. كان نهراً عريضاً، ملكياً. لم يحدث أيما صوت، ولم يكن مُلاعباً، ولم يندفع، ولم يرش بمائه اليابسة، بل جرى، وانحدر دونما أغلال، مختاراً طريقه التي شاءها في انعطافات لا تحصى، هابطاً منحدر الصحراء الطفيف الذي لا يكاد يدرك، نداً ضمن ند، متشامخاً ضمن متشامخ: ذلك أن الصحراء كانت بعيدة الانتشار، قوية، هادئة، كالفرات سواء بسواء.

وجلس رفيقنا الجديد، زيد، إلى جانب السائق، وكانت إحدى رجليه متدلية فوق باب السيارة، وفي قدمه جزمة طويلة جديدة لماعة من جلد السختيان ابتاعها في اليوم السابق من سوق دير الزور.

وكنا أحياناً نصادف ركاب جمال يظهرون لنا فجأة من وسط الصحراء، وكانوا يتوقفون لحظة ويحدقون إلى السيارة، ثم يسيرون ثانية بجمالهم ويختفون، وكان واضحاً أنهم من رعاة الإبل لوّحت الشمس وجوههم وخلعت عليها لوناً برنزياً عميقاً، وكان نهر الفرات قد اختفى وراء الأفق ورأينا الرمال قد ذرتها الرياح بقوة، ورقعات واسعة من الحصى، وهنا وهناك باقات من العشب، أو عليقة من العليقات. وإلى يميننا تبدت لنا فجأة سلسلة من التلال المنخفضة، عارية متشققة تحت الشمس المحرقة، فحجبت لا نهائية الصحراء. ولم يكن للمرء بد من أن يسائل نفسه محتاراً: «ماذا يمكن أن يكون هناك، وراء تلك السلسلة الضيقة من التلال؟» وبالرغم من أن المرء كان يعرف أن الصحراء المستوية أو الأكمة نفسها، والرمل نفسه، والحصباء نفسها، كانت هناك، وراء التلال، فإن نفحة من الغموض والإبهام كانت هنالك، في الهواء: «ماذا يمكن أن يكون هناك؟» وظل الجو دونما جواب أو صدى، ولم يعكر هدوء الأصيل المتموج أي صوت إلا هدير محركنا، وحفيف الدواليب فوق الحصباء.

هل هوت حافة العالم هناك في حفرة قديمة فطرية؟ لأنني لم أكن أعلم، كان المجهول هناك. ولأنني قد لا يقدّر لي أن أعلم، كان هناك المجهول الذي لا يمكن أن يعلم.

وبعد الظهر اكتشف سائقنا أنه كان قد نسي أن يتزود بالماء لتبريد محرك السيارة في آخر خان لمبيت القوافل توقفنا عنده. وكان النهر بعيداً جداً، وكانت الآبار تبعد عنا أميالاً عديدة. ومن حولنا، حتى الأفق المتموج، نبت سهل خال، حار، طبشوري، وهب فوقه نسيم عليل حار، قادماً من لا مكان، وذاهباً إلى لا مكان، دونما بداية ودونما نهاية، دندنة مكتومة من الأبدية نفسها.

وقال السائق، وكان كسائر الشرقيين يترك دائماً الأمر للظروف (وهي صفة كنت أحبها فيهم ـ ولكن ليس في تلك اللحظة): «آه، حسناً ومع ذلك فسنصل إلى مبيت القوافل التالي».

ولكن الظاهر أننا لم نكن لنستطيع أن نصل إليه «مع ذلك». كانت الشمس تتقد، وغلى الماء في جهاز التبريد شأنه في إبريق الشاي. ولقينا رعاة الإبل كرة أخرى. هل هناك ماء؟ كلا... بل على مسير خمس عشرة ساعة على ظهور الجمال!

وسأل الأرمني في يأس: «وماذا تشربون أنتم؟»

فضحكوا وقالوا: «إننا نشرب حليب النياق!» ولا بدّ أنهم قد عجبوا في سرهم من هؤلاء القوم السخفاء في عربتهم الشيطانية السريعة كيف يسألون عن الماء ـ في حين أن كل طفل من أطفال البدو كان بإمكانه أن يقول لهم إنه ليس في تلك الأصقاع أية قطرة من الماء.

وبدا المستقبل سيئاً: هل نبقى هنا في الصحراء والمحرك لا يدور، دونما ماء أو طعام، ننتظر مجيء سيارة أخرى ـ لربما غداً، أو بعد غد ولربما بعد شهر...؟

وبمرور الوقت بدأ السائق يفقد ابتسامته، فأوقف السيارة ورفع غطاء جهاز التبريد فانفجر البخار الأبيض الكثيف في الهواء. وقد كان في زمزميتي بعض الماء، فضحيت به لآلة المحرك، وأضاف السائق إليه بعض الزيت، وهكذا استطاعت سيارتنا الشجاعة أن تسير بنا فترة من الوقت.

وقال السائق المتفائل: «أعتقد أننا قد نجد ماء هناك إلى يميننا، إن تلك التلال لتبدو شديدة الاخضرار ـ والذي يخيل إليّ أن هناك بعض العشب، وفي حيثما ينبت العشب في هذا الوقت من السنة، عندما لا تهطل الأمطار، يجب أن يوجد الماء. وإذا

كان هناك ماء، فلم لا نقود السيارة باتجاه التلال، ونأخذ حاجتنا منه؟»

وهكذا تركنا الطريق وسرنا بضعة أميال نحو التلال: ولكن لم يكن هناك ماء. . . فالمنحدرات لم تكن مغطاة بالعشب بل بالحجارة الخضراء.

كان هناك أزيز في المحرك، وكانت المكابس تضرب محدثة صوتاً مبحوحاً، وكان الدخان يتسرب بطبقات داكنة، من شقوق الغطاء. دقائق قليلة، وينقلع شيء ما! ولكننا هذه المرة قد بعدنا كثيراً عن طريق القوافل. ولو حدث الآن شيء ما، فإننا يجب أن نبقى هنا في هذه العزلة عاجزين عن صنع أي شيء. ولقد استنفدنا كل ذخيرتنا من الزيت تقريباً لتبريد الجهاز، وكأنما أصابت الأرمني نوبة من الهستيريا، فكان «يبحث عن الماء» قائداً سيارته تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، يدور ويلف كالممثل في ساحة السيرك، ولكن الماء رفض أن يظهر، ولم تنفع كثيراً قنينة الكونياك التي تنازلت عنها متنهداً، فضلاً عن أنها غلفتنا بغمامة من البخار الكحولي جعل زيداً (الذي لم يذق في حياته طعم الخمر طبعاً) يكاد يتقيأ.

وقد أخرجه ذلك الحادث الأخير من سباته العميق الذي كان متردياً فيه كل ذلك الوقت، وبحركة غاضبة سحب كوفيته فوق عينيه واتكأ على حافة السيارة الحارة، وبدأ يجيل بصره في أرجاء السهل الصحراوي، متطلعاً، بتركيز حذر كثيراً ما يتميز به الناس الذين يعيشون في العراء، والذين اعتادوا الاعتماد على حواسهم. وانتظرنا بشوق وفضول دونما كبير أمل، ذلك أنه كما كان قد أخبرنا من قبل، لم يسبق له أن جاء هذه الأصقاع قط. ولكن أشار بيده نحو الشمال وقال:

ــ «هناك».

وكانت الكلمة بمثابة الأمر. وإذ سر السائق أن وجد أخيراً من يخلصه من المسؤولية فقد أطاع حالاً. وهكذا سارت بنا السيارة لاهثة نحو الشمال، ولكن زيداً رفع نفسه بعض الشيء ثم وضع يده على ذراع السائق، وأمره بالوقوف. واستمر زيد جالساً فترة من الوقت حانياً رأسه إلى الأمام مثل كلب من كلاب الصيد.

وما لبث زيد أن هتف: «لا. . . اتجه إلى هناك!» مشيراً نحو الشمال الشرقي. «أسرع!» ومرة ثانية أطاع السائق دون أن ينبس ببنت شفة. وبعد دقيقتين: «قف!»، وقفز زيد بخفة من السيارة، وجمع عباءته بكلتا يديه وركض إلى الأمام في خط مستقيم، ثم توقف واستدار بضع مرات كأنما يفتش أو يصغي بانتباه، وللحظات طويلة نسيت المحرك والمأزق الذي كنا فيه وبقيت مسحوراً بالنظر إلى رجل يجهد أعصابه

كلها لمواجهة الطبيعة . . . وفجأة، شرع يبتعد بقفزات طويلة واختفى في تجويف بين رابيتين. وبعد لحظة ظهر ثانية ولوح لنا بيديه:

ــ «ماء!»

وركضنا إليه، وهناك وجدنا الماء: ففي تجويف تحميه من الشمس صخور متدلية لمعت بركة صغيرة من الماء. . . من بقايا أمطار الشتاء الماضي. كان لونه بنياً أصفر، وكان موحلاً ولكنه كان مع ذلك ماء، ماء! إن غريزة صحراوية لا يدركها من لم يؤتها أظهرت وجود الماء لهذا الرجل النجدي. . .

وبينما انصرفت والسائق إلى جرف الماء وتعبئته في صفائح البنزين الفارغة وحمله إلى المحرك، كان زيد يخطر مبتسماً، هو البطل الصامت، جيئة وذهاباً بجانب السيارة.

* * *

وعند ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى أول قرية عراقية، عانه، على الفرات، وسرنا ساعات بين حدائق النخيل والجدران الطينية. كان هناك كثير من أفراد العقيل التابعة للجيش العراقي، ومعظمهم، كما قال لنا زيد من قبيلته شمر. كانوا يخطون خطوات واسعة في ظلال النخيل وبين جياد ناعمة الملمس كان ينعكس عليها نور الشمس الأخضر المصفى: ملوك عامرة بالفضل والتلطف. وقد حنى زيد رأسه لبعضهم، فاهتزت ضفائره الطويلة السوداء على كل من جانبي وجهه. فبالرغم من حياته القاسية في الصحراء، وبالرغم من حرارتها المحرقة، كان زيد شديد الحساسية حتى أنه ربط كوفيته حول فمه طيلة مسيرنا السريع فوق الطريق القروية كيما يتفادى ابتلاع الغبار، الغبار الذي لم يزعجنا نحن أبناء المدن المرفهين. وعندما سرنا فوق الحصباء كرة أخرى ولم يبق هناك غبار، رمى بكوفيته إلى الوراء بحركة أنثوية رشيقة وشرع يغني. لقد فتح فمه فجأة وأنشد قصيدة نجدية رتيبة اللحن، لحنها يسيل كنسيم الصحراء من لا مكان، إلى لا مكان.

ولما وصلنا إلى القرية التالية، طلب زيد إلى السائق أن يتوقف، ثم قفز من السيارة، وشكرني على سماحي له بمرافقتي وعلق بندقيته على ظهره واختفى بين النخيل. وفي السيارة بقيت رائحة دونما اسم، رائحة إنسانية كاملة في ذاتها: ذكرى متموجة لبراءة الروح التي نسيتها منذ وقت طويل، دون أن ينساها فؤادي أبداً. . .

في ذلك اليوم لم أظن أنني سألتقي زيداً ثانية. . . ولكن الأمور جرت على غير ذلك النحو. . .

* * *

وعند ظهر اليوم الخامس من رحلتي بالسيارة من حلب وقعت عيني لأول مرة على واحة بغداد الواسعة، ومن بين تيجان ألوف النخل لمعت قبة مسجد مذهبة، ومئذنة عالية. وعلى كل من جانبي الطريق ربضت مقبرة قديمة تحطمت بلاطات أضرحتها، جرداء، مهجورة. كان الغبار الأشهب الدقيق قد استوى فوقها، وفي نور الظهيرة القاسي كانت تلك الشهبة المغبرة أشبه بحجاب مطرز بالفضة، فاصل مظلم بين عالم الماضي الميت والحاضر الحي. وفكرت في ذات نفسي أن هكذا يجب أن تكون الحال دائماً، عندما يقترب المرء من مدينة يختلف ماضيها عن حاضرها اختلافاً بيناً لا يستطيع معه العقل أن يحيط بالفرق. . .

ثم غبنا في صميم النخيل، ميلاً بعد ميل من الجذوع الهائلة والسعف الملتوية، إلى أن انقطعت فجأة جنائن النخيل عند ضفة دجلة. كان دجلة، بخلاف الفرات، موحلاً، ثقيلاً، ذا خرير، كالأجنبي الدخيل بعد جريان ذلك النهر الآخر، الصامت، الملكي. وبعد أن قطعناه فوق جسر متحرك، أطبقت علينا حرارة الخليج الفارسي.

لم يبق من بغداد شيء من روعتها وعظمتها الماضيتين، ذلك أن غزوات المغول في العصور الوسطى قد دمرت المدينة تدميراً كاملاً بحيث لم يبق فيها ما ذكر بعاصمة هارون الرشيد القديمة. إن ما بقي من بغداد لم يكن سوى مدينة موحشة كئيبة من مساكن بنيت اعتباطاً من الطوب، ويكاد يخيل للمرء أن ما يراه تدبير مؤقت، بانتظار تبدل ممكن الوقوع. والحق أن مثل هذا التبديل كان آخذاً في الحدوث بشكل حقيقة سياسية جديدة. لقد بدأت المدينة تتململ، وكانت البيوت الجديدة آخذة في النهوض. ومن مركز ريفي ناعس للإدارة التركية، كانت حاضرة عربية آخذة في الانبثاق شيئاً فشيئاً.

وكانت آثار الحر الشديد ظاهرة على كل شيء. فالحركة بطيئة فاترة، وكان الناس يسيرون ببطء خلال الشوارع. لقد بدأوا وكأنهم ذوو دماء ثقيلة، فاقدي الحبور. وكانت وجوههم تعلوها الكآبة من تحت كوفياتهم المنقطة بالأبيض والأسود. وكلما وقع نظرك على وجه عربي وسيم يوحي بالأنفة والعزة، فقد كنت ترى دائماً،

فوق رأس صاحبه، كوفية منقطة بالأبيض والأحمر، مما كان يعني أن الرجل لم يكن من هنا، بل من الشمال، أو من الصحراء السورية أو من أواسط جزيرة العرب.

ولكن قوة كبرى كانت ظاهرة لدى هؤلاء الرجال: قوة الكراهية، كراهية الدولة الأجنبية التي كانت تنكر عليهم حريتهم. لقد كان الحنين إلى الحرية ولا يزال، يلازم أهالي بغداد كأنما هو شيء يملك عليهم أنفسهم. ولعل هذا الحنين هو الذي كان يظلل وجوههم بالغم والكآبة، بل لعل هذه الوجوه كانت ترتدي منظراً يختلف كل الاختلاف عندما كانت تلقى أهلها في الأزقة الجانبية الضيقة وساحات المدينة المسورة. ذلك أنك إذا أنعمت النظر فيهم عن كثب، تبين لك أنهم لم يكونوا خالين من الفتنة. لقد كان أهالي بغداد يضحكون أحياناً كما يضحك غيرهم من العرب، وكانوا، أحياناً، يجرون وراءهم، كغيرهم من العرب، أذيال عباءاتهم في التراب برصانة الملوك، كأنما يمشون على أرض مرصوفة في قصور رخامية. كانت نساؤهم تخطر في الشوارع في دثر موشاة متعددة الألوان: نساء عزيزات محجبات في ثيابهن الحمراء والسوداء، والفضية الزرقاء، والحمراء، جماعات من الصور الموشاة تنسلّ ببطء على أقدام لا حس لها ولا صوت.

* * *

بعد بضعة أسابيع من وصولي إلى بغداد، وبينما كنت أتمشى في السوق الكبرى، سمعت صرخة من إحدى الممرات المعتمة. ومن خلف زاوية ما ركض رجل، ثم تبعه ثان فثالث، وأخذ الناس في السوق يتراكضون كأنما استولى عليهم رعب عرفوا هم، لا أنا، سببه. أصوات حوافر جياد: ورمح وفارس على وجهه أمارات الذعر بين الجماهير، وازداد عدد الراكضين، وكانوا كلهم قادمين من جهة واحدة يدفعون معهم المشترين في السوق. وبدأ الحشد يتدافع إلى الأمام، ووضع أصحاب الدكاكين، مذعورين، الألواح الخشبية أمام دكاكينهم. لم يتكلم أحد، ولم يناد أحد الآخر، ولم تكن تسمع إلا بين الفينة والأخرى صرخات الناس وهم يسقطون، وعويل طفل صغير ينبعث من مكان ما . . .

ما حدث؟ لا جواب. وجوه شاحبة في كل مكان. واندفعت إلى الزقاق الضيق عربة ثقيلة، كانت لا تزال نصف محملة بالبالات، ودونما سائق يوقف جيادها الرامحة. وفي مكان ما عن بعد، وقعت على الأرض وتحطمت كومة من الآنية الخزفية، واستطعت أن أسمع بوضوح إلى الشظايا تتدحرج على الأرض. وإلى جانب

هذه الأصوات المنعزلة ووطء أقدام الناس، كان هناك صمت عميق، كذلك الصمت الذي يرين أحياناً عند بدء الهزة الأرضية. لم يكن يسمع سوى أصوات الأقدام الراكضة، كانت تنبعث من بين الجماهير المتدافعة السائلة صيحة امرأة أو زعقة طفل. مرة أخرى بعض الفرسان. ذعر وهرب وصمت، اضطرابٌ مجنون عند مفارق الشوارع المسقوفة!

وإذ علقت بين الحشد عند أحد هذه المفارق، فإنني لم أعد أستطيع أن أتحرك إلى الأمام أو إلى الوراء. والحق أنني لم أعرف إلى أين أذهب. وفي تلك اللحظة شعرت بشخص ما يمسك بذراعي: والتفت فإذا هو زيد يسحبني نحوه وإلى خلف حاجز من البراميل بين متجرين.

وهمس في أذني قائلاً: «لا تتحرك».

وأزّ بالقرب منا شيء ما. رصاصة بندقية؟ مستحيل. . .

ومن مكان بعيد جداً، من مكان ما في أعماق السوق، سمعنا أصواتاً كثيرة. ومرة أخرى سمعنا أزيزاً وطنيناً، وهذه المرة لم يعد بالإمكان الشك: فقد كان صوت رصاصة. . . ومن بعيد أيضاً سمعنا صوتاً خافتاً مجلجلاً، كأنما كان أحد الناس ينثر حبات من الحمص اليابس على أرض غرفة قاسية. لقد تقدم الصوت ببطء وأخذت تلك الجلجلة المنتظمة تعلو وتتضح: وعندئذ عرفت مصدرها: المدافع الرشاشة. . .

مرة أخرى، كما فعلت مرات عديدة في السابق، هبت بغداد ثائرة. ذلك أنه في اليوم السابق، التاسع والعشرين من شهر أيار سنة ١٩٢٤، صدق البرلمان العراقي، ضد إرادة الشعب، على معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى، وها هي ذي الآن أمة يائسة تحاول أن تدافع عن نفسها ضد صداقة دولة أوروبية عظمى. . .

وقد عرفت في ما بعد، أن جميع مداخل الأسواق قد أقفلت من قبل الجنود البريطانيين لقمع التظاهرة، وأن كثيراً من الناس قد قتلوا ذلك اليوم من جراء إطلاق النار في السوق دونما تمييز. ولولا زيد. إذن لكان من المحتمل أن أركض رأساً باتجاه نيران المدافع الرشاشة.

هكذا كانت البداية الحقيقية لصداقتنا. لقد أعجبتني في زيد شهامته إلى حد بعيد، وهو، من جانبه، قد أحب بصورة واضحة ذلك الأوروبي الشاب الذي لم يكن يحمل في نفسه أيما تعصب ضد العرب وضد طريقتهم في الحياة. لقد أخبرني بقصة حياته البسيطة: كيف أنه، وأبوه من قبله، قد ترعرع في خدمة حكام حايل، سلالة

ابن الرشيد الشمرية، وكيف أن كثيراً من رجال قبيلة شمر، بما فيهم زيد، عندما استولى ابن سعود على حايل عام ١٩٢١ وأصبح آخر أمير رشيدي أسيراً لدى ابن سعود، تركوا وطنهم، مفضلين المستقبل القلق على الخضوع للحاكم الجديد. وها هو زيد الآن يضع النجمة العراقية ذات السبعة الرؤوس على عقاله، ويستبد به الحنين إلى أرض صباه.

وفي إبان الأسابيع التي قضيتها في العراق كنا كثيراً ما نلتقي، كما أننا بقينا على اتصال طيلة السنوات التي تلت. لقد كتبت إليه مراراً، وكنت مرة أو مرتين في السنة أبعث إليه بهدية صغيرة أشتريها من أسواق إيران أو أفغانستان. وفي كل مرة كان يجيب بخطه الرديء الذي لا يكاد يقرأ مستعيداً الأيام التي أنفقناها معاً راكبين على ضفاف الفرات أو في زيارة الأسود المجنحة في أطلال بابل. وأخيراً عندما أتيت إلى الجزيرة العربية في سنة ١٩٢٧، طلبت إليه أن يلازمني ففعل في السنة التي تلتها، ولا يزال منذ ذلك الحين رفيقي وصديقي بأكثر مما هو خادمي.

* * *

وبينما كنت أستعيد ذكريات الحوادث التي مرّت بي منذ سنوات ثمان، أخذ الظلام في الهبوط تدريجياً.

ـ «لقد آن أوان صلاة العشاء»، قال زيد وهو يحدق في السماء المظلمة. ووقفنا في صف واحد لأداء آخر صلاة من صلوات النهار، مولين وجوهنا، نحن الثلاثة، شطر مكة: زيد ومنصور أحدهما بجانب الآخر، بينما وقفت أنا أمامهما، أؤم صلاة الجماعة. ورفعت يدي وبدأت الصلاة قائلاً: «الله أكبر...».

إن هناك أشياء قليلة، هذا إذا وجدت، تقرب بين الناس كما تقرب بينهم الصلاة الجامعة. هذا، في اعتقادي، يصح في كل دين، ولكنه يصح بصورة خاصة في الإسلام، الذي يرتكز إلى الاعتقاد بأنه ليس من واسطة ضرورية، أو بالأحرى ممكنة، بين الإنسان والخالق. إن عدم وجود الكهانة والقسوسة يجعل كل مسلم يشعر بأنه لا يحضر فحسب، بل يشارك مشاركة صادقة في فعل العبادة المشترك عندما يصلي جماعة. وإذا لم يكن هناك «أسرار مقدسة» في الإسلام، فإن كل مسلم بالغ وعاقل يمكن أن يؤدي أيما عمل ديني مهما كان، سواء كان إمامة جماعة في الصلاة أو إجراء عقد زواج، أو دفن ميت من الأموات. لا حاجة بأحد إلى أن «يكرس» لخدمة الله: فالمعلمون الدينيون وقادة المجتمع الإسلامي ليسوا سوى رجال يتمتعون بشهرة

(يستحقونها أحياناً ولا يستحقونها أحياناً أخرى) في سعة الاطلاع واللوذعية في العلوم والشرائع الدينية.

ـ ٣ ـ

واستيقظت عند الفجر، ولكن أجفاني كانت مثقلة بالنعاس. وكان الهواء ينحدر فوق وجهي، محدثاً صوتاً ناعماً مدندناً، من الليل الذاوي إلى النهار الآخذ بالشروق.

ونهضت لأغسل النوم عن وجهي. وكان الماءِ أشبه بلمسة من أرض بعيدة، جبال مغطاة بالأشجار المظلمة، وجداول تتحرك وتسيل وتبقى دائماً صافية... وجلست على ردفي وأرجعت رأسي إلى الوراء كي يبقى وجهي رطباً مدة طويلة، فيصيب الهواء رطوبتها، ويصقلها بالذكرى الحلوة من كل الأيام الباردة، من كل الأيام الشتوية الماضية القديمة... من الجبال والمياه المتدفقة... من الركوب عبر الثلوج والبياض المتلألىء... بياض ذلك اليوم، منذ سنوات كثيرة مضت، عندما ركبت عبر الجبال الإيرانية المجللة بالثلوج، الخالية من الطرق، أندفع ببطء إلى الأمام، وكل خطوة من خطوات الجواد غرقٌ في الثلوج، والخطوة التي تليها جهاد عنيف مضن لاستخلاصها من الثلوج...

وفي ظهيرة ذلك اليوم، كما أذكر، استرحنا في قرية سكانها قوم غريبون يشبهون النور. عشرة ثقوب أو اثنا عشر ثقباً في الأرض، مسقوفة بقباب منخفضة من الأغصان والتراب، كانت كل تلك القرية المتوحدة، في الجنوب الشرقي من إيران، في مقاطعة كرمان. وكالمخلوقات في قصص الجن، زحف الناس من الفتحات المظلمة ليَروا، بدهش، إلى أولئك الغرباء النادرين. وعلى رأس إحدى القباب جلست صبيةٌ تسرح شعرها الطويل، الأسود، المشعث وقد أدارت وجهها الأسمر، مغمضة العينين، نحو شمس الظهيرة الخافتة، وأنشدت بصوت خفيض أغنية بلسان غريب. وكانت الأساور المعدنية تخشخش حول معصميها اللذين كانا ضيقين قويين كالمفاصل فوق حوافر الحيوانات الموحشة في غاب عتيق.

ولكي أدفىء أطرافي الخدرة، أكثرت من شرب الشاي والعرق مع الدركي الذي رافقني وخادمي إبراهيم. وعندما امتطيت جوادي ثانية، وقد أخذ مني السكر كل مأخذ، فعدا بي الجواد، رأيت العالم كله أمامي عريضاً شفافاً بأكثر من أي وقت مضى. رأيت تكوينه الداخلي، وشعرت بضربات نبضه في الوحدة البيضاء، ورأيت

كل ما كان مخفيّاً عني منذ لحظة، وعرفت أن الأجوبة كلها بانتظارنا، بينما نحن، البلهاء المساكين، نسأل الأسئلة وننتظر أن تكشف لنا أسرار الله. بينما هي، طيلة الزمن، تنتظر أن نكشف نحن أنفسنا لها.

وبدا لنا نجد فلكزت جوادي بالمهماز وطرت وطرت كشبح عبر النور البلوري الشفاف، وأطارت حوافر الجواد الثلوج من حولي كوشاح من الشرارات، وأرعدت حوافر جوادي فوق اثلج الجداول المتجمدة...

أعتقد أنني عندئذ خبرت، دون أن أفهم نفسي فهماً كلياً، تفتح النعمة من عند الله، تلك النعمة التي حدثني عنها الأب فالكس منذ مدة طويلة جداً، عندما شرعت في رحلتي التي كان مقدراً لها أن تبدل حياتي كلها: رؤيا النعمة التي تنبئك بأنك أنت المنتظر.. كان لا بدّ أن ينقضي أكثر من سنة بين ذلك الركوب الجنوبي فوق الثلج والجليد وبين اعتناقي الإسلام، ولكني ركبت حتى عندئذ، دون أن أعلم، مستقيماً كالسهم، نحو مكة.

* * *

وجف وجهي وعاد ذلك النهار الماطر في إيران منذ أكثر من سبع سنوات إلى الماضي مرة أخرى. لقد عاد إلى الماضي، ولكن لا ليختفي: ذلك أن ذلك الماضي جزء من هذا الحاضر.

وأرجف نسيم الصباح البارد، العليل، شجيرات العليق، وأخذت النجوم تضمحل شيئاً فشيئاً. يا زيد! يا منصور! انهضا، انهضا! لنوقد النار ثانية ونسخن قهوتنا، ومن ثم نضع الشدود على مطايانا ونركب، عبر نهار آخر.. عبر الصحراء التي تنتظرنا مفتوحة الذراعين.

جن

ـ ١ ـ

كانت الشمس على وشك المغيب عندما اعترضت طريقنا حية كبيرة سوداء: كانت بثخانة ذراع الطفل، وكان طولها متراً واحداً تقريباً. لقد توقفت الحيّة عن زحفها ورفعت رأسها باتجاهنا، وبحركة تكاد تكون لا شعورية، انزلقت من الشداد وحللت بندقيتي، ثم ركعت وسددت سلاحي نحوها. وفي اللحظة نفسها سمعت صوت منصور من ورائي وهو يهتف:

ـ «لا ترم. . . !» ولكنني كنت قد ضغطت على الزناد، وانتفضت الحية وتلوّت وما لبثت أن وقعت ميتة.

ونظرت فوقي فرأيت وجه منصور وقد بدت عليه علائم الاعتراض. «ما كان يجب أن تقتلها. . . وعلى أية حال، فليس في وقت الغروب، لأن هذا هو الوقت الذي تخرج فيه الجن من تحت الأرض وتتخذ أحياناً هيئة الحية. . . ».

فضحكت وأجبت: «وهل تؤمن حقيقة، يا منصور، بتلك القصص التي ترويها العجائز عن الجن على هيئة الحيات؟»

فأجاب: «طبعاً أؤمن بالجن. ألم يأت على ذكرهم كتاب الله؟ أما في ما يتعلق بالهيئات التي يبدون لنا فيها أحياناً ـ لا أدري. . . فلقد سمعت أن باستطاعتهم أن يتخذوا أغرب الأشكال وأبعدها عن التصور. . . ».

وقلت في ذات نفسي إن منصوراً قد يكون على حق: فهل من غير الطبيعي إلى هذا الحد أن نفترض أنه قد يكون هناك، إلى جانب الكائنات التي يمكن لمشاعرنا أن تدركها، بعض الكائنات التي تروغ عن إدراكنا؟ أليس نوعاً من الغطرسة العقلية ذلك الذي يجعل الإنسان الحديث يرفض إمكان وجود أشكال حياتية غير تلك التي يستطيع

أن يلاحظها ويقيسها؟ إن جود الجن، مهما كانوا، لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية، ولكن العلم لا يستطيع أن ينفي وجود كائنات حية قد تكون حالاتها البيولوجية مختلفة تمام الاختلاف عن حالاتنا، بحيث لا تستطيع حواسنا الخارجية أن تقيم معها أيما اتصال إلا في ظروف استثنائية. أليس من الممكن أن هذا الاجتياز الاتفاقي العرضي للطرق بين العوالم المجهولة وبين عالمنا نحن يوجد أحياناً مظاهر غريبة فسرتها أوهام الإنسان البدائية بالأشباح والعفاريت والمردة والرؤى «الخارقة للطسعة؟»

وبينما كنت أمتطي راحلتي ثانية، وهذه الأسئلة تتزاحم في مخيلتي وتعلو وجهي نصف ابتسامة تعبر عن شك رجل جعلته نشأته صفيق الجلد بأكثر من أولئك الناس الذين عاشوا حياتهم كلهم أقرب إلى الطبيعة، التفت زيد إليّ وقد علت محياه أمارات المحبة وقال:

ـ «إن منصوراً على حق يا عمي، فما كان يجب أن تقتل الحية. ذات مرة، وكان ذلك منذ سنوات عديدة، عندما تركت حايل بعد أن استولى عليها ابن سعود، قتلت حية كتلك التي قتلتها أنت في طريقي إلى العراق. وكانت الشمس أيضاً على وشك المغيب. وبعد قليل، عندما توقفنا لصلاة المغرب، شعرت فجأة بثقل غريب في رجلي وباتقاد في رأسي، وبدأت رأسي تهدر هدير المياه عند انحدارها، وأصبحت أطرافي كالنار، ولم أعد أستطيع الوقوف فسقطت على الارض كالعدل الفارغ، وأصبح كل ما حولي أسود مظلماً. إنني لا أعرف كم من الوقت بقيت في تلك الظلمة، ولكنني أذكر أنني في النهاية وقفت ثانية، ووقف رجل ما عن يميني وآخر عن شمالي، وقاداني إلى قاعة كبيرة معتمة كانت مليئة بالرجال الذين كانوا يذرعونها جيئة وذهوباً باهتياج ويتحدث بعضهم إلى بعض. وبعد قليل أدركت أن أولئك الرجال كانوا منقسمين إلى فريقين مختلفين، كما ينقسم الناس أمام المحاكم. وكان يجلس على منصة مرتفعة في مؤخرة القاعة رجل مسن قصير القامة، وبدا لي أنه كان قاضياً أو زعيم قبيلة أو شيئاً من مثل ذلك، وعرفت حالاً أنني كنت المتهم.

وقال أحدهم: «لقد قتله قبل غروب الشمس تماماً بطلقة من بندقيته. إنه مذنب». ورد واحد من الفريق المعارض: «ولكنه لم يكن يعرف من كان يقتل، ولقد ذكر اسم الله عندما ضغط على الزناد». ولكن أفراد الفريق المتهم ما لبثوا أن صاحوا: «إنه لم يذكر!»، فكرر أفراد الفريق الآخر معاً: «بلى لقد سبح فعلاً باسم الله!»، واستمرّ الحال على هذا المنوال بين اتهام ودفاع بعض الوقت، إلى أن خيل إليّ في النهاية أن الفريق المدافع قد فاز ولفظ القاضي في مؤخرة القاعة حكمه فقال: «إنه لم

يكن يعرف من كان يقتل، ولقد سبح، فعلاً، باسم الله. أرجعاه!»

«وقادني الرجلان اللذان أحضراني إلى قاعة المحكمة في الطريق نفسها إلى تلك الظلمة العظيمة التي خرجت منها ووضعاني على الأرض. وفتحت عيني ورأيت نفسي ممدوداً بين بضعة أكياس من القمح كانت قد كدست إلى جانبي وقد فرشت فوقها قطعة من قماش الخيام لحمايتي من أشعة الشمس. وقد خيل إليّ أن الوقت كان الضحى الباكر، وأن رفاقي كانوا قد ضربوا خيامهم للاستراحة. وفي المدى البعيد استطعت أن أرى إلى إبلنا ترعى عند منحدر إحدى الروابي، وأردت أن أرفع يدي، ولكن أطرافي كانت متعبة إلى حد بعيد. وعندما أحنى أحد رفاقي وجهه فوقي، قلت: «قهوة...» ذلك أني سمعت عن قرب صوت الهاون. وقفز رفيقي يهتف: «إنه يتكلم... إنه يتكلم... لقد عاد إلى وعيه!»، وأتوني بقهوة ساخنة طازجة، فسألتهم: «هل غبت عن وعيي طيلة الليل؟» فأجابوني: «طيلة الليل؟ إنك لم تتحرك أربعة أيام بكاملها. لقد كنا دائماً نحملك كالعدل على ظهور إبلنا وننزلك ثانية في الليل، واعتقدنا أن علينا أن ندفنك هنا. ولكن سبحان الله الذي يحيي ويميت، الحي الذي لا يموت...».

«وهكذا ترى، يا عمي، أن المرء يجب أن لا يقتل حية ما عند غروب الشمس».

— ٢ —

وفي أصيل اليوم الثالث من مغادرتنا حايل توقفنا كي نسقي راحلتينا من بئري عرجة، في واد مستدير، واقع بين رواب منخفضة. وكانت البئران كبيرتين مليئتين بالماء العذب، وتقعان في منتصف الوادي، وكل واحدة منهما ملك لقبيلة، فالبئر الغربية تخص قبيلة حرب، والبئر الشرقية تخص قبيلة مطير. وكانت الأرض حول البئرين جرداء كراحة الكف، ذلك أن كل يوم عند الظهر تقريباً تساق مئات من الجمال والغنم من المراعي البعيدة كيما تشرب من هاتين البئرين، وكانت كل ورقة من العشب يؤتى عليها بمجرد ظهورها فوق سطح الأرض.

وعندما وصلنا كان الوادي يعج بالحيوانات، وكانت أسراب الماشية تظهر باستمرار من بين التلال التي كانت تنصب عليها أشعة الشمس. وحول البئرين كان هناك جمهور كبير من البدو ولغط عظيم، ذلك أنه ليس من السهل إرواء ظمأ هذا

العدد الكبير من الحيوانات. وكان الرعاة يسحبون الماء في دلاء جلدية على حبال طويلة، وهم ينشدون محافظة على انتظام الحركات المتعددة: ذلك أن الدلاء كانت كبيرة جداً وثقيلة جداً عندما تملأ بالماء حتى أنه كان يقتضي لسحبها من الأعماق سواعد عديدة. وعندما يظهر الدلو الكبير على حافة البئر كانت النساء يتلقفنه ويفرغن الماء في معالف جلدية، فتتدافع الجمال إلى الأمام وهي تهدر وتزنخر وترتجف اهتياجاً، وتتجمع حول المعلف الجلدي دون أن تخفف من هياجها نداءات الرجال المهدئة. وكان أحدها يدفع بعنقه الطويل المرن إلى الأمام، بين رفاقه وفوقها، ليروي ظمأه بأسرع ما يمكن. كان هناك تأرجح وتمايل وتدافع لأجسام مختلفة الألوان، وكانت الرائحة الحادة اللاسعة المنبعثة من عرق الحيوانات وبولها تملأ الهواء، بينما يملأ الدلو مرة أخرى فيسحبه الرعاة وهم يكررون أنشودتهم ويبدأ من جديد مشهد صب المياه وأصوات الإبل وهي تشرب ونداءات الرجال وغناؤهم...

ورفع الرجل الواقف عند حافة البئر يده باتجاهنا وهتف:

ـ «حياكما الله يا أهل الطريق! شاركونا في النعمة!» بينما شق عدد آخر من الرجال طريقهم وسط الجمهور المزدحم حول البئر وجروا نحونا. وأمسك أحدهم برسن ذلولي واستناخها كيما أترجل براحة، وسريعاً ما أفسح لهجينينا طريقاً إلى المعلف الجلدي، وأخذت النسوة يسكبن لهما الماء، ذلك أننا كنا مسافرين، ولذلك كانت لنا الأفضلية.

وقال زيد وهو مستغرق في التأمل: «أليس مدهشاً أن ترى، يا عمي، كيف تعيش حرب ومطير بسلام مع أنه لم يمض على انتهاء الحرب بينهما إلا القليل؟» (وذلك أنه منذ ثلاث سنوات فحسب كانت مطير ثائرة ضد الملك، بينما كانت حرب من بين أشد أعوانه إخلاصاً وولاء) «وهل تذكر يا عمي، المرة الماضية التي كنا فيها هنا، وكيف أننا مررنا من عرجة في دائرة كبيرة أثناء الليل، دون أن نجرؤ على الاقتراب من البئرين، غير عارفين ما إذا كنا سنلاقي عندهما صديقاً أو عدواً...؟»

كان زيد يشير إلى ثورة البدو الكبرى عام ١٩٢٨، ١٩٢٩، إلى أوج المأساة السياسية التي هزت مملكة ابن سعود من أساسها، والتي كان لي صلة بها ردحاً من الوقت.

وعندما ارتفع الستار في عام ١٩٢٧، كان السلام يخيم فوق أرجاء مملكة ابن سعود الواسعة، ولم يعد حكمه في نجد مهدداً من أية عائلة منافسة، فقد كانت حايل تابعة له وبلاد شمر، كما كان الحجاز خاضعاً له بعد أن أخرج عائلة الشريف

عام ١٩٢٥. وكان من أبرز مقاتلي الملك ذلك الشيخ البدوي الجبار نفسه، فيصل الدويش، الذي كان كثيراً ما سبب له القلق الشديد في سنواته الأولى. وكان الدويش قد برز في خدمة الملك، وبرهن عن إخلاصه مرة بعد أخرى: ففي عام ١٩٢١ استولى على حايل للملك، وفي عام ١٩٢٤ قاد غزوة جريئة داخل العراق حيث دبر الأشراف، يحميهم البريطانيون، مكيدة ضد ابن سعود، وفي عام ١٩٢٥ أخذ المدينة المنورة ولعب دوراً حاسماً في فتح جدة. والآن، صيف عام ١٩٢٧، كان يجلس على أكاليل مجده في هجرة الأرطاوية غير بعيد عن حدود العروق.

ولقد كانت تلك الحدود، طوال سنين عديدة، مسرحاً لغارات البدو المستمرة الناشئة عن هجرات العشائر طلباً للعشب والماء، إلا أنه في سلسلة من الاتفاقات بين ابن سعود والبريطانيين، الذين كانوا مسؤولين عن العراق بصفتهم الدولة المنتدبة، تقرر أنه يجب عدم إقامة أية عراقيل في وجه تلك النزوحات الضرورية، وأنه يجب أن لا تنشأ أية استحكامات من أي نوع على كل من جانبي الحدود النجدية العراقية. إلا أنه في صيف عام ١٩٢٧، بنت الحكومة العراقية وحصنت قلعة في جوار آبار الحدود عند بِسَيّة وأعلنت رسمياً عزمها على بناء قلاع أخرى على طول الحدود. وسرت موجة من القلق بين أفراد القبائل في شمالي نجد إذ وجدوا أنفسهم مهددين في صميم وجودهم، معزولين عن الآبار التي كانوا يعتمدون عليها الاعتماد كله. واحتج ابن سعود على هذا الخرق المكشوف للاتفاقات، ولكنه لم يتلق بعد أشهر، سوى جواب مراوغ من المندوب البريطاني في العراق.

وإذ كان فيصل الدويش رجل عمل دائماً، فقد قال في ذات نفسه: «قد لا يكون من المناسب للملك أن يبدأ نزاعاً مع البريطانيين ولكنني أنا سأجترىء عليه». وفي الأيام الأخيرة من شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٧ خرج على رأس الإخوان من مطير، فهاجم مدمراً قلعة بسية، دونما رأفة بالحامية العراقية. وظهرت الطائرات البريطانية فوق مسرح الحادثة، فاستطلعت الحالة ثم انسحبت، خلافاً لعاداتها، دون أن تلقي قنبلة واحدة. ولقد كان من السهل عليهم أن يصدوا الغارة (وهو عمل كان من حقهم بموجب معاهداتهم مع ابن سعود)، ثم ينهوا مشكلة الحدود على طريق المفاوضات الدبلوماسية. ولكن هل كانت الحكومة البريطانية ـ العراقية تهتم حقاً بإيجاد حل سلمي سريع للخلاف؟

وظهرت الوفود من قبائل شمال نجد أمام الملك، والتمست منه إرسال حملة على العراق، ولكن ابن سعود رفض بقوة كل تلك المطالب، وأعلن الدويش عاصياً،

وأصدر أمره إلى أمير حايل بأن يسهر على مراقبة مناطق الحدود، ثم أوقف بصورة مؤقتة عن القبائل التي كانت تحت سيطرة الدويش المرتبات المالية التي كان يعطيها إلى الإخوان، كما أمر الدويش نفسه بالبقاء في الأرطاوية، وأن ينتظر فيها قضاء الملك. وأحيطت الحكومة العراقية رسمياً بهذه الإجراءات، كما أعلمت بأن الدويش سيلقى أشد العقاب، غير أن ابن سعود، في الوقت نفسه، طلب أن يتقيد العراق في المستقبل بالمعاهدات تقيداً أتم.

وهكذا فقد كان بالإمكان القضاء على هذا الخلاف بسهولة، ولكن عندما وصلت الأمور إلى هذه النقطة، أعلم المندوب السامي البريطاني ابن سعود بأنه سيرسل فرقة جوية لمعاقبة الإخوان من قبيلة الدويش (الذين كانوا قد عادوا قبل ذلك بمدة طويلة إلى ديارهم) و«لإجبارهم على إطاعة ملكهم». وإذ لم يكن في ذلك الوقت خط برقي في الرياض، فقد أرسل ابن سعود على جناح السرعة أحد السعاة إلى البحرين، حيث أرسلت برقية إلى بغداد احتجاجاً على التدبير المنوي اتخاذه، وطلباً لتطبيق المعاهدات التي كانت تمنع على أي من الفريقين ملاحقة مخالفي القانون عبر الحدود. وقد أكد في البرقية أنه لم يكن بحاجة إلى «مساعدة» البريطانيين في فرض سلطته على الدويش، وأخيراً أنذر بأن كل عمل حربي جوي بريطاني في الأراضي النجدية من شأنه أن يحدث رد فعل عظيم بين الإخوان الذين أثيروا حتى ذلك الحين بصورة كافية.

وبقي الإنذار مهملاً، إلا أنه في أواخر شهر كانون الثاني من سنة ١٩٢٨، أي بعد مضي ثلاثة أشهر على حادث بسية، اجتازت فرقة جوية بريطانية الحدود وألقت قنابلها على الأراضي النجدية، فأنزلت الدمار بمضارب خيام المطيريين، وقتلت، دون تمييز، الرجال والنساء والأطفال والمواشي. وأخذ جميع الإخوان في الشمال يعدون العدة لشن غارة انتقامية على العراق. غير أن الحركة، بفضل منزلة ابن سعود وحدها بين القبائل، أوقفت في الوقت المناسب، واقتصرت على بعض المناوشات الصغرى عند الحدود.

وفي تلك الأثناء، أعاد البريطانيون بناء قلعة بسية المهدومة بهدوء، كما بنوا قلعتين أخريين في الجانب العراقي من الحدود.

* * *

وعندما استدعي فيصل الدويش إلى الرياض لتبرير عمله الذي كان، في

اعتقاده، في صالح الملك، رفض الانصياع للأمر، وقد زاد في ألمه ما كان يعانيه شخصياً من استياء وحنق، فقد كان يرى أنه، هو فيصل الدويش، الذي خدم الملك بكثير من الولاء والإخلاص، لم يكن سوى أمير على هجرة الأرطاوية، التي لم تكن برغم كثرة سكانها، إلا قرية كبيرة. لقد كانت قيادته حاسمة في فتح حايل، ولكن ابن عم الملك ابن مساعد، لا هو، الذي عين أميراً على حايل. وفي إبان الحملة على الحجاز كان هو، فيصل الدويش، الذي حاصر المدينة طيلة أشهر وأجبرها أخيراً على الاستسلام، ولكنه لم يكن هو الذي عين أميراً عليها. إنه لم يعرف طعم الراحة بسبب من عدم تحقق رغبته الملحة الجامحة في الحكم. وقال في ذات نفسه: «إذا كان ابن سعود من قبيلة عنزة، فأنا من قبيلة مطير. نحن متساوون في شرف المحتد، فلمَ أعترف أنا بسلطة ابن سعود؟»

مثل هذا التفكير، كان ولا يزال، لعنة التاريخ العربي: فليس من أحد يقرّ بأن هناك من يفضله.

وواحداً بعد آخر، بدأ زعماء الإخوان من غير المرتضين ينسون فضل ابن سعود عليهم. ومن بين هؤلاء كان سلطان بن بجاد، شيخ قبيلة عتيبة ذات السطوة وأمير الغطغط، من أكبر هجرات الإخوان في نجد: لقد كان هو بطل معركة طربة، ضد قوات الشريف حسين عام ١٩١٨، وهو الذي فتح الطائف ومكة عام ١٩٢٤، فلماذا، في نظره، يجب أن يقنع بمنصب أمير الغطغط فحسب؟ لماذا لم يعين، هو، بل أحد أبناء الملك، أميراً على مكة؟ لماذا لم يعين أميراً على الطائف على الأقل؟ لقد رأى، شأن فيصل الدويش، أن ما كان يعتبره حقاً له قد غمط، وإذا كان ابن بجاد صهر الدويش، فقد كان المنطق يقضي بأن يتحد الاثنان ضد ابن سعود.

وفي خريف ١٩٢٨، دعا الملك ابن سعود إلى مؤتمر من زعماء القبائل والعلماء يعقد في الرياض لحل كل هذه الخلافات. وقد حضر جميع قادة القبائل تقريباً، باستثناء ابن بجاد والدويش. وإذ كانا شديدي الصلابة في مقاومتهما، فقد أعلنا أن ابن سعود ملحد وضال في الدين، أوَ لم يعقد المعاهدات مع الكفرة، واستقدم إلى بلاد العرب أوائل الشيطان من مثل السيارات والتلفون واللاسلكي والطائرات؟ وأعلن العلماء المجتمعون في الرياض بالإجماع أن مثل تلك الاختراعات العلمية غير جائزة فحسب، بل ضرورية إلى أقصى الحدود من وجهة النظر الدينية لأنها تزيد في معرفة المسلمين وقوتهم، وأن المعاهدات مع غير المسلمين، استناداً إلى الرسول، مستحسنة أيضاً إذا جلبت للمسلمين السلم والحرية.

ولكن الزعيمين الثائرين استمرا في تشهيرهما ولقيا آذاناً صاغية لدى كثير من الإخوان البسطاء الذين لم يكونوا يملكون قدراً كافياً من العلم والمعرفة بحيث لا يستطيعون أن يروا شيئاً سوى تأثير الشيطان في تصرفات ابن سعود. إن إخفاقه السابق في تثقيف الإخوان وتحويل جمعيتهم الدينية إلى غايات إيجابية قد بدأ يحمل ثماره المفجعة. . .

كان بر نجد الفسيح يطن الآن كقفير النحل، وكان الرسل يتنقلون في الخفاء على هجنهم السريعة من قبيلة إلى أخرى، وكانت الاجتماعات السرية، بين الزعماء تعقد عند الآبار القصية. وأخيراً، انفجر الهياج ضد ابن سعود إلى ثورة علنية ضمت كثيراً من القبائل الأخرى إلى جانب قبيلتي مطير وعتيبة. واعتصم الملك بالصبر، وحاول أن يتفهم الأمور، فأرسل الرسل إلى زعماء القبائل المعارضين وجرب أن يناقشهم بالمنطق والحجة ولكن دون جدوى. وهكذا أصبحت أواسط الجزيرة العربية وقسمها الشمالي مسرحاً لحرب عصابات واسعة واضطرب حبل الأمن العام المثالي الذي كان يسود البلاد، وحلت محله الفوضى العامة في أنحاء نجد، واكتسحته عصابات الإخوان الثائرين في جميع الجهات، مهاجمة القرى والقوافل والعشائر التي بقيت على إخلاصها للملك.

وبعد مناوشات محلية لا تحصى بين الثوار والقبائل الموالية، جرت معركة حاسمة في سهل سبْلِة في أواسط نجد، في ربيع عام ١٩٢٩، ففي أحد الجانبين كان الملك معززاً بقوة كبيرة، وفي الجانب الآخر كانت قبيلتا مطير وعتيبة، تسندهما بطون من القبائل الأخرى. وانتهت المعركة بانتصار الملك، واستسلم ابن بجاد دون قيد أو شرط، فجيء به إلى الرياض مقيداً بالسلاسل والأغلال. أما الدويش فقد أصيب بجراح بالغة، وقيل إنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فأرسل ابن سعود، أكثر ملوك العرب رقة واعتدالاً، طبيبه الخاص للعناية به والإشراف على حالته، فوجد ذلك الطبيب، وكان سورياً شاباً، أن كبد الدويش مصابة بأذى خطير، وأنه لذلك لن يعيش أكثر من أسبوع واحد. عندها أصدر الملك قراره: «سنتركه يموت بسلام. إن عليه أن يلقى عقابه من الله». ثم أمر أن يعاد العدو الجريح إلى عائلته في الأرطاوية.

ولكن ابن الدويش كان بعيداً عن الموت، ذلك أن إصابته لم تكن خطرة جداً كما اعتقد الطبيب الشاب. وفي خلال بضعة أسابيع شفي إلى درجة مكنته من أن يخرج من الأرطاوية، خلسة، وأن يعقد العزم أكثر من أي وقت مضى على الأخذ بالثأر.

وكان أن أعطى هرب الدويش من الأرطاوية قوة جديدة للثورة. وقد أشيع أنه هو نفسه كان في مكان ما بجوار حدود الكويت يجمع أنصاراً جدداً من القبائل إلى قواته الخاصة، التي كانت ما تزال قوية جداً، من قبيلة مطير. ومن بين القبائل التي التحقت به قبل غيرها، قبيلة العجمان، التي كانت رغم صغرها، قوية تقطن في مقاطعة الأحساء قرب الخليج الفارسي. وكان شيخها، ابن حظلين، خال فيصل الدويش، فضلاً عن أنه لم يكن هناك أي مودة بين العجمان وابن سعود، فقد قتلوا منذ سنوات أخا الملك الأصغر، سعد، ثم هاجروا إلى الكويت خوفاً من انتقامه. إلا أن الملك صفح عنهم في ما بعد، وسمح لهم بالعودة إلى أرض آبائهم، ولكن الأحقاد القديمة ظلت متقدة، وانفجرت عداوة مكشوفة عندما قتل زعيم العجمان وعدد من أتباعه غدراً أثناء بعض المفاوضات على هجرة ما، في مخيم سعود بن الجلوي، الابن الأكبر لأمير الأحساء، وقريب الملك.

وأشعل التحالف بين العجمان ومطير الشرارة الجديدة بين قبائل عتيبة في أواسط نجد. وبعد القبض على زعيمهم، ابن بجاد، جمعوا صفوفهم من جديد تحت إمرة شيخ آخر، وثاروا مرة أخرى ضد الملك. وهكذا أجبروه على تحويل معظم قواته من شمالي نجد إلى أواسطه. وكان القتال عنيفاً، إلا أن ابن سعود استطاع شيئاً فشيئاً أن يسيطر على الموقف، وما لبثت بطون عتيبة أن استسلمت للملك واحداً بعد آخر، ففي قرية صغيرة في منتصف الطريق بين الرياض ومكة قدموا خضوعهم للملك. ومرة أخرى صفح الملك عنهم راجياً من وراء ذلك، على الأقل، أن يتفرغ لإخضاع الدويش وسائر الثوار في الشمال. ولكنه ما كاد يعود إلى الرياض حتى نكثت عتيبة عهدها للمرة الثانية وجددتِ القتال، مما جعل الحرب حتى النهاية أمراً لا بدّ منه. وللمرة الثالثة هزمت عتيبة وهلكت عن بكرة أبيها تقريباً. وبتدمير الغطغط تدميراً تاماً، وكانت بلدة أكبر من الرياض، سادت سلطة ابن سعود من جديد في أواسط نجد.

وفي الوقت نفسه ظل النزاع مستمراً في الشمال، وكان فيصل الدويش وحلفاؤه قد عززوا مواقعهم بجوار حدود العرق والكويت. وقد هاجمهم ابن مساعد، أمير حايل، مرة بعد أخرى بالنيابة عن الملك وحملت الأخبار مرتين نبأ قتل الدويش، وثبت في كلتا المرتين أن ذلك النبأ لم يكن له من أساس، لقد ظل حياً مستمراً في عناده وخصامه، وقتل ابنه الأكبر وسبعمائة من مقاتليه في المعركة، ولكنه ظل يقاتل، مما جعل السؤال التالي يتبادر إلى الأذهان: من أين يأتي الدويش بالمال الذي هو، حتى في جزيرة العرب، ضروري لشن الحرب؟ ومن أين أسلحته وذخائره؟

وجاءت تقارير غامضة تقول إن ذلك الثائر الذي سبق أن انتقد بعنف إقدام ابن سعود على عقد معاهدات مع الكفرة كان هو نفسه يتعامل الآن مع البريطانيين. وسرت شائعات مفادها أنه يقوم بزيارة الكويت باستمرار، فأخذ الناس يتساءلون هل يمكن أن يفعل الدويش ذلك دون علم السلطات البريطانية؟ ألم يكن من مصلحة هذه السلطات، على الأصح، أن يسود الشغب والفوضى أرض ابن سعود؟

* * *

في إحدى الأمسيات في الرياض، في صيف عام ١٩٢٩، ذهبت إلى فراشي باكراً. وقبل أن أستسلم للرقاد، بينما كنت أسلي نفسي بكتاب عن سلالات عمان، إذا بزيد يدخل إلى غرفتي فجأة ويقول:

ــ «هناك رجل من قبل الشيوخ. إنه يريد أن يراك حالاً».

ولبست ثيابي بسرعة وذهبت إلى القصر. وكان ابن سعود في انتظاري في جناحه الخاص، جالساً القرفصاء على الديوان ومن حوله أكوام من الصحف العربية وفي يده جريدة تصدر في القاهرة. وقد رد الملك على تحيتي باقتضاب ومن غير أن يتوقف عن القراءة، ثم أشار إليّ بالجلوس إلى جانبه على الديوان. وبعد هنيهة رفع بصره ونظر إلى العبد الذي كان واقفاً عند الباب، ودلل بحركة من يده على رغبته في الانفراد بي، وما إن أقفل العبد الباب وراءه حتى وضع الملك الجريدة من يده ونظر إليّ هنيهة من وراء نظارتيه البراقتين كأنما لم يرني منذ وقت طويل (رغم أنني كنت قد أمضيت معه ساعات ذلك الصباح نفسه).

ــ «مشغول في الكتابة؟»

ــ «كلا، يا طويل العمر، إنني لم أكتب شيئاً منذ أسابيع».

فقال الملك: «لقد كتبت عدة مقالات شيقة عن مشاكل الحدود مع العراق».

وكان واضحاً أنه كان يشير إلى سلسلة مقالاتي التي كنت كتبتها للصحف الأوروبية قبل ذلك بشهرين. وقد نشر بعضها في إحدى صحف القاهرة حيث ساعدت على توضيح وضع معقد جداً. وإذ كنت أعرف الملك، فقد كنت واثقاً من أنه لم يكن يتكلم جزافاً بل يرمي إلى غرض معين، وهكذا بقيت ساكتاً منتظراً أن يكمل هو الحديث، وقد أكمله فعلاً:

ــ «ولعلك تحب أن تكتب أشياء أخرى عما يحدث في نجد ــ عن هذه الثورة وعما تنذر به من سوء».

أما سلسلة المقالات التي كتبتها في ما بعد فقد بينت، لأول مرة، أن الثوار كانت تعضدهم دولة أوروبية كبرى، كما أشارت إلى أن الغاية الرئيسية من هذه الدسائس والمؤامرات إنما كانت إرجاع حدود ابن سعود نحو الجنوب، وتحويل مقاطعته في أقصى الشمال آخر الأمر إلى «ولاية مستقلة» بين المملكة العربية السعودية والعراق، مما كان يمكّن البريطانيين من بناء خط حديد عبر أراضيها. وبالإضافة إلى هذا، فإن ثورة الدويش أتاحت وسيلة رحب بها الإنكليز لإشاعة قدر من الفوضى والاضطراب في مملكة ابن سعود بحيث يصبح في وضع لا يتمكن معه، كما فعل حتى ذلك الحين، من مقاومة مطالب بريطانيا في الحصول على امتيازين مهمين: أحدهما استئجار ميناء رابغ على البحر الأحمر شمالي الحجاز، حيث أراد الإنكليز منذ زمن طويل إنشاء قاعدة بحرية، وثانيهما السيطرة على ذلك القسم من الخط الحديدي الحجازي الممتد من دمشق إلى المدينة المنورة، والذي يجري عبر أراضي المملكة العربية السعودية. وإذن فإن هزيمة ابن سعود على يدي الدويش كان من شأنها أن تنقل هذين الشمروعين إلى حيز الإمكان العملي.

وسرت موجة من الحماسة إثر نشر مقالاتي في الصحف الأوروبية والعربية (المصرية منها بصورة خاصة). وليس من المستبعد أن يكون فضح هذه الخطط السرية كلها مسبقاً قد أسهم إلى حد ما في فشلها بعد ذلك. ومهما يكن، فإن المشروع البريطاني لمد خط حديدي من حيفا إلى البصرة قد أهمل بالرغم من المبالغ الضخمة التي تبين أنها أنفقت على التخطيطات الأولية ولم يسمع به قط مرة أخرى.

أما ما حدث بعد ذلك فقد كان ذا أهمية تاريخية. ففي ذلك الصيف نفسه من عام ١٩٢٩، احتج ابن سعود لدى البريطانيين على الحرية التي كانت قد أعطيت للدويش لابتياع الأسلحة والذخائر في الكويت. ولما لم يكن لدى ابن سعود «برهان» حسي على أن دولة أجنبية كانت تمد الدويش بتلك الأسلحة، فإن الملك لم يستطع إلا أن يحتج على بيعها فحسب. وقد أجابت السلطات البريطانية بقولها إن التجار في الكويت هم الذين كانوا يموّنون الثوار بالأسلحة – وإن البريطانيين لم يكونوا قادرين على أن يفعلوا شيئاً لإيقاف ذلك، لأنهم في معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ كانوا قد رفعوا الحظر على استيراد الأسلحة إلى جزيرة العرب... وعندما اعترض ابن سعود بقوله إن تلك المعاهدة نفسها كانت توجب على كل من بريطانيا والعربية السعودية أن تمنعا في أراضيهما كل نشاط موجه ضد سلامة الفريق الآخر، تلقى الجواب بأن الكويت لا يمكن أن تسمى «أراض بريطانية»، عل« أساس من أنها كانت مشيخة مستقلة لم تكن تربطها ببريطانيا سوى علاقات تعاقدية.

وهكذا استعرت الحرب الأهلية. ففي أواخر خريف سنة ١٩٢٩، نزل ابن سعود بنفسه إلى الميدان، مصمماً هذه المرة على أن يطارد الدويش حتى داخل الكويت فيما إذا - كما كان الحال دائماً في الماضي - بقيت مفتوحة للثوار كملجأ وقاعدة لعمليات حربية أخرى. وتجاه هذا الموقف الحازم الذي تعمد الملك ابن سعود إبلاغه إلى السلطات البريطانية، أدركت هذه، كما ظهر، أنه من المغامرة بأكثر مما ينبغي الاستمرار في لعبتها. وهكذا أرسلت الطائرات والسيارات المصفحة البريطانية لمنع الدويش من التراجع مرة أخرى إلى أراضي الكويت، وأدرك الثائر أنه خسر قضيته وأنه لم يعد باستطاعته مطلقاً الصمود في وجه الملك في معركة مكشوفة، وهكذا شرع في المفاوضة. غير أن شروط الملك كانت قاطعة واضحة: يجب أن تستسلم القبائل الثائرة، وأن تجرد من أسلحتها وخيولها وإبلها. أما الدويش فيبقى على حياته، ولكنه يجب أن يقضي بقية أيامه في الرياض.

ولكن الدويش بما فطر عليه من النشاط والحركة، لم يشأ أن يستسلم للركود والجمود، فرفض العرض. وبعد معركة حارب فيها الثوار حتى آخر نفس ضد قوات الملك الساحقة، دحروا نهائياً وهرب الدويش مع قليل من القواد الآخرين - من بينهم فرحان بن مشهور ونايف أبو كلاب، زعيم العجمان إلى العراق.

وطلب ابن سعود تسليم الدويش، فرفض فيصل ملك العراق طلبه بعض الوقت، متذرعاً بالقاعدة بالعربية التي تقضي بإكرام الضيف وحماية الملتجئ، ولكنه وافق أخيراً على تسليمه، وتم ذلك في أوائل سنة ١٩٣٠. وأرسل الدويش إلى الرياض بينما كان يعاني مرضاً خطيراً. وعندما أرسله ابن سعود، بكرمه المعتاد، إلى أهله في أرطاوية، حيث انتهت حياته العاصفة.

ومرة أخرى عاد السلام يرفرف في ديار ابن سعود...

* * *

ومرة أخرى عاد السلام يرفرف حول آبار عرجة

- «حياكما الله، يا أهل الطريق، شاركونا في نعمتنا».

هكذا نادى البدوي الشيخ من مطير، وهكذا ساعدنا رجاله على سقي هجينينا. لقد بدا أن جميع خصومات الماضي القريب وأحقاده قد نسيت وكأنها لم تكن إطلاقاً.

ذلك أن البدو قوم غريبون: إنهم سريعاً ما يلتهبون بانفعال لا يمكن الحد منه، حتى لأسباب خيالية، وسريعاً ما يعودون أيضاً إلى رتابة حياتهم التي يسودها اللطف والتواضع: الجنة والنار متجاورتان أبداً.

-٣-

وفي الليلة الخامسة من مغادروتنا حايل، وصلنا إلى سهل المدينة المنورة، ورأينا رسم جبل أحد المظلم. وكانت الهجن تتحرك بخطى ثقيلة، فقد سنا طويلاً منذ الصباح الباكر حتى ذلك المساء. أما زيد ومنصور فقد كانا صامتين، وكنت أنا صامتاً كذلك، وأما المدينة فقد ظهرت أمامنا في ضوء القمر بجدرانها المخرّزة ومآذن مسجد النبي المستقيمة الهيفاء.

ووصلنا إلى الباب الذي يسمى باب الشام بسبب من مواجهته الشمال، وفترت المطايا أمام ظلال أبراجه الثقيلة، فكان علينا أن نستعمل عصينا لحملها على الدخول من الباب.

وإذن فقد عدت ثانية إلى مدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلى منزلي بعد سفر طويل: ذلك أن هذه المدينة كانت منزلي طيلة سنوات عدة، وكان الصمت العميق المألوف يخيم على شوارعها الخالية الناعسة. وهنا وهناك كان كلب ينهض متكاسلاً أمام قوائم الإبل، ويمشي شاب مغنياً، فيتمايل صوته خفيضاً ناعماً ليتلاشى من بعد في أحد الأزقة. وكانت مشروبيات البيوت تتدلى سوداء صامتة فوق رؤوسنا كما كان الهواء المضاء بنور القمر دافئاً كالحليب الذي حلب هذه اللحظة.

ووجدنا أنفسنا أمام بيتي.

وودعنا منصور بغية الذهاب إلى بعض أصدقائه، بينما انخنا الهجينين أمام الباب، وعقلهما زيد دون أن ينطق بكلمة، ثم شرع في إنزال الخرجين إلى الأرض. طرقت الباب، وسمعت، بعد قليل، أصواتاً وخطى في الداخل، وظهر من شراعة الباب نور مصباح، ثم سحب المزلاج وهتفت أمينة، خادمتي السودانية العجوز، بفرح وبشر:

-« آه! لقد عاد سيدي إلى بيته!»

دجّال

ـ ١ ـ

كان الوقت عصراً، وكنت جالساً مع صديق لي في حديقة نخيله خارج المدينة المنورة، بالقرب من باب القبى، وكانت أشجار النخيل الكثيرة في الحديقة تحوك نوراً نصف متقد في مؤخرتها مما جعل الحديقة تبدو وكأن لا نهاية لها. كانت الأشجار لا تزال صغيرة منخفضة الارتفاع، ونور الشمس يرقص فوق جذوعها وعقودها المدببة التي كانت تشكلها أغصانها. كانت خضرتها مغبرة بسبب من العواصف الرملية التي تحدث يومياً تقريباً في مثل هذا الوقت من السنة، ولم يكن ذا لون أخضر لماع سوى ذلك البساط الكثيف من البرسيم تحت النخيل. وعلى غير مبعدة أمامي انتصبت جدران المدينة قديمة شهباء مبنية من الحجارة والطوب، وبرزت الأبراج إلى الأمام هنا وهناك. ومن وراء الجدار شمخت أشجار النخيل في حديقة أخرى داخل المدينة، والبيوت ذات النوافذ المسمرة عبر السنين بني بعضها ملاصقاً لجدار المدينة فأصبح جزءاً منه. ورأيت عن بعد مآذن مسجد النبي الخمس، شامخة عذبة كأصوات الناي، فالقبة الكبيرة الخضراء التي برزت فحجبت بيت النبي ﷺ الصغير ـ بيته في حياته وقبره بعد وفاته ـ وأبعد منها، وراء المدينة، سلسلة جبل أحد الجرداء الصخرية.

كانت السماء مضاءة بنور الأصيل اللاهب، وكانت المدينة تستحم بضياء أزرق موشى بالذهب والخضرة. وتلعب ريح عالية حول الغيوم الطرية التي يمكن أن تغش المرء كثيراً في جزيرة العرب. إنك لا تستطيع أن تقول هنا أبداً: «إن السماء ملبدة بالغيوم، وسريعاً ما تمطر». ذلك أنه حتى ولو تلبدت الغيوم، وكأنها حبلى بالعاصفة، فكثيراً ما يحدث أن تأتي زمجرة قوية من الرياح فجأة من الصحراء فتبددها تبديداً، فيدير الناس الذين طالما انتظروا المطر وجوههم باستسلام صامت ويتمتمون: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ بينما تتقد السماء من جديد بصفاء من الضياء الأزرق لا يعرف الرحمة.

وبعد فترة قليلة ودعت صديقي وسرت مشياً نحو باب المدينة الخارجي. ومرّ بي رجل يسوق حمارين محملين بالبرسيم، وكان هو نفسه يركب حماراً ثالثاً. ورفع الرجل عصاه وحياني قائلاً: «السلام عليك»، فأجبته بالكلمات نفسها، ثم لقيت بدوية صبية تجر وراءها ثوبها الأسود وتغطي القسم الأسفل من وجهها بالحجاب. كانت عيناها البراقتان من السواد بحيث إن قزحية عينها وإنسانها يمتزجان حتى ليبدوا شيئاً واحداً، كما كانت خطواتها شبيهة بخطوات غزلان البر.

ودخلت المدينة واجتزت الساحة العظيمة المكشوفة المسماة بالمناخة، إلى جدار المدينة الداخلي. ومن وراء الباب المصري الذي يجلس تحت قوسه العظيم الصرافون يخشخشون بنقودهم الذهبية والفضية، دخلت إلى السوق الرئيسية ـ وهي عبارة عن شارع يكاد لا يبلغ الاثنتي عشرة قدماً عرضاً، مليء بالدكاكين.

وكان الباعة يمتدحون بضائعهم بأغنيات سارة بهيجة. وكانت الكوفيات زاهية الألوان، وشالات وأردية حريرية مصورة من صوف كشمير تجذب أنظار المارة، وصائغو الفضة يجلسون القرفصاء خلف صناديق من الزجاج فيها جواهر بدوية ـ أساور وخلاخل وعقود وأقراط، وباعة الروائح العطرية يعرضون أجراناً مليئة بالحناء، وأكياساً صغيرة حمراء مليئة بالكحل لتلوين الأهداب، وقوارير متعددة الألوان مليئة بالزيوت والعطور، وأكواماً من الطيب والأفاويه. وكان التجار من نجد يبيعون الألبسة البدوية والشدود والخرج الحمراء والزرقاء الطويلة الأهداب من شرقي الجزيرة. وجرى دلال راكضاً عبر الشارع، ينادي بأعلى صوته، وفي يده سجادة عجمية وعباءة من وبر الجمل فوق كتفه و«سماور» نحاسي تحت إبطه. جماهير من الناس في كل من الاتجاهين: أناس من المدينة ومن سائر جزيرة العرب ـ وبما أن وقت الحج قد انقضى منذ وقت قليل فحسب ـ من جميع الأقطار الواقعة بين سهول السنغال وسهول قيرغيز، بين جزر الهند الشرقية والمحيط الأطلسي، بين استراخان ومنجبار: بيد أنه بالرغم من هذا الخليط من الناس، وبالرغم من ضيق الشارع، فإن أحداً لم يكن ليرى أيما لمم مسرع هنا، فلا تدافع ولا تزاحم ولا تصادم: لأن الوقت، في المدينة المنورة، لا يطارد الناس.

ولكن ما يبدو أغرب وأعجب هو أنه، بالرغم من ذلك التعدد العظيم في الأنواع والعادات البشرية التي تملأ شوارع المدينة، فليس فيها شيء من الاختلاط المستغرب، فتعدد المظاهر يتكشف فقط للعين التي تتعمد التحليل. والذي يبدو لي أن كل الناس الذين يعيشون في هذه المدينة، أو حتى يقيمون فيها بصورة مؤقتة،

سريعاً ما يصبح لهم ما يمكن أن يسمى بالمزاج المشترك، وبالتالي السلوك المشترك، والتعبير الوجهي المشترك، ذلك أنهم جميعاً قد جذبتهم شخصية النبي ﷺ، الذي كانت هذه المدينة مدينته، والذين هم ضيوفها الآن.

فحتى بعد مرور ثلاثة عشر قرناً لا يزال وجوده الروحي حياً هنا كما كان يومذاك. لقد كان من أجله وحده أن أصبحت مجموعة القرى التي كانت تدعى في ما مضى يثرب، مدينة أحبها المسلمون حتى يومنا هذا كما لم تحب مدينة غيرها في أيما مكان آخر من العالم. وليس لها حتى اسم خاص بها: فمنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وهي تعرف بمدينة النبي ﷺ فحسب، وطيلة أكثر من ثلاثة عشر قرناً التقت هنا سيول لا تحصى من الحب بحيث اكتسبت جميع الأشكال والحركات نوعاً من التشابه العائلي، وجميع الفروق في المظاهر تتحد في لحن مشترك واحد.

هذه هي السعادة التي يشعر بها كل واحد هنا دائماً: ـ هذا التناغم الموحد. وبالرغم من أن الحياة في المدينة اليوم لا تصل إلا اتصالاً ظاهرياً بعيداً بما كان يهدف إليه النبي ﷺ، وبالرغم من أن الشعور الروحي بالإسلام قد رخص هنا، شأنه في كثير من أجزاء العالم الإسلامي الأخرى: فإن صلة عاطفية، لا يمكن وصفها، بماضيها الروحي العظيم قد بقيت حيّة حتى يومنا هذا. ليس هناك من مدينة أحبها الناس إلى هذا الحد من أجل شخصية واحدة، وليس هناك من رجل، مضى على وفاته أكثر من ألف وثلاثمئة سنة، قد أصاب مثل هذا الحب، ومن قبل هذا العدد من الأفئدة، مثل ذلك الذي يرقد تحت القبة العظيمة الخضراء.

ومع ذلك فإنه لم يدّع يوماً إلا أنه بشر، ولم ينسب المسلمون إليه الألوهية قط، كما فعل الكثيرون من أتباع الأنبياء الآخرين بعد وفاة نبيهم. والحق أن القرآن نفسه يزخر بالأقوال التي تؤكد إنسانية محمد: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات، أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾. كذلك أن القرآن الكريم قد دلل على عجز النبي المطلق تجاه العزة الألوهية بقوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء. إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾.

ولا ريب في أن من حوله لم يحبوه مثل هذا الحب إلا لأنه لم يكن سوى بشر فحسب، ولأنه عاش كما يعيش سائر الناس، يتمتع بملذات الوجود البشري ويعاني آلامه.

ولقد بقي هذا الحب بعد وفاته، وهو لا يزال حياً في قلوب أتباعه حتى اليوم،

كنشيد متعدد النغمات. إنه حي في المدينة ما يزال، ينطق به كل حجر من أحجارها، وإنك لتكاد تستطيع أن تلمسه بيديك، ولكنك لا تستطيع له صوغاً في كلمات. . .

ـ ٢ ـ

دخلت الأزقة الملتوية في أقدم قسم من المدينة. جدران البيوت الحجرية وسخة في العتمة، والنوافذ المشربية والشرفات متدلية فوق الدروب التي تشبه المضائق، والتي تضيق في أماكن بحيث لا يستطيع شخصان أن يجتازاها معاً إلا بعد جهد. ووجدت نفسي أمام الواجهة الحجرية الشهباء. من المكتبة التي بناها أحد العلماء الأتراك منذ مئة عام، وقد خيم على فنائها صمت يغري المرء بولوجها. فسرت فوق أرض الفناء المرصوفة بالحجارة، واجتزت الشجرة الوحيدة التي انتصبت في وسطه من غير أن تتحرك أغصانها، ثم دخلت القاعة المقببة وقد صفت فيها خزائن الكتب المغطاة بالزجاج ـ ألوف من الكتب المخطوطة بينها مخطوطات من أندر ما عرفته الثقافة الإسلامية ـ تنبىء بمجد انقضى كما انقضت ريح الأمس. .

وإذ أخذت أتطلع إلى تلك الكتب في غلافاتها الجلدية، أخذت بهول الفرق بين مسلمي الأمس ومسلمي اليوم.

ـ «ماذا يؤلمك يا ابني؟ ولمَ هذا اليأس يبدو على محياك؟»

واستدرت نحو الصوت، فرأيت صديقي الشيخ عبد الله بن بليهد جالساً على السجادة بين مشربيتين وعلى ركبتيه مجلد كان يقرأ فيه. ورحبت بي عيناه الحادتان الساخرتان بحرارة بينما قبلت جبهته وجلست إلى جانبه. إنه أعظم علماء نجد على الإطلاق، وبرغم الضيق النظري الذي تمتاز به النظرة الوهابية، فقد كان من أذكى الرجال الذين عرفتهم في العالم الإسلامي. والحق أن صداقته لي قد أسهمت إلى حد كبير في جعل حياتي في الجزيرة العربية يسيرة بهيجة، ذلك أن كلمته في مملكة ابن سعود لم تكن تعدلها كلمة أي رجل آخر باستثناء الملك نفسه وبعض أبنائه. وقد أغلق الشيخ الكتاب ثم قربني إليه ونظر إليّ مستفهماً، فقلت:

ـ «كنت أفكر، يا شيخ، في مبلغ ما ابتعدنا نحن المسلمين عن هذا» ـ وأشرت إلى الكتب فوق الرفوف ـ «إلى ما نحن فيه من بؤس وحطة».

فأجاب الشيخ: «يا بني، إننا لا نحصد إلا ما زرعنا. لقد كنا في ما مضى عظماء: والإسلام هو الذي جعلنا نتحقق بالعظمة. لقد كنا حملة رسالة، وكانت

عقولنا نيرة وأفئدتنا بصيرة ما بقينا أمناء على تلك الرسالة. ولكن ما إن نسينا الغاية التي من أجلها اختارنا الله حتى هوينا. لقد ابتعدنا كثيراً عن هذا» ـ وكرر إشارتي إلى الكتب ـ «لأننا ابتعدنا كثيراً عما علمناه إياه النبي ﷺ، منذ ثلاثة عشر قرناً...».

وبعد صمت قليل عاد فسألني قائلاً: «وإلى أين وصلت في عملك؟» فقد كان يعرف أنني كنت منصرفاً إلى بعض الدراسات المتصلة بالتاريخ الإسلامي القديم.

ــ «يجب أن أعترف، يا شيخ، بأنني لا أتفرغ له كثيراً هذه الأيام. إنني لا أستطيع أن أجد راحة في فؤادي ولست أعرف لهذا سبباً. وهكذا تراني قد نزعت من جديد إلى الهيام في الصحراء».

ونظر إليّ ابن بليهد شزراً بعينين باسمتين ـ تينك العينين الثاقبتين ـ وهو يعبث بلحيته المصبوغة بالحناء: «إن للعقل حقه كما أن للجسم حقه... يجب أن تتزوج».

وقد كنت أعرف، طبعاً، أن الزواج كان يعتبر في نجد الحل الأوحد لجميع ضروب الارتباك والحيرة ـ وهكذا لم أستطع أن أمسك ضحكتي.

ــ «ولكنك تعلم، جيداً، يا شيخ، إنه لم يمض على زواجي ثانية سوى عامين، وإنه قد ولد لي غلام هذا العام».

فهز الشيخ كتفيه وقال: «إذا وجد الرجل مع زوجته السعادة فإنه يلازم بيته ما استطاع إلى ذلك من سبيل، وأنت لا تلازم بيتك بمثل هذا المقدار، وفضلاً عن ذلك فإنه ما من رجل حتى الآن قد ضره أن يبني بزوجة ثانية». (كان له هو نفسه، برغم سنيه السبعين، ثلاث زوجات في ذلك الحين، وقد قيل لي إن صغراهن التي تزوجها قبل ذلك بشهرين اثنين لم تكن تتعدى السادسة عشرة من عمرها).

فقلت: «قد لا يضر الرجل أن يبني بزوجة ثانية، ولكن ما قولك في الزوجة الأولى؟ ألا يؤذيها ذلك؟»

ــ «يا ابني، إذا ملكت المرأة فؤاد الرجل، فإنه لا يفكر، ولا يحتاج إلى أن يفكر، في الزواج من أخرى. ولكن إذا لم تستطع أن تستحوذ على قلبه بكليته ـ فهل تفيد شيئاً إذا احتفظت به لنفسها وهو على هذه الصورة من فتور الهمة وفقدان الرغبة؟»

والحق أنني لم أجد ما أجيب به عن هذا السؤال. إن الإسلام يوصي، ما في ذلك شك، بالاكتفاء بزوجة واحدة، ولكنه يسمح للرجل بأن ينكح من النساء مثنى

وثلاث ورباع في الظروف الاستثنائية. وقد يخطر للمرء أن يسأل: لماذا لم يسمح الإسلام بالشيء نفسه للمرأة أيضاً؟ ولكن الجواب بسيط، فعلى الرغم من حقيقة الحب الروحية التي ولجت في الحياة الإنسانية إبّان نموها وتطورها، فإن السبب البيولوجي للدافع الجنسي هو، في الجنسين معاً، التناسل. وفي حين أن المرأة تستطيع أن تحمل في وقت واحد بولد، من رجل واحد فقط، وعليها أن تحمله تسعة أشهر قبل أن تستطيع أن تحمل آخر، فإن تركيب الرجل يسمح له بإنجاب ولد في كل مرة يتصل فيها بامرأة. وهكذا، ففي حين أن الطبيعة، لا يمكن أن تكون مبذرة لو أنها أحدثت غريزة مزواجة في المرأة، فإن ميل الرجل الغرزي إلى أن يتخذ لنفسه عدداً من الزوجات من وجهة النظر البيولوجية، له ما يبرره. ومن الواضح، من غير شك، أن العامل البيولوجي هو أحد وجوه الحب العديدة ـ وليس أهمها إطلاقاً. ومع ذلك، فهو عامل رئيسي، وبالتالي حاسم في تقرير المصير الزوجي. فالشريعة الإسلامية، بمقتضى الحكمة التي تأخذ الطبيعة البشرية بعين الاعتبار الكلي دائماً، لا تأخذ على عاتقها أكثر من صيانة الوظيفة الاجتماعية ـ البيولوجية للزواج (بما فيها طبعاً، العناية بالنسل أيضاً) فتسمح للرجل بأن يتخذ لنفسه أكثر من زوجة واحدة ولا تسمح للمرأة بأن تتخذ لنفسها أكثر من زوج واحد في الوقت نفسه، في حين أنها تترك للشريكين مسألة الزواج الروحية التي لا يمكن أن تقاس، وبالتالي تقع خارج دائرة الشريعة. فمتى كان الحب تاماً كاملاً فعندئذ تنعدم الرغبة عند كل منهما في الزواج ثانية، ومتى كان الرجل لا يحب زوجته من كل قلبه ولا يرغب مع ذلك في فقدها، فإن بإمكانه أن يتزوج بأخرى، شرط أن ترضى الأولى بوجود أخرى تقاسمها حبه، فإذا لم تستطع أن توافق على ذلك فإن بإمكانها أن تحصل على الطلاق منه فتصبح حرة في أن تتزوج رجلاً آخر. ومهما يكن فإنه لما كان الزواج في الإسلام عقداً مدنياً فحسب، فإن في مكنة الشريكين في الزواج أن يلجآ دائماً إلى الطلاق، خصوصاً وأن الوصمة التي تلصق بالطلاق، سواء بشدة أقل أو أكثر، في المجتمعات الأخرى معدومة في المجتمع الإسلامي (باستثناء المسلمين الهنود الذين تأثروا بهذا الشأن طوال قرون من الاتصال بالمجتمع الهندوسي الذي يمنع فيه الطلاق منعاً باتاً).

إن الحرية التي تمنحها الشريعة الإسلامية كلاًّ من الرجل والمرأة على حد سواء لعقد الزواج أو حل هذا العقد يفسر السبب الذي من أجله تعتبر هذه الشريعة الزنا من أقبح الآثام: ذلك أنه تجاه هذا التسامح وهذه الحرية لا يمكن أن يكون هناك إطلاقاً أيما عذر للوقوع في حبائل العاطفة أو الشهوة. صحيح أن العادات الاجتماعية قد جعلت من العسير جداً على المرأة، في عصور الانحطاط الإسلامي، أن تمارس

حقها في الطلاق بمثل الحرية التي أرادها الشارع: ولكن اللوم في هذا لا يقع على الإسلام بل على التقاليد والعادات مثلما أن العادات والتقاليد، لا الشريعة الإسلامية، هي المسؤولة عن العزلة التي فرضت على المرأة كل هذه المدة في كثير من البلدان الإسلامية، ذلك أننا لا نستطيع أن نجد، لا في القرآن ولا في سنة النبي ﷺ، أيما أمر بمزاولة هذه العادة التي أخذها المسلمون في ما بعد عن الروم.

* * *

وقطع الشيخ ابن بليهد عليّ تأملاتي بنظرة عارفة وقال: «لا حاجة بك إلى اتخاذ قرار عاجل، فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك».

ـ ٣ ـ

كان الصمت يخيم على المكتبة، وكنت والشيخ ابن بليهد وحدنا في القاعة المقببة. ومن مسجد مجاور سمعنا النداء لصلاة المغرب. وبعد لحظة تردد النداء نفسه من مآذن مسجد النبي الخمس التي كانت تحرس القبة الخضراء بكثير من المهابة.

وقال الشيخ ابن بليهد: «تعال، لنذهب إلى الحرم لنصلي المغرب».

* * *

كانت الصفوف الطويلة من السجاد مفروشة على حصباء المربع المكشوف داخل الحرم. وقد جلست عليها صفوف من الرجال يقرأون القرآن أو يتحدثون بعضهم إلى بعض، يتفكرون أو يستريحون ريثما يؤدون صلاة المغرب. وكان ابن بليهد يبدو وكأنه مستغرق في دعاء صامت.

ومن أقصى المسجد سمعت صوتاً يتلو، كما هي العادة دائماً قبل صلاة المغرب، آيات من القرآن الكريم، كان يقرأ في ذلك اليوم السورة السادسة والتسعين ـ أول ما أوحي إلى النبي ﷺ ـ التي مطلعها: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. . .﴾ وإنما بهذه الكلمات أرسل الله نداءه لأول مرة إلى محمد في غار حراء قرب مكة.

لقد كان يتعبد متوحداً، كما فعل مراراً قبل ذلك، ويصلي من أجل الهداية والحق، عندما رأى فجأة ملكاً يظهر أمامه فيأمره: «اقرأ!» وإذ كان محمد، شأن معظم

أبناء بيئته، لم يتعلم القراءة ولم يكن يعرف، فضلاً عن ذلك، ما إذا كان ينتظر منه أن يقرأ، فقد أجاب: «ما أنا بقارىء». وعندئذ ضمه الملك إلى صدره ضمة شديدة شعر محمد معها أنه فقد كل قوته، ثم أرسله وأعاد عليه الأمر: «اقرأ!»، فأجاب محمد مرة أخرى: «ما أنا بقارىء». فأخذه الملك وضمه ثانية بقوة إلى أن أصبح ليناً كالعجينة وظن أنه هالك، ومرة أخرى جاء الصوت الراعد: «اقرأ!» وعندما أجاب محمد للمرة الثالثة والألم آخذ منه كل مأخذ: «ما أنا بقارىء. . .» أرسله الملك ونطق:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم. . .﴾.

وهكذا، بإلماع إلى وعي الإنسان وعقله ومعرفته، بدأ تنزيل القرآن، ذلك التنزيل الذي قدر له أن يستمر ثلاثاً وعشرين سنة، حتى وفاة النبي ﷺ في المدينة وله من العمر ثلاث وستون سنة.

وهذه القصة عن خبرة محمد الأولى بالوحي تذكر المرء، بطريقة ما، بمغالبة يعقوب للملك كما ترويها التوراة. فبينما أبدى يعقوب المقاومة، فإن محمداً أسلم نفسه إلى ضمة الملك بخشية وألم «حتى بلغ منه الجهد» ولم يبق فيه شيء سوى القدرة على الإصغاء إلى صوت لم يعد يستطيع أن يتبين ما إذا كان منبعثاً من الخارج أو من الداخل. إنه لم يكن قد عرف بعد أنه كان عليه، منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يكون ممتلئاً وفارغاً في وقت واحد: كائناً بشرياً مليئاً بالرغبات والدوافع الإنسانية وبوعي حياته الخاصة ـ وفي الوقت عينه أداة طيعة لتلقي رسالة. إن كتاب الحقيقة الأبدية غير المنظور ـ الحقيقة التي تسبغ وحدها معنى على جميع الأحداث والأشياء الحسية ـ قد كشف لبصيرته بانتظار أن يفهمه، وقيل له أن ﴿اقرأ﴾ منه للعالم حتى يفهم الآخرون «ما لم يعلموا» وما لم يكونوا في الحق يستطيعون فهمه بأنفسهم.

وأصابت محمداً رعدة الخوف والوجل مما كانت تتضمن تلك الرؤيا من معان. فقد ظن نفسه، كما فعل موسى من قبله أمام الأيكة المحترقة، إنه لم يكن جديراً بأن يتبوأ مكانة النبوة السامية، وارتعد عندما خطر له أن الله ربما يكون قد اختاره لها. ويقول لنا التاريخ إنه عاد إلى بلدته وبيته، وإنه نادى زوجته خديجة قائلاً: «زملوني، زملوني!»، وذلك أنه كان يرتجف كالغصن في مهب الريح، فزملته حتى ذهب عنه الروع تدريجياً، وعندئذ قص عليها ما حدث له وقال: «إني لأخشى على نفسي». ولكن خديجة، بصفاء ذهن لا يمكن أن يمنحه سوى الحب، عرفت حالاً أنه كان خائفاً من ضخامة المهمة التي كانت تنتظره، وأجابت: «لا بالله، إن الله لن يلقي

عليك مهمة لن تستطيع تحقيقها، ووالله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الحق». ولكي تطمئنه ذهبت به إلى ابن عمها ورقة، وكان حكيماً قد تنصر منذ سنين عديدة، وكان كما يقول التاريخ، يستطيع أن يقرأ التوراة بالعبرانية، وكان في ذلك الوقت قد فقد بصره وأصبح شيخاً عجوزاً. وقالت خديجة: «يا ابن عم، استمع لابن أخيك هذا!» فلما فرغ محمد من إعادة قصته رفع ورقة يديه مذعوراً وقال: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً! ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك!» فسأله محمد وقد استولى عليه الدهش: «أو مخرجيَّ هم؟» فأجاب ورقة: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

وقد عادوه طيلة ثلاث عشرة سنة، حتى هاجر أخيراً من مكة إلى المدينة، ذلك أن المكيين كانوا دائماً قساة القلوب...

* * *

ولكن، مع ذلك هل من الصعب أن نفهم قسوة القلب التي أظهرها معظم المكيين عندما سمعوا لأول مرة بدعوة محمد؟ لقد كانوا مجردين من كل دافع روحي، ولذا فإنهم لم يكونوا يعرفون إلا المساعي المادية، ولم يكونوا يعتقدون بإمكان توسيع آفاق الحياة إلا من طريق توسيع الوسائل التي بواسطتها يمكن أن تزاد الرفاهية الخارجية. ولا شك أن أمثالهم ما كانوا ليطيقوا احتمال التفكير بوجوب إسلام أنفسهم إسلاماً كلياً خالصاً إلى قضية أدبية أخلاقية ـ ذلك أن الإسلام يعني حرفياً «إسلام النفس إلى الله» ـ وفوق ذلك فإن تعاليم محمد هددت نظام الأمور القائم والتقاليد القبلية التي كانت عزيزة جداً على قلوب المكيين. وعندما شرع بالتبشير بوحدانية الله وأعلن أن عبادة الأصنام أعظم الآثام لم يروا في ذلك مجرد هجوم على معتقداتهم التقليدية، بل أيضاً محاولة لهدم نظام حياتهم الاجتماعي. كذلك لم يحبوا، بصورة خاصة، تدخل الإسلام في ما كانوا يعتبرونه أحداثاً «دنيوية» صرفاً خارجة عن صلب الدين؟ كالاقتصاد وقضايا العدالة الاجتماعية وسلوك الناس بوجه عام ـ ذلك أن هذا التدخل لم يتفق تماماً مع عاداتهم التجارية ودعاواتهم المتطرفة ونظراتهم إلى المصلحة القبلية. لقد كان الدين، في نظرهم مسألة اتجاه لا مسألة سلوك...

ولقد كان هذا عكس ما في ذهن النبي العربي تماماً، عندما كان يتكلم عن الدين. كان يرى أن العادات والمؤسسات الاجتماعية تقع ضمن دائرة الدين، ولا بدّ

من أن الدهش كان يستولي عليه فيما إذا قال له قائل إن الدين مسألة تتعلق بالضمير الشخصي فقط، ولا تمت بصلة إلى السلوك الاجتماعي. وهذه الصفة المحيرة لرسالته هي التي جعلت، أكثر من أي شيء آخر، وثنيي مكة ينفرون منها ذلك النفور الشديد. ولولا «تدخله بالمسائل الاجتماعية، إذن لكان يمكن أن يكون استياؤهم ونفورهم منه أخف إلى حد كبير. وما من شك في أن الإسلام ربما كان قد أقض مضاجعهم من حيث تعارضهم مع آرائهم الدينية، ولكن الأرجح أنهم ربما كانوا صبروا عليه واحتملوه بعد شيء من التذمر والتبرم، كما صبروا من قبل على تبشير الدين المسيحي - لو أن النبي حذا حذو رجال الدين المسيحي واقتصر على حث الناس على الإيمان بالله، والدعاء إليه من أجل خلاصهم، واصطناع سلوك حسن في أمورهم الخاصة. ولكن النبي العربي لم يحذُ حذو الدين المسيحي، ولم يقتصر على مسائل الإيمان والطقوس والخلق الشخصي. وكيف كان له أن يقتصر على ذلك؟ ألم يأمره ربه بأن يدعو: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة؟﴾

لقد قدم القرآن في هذه الجملة «حسنة الدنيا» على «حسنة الآخرة» أولاً، لأن الحاضر يتقدم المستقبل. وثانياً، لأن الإنسان مركب بحيث يجب أن يسعى إلى إرضاء حاجاته الجسمانية والدنيوية قبل أن يستطيع أن يصغي إلى نداء الروح وقبل أن يستطيع أن يطلب حسنة الآخرة. إن رسالة محمد لم تدع الروحية كشيء منفصل عن الحياة الجسمانية أو مضاد لها، بل ارتكزت بالكلية إلى المفهوم القائل بأن الروح والجسد ليسا سوى وجهين مختلفين لحقيقة واحدة - الحياة الإنسانية. وإذن فإنه، بطبيعة الحال، لم يستطع أن يكتفي بتربية اتجاه أدبي في الفرد، بل كان عليه أن يهدف إلى ترجمة هذا الاتجاه إلى نظام اجتماعي معين من شأنه أن يؤمن لكل عضو من أعضاء المجتمع أقصى حد من الخير الجسماني والمادي، وبالتالي أكبر فرصة للنمو الروحي.

لقد بدأ بأن قال للناس إن «العمل من الإيمان»، ذلك أن الله لم يكن يعنيه من الإنسان ما يعتقده فحسب، بل ما يعمله أيضاً، وبخاصة أعماله التي تؤثر في غيره من الناس. لقد بشر النبي ﷺ، بكل ما آتاه الله من براعة في الوصف والتصوير، ضد ظلم القوي للضعيف وأورد ما لم يسمع به من قبل من أن الرجال والنساء سواء أمام الله، وأن جميع الواجبات الدينية مفروضة على الرجل والمرأة على حد سواء. والحق أنه ذهب إلى أبعد من ذلك فأعلن، منزلاً بذلك الذعرَ والهلع في قلوب وثنيي مكة، إن المرأة شخص بملء حقها وليس لمجرد صلتها بالرجل كأم أو زوجة أو أخت أو

ابنة؛ وأنها، لذلك، من حقها أن تقتني ملكاً وأن تتعاطى التجارة على حسابها ومسؤوليتها وأن تهب نفسها لمن تشاء عن طريق الزواج! لقد أنكر جميع ألعاب الحظ وجميع أنواع المسكرات، ذلك أن القرآن الكريم يقول في هذا: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾، وفوق كل ذلك فقد وقف ضد استثمار الإنسان للإنسان استثماراً جائراً وضد الربا مهما كان معدل الفائدة، وضد الاحتكارات الخاصة، وضد المقامرة باحتياجات الناس الآخرين ـ وهو ما نسميه الآن بالمضاربة، وضد الحكم على الأشياء بالصواب أو الخطأ بمنظار الشعور القبلي ـ وهو ما نسميه باللغة الحديثة: «القومية». والحق أنه أنكر على المشاعر والاعتبارات القبلية كل شرعية أخلاقية، فقد كان يرى أن الدافع الصحيح الوحيد ـ أي المسموح به أدبياً ـ للجماعة ليس كونهم، عرضاً، من أصل مشترك، بل ارتضاؤهم ارتضاء حراً واعياً بنظرة مشتركة إلى الحياة، و مقياسٍ مشتركٍ للقيم الأخلاقية.

والواقع أن النبي أصر على أن ينقح تنقيحاً شاملاً دقيقاً جميع المفاهيم الاجتماعية تقريباً، تلك المفاهيم التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين ثابتة لا تتغير. وهكذا، كما يقال اليوم: «دخل الدين في السياسة» مما يصح أن يسمى بدعة ثورية في تلك الأيام.

وقد كان وثنيو مكة ـ شأن معظم الناس في جميع العهود والأزمنة ـ مقتنعين بأن التقاليد والعادات الاجتماعية وطرق التفكير التي نشأوا عليها كانت أفضل ما يمكن أن يتصور، ولذا كان طبيعياً أن يستنكروا محاولة النبي إقحام الدين في السياسة ـ أي أن يجعل «الشعور بالله» نقطة الانطلاق في التبديل الاجتماعي، واعتبروها فاسدة تمردية و «مخالفة لكل قوانين اللياقة والحشمة». وعندما اتضح أنه لم يكن مجرد حالم بل يعرف كيف ينفخ في الناس روح العمل، لجأ حماة النظام القائم إلى المعاكسة العنيفة وبدأوا يضطهدونه ويعذبونه وأتباعه. . .

لقد تحدى جميع الأنبياء، كل بطريقته، «النظام القائم»، فهل يكون من العجيب جداً، إذن، أن يكونوا كلهم تقريباً، موضع اضطهاد أقوامهم، وسخريتهم؟ ـ وأن خاتمهم محمداً، لا يزال موضع السخرية في الغرب حتى اليوم؟

ـ ٤ ـ

وما إن انتهت صلاة المغرب حتى أصبح الشيخ ابن بليهد محور دائرة بدو وحضر من النجديين الراغبين في الإفادة من علمه وحكمته الواسعة، بينما كان هو

نفسه يتوق دائماً إلى سماع ما يمكن للناس أن يقصوا عليه من اختباراتهم أثناء أسفارهم في الأصقاع النائية، فالأسفار الطويلة ليست شيئاً غير عادي عند النجديين. إنهم يسمون أنفسهم «أهل الشداد» فالحق أن معظمهم قد ألفوا الشداد بأكثر مما ألفوا فرشهم في بيوتهم. ولا بد أن هذا الشداد كان مألوفاً بأكثر من الفراش لدى البدوي الشاب من قبيلة حرب، الذي انتهى منذ لحظة من سرده على مسامع الشيخ ما كان قد حدث له في أثناء رحلته الحديثة إلى العراق حيث رأى، لأول مرة الفرنج.

ـ «قل لي يا شيخ، لماذا يلبس الفرنج دائماً القبعات التي تظلل عيونهم؟ وكيف يمكنهم أن يروا السماء؟»

فأجاب الشيخ وهو يغمز إليّ: «إن هذا هو تماماً ما لا يريدون أن يروه. ولعلهم يخشون أن تذكرهم رؤية السماء بالله، وهم لا يحبون أن يذكّروا بالله في غير أيام الأحد...».

وضحكنا جميعاً. ولكن البدوي الشاب أصر على معرفة المزيد: «إذن لماذا نرى الله يغدق من كرمه عليهم فيعطيهم الثروة ويحرمها المؤمنين؟»

ـ «آه... الجواب بسيط يا ابني. إنهم يعبدون الذهب، وهكذا فإن معبودهم هو في جيوبهم... ولكن صديقي هذا ـ ووضع الشيخ يده على ركبتي ـ يعرف عن الفرنج أكثر مما أعرف أنا، ذلك أنه منهم: أن الله تعالى قد أخرجه من تلك الظلمات إلى نور الإسلام».

فسألني البدوي الشاب المتلهف: «هل هذا صحيح، يا أخي؟ هل صحيح إنك كنت نفسك فرنجياً؟» ـ وعندما أومأت له برأسي، أن نعم، قال هامساً: «الحمد لله، الحمد لله الذي يهدي من يشاء... قل لي، يا أخي، لمَ الفرنج غافلون عن الله إلى هذا الحد؟»

فأجبت: «إن هذه قصة طويلة لا أستطيع أن أوضحها في بضع كلمات. وكل ما أستطيع أن أقوله لك الآن إن عالم الفرنج قد أصبح عالم الدجال، ذلك البراق، الخداع. هل سمعت قط بنبوءة النبي ﷺ عندما قال إنه سيأتي يوم تتبع فيه معظم شعوب الأرض الدجال، اعتقاداً منهم أنه إله؟»

وعندما رأيت نظرات التساؤل في عينيه، قصصت عليه، وأمارات الموافقة بادية على وجه ابن بليهد، النبوءة عن ظهور ذلك الكائن العجيب، الدجال، الذي يكون أعور، إلا أنه يتمتع بقوة خفية ينعم بها الله عليه. وهو يسمع بأذنيه ما ينطق به في

أقصى زوايا الأرض، ويرى بعينه الواحدة كل ما يحدث على مسافات غير محدودة. وهو يطير حول الأرض في أيام، ويجعل كنوزاً من الذهب والفضة تظهر فجأة من تحت الأرض، وينزل الغيث وينبت الزرع بأمره، ويميت ويحيي من جديد، حتى يعتقد كل من هم ضعاف الإيمان أنه هو الله نفسه فيخرون أمامه ساجدين. ولكن أقوياء الإيمان يقرأون ما هو مكتوب على جبهته بأحرف من نار: كافر ـ فيعرفون أنه ليس إلا وهماً وخدعة لامتحان الإنسان في إيمانه.

وبينما نظر إليّ صديقي البدوي بعينين مفتوحتين وتمتم: «أعوذ بالله»، التفتّ إلى ابن بليهد وقلت:

ـ «ألا ينطبق هذا المثل، يا شيخ، على المدنية الصناعية الفنية الحديثة؟ إنها «عوراء»: أعني أنها تنظر إلى ناحية واحدة من الحياة ـ الرقي المادي ـ غافلة عن جانبها الروحي. وبمعرفة أعاجيبها الميكانيكية تمكن الإنسان من أن يرى ويسمع على مسافات أطول جداً مما تمكنه قدرته الطبيعية أن يرى ويسمع، وأن يقطع مسافات لا نهاية لها بسرعة خارجة عن نطاق التصور. إن خبرتها العلمية «تنزل الغيث وتنبت الزرع» وتكشف من تحت الأرض عن كنوز لا تخطر ببال، ويعيد دواؤها الحياة إلى من يبدو وكأنه مقضي عليه بالموت المحتم بينما تبيد حروبها وأهوالها العلمية الحرث والنسل. وإن تقدمها المادي من القوة والبريق بحيث إن ضعاف الإيمان آخذون في الاعتقاد بأنها إلّه بنفسها. إلا أن أولئك الذين ظلوا واعين لحالتهم يدركون بوضوح أن عبادة الدجال تعني الكفر بالله. . . .».

ـ «صدقت يا محمد، صدقت». وهكذا صرخ ابن بليهد وقد أخذت الحماسة منه كل مأخذ بينما ربت على ركبتي. «لم يخطر ببالي قط أن أنظر إلى نبوءة الدجال على هذا الضوء. ولكنك تقول الحق! فبدلاً من أن يدركوا أن تقدم الإنسان ورقي العلوم هما هبتان من الله، فإن أكثر فأكثر من الناس قد أخذوا، في جنونهم، يعتقدون أنها غاية في نفسها وأنها جديرة بالعبادة».

* * *

واستغرقت في التفكير. حقاً إن الإنسان الغربي قد أسلم نفسه لعبادة الدجال. لقد فقد منذ وقت طويل براءته، وفقد كل تماسك داخلي مع الطبيعة. لقد أصبحت الحياة في نظره لغزاً. إنه مرتاب شكوك، ولذلك فهو منفصل عن أخيه متفرد بنفسه. ولكي لا يهلك في وحدته هذه، فإن عليه أن يسيطر على الحياة بالوسائل الخارجية،

وحقيقة كونه في قيد الحياة لم تعد وحدها قادرة على أن تشعره بالأمن الداخلي؛ ولذا فإن عليه أن يكافح دائماً، وبألم، في سبيل هذا الأمن من لحظة إلى أخرى. وبسبب من أنه فقد كل توجيه ديني وقرر الاستغناء عنه، فإن عليه أن يخترع لنفسه باستمرار حلفاء ميكانيكيين: ومن هنا هذا الاندفاع الثائر اليائس في تقنيته. إنه يخترع كل يوم آلات جديدة يعطي كلا منها بعض روحه كيما تنافح في سبيل وجوده. وهي إنما تفعل ذلك حقاً، ولكنها في الوقت نفسه تخلق له كل يوم حاجات جديدة، وأخطاراً جديدة، ومخاوف جديدة ـ وظمأ لا يروى إلى حلفاء جدد آخرين أكثر اصطناعية، وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الخالقة التي تزداد مع الأيام قوة وجرأة وغرابة، وتفقد الآلة غرضها الأصلي ـ أن تصون وتغني الحياة الإنسانية ـ وتتطور إلى إلّه قائم بذاته، إلى صنم مفترس من فولاذ. والظاهر أن كهنة هذا المعبود والمبشرين به غير مدركين أن سرعة التقدم التقني الحديث هي نتيجة ليس لنمو المعرفة الإيجابي فحسب، بل لليأس الروحي أيضاً، وأن الانتصارات المادية العظمى التي على ضوئها يعلن الإنسان الغربي أنه سيتحقق بالسيادة على الطبيعة هي، في صميمها، ذات صفة دفاعية ـ فخلف واجهتها البراقة يكمن الخوف من الغيب.

إن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية. لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة، دون أن تتمكن من أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظرياً، يخضع نفسه للعقل. وبالرغم من كل ما حققته من تقدم ثقافي فإنها لم تستطع حتى الآن أن تتغلب على استعداد الإنسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي أو نداء للحرب، مهما كان سخيفاً باطلاً، يخترعه الحاذقون من زعماء الثورات. لقد رفعت المدنية الغربية «منظمة» التقنية إلى فن سام، ومع ذلك فإن الأمم الغربية تدلل كل يوم على عجزها المطلق عن السيطرة على القوى التي أوجدها علماؤها الرياضيون، فالأمم الغربية قد وصلت الآن إلى درجة أصبحت معها الإمكانات العلمية غير المحدودة تصاحب الفوضى العلمية. وإذ كان الغربي يفتقر إلى كل توجيه ديني صادق: فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبياً من ضياء المعرفة الذي تسكبه علومه ـ وهي لا شك عظيمة ـ فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾.

ومع ذلك فالغربيون، في تعاظم عماهم، مقتنعون بأن مدنيتهم هي التي ستجلب النور والسعادة للعالم... في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فكروا في

نشر الرسالة المسيحية في العالم أجمع، أما وقد خمدت حماستهم الدينية في هذا القرن العشرين إلى درجة أصبحوا معها لا يسمحون للدين بأن يؤثر في الحياة العملية، فقد بدأوا بدلاً من ذلك يبشرون بالرسالة المادية«لطريقة الحياة الغربية»: الاعتقاد بأن جميع المشاكل الإنسانية يمكن حلها في المصانع والمختبرات ومكاتب الأخصائيين.

وهكذا ساد الدجّال!..

ـ ٥ ـ

وساد الصمت مدة طويلة، ثم عاد الشيخ إلى الكلام فقال: «هل أن إدراكك لما يعني الدجال هو الذي جعلك تعتنق الإسلام، يا ابني؟»

ـ «تقريباً، كما أعتقد، ولكن في المرحلة الأخيرة».

ـ «المرحلة الأخيرة... نعم: لقد أخبرتني مرة بقصة طريقك إلى الإسلام ـ ولكن متى وكيف، تماماً تبين لك أن الإسلام يمكن أن يكون غايتك؟»

ـ «متى؟ دعني أفكر... أعتقد أن ذلك كان في يوم من أيام الشتاء في أفغانستان، عندما فقد جوادي حدوة فكان عليّ أن أقصد إلى حداد في قرية منحرفة عن طريقي، وهناك قال لي رجل: ولكنك مسلم... إلا أنك لا تدرك أنت نفسك ذلك... كان ذلك قبل ثمانية أشهر تقريباً من اعتناقي الإسلام... وكنت في طريقي من هراة إلى كابل.

* * *

كنت في طريقي من هراة إلى كابل، في أواسط أفغانستان، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٢٥، بعد حوالى عامين من السفر إلى إيران وأفغانستان، وكان بصحبتي خادم وجندي أفغاني، عبر الوديان المغمورة بالثلج في جبال هندوكوش في أواسط أفغانستان، كان الجو بارداً والثلج يتلألأ، والجبال الشامخة منتصبة من كل جانب.

وقد كنت حزيناً ذلك اليوم، وفي الوقت نفسه تغمرني موجة غريبة من السعادة: كنت حزيناً لأنه خيل إليّ أن حجباً صفيقة كانت تفصل بين الناس الذين ما زلت عائشاً بينهم منذ بضعة أشهر وبين النور والقوة والنمو التي كان في مكنة دينهم أن يوفرها لهم. وكنت سعيداً لأن نور ذلك الدين وقوته ونموه كانت قريبة مني قرب تلك الجبال الشامخة، أكاد ألمسها بيدي.

وبدأ حصاني يعرج، وسمعت صليلاً عند حافره. لقد أفلتت حدوته وأصبحت عالقة بمسمارين وحسب.

وسألت رفيقنا الأفغاني: «هل هناك قرية على مقربة منا نستطيع أن نجد فيها حداداً؟»

ـ «إن قرية (ده زانجي) تبعد أقل من ثلاثة أميال. إن فيها حداداً، وكذلك قلعة حاكم منطقة هزاراجات».

وهكذا اتجهنا فوق الثلج المتلألىء ووببطء كي لا يصاب جوادي بالتعب، صوب ده زانجي.

كان حاكم المنطقة شاباً قصير القامة على محياه أمارات المرح والبهجة، يسر باستضافة رجل غريب يؤنسه في وحدته في قلعته المتواضعة. ومع أنه كان يمت بصلة النسب القوية إلى الملك أمان الله، فقد كان من أكثر الرجال الذين لقيتهم أو كان مقدراً لي أن ألقاهم في أفغانستان تواضعاً. لقد أجبرني على أن أبقى معه طيلة يومين.

وفي مساء اليوم الثاني جلسنا، كالعادة، إلى مائدة سخية، وبعد ذلك غنى لنا رجل من القرية الأغاني البلدية بمصاحبة عود ذي ثلاثة أوتار. كان يغني بلغة«باشتو»[1] التي لم أكن أفهمها، ولكن بعض الكلمات الفارسية التي كان ينطق بها اندفعت في قوة نحو مؤخرة الغرفة الدافئة المفروشة بالسجاد وبريق الثلج البارد الذي كان يلج من النوافذ. كان يغني، كما أذكر، قتال داود مع جالوت ـ صراع قوة الإيمان ضد القوة الوحشية ـ وبرغم أنني لم أستطع أن اتتبع كلمات الأغنية، فقد فهمت موضوعها، ذلك أنها بدأت في وداعة وخضوع، ثم ارتفعت في نبرة عنيفة من الانفعال والألم، وانتهت إلى صيحة من الظفر والانتصار.

وعندما انتهت الأغنية لاحظ الحاكم فقال: «لقد كان داود ضعيفاً. . . ولكن إيمانه كان عظيماً».

ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أضيف: «وأنتم كثيرون. . . ولكن إيمانكم ضعيف».

---

(١) لغة العرف السائد في أفغانستان. (المعرب)

ونظر إليّ مضيفي دهشاً. أما أنا فقد ارتبكت لما صدر عني بصورة لا إرادية تقريباً، وأسرعت إلى تفسير ما قصدت إليه، وذلك بتوجيه سيل جارف من الأسئلة:

ـ «كيف حدث أنكم أيها المسلمون قد فقدتم ثقتكم بأنفسكم، تلك الثقة بالنفس التي مكنتكم في الماضي من نشر دينكم، في أقل من مئة عام، من جزيرة العرب حتى الأطلسي غرباً وإلى أعماق الصين شرقاً ـ وإنكم اليوم تسلمون أنفسكم بمثل هذه السهولة ومثل هذا الضعف إلى أفكار الغرب وعاداته؟ لماذا لا تستطيعون، وأنتم الذين أنار أجدادكم العالم، بالعلم والفن في وقت كانت أوروبا فيه غارقة في البربرية والجهل، أن تستجمعوا شجاعتكم للعودة إلى دينكم التقدمي المنير، كيف حدث أن أتاتورك، الذي ينكر على الإسلام كل قيمة، قد أصبح في نظركم أنتم المسلمين رمز «الانبعاث الإسلامي؟»

وظل مضيفي صامتاً، بينما أخذ الثلج يتساقط في الخارج، ومرة أخرى شعرت بتلك الموجة من مزيج الحزن والسعادة التي كنت شعرت بها لدى اقترابي من ده زانجي، وأحسست بذلك المجد الذي ولى، وبهذا الخزي الذي كان الآن يكتنف هؤلاء الأبناء المتأخرين لتلك المدنية العظيمة.

وأردفت: «قل لي ـ كيف حدث أن دين نبيكم، وكل ما فيه من البساطة والوضوح، قد دفن تحت أنقاض من تأملات متحذلقيكم ومماحكاتهم العقيمة؟ كيف حدث أن أمراءكم وكبار اقطاعييكم يمرحون في الرخاء والنعيم، بينما يعيش الكثيرون من إخوانهم المسلمين في فقر وقذارة يفوقان الوصف ـ مع أن نبيكم قد لقنكم أنه «لا يؤمن أحدكم إذا بات شبعان وجاره جائع؟» هل تستطيع أن تقول لي لمَ دفعتم النساء إلى مؤخرة حياتكم ـ مع أن النساء من حول النبي وصحابته اشتركن ذلك الاشتراك الرائع الأخاذ في حياة رجالهن؟ كيف حدث أن كثيراً جداً منكم، أيها المسلمون، جهلة وأن قليلاً جداً منكم يعرفون مجرد القراءة والكتابة ـ مع أن نبيكم أعلن أن «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ومع أنه قال لكم إن «فضل العالم على العابد كفضل القمر إذا بدر على سائر الكواكب؟»

وكان مضيفي لا يزال يحدق فيّ دون أن ينطق بكلمة، وبدأت أعتقد أن ثورتي قد غاظته وأساءت إليه إساءة عميقة، بينما أخذ العجب صاحب العود وكان لا يعرف الفارسية جيداً بحيث يفهم ما أقول، لرؤيته غريباً يتحدث إلى الحاكم بمثل تلك الحدة وذلك الانفعال. وأخيراً لف الحاكم نفسه بعباءته الواسعة الصفراء بصورة أكثر إحكاماً، كأنما كان يشعر بالبرد، ثم همس:

ـ «ولكن. . . أنت مسلم. . . ».

فضحكت وأجبت: «كلا. إنني لست بمسلم، ولكني رأيت في الاسلام قدراً كبيراً جداً من الجمال بحيث إنني أستشيط غضباً أحياناً لرؤيتكم تضيعونه. سامحني إذا كنت قد تكلمت بجفاء، فأنا لم أتكلم كعدو».

فهز مضيفي رأسه وقال: «كلا. . . إن الأمر هو كما قلت. أنت مسلم، ولكنك لا تعرف ذلك. . . لماذا لا تقول الآن وفي هذا المكان: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فتصبح مسلماً فعلاً، كما أنت الآن في صميمك! قلها يا أخي، قلها الآن، أذهب معك غداً إلى كابل وآخذك إلى الأمير فيستقبلك بذراعين مفتوحتين كواحد منا. سوف يهبك البيوت والحدائق والمواشي وسنحبك كلنا، قلها يا أخي. . . ».

ـ «إني إذا قلتها يوماً، فسأقولها لأني مطمئن إليها، لا من أجل بيوت الأمير وحدائقه».

فألح قائلاً: «ولكنك تعرف الآن عن الإسلام بأكثر مما يعرفه معظمنا عنه. أي شيء لم تفهمه بعد؟»

ـ «ليست المسألة مسألة فهم بل اقتناع: اقتناعي بأن القرآن هو حقاً كلام الله وليس مجرد خلق عبقري أبدعه عقل بشري عظيم».

ولكن كلمات صديقي الأفغاني لم تفارقني، فعلاً، طيلة الأشهر التي تلت.

ومن كابل ركبت أسابيع قاطعاً جنوبي أفغانستان ـ عبر مدينة غزنة القديمة، التي خرج منها محمود الكبير منذ ألف سنة تقريباً كي يغزو الهند: عبر قندهار، عبر الصحراء في زاوية أفغانستان الجنوبية الغربية، ومنها عدت إلى هراة من حيث بدأت رحلتي في أفغانستان.

وفي عام ١٩٢٦، في أواخر الشتاء، غادرت هراة وبدأت المرحلة الأولى من رحلتي الطويلة إلى أرض الوطن. كان عليّ أن آخذ القطار من حدود الأفغان إلى مرو في تركستان الروسية فسمرقند فبخارى فطشقند، ومن ثم عبر سهول تركمان الواسعة إلى جبال الأورال فموسكو.

وكانت أول انطباعاتي (وأطولها بقاء) عن روسيا السوفياتية ـ في محطة السكة الحديدية في مرو ـ إعلاناً كبيراً جذاباً يصف شاباً من عامة الشعب في ثوبه العمالي

الأزرق يرفس بحذائه رجلاً مضحكاً ذا لحية بيضاء مرتدياً ثياباً فضفاضة خارجاً من سماء ملبدة بالغيوم. وكانت القصة الروسية تحت الإعلان تقول: «هكذا طرد عمال الاتحاد السوفياتي الله من عليائه! نشرته الجمعية اللادينية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية».

مثل هذه الدعاية، الموافق عليها رسمياً من قبل الدولة ضد الدين، كانت تظهر في كل مكان: في الأماكن العامة وفي الشوارع، وبجوار بيوت العبادة في معظم الأحيان. وقد كانت معظم هذه البيوت في تركستان طبعاً، من المساجد. ففي حين أن صلاة الجماعة لم تكن ممنوعة بصورة علنية فإن السلطات كانت تفعل كل ما من شأنه أن يصد الناس عن حضورها. وكثيراً ما قيل لي، وبخاصة في بخارى وطشقند، إن جواسيس الشرطة كانوا يدونون اسم كل شخص يدخل إلى المسجد.

وشعرت بالفرح عندما اجتزت الحدود البولندية بعد أسابيع من التجوال في روسيا الآسيوية والأوروبية، وقصدت رأساً إلى فرانكفورت حيث مثلت في دائرة اختصاصي التابعة لصحيفتي. وقد وجدت، بعد قليل، أن اسمي، في إبان غيبتي قد اشتهر وأنني أصبحت أعتبر واحداً من أبرز مراسلي صحف أوروبا الوسطى في الخارج. وقد كان بعض مقالاتي قد لفت أنظار مشاهير المستشرقين ولقي أكثر من مجرد تقدير عابر، فدعيت إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات في الأكاديمية الجغرافية السياسية في برلين ـ حيث قيل لي إنه لم يسبق لأيما رجل في مثل سني (لم أكن عندئذ قد بلغت السادسة والعشرين) أن منح مثل هذا الامتياز. كذلك كانت صحف كثيرة أخرى قد استأذنت «فرانكفورتر تزايتونغ» في إعادة نشر بعض المقالات عن مواضيع أعم وأوسع، وقيل لي إن أحد هذه المقالات قد نشر ثلاثين مرة. والخلاصة أن رحلتي قد أعطت أينع الثمار.

* * *

وفي ذلك الحين تزوجت من ألسا، فالسنتان اللتان قضيتهما بعيداً عن أوروبا لم توقفا حبي لها، بل زادتاه قوة وبفيض من السعادة لم أعهده من قبل، بددت جميع المخاوف والظنون التي ساورتها من الفارق العظيم بين سنينا.

قالت: «ولكن كيف تستطيع أن تتزوجني؟ إنك لم تبلغ السادسة والعشرين بعد، في حين أنني قد جاوزت الأربعين؟ فكر في هذا: عندما تصبح في الثلاثين أكون قد بلغت الخامسة والأربعين وعندما تصل أنت إلى الأربعين أكون قد أصبحت امرأة عجوزاً...».

فضحكت وقلت: «وما يهم؟ إنني لا أستطيع أن أتصور مستقبلاً دونك».

وأخيراً ذعنت.

والحق أنني لم أبالغ قط عندما قلت إنني ما كنت لأستطيع أن أتصور مستقبلاً دون ألسا، فقد سحرني جمالها وظرفها الفطري إلى درجة لم أستطع معها حتى أن أنظر إلى أية امرأة أخرى، كما أن تفهمها الحساس لما كنت أبتغيه من الحياة أنار آمالي ورغباتي وجعلها أكثر ثباتاً وقوة.

وكانت ألسا تعرف ما كنت أبحث عنه عندما كنت أتكلم إليها عن الإسلام. وبالرغم من أنها ربما لم تكن تشعر بذلك الدافع الملح نفسه الذي كنت أشعر به، فإن حبها جعلها تشاركني في ما كنت أبحث عنه.

كنا كثيراً ما نجلس فنقرأ ترجمة للقرآن معاً، ونناقش آراءه. وأصبحت ألسا، شأني أنا، أكثر تأثراً مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليمه الأخلاقية وتوجيهاته العلمية. إن الله، بمقتضى القرآن، لم يطلب خضوعاً أعمى من جانب الإنسان بل خاطب عقله: إنه لا يقف بعيداً عن مصير الإنسان بل إنه «أقرب إليك من حبل الوريد». إنه لم يرسم أي خط فاصل بين الإيمان والسلوك الاجتماعي.

ولعل أهم ما في الأمر أنه لم يبدأ من الحقيقة القائلة بأن الحياة كلها مثقلة بنزاع المادة والروح وأن الطريق إلى النور يتطلب تحرير الروح من قيود الجسد. إن كل شكل من أشكال إنكار الحياة وإماتة النفس قد قضى عليه النبي ﷺ في أحاديث من مثل: «لا رهبانية في الإسلام» وإرادة الإنسان أن يحيا؛ لم يعترف بها كغريزة إيجابية مثمرة فحسب، بل لقد خُلعت عليها قداسة كقداسة القضية الأخلاقية المسلّم بها أيضاً. والإنسان قد عُلّم في الحقيقة: «ليس لك فقط، بل عليك أيضاً، أن تفيد من حياتك إلى أقصى حدود الإفادة».

لقد أخذت الآن صورة متممة للإسلام تظهر لي بطريقة نهائية حاسمة أذهلتني أحياناً. لقد كانت تتجسم بعملية يمكن أن توصف بنوع من الانتضاح أو الارتشاح العقلي - أي، دونما أيما جهد واعٍ من قبلي لأن أجمع معاً و«أنسق» العديد من قطع المعرفة التي اعترضت طريقي في السنوات الأربع الماضية. لقد رأيت أمامي شيئاً يشبه بناء هندسياً كاملاً، تتمم عناصره بعضها بعضاً بطريقة متناغمة، لا نافل فيه ولا يفتقر إلى شيء - اتزان وسكينة يضفيان على المرء شعوراً بأن كل ما في نظرات الإسلام وفروضه هو «في محله».

منذ ثلاثة عشر قرناً وقف رجل وقال ما معناه: «لست سوى بشر، ولكن الله الذي أوجد الكون قد أمرني بأن أحمل رسالته إليكم. فلكي تعيشوا بصورة تتلاءم والخطة التي أبدع بها العالم، أمرني أن أذكركم بوجوده وقدرته على كل شيء وعلمه بكل أمر، وبأن أضع أمامكم منهاجاً للسلوك. فإذا قبلتم هذا التذكير وهذا المنهاج فاتبعوني». تلك كانت زبدة رسالة محمد النبوية.

إن النظام الاجتماعي الذي بسطه كان تلك البساطة التي لا تتمشى إلا مع العظمة الحقيقية. لقد بدأ هذا النظام من المقدمة المنطقية التي تقول بأن الناس كائنات بيولوجية لها حاجات بيولوجية، وأن خالقهم قد أبدعهم بحيث يتعين عليهم أن يعيشوا في جماعات لكي يرضوا المدى الكامل لحاجاتهم الجسدية والمعنوية والعقلية؛ وبالاختصار إنهم يحتاجون بعضهم إلى بعض. واستمرار سمو الفرد روحياً (الهدف الأساسي لكل دين) يتوقف على ما إذا كان يحصل على المعنوية والتشجيع والحماية من أولئك الذين من حوله ـ والذين، بطبيعة الحال يتوقعون منه هذا التعاون نفسه. هذا الاعتماد الإنساني المتداخل كان السبب في أن الدين، في الإسلام، لم يمكن فصله عن الاقتصاد والسياسة. تنظيم العلاقات الإنسانية العملية بطريقة تمكن كل فرد من أن يلقى أقل قدر ممكن من العقبات وأكبر قدر ممكن من التشجيع في إنماء شخصيته: هذا، ولا شيء غير هذا، ما بدا أنه مفهوم الإسلام من وظيفة المجتمع الحقيقية. وهكذا فقد كان طبيعياً أن النظام الذي أعلنه النبي محمد ﷺ في السنوات الثلاث والعشرين من رسالته لم يختص بالشؤون الروحية فحسب بل زود إطاراً لكل نشاط فردي واجتماعي أيضاً. إنه لم يبسط مفهوم الصلاح الفردي فحسب، بل عرض أيضاً مفهوم المجتمع العادل الذي يجب أن يوجده ذلك الصلاح. لقد قدم مجمل المجتمع السياسي ـ المجمل فحسب لأن تفاصيل حياة الإنسان السياسية تتوقف على الزمن، فهي لذلك عرضة للتبدل والتغيير ـ كما قدم نظاماً للحقوق الفردية والواجبات الاجتماعية، أخذ فيه بعين الاعتبار حقيقة التطور التاريخي. لقد شملت الشريعة الإنسانية الحياة من جميع وجوهها، المعنوية والجسدية، الفردية والمجتمعية، وكان لمشاكل الجسد ومشاكل العقل، ولمشاكل الجنس والاقتصاد، جنباً إلى جنب مع مشاكل الدين والعبادة؛ مكانها الحقيقي، مكانها الصحيح في تعاليم محمد، فلم يبد أن هناك شيئاً واحداً أتفه من أن يجر إلى مدار التفكير الديني ـ حتى ولا تلك المسائل «الأرضية»، من مثل التجارة والإرث وحقوق الملكية وامتلاك الأرض.

لقد صيغت جميع مواد الشريعة الإسلامية لصالح أعضاء المجتمع كلهم

بالتساوي دون تمييز بين الولادة أو العنصر أو الجنس (الذكر أو الأنثى) أو الولاء الاجتماعي السابق. ولم يحتفظ بحقوق خاصة لمؤسس المجتمع أو لذريته من بعده. إن الرفيع والوضيع، بالمعنى الاجتماعي للكلمة، تعبيران لا وجود لهما، كما أنه ليس هناك وجود لمفهوم الطبقة، فجميع الحقوق والواجبات والفرص تنطبق بالتساوي على جميع المسلمين. و ليس هناك من حاجة لأيما كاهن للتوسط بين العبد وربه، ذلك أن الله «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم». ولا يعترف بولاء غير الولاء لله ورسوله، ولأبوي المرء وللمجتمع الذي هدفه إقامة ملك الله على الأرض، وهذا ما منع ذلك النوع من الولاء الذي يقول: «وطني، أو قومي، أهم عندي، سواء على حق أو على باطل». ولكي يوضح النبي ﷺ هذا المبدأ قال مؤكداً في أكثر من مناسبة واحدة: «ليس منا من دعاة إلى العصبية، وليس منا من قاتل في سبيل العصبية، وليس منا من مات في سبيل العصبية».

كانت جميع المؤسسات السياسية قبل الإسلام محدودة بالمفاهيم الضيقة للقبيلة والتجانس القبلي. وهكذا فإن الملوك الآلهة لمصر القديمة لم يكونوا يفكرون إلى أبعد من أفق وادي النيل وسكانه، وفي دولة العبرانيين القديمة، عندما كان المفروض أن الله هو الذي يحكم، كان بالضرورة إله أبناء إسرائيل فحسب. أما في القرآن فإن اعتبارات التحدر أو الانتساب القبلي لم يكن لها أيما مكان، فالإسلام قد فرض مجتمعاً سياسياً أهمل الانقسامات التقليدية إلى قبائل وعناصر.

ويمكن القول إن الإسلام والمسيحية قد كان لهما الهدف نفسه في هذا الشأن: ذلك أن كلاً منهما دعا إلى مجتمع أممي من الناس يوحد في ما بينهم تمسكهم بمثل أعلى مشترك، ولكن في حين أن المسيحية اكتفت بالدعوة المعنوية المجردة إلى هذا المبدأ، وبنصح أتباعها بإعطاء ما لقيصر لقيصر، فقصرت بذلك دعوتها العالمية على الدائرة الروحية، فإن الإسلام قد كشف للعالم عن مؤسسة سياسية يكون فيها وعي الله الباعث على سلوك الإنسان العملي والأساس الوحيد لجميع المؤسسات الاجتماعية. وهكذا فإن الإسلام ـ إذ حقق ما تركته المسيحية دونما تحقيق ـ قد افتتح فصلاً في تطور الإنسان: أول مجتمع ايديولوجي مكشوف مقابل مجتمعات الماضي المقفلة والمحدودة جنسياً وجغرافياً.

لقد واجه الإسلام وأحيا مدنية لم يكن فيها متسع للقومية، لا «حقوق مكتسبة» ولا طبقية، ولا كنيسة ولا كهانة ولا نبل وراثياً، وفي الواقع لا مناصب وراثية على الإطلاق. لقد كان الهدف إقامة ثيوقراطية في ما يتعلق بالله، وديموقراطية بين الإنسان

وأخيه الإنسان. وأهم مميزات تلك المدنية الجديدة ـ مميزة فرزتها بالكلية عن جميع الحركات الأخرى في تاريخ الإنسانية ـ هي أنها قد نظر إليها ونشأت عن موافقة إرادية من الناس الذين كان يعنيهم أمرها. هنا، لم يكن التقدم الاجتماعي، شأنه في جميع المجتمعات والمدنيات المعروفة في التاريخ، نتيجة للضغط على المصالح المتضاربة ومقاومة هذه المصالح، بل جزءاً لا يتجزأ من النظام الأصيل. وبكلمة أخرى، إن عقداً اجتماعياً خالصاً هو في صميم الأشياء: لا مجازاً صاغته الأجيال التالية من أصحاب السطوة دفاعاً عن امتيازاتهم، بل على أنه المصدر التاريخي الحقيقي للمدنية الإسلامية. قال القرآن: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. . .﴾ إلى آخر الآية: ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾.

لقد عرفت أن هذا «الفوز العظيم» ـ المثل الوحيد على عقد اجتماعي حقيقي سجله التاريخ ـ لم يتحقق إلا خلال مدة قصيرة جداً، أو، بالأحرى، لم تبذل محاولة على نطاق واسع لتحقيقه إلا خلال مدة قصيرة جداً. فبعد أقل من قرن من وفاة النبي أخذ الشكل السياسي للإسلام الأصلي يفسد، وفي القرون التالية دفع المنهج الأول تدريجياً إلى مؤخرة الصورة.

وحلت المنازعات العشائرية في سبيل السلطة محل الاتفاق الحر بين الرجال والنساء الأحرار، وظهرت إلى حيز الوجود سريعاً الملكية الوراثية، وظهرت معها المنازعات والمؤامرات السلالية والايثارات والاضطهادات القبلية والحط الاعتيادي من الدين إلى منزلة أداة لبلوغ السلطة السياسية: وبالاختصار، جميع المصالح المكتسبة المعروفة جيداً في التاريخ. ولقد حاول عظماء مفكري الإسلام حيناً من الزمن، أن يبقوا على أيديولوجيته الحقيقية سامية صافية، ولكن أولئك الذين جاءوا من بعدهم كانوا أقل قواماً، فزلوا بعد قرنين أو ثلاثة قرون إلى مستنقع من التقليد العقلي، وانقطعوا عن التفكير تفكيراً ذاتياً، مكتفين بإعادة العبارات الميتة التي كانت ترددها الأجيال السابقة ـ ناسين أن كل رأي إنساني، محدود بالزمن وقابل للخطأ، وأنه لذلك يحتاج إلى التجديد بصورة دائمة. إن قوة الإسلام الدافعة، التي كانت هائلة جداً في أولها، كانت كافية، فترة من الزمن، لأن ترتفع بجمهرة المسلمين إلى ذروات ثقافية عظمى ـ إلى ذلك المستوى العظيم من الإنجاز العلمي والأدبي والفني الذي يصفه المؤرخون بالعصر الذهبي للإسلام، ولكن هذه القوة نفسها ما لبثت أن خبت بعد بضعة قرون نظراً لافتقارها إلى الغذاء الروحي، وغدت المدنية الإسلامية راكدة أكثر

فأكثر خالية من القوة الخلاقة.

* * *

لم يكن عندي أية صورة خادعة عن أحوال العالم الإسلامي، فالسنوات الأربع التي قضيتها في تلك البلاد قد أظهرت لي أنه في حين كان الإسلام حياً ما يزال، مدركاً في نظرة أتباعه وفي اعترافهم الصامت بمقدماته الأدبية، كانوا هم أنفسهم كمثل أناس مشلولين، غير قادرين على أن يحولوا اعتقاداتهم إلى عمل مثمر. ولكن ما همني أكثر من فشل مسلمي اليوم في تطبيق نظام الإسلام إنما كانت إمكانيات ذلك النظام نفسه ـ لقد كفاني أن أعلم أنه لفترة قصيرة، في أوائل التاريخ الإسلامي، بذلت فعلاً محاولة ناجحة لتطبيق ذلك النظام، وإن ما بدا ممكناً في يوم ما يمكن أن يصبح ممكناً حقاً في وقت آخر. ما همّ، هكذا قلت في ذات نفسي، أن يكون المسلمون قد ضلوا عن التعاليم الأولى وانغمسوا في التراخي والجهل؟ ما همّ أن يكونوا لم يحافظوا على المثل الأعلى الذي وضعه أمامهم النبي العربي منذ ثلاثة عشر قرناً مضت ـ إذا كان ذلك المثل الأعلى نفسه ما زال متاحاً لكل راغب في الاستماع إلى رسالته؟

وقد نكون، نحن المحدثين، هكذا فكرت في نفسي، بحاجة يائسة إلى تلك الرسالة بأكثر مما احتاج إليها الناس في أيام محمد. إنهم كانوا يعيشون في بيئة أبسط كثيراً من بيئتنا نحن، وكانت مشاكلهم ومصاعبهم أسهل حلاً وأيسر إلى حد كبير. لقد كان العالم الذي كنت أعيش أنا فيه ـ كل ذلك العالم ـ يترنح بسبب من فقدان أي اتفاق على ما هو خير وما هو شر روحياً، وبالتالي اجتماعياً واقتصادياً أيضاً. إنني لم أكن أؤمن بأن الإنسان الفرد كان بحاجة إلى «الخلاص»، ولكنني كنت أؤمن فعلاً بأن المجتمع الحديث كان بحاجة إلى الخلاص. لقد شعرت، أكثر من أي وقت مضى، بأن عصرنا هذا كان بحاجة إلى أساس أيديولوجي لعقد اجتماعي جديد: بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطل الرقي المادي من أجل الرقي نفسه ـ ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها، إيمان يبين لنا كيف نقيم توازناً بين حاجاتنا الروحية والجسدية، وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور.

* * *

لا حاجة بي إلى أن أقول إن مشكلة الإسلام ـ ذلك أنها كانت في الحق مشكلة بالنسبة إليّ ـ احتلت تفكيري في هذه الفترة من حياتي أعني في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦ من دون أيما شيء آخر. لقد نما استغراقي الآن وفاق مراحله الأولى عندما

لم يكن أكثر من اهتمام عقلي بأيديولوجية وثقافة غربيتين، ولو أنهما كانتا مشوقتين أخاذتين: لقد أصبح بحثاً عاطفياً حاراً عن الحقيقة. حتى المغامرات المثيرة في العامين الماضيين من السفر والتجوال أصبحت تافهة إذا ما قورنت بهذا البحث: إلى درجة أنه غدا من العسير عليّ أن أركز تفكيري وأنصرف إلى كتابة الكتاب الذي كان من حق رئيس تحرير «فرانكفورتر تزايتونغ» أن يتوقعه مني.

لقد تغاضى الدكتور سيمون، في بادىء الأمر، عن إحجامي من الشروع في هذا الكتاب، فقد كنت عائداً من رحلة طويلة، وكنت أستحق نوعاً من العطلة ـ كذلك فإن زواجي مؤخراً كان يبرر الراحة من رتابة الكتابة بعض الشيء. إلا أنه عندما أخذت العطلة والراحة تمتدان إلى أبعد مما اعتبره الدكتو سيمون معقولاً، اقترح أنه قد أصبح عليّ الآن أن أعود إلى الأرض ثانية.

ولو أني عدت إلى الماضي إذن لخيل إليّ أن الدكتور سيمون كان متفهماً جداً للأمور ولكنه لم يبد لي كذلك في ذلك الحين. والحق أن أسئلته الكثيرة الملحة عن سير «الكتاب» كان لها تأثير معاكس لما كان يتوخاه منها: فقد شعرت بنفسي أخدع بغير ما لياقة، وأخذت أكره مجرد التفكير في الكتاب. لقد كنت مهتماً بما لم يزل عليّ أن أكتشفه بأكثر من اهتمامي في وصف ما وجدته حتى ذلك الحين.

وأخيراً أبدى الدكتور سيمون ملاحظته الساخطة: «لا أعتقد أنك ستكتب هذا الكتاب أبداً».

فأجبت وقد لسعتني ملاحظته بعض الشيء: «لعلي لا أجد في نفسي ميلاً إلى الكتابة. لربما كنت مصاباً بـ. . . ».

فأجاب بحدة: «حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فهل تعتقد أن الـ«فرانكفورتر تزايتونغ» هي مكانك الصحيح؟»

وهكذا أخذت الكلمة تجر أختها وانقلب خلافنا إلى خصام. وفي اليوم نفسه استقلت من صحيفة «فرانكفورتر تزايتونغ»، وغادرت فرانكفورت إلى برلين مع زوجتي بعد ذلك بأسبوع.

ولم أكن أنوي، بالطبع، أن أهجر الصحافة، ذلك أنه إلى جانب العيش الرغد واللذة (التي شوهها «الكتاب» مؤقتاً) اللذين كانت توفرهما لي الكتابة، فإنها كانت تزودني بوسيلتي الوحيدة إلى العودة إلى العالم الإسلامي الذي كنت أريد العودة إليه بأي ثمن. ولكن الشهرة التي كنت قد تحققت بها خلال السنوات الأربع الماضية لم

تجعل من العسير عليّ أن أنشىء علاقات صحافية جديدة. فسريعاً ما عقدت، بعد تركي فرانكفورت، اتفاقات مرضية جداً مع ثلاث صحف أخرى: في زوريخ وأمستردام وكولوني. ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت مقالاتي عن الشرق الأوسط يجب أن تبقى وقفاً على هذه الصحف الثلاث التي كانت من أهم صحف أوروبا ـ ولو أنها لم تكن لتقاس بالنسبة إلى فرانكفورتر تزايتونغ.

ولقد استقررت وزوجتي في برلين مؤقتاً، حيث عزمت على إنجاز سلسلة محاضراتي في الأكاديمية الجغرافية السياسية، وعلى أن أتابع أيضاً دراساتي الإسلامية.

وسر رفاقي الأدباء القدامى برؤيتي ثانية، إلا أنه، بطريقة ما، لم يكن من السهل الإمساك بخيوط علاقاتنا السابقة من حيث تركناها عندما سافرت إلى الشرق الأوسط. لقد أصبحنا بعيدين بعضنا عن بعض، ولم نعد نتكلم لغة عقلية واحدة. وبصورة خاصة، لم أستطع أن أستدل، من أي من أصدقائي، على أي شيء يشبه تفهماً لمشغوليتي بالإسلام. فالحق أنهم كلهم، تقريباً، هزوا رؤوسهم حيرة عندما حاولت أن أشرح لهم أن الإسلام، كمفهوم عقلي واجتماعي، يمكن أن يقارن، بصورة مؤاتية مع أية أيديولوجية أخرى. وبالرغم من أنهم أحياناً كانوا يوافقون على هذا أو ذاك من الآراء الإسلامية، فإن معظمهم كانوا يرون أن الأديان القديمة كانت شيئاً يختص بالماضي، وأن عصرنا كان يتطلب نظرة «إنسانية» جديدة. ولكن حتى أولئك الذين لم ينكروا كل صلاحية على الدين النظامي إنكاراً تاماً، لم يكونوا قط على استعداد لاطراح الفكرة الغربية الشائعة والقائلة بأن الاسلام، إذ كان يعني عناية فائقة بالأمور الدنيوية، كان يفتقر إلى الأحجيات والألغاز التي كان من حق المرء في نظرهم، أن يتوقعها في الدين.

ولقد أدهشني أن أكتشف أن الناحية نفسها التي أعجبتني في الإسلام منذ اللحظة الأولى ـ فقدان تقسيم الحقيقة إلى أقسام جسدية وروحية، والتأكيد على العقل كطريق إلى الإيمان ـ لم تستهو إلا قليلاً جداً من رجال الفكر أولئك الذين اعتادوا، خلاف ذلك، أن يطالبوا العقل بدور طاغ في الحياة. ذلك أنهم كانوا، في الدائرة الدينية وحدها، يتراجعون غرزياً عن موقفهم «العقلي» و «الواقعي»، ومن هذه الجهة لم أستطع أن أميز أيما فرق بين أولئك القلائل من أصدقائي الذين كانوا ذوي ميول دينية وبين الكثيرين الذين لم يعد الدين بالنسبة إليهم أكثر من تقليد بال.

أما أنا نفسي، فقد عرفت الآن أنني كنت منساقاً إلى الإسلام، ولكن تردداً

أخيراً جعلني أؤجل خطوتي النهائية القطعية. لقد كانت فكرة اعتناق الإسلام شبيهة بالمغامرة في اقتحام جسر كان يصل بين هوة بين عالمين مختلفين: جسر طويل جداً بحيث يكون على المرء أن يصل إلى نقطة لا عودة منها قبل أن يرى طرفه الآخر. وكنت أدرك جيداً أنني لو أصبحت مسلماً، إذن لكان يتعين عليّ أن أقطع كل صلة لي بالعالم الذي نشأت فيه. لم يكن هناك من نتيجة أخرى، ذلك أن المرء لا يستطيع أن يلبي نداء محمد وأن يبقى محتفظاً بالروابط الداخلية بمجتمع تحكمه مفاهيم مناقضة على خط مستقيم. ولكن هل كان الإسلام حقاً رسالة من عند الله، أو مجرد حكمة من رجل عظيم، ولكن غير معصوم عن الغلط؟

* * *

في ذات يوم من أيام شهر أيلول من سنة ١٩٢٦ كنت راكباً مع زوجتي في قطار برلين تحت الأرض، فوقعت عيني اتفاقاً على رجل أنيق الملبس جالس قبالتي. كان، على ما بدا لي، تاجراً تبدو عليه آثار النعمة والثراء، على ركبتيه حقيبة صغيرة جميلة وفي إصبعه خاتم ماسي كبير. وأخذت أفكر بتكاسل كيف أن مظهر هذا الرجل الحسن كان يعكس الرخاء الذي كان المرء يقع عليه في كل مكان من أوروبا الوسطى في تلك الأيام: ذلك الرخاء الذي عقب سنوات التضخم التي كانت فيها الحياة الاقتصادية كلها رأساً على عقب، ورثاثة المظهر هي القاعدة. إن معظم الناس كانوا الآن يلبسون جيداً ويأكلون جيداً، ومن هنا لم يكن الرجل قبالتي خلاف غيره من الناس. إلا أنني عندما نظرت إلى وجهه خيل إليّ أنني لم أكن أنظر إلى وجه سعيد، فقد بدا لي قلقاً: لا قلقاً فحسب، بل شقياً بصورة حادة، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الأمام، وزاويتا شفتيه متقلصتان ألماً ـ ألماً غير جسماني. وإذ لم أرد أن أكون وقحاً، لقد أشحت بوجهي فرأيت إلى جانبه سيدة على شيء من الظرف. لقد كان وجهها هي أيضاً يعبر تعبيراً غريباً عن عدم سعادتها، كأنما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم. ومع ذلك كان ثغرها يفتر عما يشبه ابتسامة جامدة لم أشك في أنها لا بدّ أن تكون عادية لديها. وعندئذ أخذت أجيل بصري في جميع الوجوه الأخرى ـ وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الحسنة ويقتاتون بالغذاء الجيد ـ وفي كل وجه منها استطعت أن أميز تعبيراً عن الألم الخبيء، إلى درجة أن صاحبه بدا وكأنه لا يشعر به.

والحق أن هذا كان غريباً. فأنا لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد من الوجوه التعسة من حولي. . . أو لعلني لم أبحث من قبل عما كان ينطق فيها بمثل تلك

الجهارة؟ كانت الانطباعة قوية إلى درجة جعلتني أذكرها لزوجتي، فأخذت هي أيضاً تنظر حولها بعيني رسام حريص اعتاد دراسة القسمات البشرية. ثم استدارت إليّ دهشة وقالت: أنت على حق... إنهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم... وإنني لأتساءل هل يعرفون هم أنفسهم ماذا يعتمل في نفوسهم؟

لقد عرفت أنهم لم يكونوا يعلمون... وإلا لما كان باستطاعتهم أن يستمروا في إضاعة حياتهم وتبديدها كما كانوا يفعلون، دون أيما إيمان بالحقائق الرابطة، دون أيما هدف أبعد من الرغبة في رفع «مستوى معيشتهم»، دون أيما أمل غير حيازة المزيد من الملذات المادية والمزيد من الممتلكات، ولربما المزيد من القوة...

واتفق عندما عدنا إلى البيت، أن ألقيت نظرة على مكتبي، وكان عليه نسخة مفتوحة من القرآن كنت أقرأ فيها من قبل. وبصورة آلية، رفعت الكتاب لأضعه جانباً. ولكن ما أن هممت بإغلاقه حتى وقعت عيني على الصفحة المفتوحة أمامي وقرأت:

﴿ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين. ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾.

واعتراني الصمت لحظة، وإني لأعتقد أن الكتاب كان يهتز في يدي. ثم قلت لزوجتي: «اصغي إلى هذا. أليس هو جواباً عما رأيناه في القطار؟»

أجل لقد كان. كان جواباً قاطعاً إلى درجة أن كل شك زال فجأة. لقد عرفت الآن، بصورة لا تقبل الجدل، أن الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتاباً موحى من الله. فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً فإنه توقع بوضوح شيئاً لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقة إلا في عصرنا هذا المعقد، الآلي.

لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والأزمنة: ولكن هذا التكاثر لم ينته قط من قبل إلى أن يكون مجرد اشتياق إلى امتلاك الأشياء، وإلى أن يصبح ملهاة حجبت رؤية أيما شيء آخر: حنين لا يقاوم إلى التملك، والعمل، والاستنباط أكثر فأكثر. اليوم أكثر من أمس، وغداً أكثر من اليوم: عفريت راكب على أعناق الناس يسوق قلوبهم بسوط إلى الأمام نحو أهداف تتلألأ عن بعد ولكنها تنحل إلى لا شيئية زرية خسيسة حالما تصبح في متناول اليد: وذلك الجوع، ذلك الجوع النهم إلى أهداف جديدة لا تنتهي ينمو في قلب الإنسان: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم﴾.

لقد عرفت أن هذا لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية، فمهما كان مثل هذا الإنسان على مثل هذا القدر من الحكمة فإنه لم يكن ليستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون: لقد كان ينطق لي، من القرآن، صوت أعظم من صوت محمد. . .

ـ ٦ ـ

هبط الظلام على فناء مسجد النبي ﷺ، ولم يكن ينير المكان سوى مصابيح الزيت التي كانت مدلاة سلاسل طويلة بين أعمدة القناطر، وكان الشيخ عبد الله ابن بليهد جالساً ورأسه غارق فوق صدره وعيناه مغلقتان. وكان خليقاً بمن لم يكن يعرفه أن يظن أنه راح في سبات عميق، ولكني كنت أعلم أنه كان يصغي إلى قصتي باستغراق كلي، وبعد فترة طويلة رفع رأسه وفتح عينيه وقال:

ـ «ومن ثم، ماذا فعلت من ثم؟»

ـ «الشيء الواضح البين، يا شيخ. سعيت إلى صديق مسلم لي، هندي كان في ذلك الحين رئيساً للجالية الإسلامية الصغيرة في برلين، وأعلمته برغبتي في اعتناق الإسلام، فمد يده اليمنى نحوي ووضعت يدي اليمنى فيها. وبحضور شاهدين قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وعندئذ قال صديقي المسلم: «لقد كان اسمك حتى الآن ليوبولد (Leopold) وكلمة ليو (Leo) اليونانية: معناها أسد. إذن، سندعوك من الآن فصاعداً: «محمد أسد».

وبعد بضعة أسابيع اعتنقت زوجتي أيضاً الإسلام.

ـ «وماذا قال أهلك في ذلك؟»

ـ «إنه لم يعجبهم. وعندما أنبأت والدي بإسلامي لم يرد على كتابي. وبعد بضعة أشهر كتبت إليّ أختي تقول إنه اعتبر أني مت. . . وعندها أرسلت إليه كتاباً آخر أكدت له فيه أن اعتناقي الإسلام لم يبدل شيئاً من موقفي نحوه أو من حبي له، وأن الإسلام، على عكس ذلك، كان يوصيني بأن أحب وأكرم والدي أكثر من سائر الناس جميعاً. . . ولكن هذا الكتاب أيضاً ظل دونما جواب».

ـ «إن أباك يجب أن يكون في الحق شديد التعلق بدينه».

ـ «كلا يا شيخ، إنه ليس كذلك، وهذا هو أغرب ما في القصة. إنه لم يكن، في اعتقادي، يعتبرني مرتداً عن دينه (ذلك أنه لم يكن للدين سلطان قوي عليه) بقدر

ما كان يعتبرني مرتداً عن البيئة التي نما وترعرع فيها، وعن الثقافة التي كان كلفاً بها».

ـ «أولم تره بعد ذلك قط؟»

ـ «كلا، فبعد وقت قصير من اعتناقي الإسلام، غادرت أوروبا وزوجتي. إننا لم نعد نطيق البقاء فيها، ولم أرجع إليها بعد ذلك مطلقاً...»[1].

---

(١) لقد عادت علاقتنا إلى سابق عهدها في عام ١٩٣٥، بعد أن فهم أبي وقدر أسباب اعتناقي الإسلام. وبالرغم من أننا لم نجتمع قط مرة ثانية، فقد ظللنا نتبادل الرسائل حتى عام ١٩٤٣ عندما أبعده النازيون هو وأختي عن فيينا فمات بعد ذلك في أحد معسكرات الأسرى.

جهاد

ــ ١ ــ

بينما كنت أغادر مسجد النبي ﷺ شعرت بيد تمسك بيدي والتفتّ فرأيت عيني سيدي محمد الزّوَيّ السنوسي.

ــ «ما أعظم سروري برؤيتك، يا بني، بعد هذه الأشهر الطويلة. ليبارك الله خطواتك في مدينة النبي المباركة...».

ومشينا معاً، يداً بيد، ببطء في الشارع المؤدي من المسجد إلى السوق الرئيسية. لقد كان سيدي محمد ببرنسه الإفريقي الشمالي الأبيض، شخصية معروفة في المدينة، حيث كان ولا يزال يعيش منذ سنوات. ولقد استوقفنا كثير من الناس ليحيوه باحترام لا لسنيه السبعين فحسب بل لشهرته كواحد من قادة نضال ليبيا الباسل في سبيل الاستقلال.

ــ «أريدك أن تعرف، يا ابني، أن السيد أحمد هو في المدينة. إن صحته غير حسنة، ويسره كثيراً أن يراك. كم ستبقى هنا؟»

ــ «حتى بعد غد فقط، ولكنني طبعاً لن أسافر دون أن أرى السيد أحمد. دعنا نذهب إليه الآن».

ليس في الجزيرة العربية كلها شخص أحببته كما أحببت السيد أحمد. ذلك أنه ما من رجل ضحى بنفسه تضحية كاملة مجردة عن كل غاية في سبيل مثل أعلى، كما فعل هو. لقد وقف حياته كلها، عالماً ومحارباً، على بعث المجتمع الإسلامي بعثاً روحياً، وعلى نضاله في سبيل الاستقلال السياسي، ذلك أنه كان يعرف جيداً أن الواحد لا يمكن أن يتحقق من دون الآخر.

ولا أزال أذكر حتى الآن أول لقاء لي مع السيد أحمد، منذ سنوات عديدة في مكة...

في شمال المدينة المقدسة يقوم جبل أبو قبيس، محور كثير من الأساطير والأحداث القديمة. إن العين لتقع، من على ذروته المتوجة بمسجد صغير أبيض ذي مئذنتين، على منظر بديع في وادي مكة، وعلى ساحة مسجد الكعبة في سفحه، والبيوت الزاهية المتفرقة تتسلق المنحدرات الجرداء الصخرية من جميع الجهات. وتحت ذروة جبل أبي قبيس بقليل يقع مركز «الأخوة السنوسية» في مكة، وفيه كان يعيش الرجل المسن الذي اجتمعت إليه هناك، وقد كان منفياً سدت في وجهه كل الطرق إلى وطنه في برقة بعد قتال ثلاثين عاماً. وطول سبعين عاماً بين البحر الأسود وجبال اليمن ـ كان يحمل اسماً مشهوراً في طوال العالم الإسلامي وعرضه: السيد أحمد الشريف، إمام السنوسية. ما من اسم آخر أقض مضاجع الحكام الاستعماريين ذلك العدد الكبير من الليالي في شمالي افريقيا، حتى اسم عبد القادر الجزائري في القرن التاسع عشر أو عبد الكريم الريفي الذي كان شوكة قوية جداً في جانب الإفرنسيين. ذانك الاسمان، مهما كانا خالدين، عند المسلمين كافة، لم يكن لهما إلا معنى سياسي ـ في حين أن السيد أحمد وطريقته كانت، إلى ذلك قوة روحية عظيمة منذ سنين عديدة. ولقد قدمني إليه، سنة ١٩٢٧، صديقي حاجي آغوس سالم من جاوه الذي كان يمثل مركز القيادة في نضال اندونيسيا للتحرر السياسي، وكان قد جاء معه بقصد الحج. وعندما عرف السيد أحمد أنني كنت حديث الإسلام، مد إليّ يده وقال بلطف:

ـ «مرحباً بك بين إخوانك، يا أخي الشاب...».

كانت أمارات الألم بادية بجلاء على محيا ذلك المحارب المسن في سبيل الدين والحرية. كان وجهه تعباً، وكانت أجفانه ثقيلة فوق عينيه مما جعلهما تبدوان ناعستين. أما صوته فكان ناعماً مفعماً بالحزن، ولكنه كان يثور أحياناً فتتخذ العينان طابع الحدة المتقدة فيصبح الصوت أكثر جرساً، ومن بين ثنايا برنسه الأبيض ترتفع ذراع أشبه بجناح النسر. وإذ كان وريثاً لفكرة ورسالة لو تحققتا لكان من الممكن أن تؤديا إلى نهضة في الإسلام الحديث، فإن الشعلة في بطل شمالي افريقيا لم تذو حتى أيام مرضه وشيخوخته وفشله في مهمته التي وقف عليها حياته. وقد كان من حقه أن لا ييأس، ذلك أنه كان يعرف أن الحنين والشوق إلى البعث الديني والسياسي في روح الإسلام الحقيقية ـ وهو ما كانت تسعى إليه الحركة السنوسية وتناضل ـ لا يمكن أن يقضى عليهما في قلوب الشعوب الإسلامية.

* * *

لقد كان جد السيد أحمد، العالم الجزائري العظيم محمد بن علي السنوسي (نسبة إلى عشيرته بني سنوس) هو الذي خطرت له في النصف الأول من القرن التاسع عشر فكرة طريقة إسلامية يمكن أن تعبّد الطريق إلى إقامة دولة إسلامية بالمعنى الصحيح. وبعد سنوات من التجوال والدرس في كثير من الأقطار العربية أسس محمد بن علي «زاويته» الأولى في جبل «أبو قبيس» في مكة، وسريعاً ما اكتسب أتباعاً وأنصاراً كثيرين من بدو الحجاز. إلا أنه لم يبق في مكة بل عاد إلى شمال افريقيا ليستقر آخر الأمر في جغبوب، وهي واحة في الصحراء بين برقة ومصر، ومنها انتشرت رسالته كالبرق في جميع أنحاء ليبيا وتعدتها إلى أماكن قصية أخرى. وعندما مات في سنة ١٨٥٩ كان السنوسيون (كما أصبح أتباع حركته يعرفون) يسيطرون على دولة واسعة تمتد من شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى افريقيا الاستوائية وإلى بلاد الطوارق في صحراء الجزائر.

إن لفظة «الدولة» لا تصف بالضبط هذا الإبداع الفذ، ذلك أن إمام السنوسية لم يهدف مطلقاً إلى إقامة حكم شخصي لنفسه أو لأولاده وأحفاده من بعده، بل إن ما أراده كان أن يُعد أساساً نظامياً لبعث الإسلام بعثاً أدبياً اجتماعياً سياسياً. وبمقتضى هذا الهدف فإنه لم يفعل شيئاً لهدم البناء القبلي التقليدي في المنطقة، ولم يهدد سيادة سلطان تركيا الاسمية على ليبيا ـ إذ ظل يعتبره خليفة الإسلام ـ بل وقف جهوده كلها على تفقيه البدو في العقائد الإسلامية التي انحرفوا عنها في الماضي، وعلى أن يقيم بينهم ذلك الشعور بالأخوة الذي كان القرآن قد حض عليه ولكنه أمحى طيلة قرون من العداوات القبلية. فمن الزوايا الكثيرة التي انتشرت في جميع أنحاء افريقيا الشمالية حمل السنوسيون رسالتهم إلى أقصى القبائل وأحدثوا في عقود قليلة تبدلاً كاد يكون معجزاً بين العرب والبربر سواء بسواء، فزالت الفوضى القديمة بين القبائل وأصبح مقاتلو الصحراء الذين كانوا فيما مضى متمردين، متحلين بروح تعاونية لم تعرف بينهم من قبل. وفي الزوايا تلقى أولادهم الثقافة لا في تعاليم الإسلام فحسب بل في كثير من الصناعات والفنون العلمية التي كان البدو الرحل ينظرون إليها سابقاً نظرة ازدراء وإباء. لقد حملوا على أن يحفروا آباراً أكثر وأفضل في مناطق ظلت جرداء طوال قرون، وأخذت المزارع الناجحة بإرشاد السنوسي، تظلل الصحراء. وشجعت التجارة، ومكن السلام الذي أشاعه السنوسي من السفر في أماكن لم تكن القوافل تستطيع أن تجوبها في السنين الماضية دون أن تلقى بعض قطاع الطرق. وبالاختصار فإن نفوذ الطريقة السنوسية كان دافعاً قوياً إلى المدنية والتقدم في حين أن تمسكها بسيرة أهل السلف الصالح رفع المقاييس الأدبية في المجتمع الجديد إلى

أعلى كثيراً مما عرفه فيما مضى ذلك الجزء من العالم. لقد ارتضى كل رجل من رجال القبائل وكل زعيم من زعمائها زعامة إمام السنوسية الروحية، وحتى السلطات التركية في ثغور ليبيا وجدت أن سلطة الطريقة الأخلاقية قد سهلت عليها إلى حد كبير التعامل مع القبائل البدوية التي كانت قبل ذلك «صعبة جداً».

وهكذا بينما ركزت السنوسية جهودها على تجديد السكان المحليين تجديداً تقدمياً، فإن نفوذها أصبح مع الزمن لا يكاد يميز من السلطة الحكومية الحقيقية. هذه القوة كانت تستند إلى قدرة السنوسية على جعل البدو البسطاء والطوارق في شمالي افريقيا يطرحون تمسكهم بالقشور بالأمور الدينية، وعلى ملئهم بالرغبة في أن يعيشوا حقاً في روح الإسلام وأن يضفي عليهم الشعور بأنهم جميعاً يعملون من أجل الحرية، من أجل الكرامة والأخوة الإنسانيتين. والحق أنه منذ عهد النبي ﷺ لم يسبق أن ظهرت في أيما مكان في العالم الإسلامي حركة واسعة النطاق قريبة من طريقة الحياة الإسلامية كحركة السنوسي.

ولكن فترة السلم هذه ما لبثت أن اصطربت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما شرعت فرنسا في تقدمها جنوباً من الجزائر إلى افريقيا الاستوائية وفي احتلالها خطوة خطوة، مناطق كانت فيما مضى مستقلة تحت إرشاد السنوسي الروحي. فدفاعاً عن الحرية أجبر ابن المؤسس وخليفته محمد المهدي على امتشاق السيف، ولم يتمكن بعد من أن يضعه أبداً. هذا الكفاح الطويل كان جهاداً إسلامية حقيقياً ـ حرباً للدفاع عن النفس وصفه القرآن بقوله: ﴿قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين﴾ إلى قوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾.

لكن الفرنسيين لم ينتهوا، بل حملوا علمهم المثلث الألوان على حرابهم متوغلين في أراضي المسلمين.

وعندما مات محمد المهدي سنة ١٩٠٢ خلفه ابن أخته سيد أحمد في قيادة الطريقة. ومنذ أن كان عمره تسع عشرة سنة، في إبان حياة خاله، وبعد وفاته عندما أصبح هو نفسه إمام السنوسية اشترك في القتال ضد الاعتداء الفرنسي في ما يسمى اليوم افريقيا الاستوائية الفرنسية. وعندما غزا الإيطاليون طرابلس الغرب وبرقة سنة ١٩١١، وجد نفسه يحارب على جبهتين فأكرهه هذا الضغط الجديد الأكثر مباشرة على أن يحول انتباهه الرئيسي إلى الشمال. فإلى جانب الأتراك أولاً، ثم وحده، بعد أن ترك هؤلاء ليبيا، حارب السيد أحمد ومجاهدوه السنوسيون ضد الغزاة

بكثير من النجاح لم يستطع الإيطاليون إزاءه، رغم تفوقهم في العدد والعدة، أن يحتفظوا بسوى عدد قليل من الثغور.

أما البريطانيون، الذين كانوا قد رسخوا أقدامهم في مصر ولم يكونوا بالطبع تواقين كثيراً إلى أن يروا الإيطاليين يتوسعون في داخل شمالي افريقيا، فقد تركوا السنوسي وشأنه ولم يعتدوا عليه. وكان حيادهم على جانب عظيم جداً من الأهمية بالنسبة إلى الطريقة، لأن جميع ذخائر المجاهدين كانت تأتيهم من مصر حيث كانوا يتمتعون بعطف الشعب كله تقريباً. والأرجح أن هذا الحياد البريطاني كان من شأنه أن يمكن السنوسي من إخراج الإيطاليين من برقة نهائياً، ولكن تركيا في سنة ١٩١٥ دخلت الحرب العظمى إلى جانب ألمانيا وطلب السلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين، إلى إمام السنوسية أن يساعد الأتراك بمهاجمة البريطانيين في مصر. وإذ كان البريطانيون بطبيعة الحال راغبين أكثر من أي وقت مضى في حماية مؤخرة ملكهم المصري، فقد حرضوا السيد أحمد على التزام جانب الحياد، ومقابل حياده أعربوا عن استعدادهم للاعتراف سياسياً بالطريقة السنوسية في ليبيا، وأن يتنازلوا له عن بعض الواحات المصرية في الصحراء الغربية.

ولو أن السيد أحمد قبل هذا العرض إذاً لكان اتبع ما كان يقضي به منطق الأمور عندئذ، فهو لم يكن يدين بأي ولاء خاص للأتراك الذين كانوا قد تعاقدوا مع الإيطاليين على إعطائهم ليبيا قبل ذلك ببضع سنين، تاركين للسنوسي أن يستمر في حربه وحده. كذلك فإن البريطانيين لم يقوموا حتى ذلك الحين بأي عمل عدواني ضد السنوسية بل، على العكس، سمحوا لها بتلقي الذخائر والمؤن من مصر ـ فكانت مصر المصدر الوحيد لهذه المؤن وهذه الذخائر. وفوق ذلك فإن «الجهاد» الذي أوحت به برلين، والذي كان السلطان قد أعلنه لم تتوفر فيه الشروط التي نص عليها القرآن. فالأتراك لم يكونوا يحاربون دفاعاً عن النفس، بل حالفوا دولة غير إسلامية في حرب عدوانية. وهكذا فإن الاعتبارات الدينية والسياسية لم تكن لتدل إمام السنوسية إلا على طريق واحد فحسب؛ أن تبقى خارج حرب لم يكن لها فيها ناقة أو جمل. وقد نصح عدد من أكبر القادة السنوسيين نفوذاً ـ ومن بينهم صديقي سيدي محمد الزوّي ـ نصحوا السيد أحمد بالبقاء على الحياد، ولكن شعوره المغالي بالشهامة نحو خليفة المسلمين؛ تغلب أخيراً على مقتضيات المنطق، وحمله على اتخاذ القرار الخاطىء؛ إذ أعلن أنه إلى جانب الأتراك وهاجم البريطانيين في الصحراء الغربية.

هذا القرار ونتائجه كانت فاجعة أكثر لأن المسألة لم تكن لتؤدي في مثل تلك الحالة إلى مجرد خسارة شخصية للسيد أحمد بل ربما أيضاً إلى إيقاع أذى كبير بالقضية العظمى التي وقف نفسه، كما وقفها جيلان اثنان من قبله، عليها. وبالنظر إلى معرفتي الوثيقة به، فإنني لا أشك مطلقاً في أنه كان مدفوعاً بدافع شخصي قط ـ بالرغبة في صيانة وحدة العالم الإسلامي. ولكن عندي شكاً ضئيلاً في أن قراره، من وجهة النظر السياسية، كان أسوأ قرار كان يمكن له أن يتخذه. ذلك أنه بشنه الحرب على البريطانيين قد ضحى، دون أن يدرك ذلك تماماً في ذلك الوقت، بمستقبل السنوسية كلها.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً أجبر السيد أحمد على أن يحارب على ثلاث جبهات: في الشمال ضد الإيطاليين، وفي الجنوب الغربي ضد الفرنسيين، وفي الشرق ضد البريطانيين، فلقي في بادىء الأمر بعض النجاح. فالبريطانيون الذين كانوا يواجهون ضغطاً عظيماً من جراء التقدم الألماني التركي نحو قناة السويس، جلوا عن الواحات في الصحراء الغربية فاحتلتها حالاً قوات السيد أحمد. وتسرب إلى جوار القاهرة الهجانة السنوسيون تحت قيادة محمد الزّوَى (الذي كانت حكمته قد أملت عليه أن يعارض معارضة شديد في القيام بهذه المغامرة). إلا أن ميزان الحرب ما لبث أن تحول فجأة في تلك اللحظة: فقد أوقف التقدم الألماني التركي في صحراء سيناء وأجبر جيشهم على التراجع، وبعد ذلك بوقت قصير؛ شن البريطانيون هجوماً معاكساً في الصحراء الغربية واحتلوا مجدداً واحات الحدود وآبارها وهكذا قطعوا الطريق الوحيد الذي كانت المؤن والذخائر تتدفق منه على المجاهدين، ولم تستطع داخلية برقة أن تطعم وحدها شعباً منهمكاً بنضال فيه حياته أو موته، كما أن الغواصات الألمانية والنمسوية القليلة التي كانت تنزل إلى البر الأسلحة والذخائر، بصورة سرية، لم تعد تأتي إلا بنجدات رمزية.

وفي سنة ١٩١٧ قام المستشارون الأتراك بإقناع السيد أحمد بأن يذهب بالغواصة إلى اسطنبول للحصول على مساعدات أكثر جدوى. وقبل أن يبحر؛ عهد بقيادة الطريقة في برقة إلى ابن عمه سيد محمد آل إدريس[١]. وإذ كان السيد إدريس ذا استعداد سلبي بأكثر من السيد أحمد، فقد حاول حالاً أن يصالح البريطانيين والإيطاليين، فكان أن وافق البريطانيون الذين كانوا يكرهون مخاصمة السنوسي منذ البداية، على إجراء الصلح بسهولة، وضغطوا على الإيطاليين كي يحذوا حذوهم.

(١) ملك ليبيا منذ كانون الأول ١٩٥١.

وبعد ذلك بقليل اعترفت الحكومة الإيطالية رسمياً بالسيد إدريس أميراً للسنوسيين فاستطاع أن يحتفظ بشبه استقلال متزعزع غير ثابت في داخلية برقة حتى عام ١٩٢٢. إلا أنه عندما اتضح أن الإيطاليين لم يكونوا ينوون في الحقيقة أن يتقيدوا باتفاقاتهم بل كانوا مصممين على إخضاع البلاد كلها لحكمهم. غادر السيد إدريس البلاد محتجاً إلى مصر في أوائل سنة ١٩٢٣ بعد أن عهد بقيادة السنوسيين إلى أحد أتباع الطريقة المخلصين القدماء: عمر المختار. وقد حدث ما كان متوقعاً من خرق الإيطاليين لاتفاقاتهم بعد ذلك مباشرة، واستؤنفت الحرب في برقة.

وفي تلك الأثناء كان السيد أحمد يلقى في تركيا فشلاً بعد فشل. لقد كان في نيته أن يعود إلى برقة حالما يتوصل إلى غايته، ولكن غايته تلك لم تتحقق أبداً، ذلك أنه لم يكد يصل إلى اسنطبول حتى أجبرته الدسائس والمؤامرات الغربية على أن يؤخر عودته من أسبوع إلى أسبوع ومن شهر إلى شهر. والظاهر أن الدوائر المحيطة بالسلطان لم تكن راغبة رغبة حقيقية في نجاح السنوسي، فلقد كان الأتراك يخشون دائماً أن يحاول العرب المستيقظون يوماً أن يستعيدوا مرة ثانية الزعامة على العالم الإسلامي، وانتصار السنوسي كان من شأنه أن يبشر بالضرورة بمثل هذا الانبعاث العربي وأن يجعل من إمام السنوسية، الذي كانت شهرته قد أصبحت عظيمة حتى في تركيا نفسها، وريث الخلافة. ولم يخفف من شكوك الباب العالي أنه هو نفسه لم تكن له مثل تلك المطامح. وبالرغم من أنه قد عومل بمنتهى الاحترام وأحيط بجميع مظاهر التكريم، فإنه قد احتجز بلطف وأدب في تركيا. وما أن انهارت الامبراطورية العثمانية في سنة ١٩١٨، واحتل الحلفاء اسطنبول بعد ذلك، حتى أدرك أن آماله كانت في غير موضعها، وفي الوقت نفسه سدت في وجهه سبل العودة إلى برقة.

ولكن الرغبة في العمل لقضية الوحدة الإسلامية لم تسمح للسيد أحمد بالإقلاع عن نشاطه. فبينما كانت جيوش الحلفاء تدخل اسطنبول ذهب إلى الأناضول للالتحاق بكمال أتاتورك ـ وكان لا يزال يعرف عندئذ بمصطفى كمال ـ الذي كان قد بدأ منذ قليل بتنظيم المقاومة التركية في داخلية الأناضول.

إن على المرء أن يذكر أن نضال تركيا الكمالية الباسل، في البداية، وأن الحمية الدينية وحدها هي التي أعطت الأمة التركية في تلك الأيام الحالكة القوة على محاربة اليونانيين الأقوياء الذين كانوا يعتمدون على موارد الحلفاء.

وقد وضع السيد أحمد نفوذه الروحي والأدبي العظيم في خدمة القضية التركية وأخذ ينتقل بين مدن الأناضول وقراه، داعياً الناس إلى مؤازرة الغازي مصطفى كمال.

وأسهمت جهود إمام السنوسية، بالإضافة إلى اسمه المجيد، بقسط وافر لا يقاس بنجاح الحركة الكمالية بين فلاحي الأناضول البسطاء، الذين لم تكن الكلمات القومية تعني شيئاً بالنسبة إليهم، والذين طوال أجيال لا تحصى كانوا يعتبرون شرفاً لهم أن يهبوا حياتهم في سبيل الإسلام.

ولكن إمام السنوسية قد ارتكب أيضاً خطأ في الحكم. لا بالنسبة إلى الشعب التركي الذي قادته حميته الدينية إلى النصر ضد عدو أقوى بكثير من المرات، بل بالنسبة إلى نوايا زعيمه:

ذلك إنه ما إن تحقق الغازي بالنصر حتى اتضح أن أهدافه الحقيقية كانت تختلف اختلافاً كبيراً عما حمل شعبه على أن يتوقع منه. فبدلاً من أن يقيم ثورته الاجتماعية على أساس من إعادة تقوية الإسلام وإحيائه، فقد نبذ كمال أتاتورك قوة الدين الروحية (التي قادته وحدها إلى النصر) وجعل، دونما أية ضرورة، طرح جميع القيم الإسلامية أساساً لأعماله الإصلاحية. وقد كان ذلك غير ضروري حتى من وجهة نظر أتاتورك نفسه، ذلك أنه كان يستطيع بسهولة أن يوجه الحمية الدينية الهائلة عند شعبه وجهة ايجابية نحو التقدم دون أن يقطع بينهم وبين كل ما صاغ ثقافتهم، وجعلهم أمة عظيمة.

وبعد أن أصابت السيد أحمد تلك الخيبة المريرة من جراء إصلاحات أتاتورك المعادية للإسلام، انسحب نهائياً من على المسرح السياسي في تركيا وغادرها أخيراً إلى دمشق في سنة ١٩٢٣، وهناك حاول رغم مقاومته لسياسة أتاتورك الداخلية، أن يخدم قضية الوحدة الإسلامية بأن جرب إقناع السوريين بالاتحاد ثانية من تركيا. وقد كان طبيعياً أن لا تثق به الحكومة الفرنسية المنتدبة. وعندما عرف أصدقاؤه في أواخر عام ١٩٢٤ أنه سيقبض عليه وشيكاً، هرب بالسيارة عبر الصحراء إلى حدود نجد، ومن هناك سافر إلى مكة حيث استقبله الملك ابن سعود بحرارة وترحاب.

ـ ٢ ـ

وسألته قائلاً: «وكيف أصبح حال المجاهدين، يا سيدي محمد؟» ـ ذلك أنني كان قد مضى عليّ سنة واحدة لم أقف فيها على أخبار برقة.

فأظلم وجه سيدي محمد الزوّي المدور ذو اللحية البيضاء وقال: «الأخبار سيئة، يا ابني. لقد انتهى القتال منذ بضعة أشهر بعد أن انكسر المجاهدون وأنفقوا

آخر رصاصة لديهم. والآن فإن رحمة الله وحدها تقف بين قومنا التعساء وانتقام مضطهديهم. . . ».

ـ «والسيد إدريس؟»

فأجاب سيدي محمد متنهداً: السيد إدريس لا يزال في مصر لا حول له ولا قوة. إنه ينتظر ـ ماذا؟ إنه رجل طيب بارك الله فيه، ولكنه ليس محارباً. إنه يعيش مع كتبه، والسيف لا يستقر جيداً في يده. . . ».

ـ «ولكن عمر المختار. . . لا شك في أنه لم يستسلم؟ هل فر إلى مصر؟»

وتوقف سيدي محمد عن سيره وحدق بي دهشاً: «عمر. . .؟ إذن فأنت لم تسمع حتى بذلك؟»

ـ «لم أسمع بماذا؟»

فقال بلطف: «يا ابني، إن سيدي عمر، عليه رحمة الله، قد مات منذ سنة تقريباً. . . ».

عمر المختار ـ ميت. . . أسد برقة ذاك الذي لم تمنعه سنوه السبعون من القتال حتى آخر رمق في سبيل حرية بلاده: ميت. . . لقد كان، مدة عشر سنوات متطاولة كالحة، روح مقاومة قومه في صراع يائس ضد الجيوش الإيطالية التي كانت عشرة أضعاف جيشه ـ جيوش مزودة بأحدث الأسلحة والدبابات المصفحة والطائرات والمدافع ـ بينما لم يكن لدى عمر المختار ورجاله أنصاف الجائعين شيء سوى البنادق وبعض الخيول يشنون بها حرب عصابات يائسة في بلد انقلب إلى سجن ضخم كبير. . .

ولم أكد أميز صوتي عندما قلت: «لقد عرفت منذ سنة ونصف سنة، أي منذ أن عدت من برقة، أنه ورجاله مقضي عليهم. كم حاولت إقناعه بالتراجع إلى مصر مع من تبقى من مجاهديه كيما يبقى حياً لبني قومه. . . وكم ثناني بهدوء عن إقناعه، مدركاً جيداً أن الموت، ولا شيء غير الموت كان ينتظره في برقة. الآن، بعد مئة معركة، جاءه ذلك الموت الذي طالما انتظره. . . ولكن، قل لي متى سقط؟»

وهز محمد الزوي رأسه ببطء، وعندما خرجنا من شارع السوق الضيق إلى ساحة المناخة المكشوفة المظلمة، أجابني قائلاً:

ـ «إنه لم يسقط في المعركة. لقد جرح وأسر حياً، ومن ثم قتله الإيطاليون. . . لقد شنقوه كما يشنق اللصوص الاعتياديون. . . ».

فهتفت: «ولكن كيف استطاعوا ذلك؟ حتى غرازياني نفسه لا يجرؤ على مثل هذا الشيء الفظيع!»

فأجاب بابتسامة صفراء: «ولكنه فعل. . . لقد كان الجنرال غرازياني نفسه هو الذي أمر به أن يشنق. كان سيدي عمر ونفر من رجاله متوغلين في بعض الأراضي التي كانت في قبضة الإيطاليين عندما قرروا أن يزوروا قبر سيدي الرافعي صاحب النبي ﷺ، على مقربة منهم. وبطريقة ما عرف الإيطاليون بوجوده وسدوا الوادي من الجانبين بعدد كبير من الرجال. ولم يكن هناك أمل بالهرب، ولكن سيدي عمر والمجاهدين دافعوا عن أنفسهم إلى أن لم يبق منهم سواه واثنان آخران. وأخيراً سقط جواده من تحته قتيلاً برصاصة بندقية، فوقع على الأرض ورجله تحت الجواد الميت بحيث لم يستطع النهوض. إلا أن الأسد العجوز استمر في إطلاق النار من بندقيته إلى أن أصابته رصاصة في إحدى يديه، وعندئذ استمر يطلق النار بيده الأخرى حتى نفدت ذخيرته. عندئذ قبضوا عليه وحملوه، مكبلاً، إلى سلوق حيث أخذ الجنرال غرازياني الذي سأله: «ماذا تقول لو أن الحكومة الإيطالية، رأفة كبرى منها بك، سمحت لك أن تعيش؟ هل أنت على استعداد لأن تعد بأنك ستمضي ما تبقى لك من أيامك في سلام؟» ولكن سيدي عمر أجاب: «لن أتوقف عن قتالك وقومك حتى تغادروا بلادي أو أفارق حياتي. وأقسم لك بالله الذي يعلم ما في القلوب أنه لو لم تكن يداي مغلولتين في هذه اللحظة بالذات، إذن لقاتلتك بيدي العزلاء أنا الشيخ المحطم العجوز. . .». وعندها ضحك الجنرال غرازياني وأعطى الأمر بأن يشنق سيدي عمر في سوق سلوق. وهكذا كان. فقد جمع الإيطاليون آلافاً كثيرة من رجال المسلمين ونسائهم من المعسكرات التي كانوا مسجونين فيها وأجبروهم بالقوة على أن يشهدوا شنق قائدهم. . .»[1].

ـ ٣ ـ

وسرت ومحمد الزَّوَيّ ويدانا ما زالتا متماسكتين باتجاه الزاوية السنوسية. وكان الظلام يخيم على الساحة الكبيرة، وكنا قد خلفنا وراءنا ضجة السوق وجلبتها. وكان الرمل يقرقش تحت نعلينا، واستطعنا أن نميز هنا وهناك عدداً من جمال الأحمال تأخذ لنفسها قسطاً من الراحة، وخط البيوت على محيط الساحة البعيد يظهر غير واضح عند

(١) هذا الصنيع الذي يدل على الشهامة الإيطالية جرى في ١٦ أيلول ١٩٣١!!

السماء المظلمة الملبدة بالغيوم. وقد ذكرني ذلك المنظر بحرج غابة قصية - كتلك الغابات من شجر العرعر في نجد برقة حيث لقيت سيدي عمر المختار لأول مرة. وتفجرت في ذاتي ذكريات تلك الرحلة العقيمة بكل طعمها المفجع من الظلمة والخطر والموت. ورأيت وجه سيدي عمر، وقد علته الكآبة، منحنياً فوق نار خفيفة وسمعت صوته الأجش المهيب «علينا أن نحارب في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت. . . وليس لنا غير ذلك من خيار. . .».

كانت مهمة غريبة تلك التي ذهبت بي إلى برقة في أواخر شهر كانون الثاني من سنة ١٩٣١. لقد جاء إمام السنوسية إلى المدينة قبل ذلك ببضعة أشهر، وعلى الضبط في خريف سنة ١٩٣٠، وكنت أمضي معه، بصحبة محمد الزوي الساعات الطوال نبحث في وضع المجاهدين البائس، أولئك المجاهدين الذين كانوا يتابعون النضال في برقة بقيادة عمر المختار. وكان واضحاً لدينا أنهم لم يكونوا ليستطيعوا الاستمرار في الصمود أكثر مما صمدوا إلا إذا أنجدوا بصورة فعالة سريعة.

كان الموقف في برقة على وجه التقريب، كما يلي: كانت جميع المدن الساحلية وعدد من النقاط في القسم الشمالي من الجبل الأخضر - في برقة الوسطى - في قبضة الإيطاليين الشديدة. وكان هؤلاء يسيرون، بين هذه النقاط المحصنة، دوريات مستمرة من السيارات المصفحة وعدداً كبيراً من المشاة، ومعظمهم من عسكر اريتريا، تدعمها أسراب جوية كانت تقوم بغارات متكررة على الأرياف. وكان البدو (الذين كانوا يشكلون نواة المقاومة السنوسية) غير قادرين على أن يتحركوا دون أن يكتشفوا حالاً وتفتح عليهم النار من الجو. وكثيراً ما حدث أن طائرة استطلاعية أبرقت إلى أقرب مركز إليها بوجود مخيم للبدو، وبينما كانت مدافع الطائرة الرشاشة تمنع الناس من التفرق كانت بضع سيارات مصفحة تظهر فجأة وتندفع جارفة في طريقها بيوت الشعر والجمال والناس، فتقتل دون تمييز كل ما يعترض طريقها من الرجال والنساء والأطفال والمواشي، وما تبقى من الناس والمواشي على قيد الحياة كان يساق معاً نحو الشمال إلى المعسكرات المحاطة بالأسلاك الشائكة، والتي كان الإيطاليون قد أنشأوها بالقرب من الشاطىء. في ذلك الوقت، في نهاية سنة ١٩٣٠ تقريباً، بلغ عدد الأسرى ما يقرب من ثمانين ألف بدوي حشروا جميعاً، مع مئات الألوف من المواشي، في مساحة من الأرض لم تكن توفر من الغذاء ما يكفي لربع هذا العدد، فكانت النتيجة أن معدل الوفيات بين الإنسان والحيوان ارتفع ارتفاعاً يبعث على الدهش والفزع. وبالإضافة إلى هذا فقد كان الإيطاليون يقيمون حاجزاً من الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية من الشاطىء جنوباً إلى جغبوب لكي يجعلوا من

المستحيل على العصابات الحصول على المؤن والذخائر من مصر. وكانت قبيلة المغاربة الباسلة، بقيادة زعيمها المغوار، الأطيويش ـ ساعد عمر المختار الأيمن ـ لا تزال تقاوم مقاومة ضارية بالقرب من شاطىء برقة الغربي، ولكن معظم أفراد القبيلة كانوا قد أسقط في أيديهم بالنظر إلى تفوق الإيطاليين في العدد والعدة. أما في أعماق الجنوب، فإن قبيلة الزوية بقيادة شيخهم أبي كريّم ذي التسعين عاماً، كانت لا تزال تقاتل بيأس رغم فقدها مركزها القبلي، واحة جالو. وأما في الداخل فقد كان الجوع والمرض يهلكان عدداً عظيماً من السكان البدو.

وقد كانت جميع القوات المحاربة التي كان باستطاعة سيدي عمر أن ينشرها في أيما وقت واحد لا تكاد تبلغ أكثر من ألف رجل. ولكن هذا لم يكن ناشئاً بالكلية عن قلة الرجال، ذلك أن هذا الضرب من حرب العصابات الذي كان يشنه المجاهدون لم يكن يستلزم تجمعات كبيرة من المقاتلين، بل كان يعتمد على السرعة والحركة عند قوات صغيرة تظهر فجأة لتضرب ضربتها من مكان مجهول، فتهاجم كتيبة أو نقطة أمامية إيطالية، فتستولي على أسلحتها وتتفرق في غابات العرعر الكثيفة ووديان نجد برقة السحيقة. وقد كان واضحاً أن مثل تلك العصابات الصغيرة، مهما كانت شجاعتها وهزؤها بالموت، لم تكن تستطيع مطلقاً أن تنتصر انتصاراً نهائياً على عدو يملك قوات غير محدودة من الرجال والأسلحة، ولذا فإن المسألة كانت تنحصر في كيفية تقوية المجاهدين بحيث لا يتمكنون من إنزال الخسائر الفادحة بالغزاة فحسب، بل من استخلاص المراكز التي كانوا قد رسخوا أقدامهم فيها، والاحتفاظ بتلك المراكز في وجه أي هجوم جديد يقوم به العدو.

وكانت تلك الزيادة في قوة السنوسيين تعتمد على عوامل عدة: تدفق مستمر ثابت من الأطعمة التي كانت ضرورية جداً من مصر، أسلحة يمكن بواسطتها مقاومة غارات الطائرات وحملات السيارات المصفحة ـ وبخاصة البنادق المضادة للدبابات والمدافع الرشاشة الثقيلة، وفنيون مدربون لاستخدام مثل تلك الأسلحة وتعليم المجاهدين كيفية استعمالها. وأخيراً، إنشاء اتصالات لا سلكية يعتمد عليها بين جماعات المجاهدين المختلفة في برقة ومستودعات الذخائر السرية داخل الأراضي المصرية.

واستمرت اجتماعاتنا ـ السيد أحمد وسيدي محمد وأنا ـ مساء كل يوم طيلة أسبوع تقريباً لبحث ما كان بالإمكان صنعه. وقد ارتأى محمد الزوي أن إمداد المجاهدين بين الفينة والأخرى لم يكن من شأنه أن يحل المشكلة، فقد كان يعتقد أن

إحة كفرة، في الجنوب البعيد من صحراء ليبيا مقر الحركة السنوسية العام برئاسة لسيد أحمد، يجب أن تجعل ثانية محور كل العمليات الحربية في المستقبل: ذلك ن كفرة كانت ما تزال أبعد من متناول الجيوش الإيطالية. وفوق ذلك فقد كانت تقع على طريق القوافل (ولو كان طويلاً وشاقاً) إلى واحتي بحرية وفرفرة المصريتين، ولذا كان يمكن تموينها بصورة فعالة أكثر من أية نقطة أخرى في البلاد. كذلك كان بالإمكان أن تجعل مركزاً لاستجمام ألوف كثيرة من اللاجئين من برقة الذين كانوا يعيشون في المخيمات في مصر، فتشكل بهذا مستودعاً دائماً من الرجال لإمداد قوات عمر المختار في الشمال. ولو أن كفرة حصنت وزودت بالأسلحة الحديثة، إذن لاستطاعت أن تصد هجمات المدافع الرشاشة من الطائرات على ارتفاع منخفض، في حين أن إلقاء القنابل من علو شاهق لا يشكل خطراً حقيقياً على السكان المتباعدين.

واقترح إمام السنوسية أن يذهب هو بنفسه، لو أمكن إعادة تنظيم القتال على تلك الصورة، إلى كفرة لإدارة العمليات الحربية المقبلة من هناك. أما أنا فقد ألححت على أنه، كي تنجح تلك الخطة، كان من الواجب على السيد أحمد أن يحسن علاقته بالبريطانيين الذين اشترى خصومتهم الشديدة، دونما ضرورة إطلاقاً، بهجومه عليهم في سنة ١٩١٥ ـ ومثل هذا التحسن في العلاقات لم يكن مستحيلاً، ذلك أن بريطانيا لم تكن مرتاحة إلى مزاج إيطاليا التوسعي، خصوصاً وأن موسوليني كان يعلن للعالم أجمع عن عزمه على «بعث الامبراطورية الرومانية» على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وأنه كان ينظر إلى مصر أيضاً بعين الجشع.

ولم يكن اهتمامي البالغ بمصير السنوسيين ناشئاً عن إعجابي ببطولتهم المتناهية في قضية عادلة مقسطة فحسب، بل إن ما كان يهمني أكثر من ذلك هو ما كان يمكن أن يحدثه انتصار السنوسيين من تأثير على العالم العربي بأكمله إذ إنني لم أستطع أن أرى في العالم الإسلامي كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقة إلى تحقيق المجتمع الإسلامي المثالي: الحركة السنوسية، التي كانت تحارب الآن معركتها الأخيرة في سبيل الحياة.

وبسبب من أن السيد أحمد كان يعرف مبلغ عطفي الشديد على القضية السنوسية، فقد التفت إليّ الآن وسدد نظرة إلى عيني وسألني قائلاً:

ـ «هل تذهب، يا محمد، إلى برقة بالنيابة عنا، فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين؟ لعلك تستطيع أن ترى الأمور بأجلى مما يراها بنو قومي. . .».

فنظرت إليه ثم أطرقت، دون أن أنبس ببنت شفة. فبرغم أنني كنت شاعراً بثقته بي فإنني لم أفاجأ باقتراحه بالكلية. لقد شعرت أن نفسي قد انقطع، دلك أن مجرد التفكير في مغامرة عظيمة كهذه قد أبهجني إلى حد لا أستطيع أن أصفه، ولكن ما أثلج صدري إلى درجة أكبر هو التفكير في أنه سيكون بوسعي أن أسهم بعض الشيء في القضية التي كان قد وهب حياته لها عدد كبير غيري.

وتناول السيد أحمد من على أحد الرفوف نسخة من القرآن الكريم ملفوفة بغلاف من الحرير، وبعد أن وضعها على ركبتيه أمسك بيدي اليمنى بين يديه ووضعها على الكتاب:

«أقسم يا محمد، بالله الذي يعلم ما في القلوب، على أنك ستبقى أميناً للمجاهدين. . .».

فأقسمت ولم أشعر في حياتي يوماً أنني كنت أكثر وثوقاً بوعدي مما كنت في تلك اللحظة.

* * *

كانت المهمة التي عهد بها السيد أحمد إليّ تتطلب أعظم قدر من الكتمان. ولما كانت علاقاتي بإمام السنوسية معروفة جيداً، ولم يكن بالإمكان أن تخفى على البعثات الأجنبية في جدة، فلم يكن من المستحسن أن أسافر علناً إلى مصر وأعرض نفسي لخطر المطاردة والتعقب هناك.

ولما كانت المقالات التي كتبتها مؤخراً قد فضحت المؤامرات والدسائس وراء ثورة فيصل الدويش، فإنها، بالطبع، لم ترفع من منزلتي في أعين الإنكليز، ولذا كان من المحتمل جداً أن أكون موضع مراقبتهم الشديدة منذ أن أضع قدمي على الأرض المصرية. وإذن فقد قررنا أن نبقي، حتى ذهابي إلى مصر، طي الكتمان، فأعبر البحر الأحمر في واحدة من تلك السفن الشراعية العربية وأنزل إلى البر خلسة، دونما جواز أو سمة، عند نقطة منعزلة على شاطىء الصعيد. وفي مصر يمكنني أن أتنقل بحرية بعد أن أتنكر في ثياب رجل من أهل المدن الحجازية، ذلك أن الكثيرين من أبناء مكة والمدينة الذين كانوا يذهبون إلى هناك للمتاجرة أو بحثاً عن الحجاج كانوا شيئاً مألوفاً في المدن والقرى المصرية. ولما كنت أستطيع أن أتكلم اللهجة الحجازية بسهولة تامة، فقد كان باستطاعتي أن أدعي، دون أن أثير أيما شك أو ريبة، بأنني من مواطني إحدى تينك المدينتين المقدستين.

ولقد كان ينبغي لنا بضعة أسابيع لإنهاء الترتيبات والتدابير اللازمة للرحلة، منها تبادل المراسلات السرية مع سيدي عمر في برقة ومع بعض السنوسيين في مصر أيضاً. وهكذا فإنني وزيداً لم نستطع أن نخرج من ميناء ينبع الحجازية إلى مكان ما على الشاطىء يرتاده القليلون، إلا في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣١. كانت ليلة مظلمة، كما كان المشي بالنعال فوق الأرض الوعرة مزعجاً إلى أبعد الحدود. عندما تعثرت مرة صدمت أضلاعي قبضة المسدس الذي كنت قد دسسته تحت الزبون الحجازي، وعندئذ تجلى لي خطر المغامرة التي كنت بسبيل الإقدام عليها.

لقد كنت أمشي إلى لقاء مع ربان عربي غامض كان عليه أن يأخذني في سنبوك عبر البحر وينزلني سراً في مكان ما على الشاطىء المصري. ولم أكن أحمل أوراقاً تكشف شخصيتي، وهكذا لم يكن من السهل إذا ما قبض عليّ في مصر، أن أثبت لهم هويتي. ولكن حتى خطر البقاء عدة أسابيع في سجن مصري لم يكن شيئاً بالنسبة إلى الأخطار التي كانت تنتظرني، ذلك أنه كان عليّ أن أشق طريقي عبر الصحراء الغربية من جانب إلى جانب، متحاشياً أن تعثر عليّ طائرات الاستطلاع الإيطالية ولربما أيضاً دوريات السيارات المصفحة إلى قلب بلاد لم يكن يسودها إلا لغة السلاح. وسألت نفسي: لماذا أنا مقدم على كل هذا؟

وبالرغم من أن الأخطار لم تكن مجهولة مني، فإنني لم أسع من قبل إليها في سبيل الحصول على متعة أو روعة ممكنة. وكنت كلما أقدم عليها أفعل ذلك دائماً استجابة لدوافع واعية، أو غير واعية، تتصل، بطريقة شخصية جداً، بحياتي الخاصة وإذن فما شأن هذه المهمة الحاضرة؟ هل كنت أعتقد حقاً أن تدخلي كان يمكن أن يقلب الوضع لصالح المجاهدين؟ لقد أردت أن أعتقد ذلك، ولكنني في صميمي كنت أعرف أنني إنما كنت أقوم بمهمة طائشة، فبحق الله إذن، لماذا كنت أغامر بحياتي كما لم أغامر بها من قبل، وبذلك القدر الضئيل من الأمل بالنجاح؟

ولكن الجواب كان هناك، قبل أن يتسنى لي أن أصوغ السؤال.

عندما قدر لي أن أعرف الإسلام وأن أرتضيه طريقتي في الحياة، ظننت أن جميع تساؤلي وبحثي قد انتهيا إلى غايتهما. ولم أدرك إلا بصورة تدريجية، تدريجية جداً، أن تلك لم تكن الغاية. ذلك أن ارتضاء طريقة في الحياة رابطة للمرء كان، بالنسبة إليّ على الأقل، مرتبطاً بالرغبة في تتبعها بين أناس لهم الاعتقاد نفسه، وليس في تتبعها بمعنى شخصي فحسب بل أيضاً في العمل على إثمارها اجتماعياً داخل

المجتمع الذي اخترته. لقد كان الإسلام بالنسبة إليّ، طريقاً لا غاية ـ وعصابات عمر المختار اليائسة إنما كانت تقاتل بدماء حياتها في سبيل الحرية لسلوك تلك الطريقة، تماماً كما فعل صحابة النبي ﷺ منذ ثلاثة عشر قرناً مضت. وإذن، فإن إسداء المعونة إليها في صراعها العنيف المر، مهما كانت النتيجة مشكوكاً فيها ضرورياً لي كالصلاة سواء بسواء. . .

ووصلنا إلى الشاطىء. وفي حركة التموجات المائية التي كانت تضرب الحجيرات، تمايل «الجلبوط» الذي كان سيقلنا إلى السفينة الراسية في الظلام البعيد. وإذ نهض الجذاف من الزورق المنتظر، التفتّ إلى زيد قائلاً:

ـ «يا زيد، يا أخي، هل تعلم أننا مقدمون على مغامرة قد تكون أخطر عليك وعليّ من جميع إخوان الدويش؟ أفلا تحن إلى السلام في المدينة، وبين أصدقائك؟»

ـ «إن طريقك هو طريقي، يا عمي. ثم، ألم تقل لي أنت نفسك إن الماء إذا ركد فسد وكدر، لنذهب ـ وليجر الماء حتى يصفو. . .».

* * *

كانت السفينة واحدة من تلك السنابيك الكبيرة الثقيلة التي تطوف جميع ثغور جزيرة العرب؛ مبنية من الخشب فحسب، وكانت تنبعث منها رائحة السمك المجفف وحشائش البحر، وكانت لها دكة مرتفعة من الخلف وصاريان وغرفة كبيرة ذات سقف منخفض بينهما. واستقبلنا الريس، وكان شيخاً من مسقط، كانت عيناه صغيرتين سوداوين كأزرار الزهر تحدجانني من تحت ثنايا عمامة ضخمة ذات ألوان متعددة، ويبدو فيهما تعبير حذر كان ينطق بسنوات طويلة صرفت في أخطار ومغامرات غير مشروعة، وكان خنجره المعقوف المطعّم بالفضة لم يبد أنه كان للزينة وحدها. وإذا صعدنا إلى السفينة صاح الريس:

ـ «مرحباً يا مرحباً بأصدقائي! إن هذه لساعة سعيدة!»

واستغرقت في التفكير. كم مرة أظهر ريسنا هذا الترحاب الحار بالحجاج المساكين الذين كان يقلهم في سفينته سراً من مصر دون أن يعيرهم بعد ذلك أي انتباه أو يحوطهم بأية رعاية، والذين كانوا ينزلون على شواطىء الحجاز خلسة كيما يتفادوا دفع رسوم الحج التي كانت الحكومة الحجازية قد فرضتها على أولئك الذين يرغبون في الحج إلى بيت الله؟ وكم من مرة استعمل فيها هذه الكلمات عينها مخاطباً تجار

العبيد الذين كانوا قد أمسكوا، مخالفين بذلك الشريعة الإسلامية، ببعض الأحباش التعساء لبيعهم في أسواق العبيد في اليمن؟ إلا أنني من ثم عزيت نفسي قائلاً: إن الخبرة التي لا بدّ أن يكون «ريسنا» قد اكتسبها ـ مهما كان أساسها مريباً ـ لا يمكن إلا أن تكون في صالحنا؛ ذلك أنه كان يعرف طريقه جيداً حول البحر الأحمر كما لم يكن يعرفه إلا القلائل من البحارة، وكان بوسعنا أن نعتمد عليه في إنزالنا على شاطىء أمين.

* * *

وبعد أربع ليال رست السفينة وأقلنا زورق صغير إلى حيث نزلنا إلى الشمال من ميناء القصير على شاطىء الصعيد، ولقد دهشنا حقاً عندما رفض الريس ما عرضت عليه من مال، وقال وهو يضحك ضحكة فاترة: «لقد دفع لي أسيادي. كان الله معكم».

وكما كنت قد توقعت فإنه لم يكن من العسير علينا أن نحول عنا الأنظار في القصير، ذلك أن البلدة كانت معتادة على رؤية الرجال بالثياب الحجازية. وفي صباح اليوم التالي لوصولنا قطعنا تذكرتين للذهاب إلى أسيوط على النيل في حافلة قديمة متداعية، وهكذا بدأنا، زيد وأنا، أول مرحلة من رحلتنا الافريقية محشورين بين امرأة على جانب مخيف من البدانة تحمل في حجرها الواسع قفصاً مليئاً بالدجاج، وبين فلاح عجوز بدأ، حالما وقع نظره على زينا، يروي ذكرياته عن الحجة التي قام بها قبل ذلك بسنوات عشر.

لقد اعتقدت دائماً أن أيما رجل يقدم على عمل خطر غير قانوني لا بدّ أن يشعر بأنه موضع للشك من قبل كل شخص يلقاه، وأن تنكره لا بدّ أن ينكشف بسهولة ويسر. ولكن الغريب هو أن ذلك الشعور لم يراودني الآن، ذلك أنني، إبان سنواتي الماضية في جزيرة العرب، دخلت في صميم حياة أهلها إلى درجة أنه لم يخطر لي، بطريقة ما، أن أعتبر نفسي إلا واحداً منهم. وبالرغم من أنني لم أشارك أهل مكة والمدينة أعمالهم الخاصة، فإنني شعرت بالكلية وكأنني في وطني إبان قيامي بدور وكيل مطوف إلى درجة أنني انهمكت في نقاش، كاد يكون «مهنياً»، مع عدد من المسافرين الآخرين عن فضائل الحج. واشترك زيد بالمناقشة باندفاع عظيم، وهكذا قضينا الساعات الأولى من الرحلة في حديث ناشط.

وبعد أن انتقلنا إلى القطار في أسيوط، وصلنا أخيراً إلى بلدة بني سويف

الصغيرة، وذهبنا رأساً إلى السنوسي الذي كان علينا أن نتصل به، إسماعيل الذيبي، وكان رجلاً بديناً قصير القامة تنبىء تقاطيع وجهه بالمرح والحبور، ويتكلم لغة أهل الصعيد. وإذ لم يكن غير بائع بسيط للأقشمة متوسط الحال، فإنه لم يكن من وجهاء البلدة، إلا أن ولاءه للحركة السنوسية كان قد ثبت في مناسبات كثيرة، كما أن حبه الشخصي للسيد أحمد جعله جديراً بالثقة الكلية. وبرغم أن الوقت كان متأخراً، فقد أيقظ إسماعيل لنا خادماً كي يعد لنا العشاء، وأخذ يقص علينا، في أثناء انتظارنا الطعام، ما كان قد اتخذ من تدابير.

كان أول ما فعل، حالما تسلم رسالة السيد أحمد، أن اتصل بأحد مشاهير العائلة المالكة المصرية الذي كان، طيلة سنين عديدة، ظهيراً يلتهب غيرة على القضية السنوسية، وأطلعه على الغاية من مهمتي، فوافق على أن يضع بتصرفي المال اللازم، وعلى أن يزودني أيضاً بدليلين ماهرين في أثناء رحلتي الصحراوية إلى حدود برقة. وكان هذان الدليلان، كما أخبرنا مضيفنا، ينتظراننا في تلك اللحظة في إحدى جنائن النخيل خارج بني سويف.

وقد خلعت وزيداً لباسينا الحجازيين اللذين كان من شأنهما أن يثيرا الفضول في طرق الصحراء الغربية، وارتدينا بدلاً منهما سروالين قطنيين وثوبين حسب الزي الافريقي الشمالي، وفوقهما «برنسين» صوفيين كتلك «البرانس» التي يرتديها أهل مصر الغربية وليبيا. وأحضر إسماعيل من سرداب بيته بندقيتين من بنادق الفرسان مصنوعتين في إيطاليا ـ «ذلك أنه من السهل أن تأخذا حاجتكما من الذخيرة لهذا النوع من البنادق».

وفي الليلة التالية خرجنا بقيادة مضيفنا، من البلدة. وقد ظهر لنا أن دليلينا كانا من قبيلة «أولاد علي» المصرية التي كان للسنوسي بين أفرادها أنصار كثيرون. وكان أحدهما، عبد الله، شاباً نشيطاً خفيف الروح اشترك قبل ذلك بسنة واحدة في القتال في برقة فاستطاع لذلك أن يزودنا بكثير من المعلومات عما يمكن أن ينتظرنا هناك. أما الآخر، وقد نسيت اسمه، فقد كان نحيلاً كئيباً لا يتكلم إلا نادراً، إلا أنه أثبت أنه لا يقل أمانة وغيرة عن عبد الله. وكانت المطايا الأربع التي كانت معهم ـ أربعة هجن قوية سريعة من أصل بيشاريني ـ قد اختيرت لجودتها وطيب أصلها. كانت تحمل على ظهورها شدوداً لا تختلف كثيراً عن الشدود التي اعتدت عليها في جزيرة العرب. ولما كان علينا أن نتحرك بسرعة ودونما فترات طويلة من التوقف فإن الطعام المطبوخ لم يكن وارداً معظم الطريق، ولذا كان زادنا بسيطاً: كيساً كبيراً مليئاً بالتمر،

وكيساً أصغر منه محشواً بالكعك الجاف المحلى المصنوع من طحين القمح الخشن والتمر، وكانت هناك قُرب من الماء معلقة بشدود ثلاثة من المطايا الأربع.

وقبيل منتصف الليل، عانقنا اسماعيل وطلب من الله أن يوفقنا في مهمتنا، واستطعت أن أرى أنه كان بالغ التأثر. ومن ثم تقدمنا عبد الله فخلفنا وراءنا الرحيل. وسريعاً ما سرنا بخطوات واسعة، في ضوء القمر الساطع، فوق أرض الصحراء المفروشة بالحصى نحو الشمال الغربي.

وبالنظر إلى ضرورة تفادي أيما التقاء بإدارة الحدود المصرية التي كانت سياراتها وهجانتها، حسبماً كنا نعرف جميعاً، تجوب ذلك القسم من الصحراء الغربية، فقد حرصنا على أن نبتعد قدر الاستطاعة، عن طريق القوافل الرئيسية. إلا أنه لما كان معظم حركة المواصلات بين بحرية ووادي النيل عن طريق الفيوم، بعيداً في الشمال، فإن الخطر لم يكن كبيراً جداً.

وفي الليلة الأولى من خروجنا قطعنا قرابة ثلاثين ميلاً توقفنا بعدها لقضاء النهار في دغل من شجيرات الطرفاء. وفي الليلة الثانية والليالي التي تلتها زدنا سرعتنا زيادة عظمى فوصلنا قبل فجر اليوم الرابع إلى حافة المنخفض العميق الذي تقع فيه واحة بحرية.

وبينما خيمنا متخفين تحت بعض الصخور الكبيرة خارج الواحة التي كانت تتألف من عدة هجرات ومزارع متفرقة أهمها قرية باويتي ـ نزل عبد الله مشياً على قدميه الجرف الصخري إلى المنخفض المغطى بأشجار النخيل قاصداً إلى الرجل الذي كان علينا أن نتصل به في باويتي. ولما لم يكن باستطاعته أن يعود قبل هبوط الظلام، فقد تمددنا لننام في ظل الصخور، ولننعم بالراحة الحلوة بعد مسير مضن طوال تلك الليالي الباردة، غير أنني لم أنم طويلاً، ذلك أن أفكاراً كثيرة كانت تراود مخيلتي.

وإذ فكرت في خططنا، خيل إليّ أنه لن يكون من العسير جداً الاحتفاظ بخط دائم من المواصلات بين بني سويف وبحرية. حتى القوافل الكبيرة كانت تستطيع، كما وثقت، أن تسافر دون أن ترى بين تينك النقطتين إذا لزمت جانب الحذر بصورة كافية. وبالرغم من أنه كان في باويتي مركز لإدارة الحدود (كنا نستطيع أن نرى أبنيته البيضاء، من مخبئنا فوق الواحة) فقد كان من الممكن إقامة جهاز لاسلكي سري ناقل في إحدى القرى المنعزلة إلى الجنوب من بحرية. وقد تأكدت من هذه النقطة بعد

ساعات من مجيء عبد الله، والبربري العجوز ـ الرجل الذي كان علينا أن نتصل به ـ الذي جاء صحبته، وتبين لي أن الحكومة على العموم، لم تكن تشرف على الواحة إشرافاً دائماً. وإن السكان ـ وهذا ما كان أهم إلى حد بعيد ـ كانوا من أنصار السنوسيين المتحمسين.

خمس ليال أخرى من الركوب المضني: أولاً فوق الحصباء والأراضي الوعرة، ومن بعدها عبر التلال الرملية المنبسطة، فواحة سترة الخالية من السكان ببحيرتها الميتة المالحة الزرقاء اللون المحاطة بالقصب وأحراج النخيل البري وفوق منخفض العرج بصخوره الكلسية الغريبة الأشكال التي جعلها القمر تبدو وكأنها الأشباح... وفي نهاية ليلتنا الخامسة وقعت أعيننا لأول مرة على واحة سيوة. لقد رغبت، منذ سنين، رغبة ملحة في أن أزور هذه الواحة النائية التي كانت في ما مضى قاعدة لمعبد آمون وقدساً اشتهر في العالم القديم كله، إلا أن رغبتي تلك، لسبب ما، لم يكتب لها أن تتحقق. وها هي الآن تمتد أمامي في الفجر المشرق: امتداد واسع من غياض النخيل تحيط بكثيب متوحد عليه انتصبت بيوت البلدة متأصلة في مساكن تشبه الكهوف الصخرية، طبقة فوق طبقة نحو مئذنة عالية مخروطية الشكل اعتلت القمة المنبسطة. كانت كتلة غريبة من أبنية الطوب المتفتتة من مثل تلك التي يراها المرء في الحلم... ولقد استولت عليّ رغبة دافعة إلى أن أدخل حدودها العجيبة وأن أجوب أزقتها التي شهدت أزمنة الفراعنة، وأن أشهد بقايا المعبد الذي فيه سمع كروسوس، ملك ليديا، الوحي الذي قضى بهلاكه، والذي فيه وعد اسكندر المقدوني فتح العالم.

ولكن مرة أخرى لم يكتب لحنيني أن يثمر، فبالرغم من أني كنت قريباً جداً من مدينة سيوة، فقد كان من الواجب أن تظل مغلقة دوني. إن زيارة مكان على ذلك القدر من البعد عن العالم الخارجي وعدم التعود على رؤية الغرباء إلى درجة أن كل وجه جديد من شأنه أن يلحظ حالاً كان لا بدّ أن يكون عملاً أخرق، ذلك أن سيوة، لما كانت واقعة على الحدود الليبية تقريباً، كانت تحت المراقبة الشديدة من قبل إدارة الحدود، كما أنه لم يكن لدينا أي شك في أنها مليئة بالجواسيس والمخبرين الذين كانوا يقبضون الأموال من الإيطاليين. وهكذا عزيت نفسي بأن زيارة سيوة لم تكن من حظي في هذه الرحلة. ولذا فقد درنا دورة حول البلدة إلى الجنوب وأخيراً نزلنا في غيضة من النخيل البري. ولكن عبد الله، دون أن يسمح لنفسه بأن يستريح ـ ذلك أننا لم نكن ننوي التوقف على تلك المقربة من الحدود بأكثر مما كان ضرورياً ـ ركب حالاً إلى الدسكرة المجاورة ليبحث عن الرجل الذي كان السيد أحمد قد عهد إليه

بمرافقتنا عبر الحدود. وبعد بضع ساعات عدنا مع ذلولين جديدين ومضينا نريح لامتطائها بدلاً من تلك التي كان قد استبد بها التعب. وكان الذلولان من بعض ما لدى عصبة من الجبل الأخضر ومن رجال عمر المختار أرسلهم خصيصاً ليقودوا جمالاً متعبة بين واحتي جغبوب وجالو المحتلتين من قبل الإيطاليين إلى حدود برقة حيث كان عمر

ودعنا عبد الله ورفيقه ليعودا إلى قريتهم في مصر، وبقيادة المجاهدين خليل وعبد الرحمن شرعنا في سيرنا عبر السهل الصحراوي الواسع الذي كاد يكون خالياً من الماء، والذي كان يرتفع قليلا قليلا نحو الجبل الأخضر. لقد كانت أشق رحلة صحراوية قمت بها. فبرغم أننا لم نكن معرضين كثيرا لخطر الاكتشاف من قبل الإيطاليين، فيما لو حرصنا على الاحتباء في النهار والسير في الليل فقط، فإن صرورة تمادي الآبار التي كانت تفصل بينها مسافات بعيدة جعلت سيرنا الطويل أشبه بالكابوس التقيل، ولم نتمكن سوى مرة واحدة من تقديم الماء إلى مطايانا وتعبئة قربنا من بئر مهجورة في وادي المرا، ومع ذلك فقد كدنا نتعرض من جراء ذلك إلى الهلاك.

ذلك أننا وصلنا إلى البئر بعد الوقت الذي توقعنا أن نصل إليها فيه. والواقع أن الفجر كان ينبثق عندما شرعنا في سحب الماء من البئر لمطايانا. وكانت الشمس فوق الأفق عندما انتهينا. وكان لدينا، كما قال خليل، ساعتان كاملتان من المسير قبل أن نتمكن من بلوغ المنخفض الصخري الذي كان علينا أن نختبىء فيه أثناء النهار. إلا أننا لم نكد نستأنف سيرنا حتى قطع أزيز إحدى الطائرات صمت الصحراء: وبعد بضع دقائق ظهرت فوق رؤوسنا طائرة صغيرة، ثم مالت على أحد جانبيها وبدأت تحوم وتنخفض نحو الأرض. ولم يكن هناك مكان نحتمي به، وهكذا قفزنا من على ظهور المطايا إلى الأرض وتفرقنا، وفي تلك اللحظة عينها فتح الطيّار نيرانه من مدفعه الرشاش.

وصرخت: «ألقوا بأنفسكم على الأرض! لا تتحركوا ـ تظاهروا بالموت!»

ولكن خليلًا، الذي لا بدّ أنه كان قد خبر مثل هذه الأمور إبان سنواته الطويلة مع المجاهدين، لم «يتظاهر بالموت». لقد استلقى على ظهره وأسند رأسه إلى صخرة، ثم ركز بندقيته على إحدى ركبتيه بعد أن رفعها، وبدأ يطلق النار على الطائرة المهاجمة ـ لا كيفما اتفق، بل مسدداً بندقيته تسديداً محكماً قبل كل طلقة، كأنما يتمرن على الرماية. والحق أن عمله كان جريئاً للغاية ذلك أن الطائرة انخفضت رأساً باتجاهه وهي ترش الرمال بالرصاص ولكن إحدى طلقات خليل لا بدّ أصابت الطائرة

إذ إنها انحرفت فجأة وأدارت أنفها إلى فوق وارتفعت بسرعة كلية. والأرجح أن الطيار قد قرر أن قتل أربعة من الرجال لم يكن يساوي تعريض نفسه للخطر، ولذا حوم مرة أو مرتين فوقنا، ثم اختفى نحو الشرق باتجاه جغبوب.

وقال خليل بهدوء عندما اجتمعنا ثانية: «هؤلاء الإيطاليون أولاد الكلاب، هم جبناء، إنهم يحبون أن يقتلوا ـ ولكنهم لا يحبون أن يعرضوا جلودهم بأكثر مما ينبغي».

ولم يصب أحد منا بأذى، ولكن مطية عبد الرحمن قتلت فنقلنا خرجها إلى مطية زيد، وركب عبد الرحمن وراءه رديفاً.

وبعد ثلاث ليال وصلنا إلى غابات العرعر في الجبل الأخضر، واستبدلنا بمطايانا المتعبة خيلاً كانت تنتظرنا في بقعة منعزلة في عهدة جماعة من المجاهدين. لقد أصبحت الصحراء من ورائنا، وأخذنا في المسير فوق نجد مليء بالتلال والصخور تقطعه وديان جافة وتنمو فيه أشجار العرعر التي كانت تشكل في بعض الأمكنة أجمات كثيفة لا يكاد يمكن اختراقها. هذه الأرض المقفرة التي لا أثر فيها لدرب أو طريق في قلب الأراضي المحتلة من قبل الإيطاليين كانت مربع صيد المجاهدين وقنصهم.

* * *

وبعد أربع ليال أخرى وصلنا إلى وادي التعبان ـ وقد سمي بذلك بحق ـ حيث كان علينا أن نجتمع بعمر المختار. وبعد أن اختبأنا في واد صغير تكتنفه الأشجار الكثيفة وعقلنا خيولنا تحت بعض الصخور، جلسنا ننتظر مجيء أسد الجبل الأخضر، وكان الليل قارساً شديد الظلمة يخيم عليه صمت عميق.

كان علينا أن ننتظر بضع ساعات قبل أن يجيء سيدي عمر، ولما كان الليل حالك السواد فإن دليلينا البدويين لم يجدا سبباً يمنعنا من ملء قربنا بالماء من آبار بوصفية على مسافة أميال معدودات إلى الشرق. صحيح أنه كان هناك مركز إيطالي محصن يبعد أقل من نصف ميل عن بوصفية، «ولكن»، قال خليل:

ـ «إن أولئك الأوغاد الكلاب لن يجرؤوا على ترك أماكنهم في ليلة مظلمة كهذه».

وهكذا ركب خليل وزيد جواديهما واصطحبا معهما قربتين فارغتين بعد أن لفا

حوافر جواديهما بالحرق منعاً لأي صوت فوق الأرض الصحرية. واختفيا في الظلمة. أما أنا فقد بقيت مع عبد الرحمن في مكاننا وأسندنا ظهرينا إلى الصخور المنخفضة والتصق حسمانا بعضهما ببعض طلباً للدفء. فقد كان إيقاد النار يشكل مغامرة كبرى.

وبعد ساعة أو نحو ذلك، سمعنا حفيف أغصان بين أشجار العرعر. واصطدم نعل حفيف بحجر. وانتصب رفيقي واقفاً وأمسك بدقيته بيديه وحدق إلى الظلام. وخرجت من الأجمة صيحة أشبه بعويل إبن آوى. فما كان من عبد الرحمن إلا أن كوّر يده أمام فمه وأجاب بصوت مماثل. وعندئذ ظهر أمامنا شخصان حافيي الأقدام مسلحين بالبنادق. وعندما اقتربا منا، قال أحدهما: «في سبيل الله» وأجاب عبد الرحمن: «لا حول ولا قوة إلا بالله» - فعرفت أنها إحدى كلمات السر التي كان يستعملها المجاهدون.

والظاهر أن أحد القادمين - وكانا كلاهما يرتديان حردين باليين - عرف عبد الرحمن، ذلك أنه صافحه بكلتا يديه وحياه بحرارة. وقدمني عبد الرحمن إليهما فصافحني كل منهما بدوره بكلتا يديه، وقال أحدهما: «كان الله معك. إن سيدي عمر قادم».

ووقفنا منصتين. وبعد حوالى عشر دقائق سمعنا حفيف الأغصان مرة ثانية بين أدغال العرعر وبرز ثلاثة رجال، كل منهم من جهة، وأخذوا يقتربون منا وبنادقهم في أيديهم مصوبة إلينا. وبعد أن اقتنعوا بأننا كنا فعلا من كانوا يتوقعون رؤيتهم، عادوا فاختفوا ثانية في الأجمة وفي جهات مختلفة أيضا. فقد كان واضحا أنهم كانوا ينوون حراسة زعيمهم والإشراف على سلامته.

وما لبث عمر أن جاء على جواد صغير لفت حوافره بالقماش. وكان يحيط به رجلان من كل جانب، ويتبعه كذلك عدد آخر. وعندما وصل إلى الصخور التي كنا ننتظر عندها، ساعده أحد رجاله على النزول، ورأيت أنه كان يمشي بصعوبة (عرفت بعدئذ أنه قد جرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام تقريبا). وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن أن أراه بوضوح: كان رجلا معتدل القامة قوي البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة. وكانت عيناه عميقتين، ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين براقتين في غير هذه الظروف، إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة.

واقتربت منه لأحييه، وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي.

ـ «مرحباً بك، يا ابني» قال ذلك وأخذ يجيل عينيه فيّ متفحصاً: لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي.

وفرش أحد رجاله حراماً على الأرض فجلس سيدي عمر عليه متثاقلاً. وانحنى عبد الرحمن ليقبل يده ثم شرع، بعد استئذانه، يوقد ناراً خفيفة تحت الصخرة التي كنا محتمين بها. وعلى ضوء النار الخافت، قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد أحمد إليه. لقد قرأه باهتمام وعناية، ثم طواه ووضعه لحظة فوق رأسه ـ وهي أمارة الاحترام والحب لا يكاد المرء يراها في جزيرة العرب ولكنه كثيراً ما يراها في شمالي افريقيا ـ ثم التفت إليّ مبتسماً وقال:

ـ «لقد أطراك السيد أحمد، أطال الله عمره، في كتابه. أنت على استعداد لمساعدتنا، ولكنني لا أعلم من أين يمكن أن تأتينا النجدة، إلا من الله العلي الكريم. إننا حقاً على وشك أن نبلغ نهاية أجلنا».

فقلت: «ولكن . . . هذه الخطة التي وضعها السيد أحمد، ألا يمكن أن تكون بداية جديدة؟ وإذا أمكن تدبير الحصول على المؤن والذخائر من كفرة بصورة ثابتة، أفلا يمكن صد الإيطاليين؟»

لم أر في حياتي ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك الابتسامة التي رافقت جواب سيدي عمر: «كفرة . . .؟ لقد خسرنا كفرة، فالإيطاليون قد احتلوها منذ أسبوعين تقريباً . . .».

وأذهلني الخبر، ذلك أنني والسيد أحمد، طوال تلك الأشهر الماضية، كنا نبني خططنا على افتراض أن كفرة يمكن أن تكون نقطة تجمع لتقوية المقاومة. أما وقد ضاعت كفرة فإنه لم يبق للسنوسيين سوى نجد الجبل الأخضر ـ لا شيء سوى كماشة الإيطاليين التي كانوا يضيقونها بثبات واستمرار. . . وخسارة نقطة بعد نقطة. . . واختناق بطيء!

ـ «وكيف سقطت كفرة؟»

فأومأ سيدي عمر إيماءة متعبة إلى أحد رجاله أن يقترب: «دع هذا الرجل يقص عليك الخبر. . إنه واحد من أولئك القلائل الذين هربوا من كفرة، ولم يصل لعندي إلا بالأمس».

وجلس الكفري على ردفيه أمامي وجذب برنسه البالي حوله وتكلم ببطء دون أن يبدو في صوته أي أثر للانفعال، ولكن وجهه الناحل كان يعكس جميع الأهوال التي شهدها.

ـ «لقد خرجوا علينا في ثلاث فرق ومن ثلاث جهات، وكان معهم سيارات مصفحة ومدافع ثقيلة كثيرة. أما طائراتهم فقد حلقت على علو منخفض ورمت بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل. لم يكن لدينا سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح، أما الباقون فقد كانوا نساء وأطفالاً وشيوخاً. لقد دافعنا عن أنفسنا بيتاً بيتاً، ولكنهم كانوا أقوى كثيراً منا، وفي النهاية لم يبق لنا إلا قرية الهواري. لم تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة فطغوا علينا، وتمكن عدد قليل جداً من الهرب. أما أنا فقد اختبأت في حدائق النخيل، مترقباً الفرصة لشق طريقي خلال الخطوط الإيطالية. وكنت طوال الليل أسمع ولولة النساء اللواتي كان الجنود الإيطاليون والعساكر الأريتريون يغتصبونهن. وفي اليوم التالي أحضرت لي امرأة عجوز بعض الماء والخبز، وأخبرتني أن الجنرال الإيطالي قد حشد كل ما تبقى على قيد الحياة أمام قبر السيد محمد المهدي وأمام أعينهم مزق نسخة من القرآن ثم رماها إلى الأرض وداس عليها بحذائه صائحاً: «دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن، إذا استطاع!» ثم أمر بقطع أشجار النخيل في الواحة وبهدم آبارها وإحراق كل ما كان في مكتبة السيد أحمد البدوي من كتب. وفي اليوم التالي أصدر أمره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق. وطوال الليلة التالية كنت أسمع من مخبئي صرخات النساء وضحكات الجنود وطلقات بندقياتهم... وأخيراً زحفت إلى الصحراء في ظلام الليل فوجدت جملاً شارداً أمتطيته ووليت فراراً...».

وعندما أنهى الكفري قصته المخيفة قربني سيدي عمر إليه بلطف وكرر قوله: «إنك تستطيع أن ترى، يا ابني، إننا قد اقتربنا فعلاً من نهاية أجلنا». ثم أضاف كأنما يجيب عن السؤال الذي كانت تنطق به عيناي: «إننا نقاتل لأن علينا أن نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت نحن وليس لنا أن نختار غير ذلك. إنا لله وإنا إليه راجعون ـ لقد أرسلنا نساءنا وأولادنا إلى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا أن نموت».

وسمعنا هديراً خافتاً ينبعث من مكان ما من السماء السوداء. وبحركة فجائية، رمى أحد رجال سيدي عمر الرمل على النار فأطفأها. ومرت الطائرة، التي لم تكن سوى شبح غامض في الغيوم المضاءة بنور القمر الخافت، على علو منخفض،

واتجهت نحو الشرق واحتفى هديرها قليلاً قليلاً.

قلت: «ولكن، يا سيدي عمر، أليس من الأفضل لك وللمجاهدين أن تسحبوا إلى مصر بينما لا يزال هناك طريق مفتوح أمامكم؟ فلقد يكون من الممكن في مصر حمع المهاحرين الكثيرين من برقة وتنطيم قوة أكثر فعالية وجدوى. إن القتال هنا يجب أن يوقف بعض الوقت حتى يستعيد الرجال شيئاً من قوتهم... أنا أعرف أن البريطانيين في مصر لا ينظرون بعين الرضى إلى وجود قوات إيطالية راسخة الإقدام على خاصرتهم، فقد يغضون الطرف، والله أعلم، عن استعداداتكم فيما إذا اقنعتموهم بأنكم لا تعتبرونهم أعداء...»

فأجاب: «كلا يا ابني، لم يعد هذا يجدي الآن. إن ما تقوله كان ممكناً منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة، قبل أن يقوم السيد أحمد، أطال الله عمره، بمهاجمة البريطانيين كي يساعد الأتراك - الذين لم يساعدونا... أما الآن فلم يعد في الأمر ما يجدي... إن البريطانيين لن يحركوا إصبعاً لكي يسهلوا علينا أمرنا، والإيطاليون مصممون على أن يقاتلونا حتى النهاية، وعلى سحق كل إمكانية للمقاومة في المستقبل. فإذا ذهبت وأتباعي الآن إلى مصر، فإننا لن نتمكن مطلقاً من العودة ثانية، وكيف نستطيع أن نتخلى عن قومنا ونتركهم ولا زعيم لهم، لأعداء الله يفترسونهم؟»

- «وما قول السيد إدريس؟ هل يشاركك الرأي يا سيد عمر؟»

- «إن السيد إدريس رجل طيب. إنه ولد طيب لوالد عظيم، ولكن الله لم يعطه قلباً يمكنه من تحمل مثل هذا الصراع...».

لقد كان سيدي عمر يعرف أنه لم يكن ينتظر غير الموت، كان هناك جد عميق، ولكن دونما كبت، في صوت سيدي عمر عندما بحث معي النتيجة المحتومة لصراعه الطويل في سبيل الحرية: كان يعرف أنه لم يكن ينتظره إلا الموت. إنه لم يكن يخشى الموت، ولم يسع إليه، ولكنه كذلك لم يحاول أن يتجنبه. وإنني لعلى ثقة من أنه حتى لو عرف أي نوع من الموت كان ينتظره لما حاول أن يتجنبه، فقد كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن كل إنسان يحمل مصيره بين جنبيه، في حيثما ذهب ومهما فعل.

وسمعنا هرجاً خفيفاً من داخل الغابة، خفيفاً جداً بحيث إن المرء لا بدّ أن يظل غير شاعر به في الظروف العادية. إلا أن هذه لم تكن ظروفاً عادية، ذلك أنني، إذ كنت قد أرهفت سمعي تحسباً لجميع أنواع الأخطار من جميع الأنحاء، استطعت أن أتبين الأصوات الخافتة التي أحدثها تسلل انقطع فجأة، ليستأنف بعد لحظات. وانفرجت العليقات وظهر منها زيد وخليل، يصحبهما اثنان من الحرس. كانت الجياد

محملة بقرب الماء. وحالما وقع بصر خليل على سيدي عمر هجم لتقبيل يده. وبعد ذلك قدمت زيداً إليه فاستقرت عينا سيدي عمر الحادتان على وجه زيد الرزين وقامته الهيفاء برضاء ظاهر، ثم وضع يده على كتفه وقال:

ــ «مرحباً بك، يا أخي، من أرض أجدادي. من أي العرب أنت؟» وعندما أخبره زيد أنه من قبيلة شمر، أومأ عمر برأسه مبتسماً: «آه، إذن أنت من قبيلة حاتم الطائي، أكرم الناس يداً. . .».

وبعد أن قدم إلينا رجال سيدي عمر بعض التمر ودعانا إلى ذلك الطعام البسيط فأكلنا، نهض المقاتل العجوز قائلاً:

ــ «آن لنا أن نتحرك من هنا. إننا على مقربة من المركز الإيطالي في بوصفية، ولذا لا نستطيع أن نتأخر حتى الفجر».

وركبنا وراء سيدي عمر بينما تبعنا سائر رجاله مشياً على الأقدام. وحالما خرجنا من الأخدود رأيت أن رفاق سيدي عمر كانوا أكثر عدداً مما اعتقدت: فواحداً إثر واحد، خرجت أشباح سوداء من وراء الصخور والأشجار والتحقت بطابورنا، في حين انتظم آخرون في شراذم متفرقة على مبعدة من يمينه وشماله، لحراسته. لم يكن باستطاعة المراقب عرضاً أن يخمن أنه كان هناك نحو من ثلاثين رجلاً حولنا، ذلك أن كلاً منهم كان يتحرك وقد ران عليه صمت كصمت كشافة الهنود الحمر. وقبيل الفجر وصلنا إلى مقره الخاص الذي كان يضم حينذاك أكثر قليلاً من مئتي رجل. كان المقر مستتراً في مضيق عميق ضيق، وكانت عدة نيران تتقد تحت صخور ناتئة. وكان بعض الرجال نائمين على الأرض، في حين كان آخرون يؤدون مختلف أعمال المعسكر: ينظفون أسلحتهم، ويجلبون الماء، ويطبخون الطعام، أو يعنون بالجياد القليلة التي كانت مربوطة بالأشجار هنا وهناك. لقد بدوا جميعاً مرتدين الأسمال البالية، ولم تقع عيني، لا عندئذ ولا فيما بعد، على جرد أو برنس بين الجماعة كلها. وكان هناك كثير من الرجال تروي ضماداتهم ما حدث لهم مؤخراً مع العدو لقد دهشت لرؤية امرأتين ـ إحداهما مسنة والأخرى شابة ـ في المقر. كانتا جالستين بالقرب من إحدى النيران، مستغرقتين في إصلاح سرج ممزق بمخرز غليظ.

وعندما لحظ سيدي عمر دهشتي قال: «إن اختينا هاتين تذهبان معنا حيثما نذهب. لقد رفضتا أن تسعيا إلى أمن مصر مع سائر نسائنا وأولادنا. إنهما أم وابنتها، وقد قتل جميع رجالهما في الحرب».

وقد قضيت يومين وليلتين - في اثنائها نقل المقر إلى مكان آخر داخل الغابة ومضايق الجبل الأخضر - استعرض مع سيدي عمر كل إمكان لتدبير وصول المؤن والذخائر إلى المجاهدين بكميات أكبر وبصورة أكثر انتظاماً. كان هناك نزر يسير منها ما يزال يصل من مصر، فالظاهر أن الإنكليز منذ أن توصل السيد إدريس إلى تفاهم معهم أثناء مدة هدنته مع الإيطاليين، كانوا راغبين مرة أخرى في أن يتساهلوا إلى درجة معينة نحو نشاط السنوسيين في الأراضي المصرية ما بقي هذا النشاط مقتصراً على حركات وتدابير محلية، وتغاضوا عن جماعات المحاربين الصغيرة التي كانت تنجح من حين إلى آخر في اختراق الخطوط الإيطالية، والوصول إلى السلوم، أقرب بلدة مصرية على الشاطىء، لبيع غنائمهم - ومعظمها من البغال الإيطالية - مقابل حصولهم على الأغذية التي كانوا بحاجة ماسة إليها. إلا أن ذلك كان ينطوي على خطر بالغ، ولم يكن المجاهدون يستطيعون القيام به كثيراً، خصوصاً وأن الإيطاليين كانوا يتقدمون بسرعة في مد الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية. وقد وافقني سيدي عمر على أن الطريقة الوحيدة الأخرى كانت إرسال الذخائر عن الطريق الذي جئت منه، مع إنشاء مستودعات سرية في واحات بحرية وفرفرة وسيوة، ولكنه كان يشك كثيراً في إمكان الإفلات من مراقبة الإيطاليين بهذه الطريقة مدة طويلة.

(وقد تبين بعد ذلك أن ظنونه ومخاوفه كانت في محلها، ذلك أنه بعد بضعة أشهر تمكنت قافلة تحمل المؤن والذخائر من الوصول فعلاً إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين اكتشفوها بينما كانت تجتاز الفجوة بين جغبوب وجالو، وسريعاً ما أنشأوا بعد ذلك مركزاً محصناً في بيرطرفاوي على نصف المسافة تقريباً بين الواحتين، مما جعل، بالإضافة إلى الدوريات الجوية المستمرة، كل مسعى آخر من هذا النوع خطراً إلى أبعد الحدود).

وكان عليّ الآن أن أفكر في عودتي. وإذ لم أكن راغباً جداً في أن أسلك الطريق المضني الطويل الذي سلكته في رحلتي نحو الغرب، فقد سألت سيدي عمر عما إذا كان هناك أي طريق آخر يمكن سلوكه. وقد أجابني بأنه كان هناك فعلاً طريق آخر، ولكنه خطر: خلال الأسلاك الشائكة، إلى السلوم. وصدف أن كان هناك جماعة من المجاهدين مستعدين للقيام بمغامرة من هذا النوع لجلب الطحين من السلوم، وكان بإمكاني أن أرافقهم إذا شئت، فقررت مرافقتهم. وودعت وزيداً عمر المختار، ولم نره بعد ذلك إطلاقاً، ذلك أنه بعد ثمانية أشهر، قبض عليه الإيطاليون وأعدموه.

وبعد مسير أسبوع أو نحو ذلك ـ في الليل فقط ـ فوق أراض وعرة، وخلال أدغال العرعر في الجبل الأخضر الشرقي، وصلت جماعتنا المؤلفة من عشرين رجلاً تقريباً إلى الحدود المصرية الليبية، قرب النقطة التي كانت خطتنا تقضي بأن نتسلل منها. هذه النقطة لم يقع عليها الاختيار كيفما اتفق، فبالرغم من أن حواجز الأسلاك الشائكة كانت تمتد على طول القسم الأعظم من الحدود، فإنها لم تكن في تلك الأيام قد أنجزت بحيث تشمل الحدود كلها، وفي بعض النقاط، كهذه النقطة، كان هناك حاجز واحد فقط علوه ثمانية أقدام وعرضه أربعة، بينما كان هناك في أماكن أخرى عدة صفوف من لفات الأسلاك الشائكة الغليظة ممدودة على ركائز من الإسمنت. وكانت النقطة التي وقع اختيارنا عليها تبعد نصف ميل فقط عن موقع محصن كنا نعلم أن فيه سيارات مصفحة كذلك. إلا أنه لم يكن لنا أن نختار إلا بين هذا القطاع من الحدود وبين قطاع آخر أقل تحصيناً ولكنه مصون بصفين أو ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة.

وكانت التدابير قد اتخذت كي يستقبلنا على بضعة أميال داخل الحدود المصرية عدد من أنصار السنوسية، مع حيوانات نستعين بها على السفر، وإذن فلم يكن من الضروري تعريض جيادنا للخطر، وهكذا أعددناها مع بعض المجاهدين، بينما اقترب الآخرون ـ وبينهم زيد وأنا ـ من الأسلاك سيراً على الأقدام قبيل منتصف الليل. كان الظلام وحده هو الذي يسترنا، ذلك أن الإيطاليين كانوا قد قطعوا جميع الأشجار والعليقات على طول الحدود.

وقد أوقفنا حارسين على بُعد بضع مئات من الأمتار إلى الشمال والجنوب، وزحف ستة من رجالنا، على الأربع، مسلحين بمقصات الأسلاك الشائكة والقفازات الجلدية الصفيقة التي غنمت في هجمات سابقة على الجماعات الإيطالية العاملة ـ في حين غطينا، نحن الآخرين، تقدمهم ببنادقنا. لقد كانت لحظة حرجة جداً، أرهفت فيها سمعي لأقل صوت، واستطعت أن أسمع صرير الحصى تحت ثقل الأجسام المتقدمة، ونداء طير من طيور الليل. ثم سمعت الأصوات الأولى للمقصات تقرض الأسلاك، فخلتها انفجاراً.

وعكرت صيحة طائر آخر هدوء الليل، ولكنها لم تكن صيحة طائر هذه المرة، بل كانت إشارة صوتية متفقاً عليها: إشارة من حراسنا في الشمال تعلن دنو الخطر. . . وفي اللحظة نفسها تقريباً سمعنا أزيز محرك يتجه نحونا. وانبثق نور كشاف اكتسح الفضاء بانحراف، فرمينا بأنفسنا إلى الأرض كرجل واحد، باستثناء الرجال الذين

يقرضون الأسلاك الشائكة، والذين استمروا في عملهم بسرعة يائسة، غير مبالين بعد بالاختباء بل بإزاحة الأسلاك من الطريق بأعقاب البنادق والمقارض بسرعة جنونية. وبعد بضع ثوان سمع دوي طلق ناري من حارسنا في الشمال. لا بدّ أن يكون رجال السيارة المصفحة قد رأوه، ذلك أن النور الكشاف ما لبث أن سلط نزولاً، وسمعنا طنين مدفع رشاش آذننا بالشؤم. . وازداد هدير المحرك ضراوة، ووقعنا، ونحن على الأرض، فريسة للنور الكشاف، وتلت ذلك عاصفة من طلقات المدفع الرشاش، ولكن المدفعي، على ما يظهر، كان قد صوّب مدفعه إلى أعلى مما ينبغي: فلقد استطعت أن أسمع أزيز الرصاصات وهي تمرّ فوق رؤوسنا، فأجبنا على النيران بمثلها، ونحن متمددون على بطوننا.

وهتف أحدهم: «النور الكشاف! النور الكشاف! صوبوا نيرانكم على النور الكشاف!» ـ وانطفأ النور، وقد تحطم المصباح على ما يظهر، برصاص رماتنا الحاذقين. وتوقفت السيارة المصفحة فجأة، ولكن المدفعي فيها استمر يطلق نيرانه على غير هدى. وفي تلك اللحظة سمعنا صيحة من أمامنا تعلن أن اختراق الأسلاك الشائكة قد تم ـ فتسللنا واحداً بعد آخر، بجهد من خلال الفتحة الضيقة، وكان أن مزقت الأسلاك الشائكة ثيابنا وأجسامنا جميعاً. وبعد ذلك سمعنا وقع أقدام راكضة، ورمى حارسانا بنفسيهما في الفتحة. لقد كره الإيطاليون على ما بدا لنا، أن يغادروا سيارتهم المصفحة ليشتبكوا معنا في قتال سافر. . .

وأخيراً وقفنا فوق الأراضي المصرية ـ أو، بالأحرى، تابعنا ركضنا، والرصاص ما زال منهمراً علينا من الجانب الآخر من الحدود.

وما إن انبثق الفجر حتى كنا قد سرنا مسافة طويلة في الأراضي المصرية ونجونا من الخطر، ولكن بعد أن افتقدنا خمسة من رجالنا العشرين، ولعلهم قتلوا؛ وجرح أربعة جراحاً ليست بالخطيرة.

ــ «لقد رحمنا الله»، قال واحد من المجاهدين الجرحى: «إننا، أحياناً نفقد نصف رجالنا ونحن نجتاز الأسلاك الشائكة، ولكن أحداً لا يموت إلا إذا كتب الله له الموت. أفلا يقول القرآن الكريم: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾؟

وبعد أسبوعين عدت وزيداً بطريق مرسى مطروح والإسكندرية، فالصعيد، فينبع بالسنبك؛ إلى أن وصلنا إلى المدينة المنورة. لقد استغرقت تلك المغامرة

شهرين تقريباً، ولم يلحظ الناس غيابنا عن الحجاز. . .

* * *

وبينما كنت أدخل وسيدي محمد الزوي الزاوية السنوسية المتواضعة في المدينة ساورتني تلك الأصداء المظلمة من الموت واليأس، ورائحة أشجار العرعر، وانكماش فؤادي لأزيز الرصاص فوق رأسي، وألم استطلاع يائس. وعندئذ حت ذكرى مغامرتي في برقة، ولم يبق منها إلا الألم.

— ٤ —

ومرة أخرى وقفت أمام إمام السنوسية ونظرت إلى وجهه ذلك المحارب القديم المرهق، ومرة أخرى قبلت اليد التي حملت السيف طويلاً جداً حتى أنها لم تعد تستطيع بعد أن تحمله.

ـ «بارك الله فيك، يا ابني. . . لقد مضت سنة منذ أن التقينا أول مرة، وهذه السنة قد شهدت نهاية آمالنا، ولكن الحمد لله على كل حال. . .».

والحق أنها كانت سنة مفعمة بالهموم والأكدار بالنسبة إلى السيد أحمد: لقد أصبحت الأخاديد حول فمه أكثر عمقاً، وأصبح صوته أكثر انخفاضا من أي وقت مضى.

لقد هوى النسر العجوز. إنه يجلس منكمشاً على السجادة، وقد لف نفسه ببرنسه الأبيض كأنما يطلب الدفء، يحدق بصمت في الفراغ.

وهمس: «لو أننا استطعنا فقط أن ننقذ عمر المختار. لو أننا تمكنا من إقناعه بالهرب إلى مصر بينما كان هناك متسع من الوقت. . .».

فطمأنته قائلاً: «لم يكن باستطاعة أحد أن ينقذ سيدي عمر. إنه لم يرد أن ينقذ. لقد فضل أن يموت إذا لم يستطع أن ينتصر. لقد عرفت ذلك عندما فارقته، يا سيدي أحمد».

وأطرق السيد أحمد برأسه متثاقلاً: «نعم، لقد عرفت ذلك أنا أيضاً. أنا أيضاً عرفت ذلك. . . ولكن عرفته قبل فوات الأوان. يخيل إليّ أحياناً أنني أخطأت عندما باليت بنداء استانبول ذاك، منذ سبع عشرة سنة. . . ألم يكن ذلك، ربما، بداية

النهاية، لا بالنسبة إلى عمر فحسب، بل بالنسبة إلى السنوسيين جميعاً؟»

ولم أجد ما أجيب به عن سؤال إمام السنوسية، ذلك أنني شعرت دائماً أن قرار السيد أحمد بالشروع في حربه غير الضرورية مع الإنكليز كان أكبر خطأ مميت ارتكبه في حياته.

وأضاف السيد أحمد: «ولكن كيف كان يتسنى لي أن أفعل خلاف ذلك عندما سألني خليفة المسلمين المعونة؟ هل كنت محقاً أو كنت مجنوناً؟ ولكن، من غير الله يستطيع أن يقول عن الإنسان إنه محق أو مجنون إذا لبى نداء ضميره؟»

حقاً... من يستطيع أن يقول؟

وأخذ رأس إمام السنوسية يتمايل ذات اليمين وذات الشمال بحيرة مؤلمة، وكانت عيناه محجوبتين وراء جفون زاوية، وبيقين مفاجىء عرفت أنهما لن تتقدا مرة أخرى بلهيب الأمل[1].

(١) توفي السيد أحمد في المدينة في السنة التالية (١٩٣٣).

نهاية الطريق

ـ ١ ـ

تركنا المدينة في ساعة متأخرة من الليل سالكين الطريق «الشرقي» ـ الطريق الذي سلكه النبي عندما حج إلى مكة لآخر مرة، قبل بضعة أشهر من وفاته.

وسرنا بقية الليل وحتى مطلع الفجر. وبعد أن توقفنا قليلاً لأداء صلاة الصبح عاودنا السير في النهار، وكان يوماً أشهب غائماً. وبدأ المطر ينهمر عند الضحى، وسريعاً ما ابتلت ثيابنا واخترقها الماء حتى جلودنا. وأخيراً رأينا، عن بعد، مضرباً بدوياً صغيراً إلى يسارنا، فقررنا أن نتقي المطر في أحد بيوت الشعر السوداء.

كان المضرب صغيراً لجماعة من بدو حرب استقبلونا صائحين: «حياكما الله يا أهل الطريق، وأهلاً وسهلاً بكما». وفرشت حرامي فوق الحصر المصنوعة من شعر الماعز في بيت الشيخ، وبينما كانت زوجته ـ سافرة شأن معظم النساء البدويات في تلك المنطقة ـ تردد عبارات الترحيب التي استقبلنا بها زوجها. وإذ كنت قد قضيت الليلة السابقة دونما نوم، فقد تغلب عليّ النعاس بسرعة بينما كان المطر يتساقط على سقف البيت محدثاً صوتاً كأنه قرع الطبول.

وصحوت على قرع المطر بعد ذلك ببضع ساعات. كان ظلام الليل يلفني ـ آه، كلا . . . إنه لم يكن الليل، بل ظلام قبة البيت فحسب، وكانت رائحة الصوف الرطب تفوح منه. ومددت ذراعي فاصطدمت يدي بشداد قائم على الأرض من خلفي، إن نعومة الخشب العتيق حلوة الملمس، وأن اللعب عليها بالأصابع ليبعث على البهجة، صعوداً إلى الغزالة، إلى أن تلقى مصارين الجمل القاسية كالحديد تشد أجزاء الشداد بعضها إلى بعض. ولم يكن في البيت أحد سواي.

وبعد قليل نهضت وخرجت من الخيمة وكان المطر غزيراً يحدث ثقوباً في

الرمل ـ عشرات الآلاف من الثقوب الصغيرة تظهر فجأة وتختفي فجأة كذلك كيما تفسح مجالاً لغيرها من الثقوب الجديدة ـ ثم يعود فيرش صخور الصوان الرمادية ـ الزرقاء إلى يميني. ولم أكن أتبين أحداً أمامي، ذلك أن الرجال، في مثل هذه الساعة من النهار، لا بدّ أن يكونوا قد خرجوا لتفقد إبلهم، وكانت البيوت الكثيرة السوداء بالقرب من شجرة الطلح في الوادي صامتة صمت الأصيل الماطر، ومن إحداها كان ينبعث ذيل من الدخان الأشهب ـ مبشراً بوجبة المساء، وكان الهواء مشبعاً برائحة المياه وأشجار الطلح البرية وصوف البيوت الرطب.

وتوقف الرش والتقطر تدريجياً، وأخذت الغيوم بالانفراج تحت أشعة شمس المساء. ومشيت نحو إحدى الصخور الصوانية المنخفضة، و كانت فيها فجوة بحجم إحدى تلك القصعات التي تقدم عليها الخراف المشوية مع الأرز إلى الضيوف في مناسبات الأعياد، أما الآن فقد كانت مملوءة بماء المطر. وعندما أدخلت ذراعي فيها غاصتا حتى المرفقين، فأحسست بدفء الماء ولذته الغريبة، وشعرت، إذ حركت ذراعي في الماء، بأن جسمي كله كان يشرب. ومن أحد البيوت الشعر ظهرت امرأة تحمل على رأسها إناء نحاسياً كبيراً؛ وكان واضحاً أنها كانت تنوي ملأه من إحدى البحيرات الكثيرة المنتشرة في الصخور. كانت تبقي ذراعيها مفتوحتين، وممدودتين إلى الجانبين، مرفوعتين إلى أعلى، وتمسك بيديها أذيال ثوبها كالأجنحة، وتتمايل برشاقة وهي تقترب. كانت تنساب كالماء إذ يسيل ببطء من بين الصخور. . . وقلت في نفسي: إنها جميلة كالماء. . . وعن بعد سمعت هدير الجمال العائدة، وها هي ذي تظهر منتشرة من وراء الصخور، تدب برزانة ووقار في خطوات متراخية، يسوقها الرعاة بنداءاتهم القصيرة الحادة إلى منتصف الوادي حيث ينيخونها ويعقلونها ثم يتفرقون كل إلى بيته الشعري.

وهبط الليل بظلامه وبرودته، وأمام معظم البيوت اتقدت النيران، واختلطت أصوات أواني الطبخ بضحكات النساء ونداءات الرجال وأحاديثهم التي كان الليل يحمل أقساماً منها. واستمرت الخرفان والماعز، التي وصلت بعد الجمال، في ثغائها مدة، ونبح أحد الكلاب كما ينبح دائماً في جميع الليالي وجميع مضارب جزيرة العرب.

ولم تقع عيني على أثر لزيد، فلعله كان لا يزال نائماً في أحد البيوت. وهبطت ببطء نحو الجمال المستريحة التي كانت قد احتفرت لنفسها بأجسامها الكبيرة تجاويف في الرمل تمددت فيها براحة واسترخاء، وكانت بعضها تجتر والبعض الآخر

مادة أعناقها الطويلة على الأرض، بينما رفع أحدها رأسه وهدر عندما اقتربت منه فداعبت حدبته السمينة. ومررت بجمل رضيع التصق بجسم أمه، وإذ وضعت يدي عليه قفز خائفاً، بينما إدارات الأم رأسها نحوي وهدرت بملء فيها هديراً ناعماً، وأمسكت بعنق الرضيع بذراعي وضغطت بوجهي على صوف ظهره الدافىء، فهدأ فجأة وبدا لي أنه قد فارقه كل خوفه. وتخلل الدفء من جسم الحيوان الصغير وجهي وصدري، وتحت راحة يدي شعرت بالدم ينبض في وريد العنق. لقد اختلط بنبض دمي وأيقظ فيّ شعوراً طاغياً بالقرب من الحياة نفسها، وحنيناً إلى أن أفقد نفسي فيها بالكلية.

— ٢ —

وسرنا، وسرنا.

وكانت كل خطوة من خطوات مطيتينا تقربنا من نهاية طريقنا. كنا نركب في النهار عبر السهول الفسيحة المضاءة بنور الشمس، وننام في الليل تحت النجوم، ونستيقظ في برودة الفجر. كنت أقترب رويداً رويداً من نهاية طريقي.

لم يكن أي طريق آخر، فبالرغم من أنني لم أكن قد عرفت مكة لسنوات عديدة فإنها كانت دائماً هدفي وغايتي. لقد نادتني قبل أن أعي نداءها بوقت طويل، بصوت قوي: «إن ملكي هنا في هذه الدنيا كما هو ملكي في الآخرة. إن ملكي يحيط بجسم الإنسان كما تحيط روحه وتمتد إلى كل ما يفكر ويشعر به وما يفعله ـ إلى تجارته وصلاته، إلى غرفة نومه وسياسته، إن ملكي لا نهاية له ولا حدود». وعندما تبين لي كل ذلك خلال عدد من السنين، وعرفت أن أخوة الإسلام تنتظرني منذ أن ولدت، فاعتنقت الإسلام. لقد تحققت أخيراً رغبتي أيام صباي: أن أنتمي إلى مدار معين من الفكرات والآراء، أن أكون جزءاً من أمة مؤلفة من أخوة.

والغريب حقاً ـ بل ربما لم يكن هذا غريباً إلى هذا الحد فيما إذا أخذ المرء بعين الاعتبار القيم التي يمثلها الإسلام ـ إن أولى خبراتي كمسلم بين المسلمين إنما كانت دليلاً على متانة هذه الأخوة. . .

ففي الأيام الأولى من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٧، انطلقت مرة أخرى، مصحوباً هذه المرة بزوجتي ألسا وابنها الصغير، إلى الشرق الأوسط، وشعرت هذه المرة أيضاً، بأني لن أعود أبداً.

وسافرنا أياماً في البحر الأبيض المتوسط، عبر دائرة متألقة من الماء والسماء،

تحيينا أحياناً الشطآن البعيدة ودخان البواخر التي كانت تمر بنا. كانت أوروبا قد اختفت وراءنا وكادت بالنسبة إلينا تغيب في عالم النسيان.

وكثيراً ما كنت أنزل من غرفتنا الوثيرة إلى مكان الركاب من الدرجة الثالثة في مقدمة السفينة وقد صفت فيه الأسرة الحديدية التعبة. ولما كانت الباخرة قاصدة إلى الشرق الأقصى، فقد كان معظم ركاب هذا المكان من الصينيين: من صغار الصناع والتجار عائدين إلى وطنهم، الصين، بعد سنين من العمل الشاق في أوروبا. وإلى جانب هؤلاء كان هناك جماعة صغيرة من عرب اليمن الذين صعدوا إلى الباخرة في مرسيليا، عائدين إلى بلادهم. وكانت أصوات الموانىء الغربية وروائحها لا تزال عالقة بهم، وكانوا لا يزالون يعيشون في نور الغسق من تلك الأيام التي كانت فيها أيديهم السمراء تجرف الفحم في مستوقدات السفن الانكليزية أو الأميركية أو الهولندية. كانوا لا يزالون يتكلمون عن المدن الأجنبية الغريبة: نيويورك وبونس ايرس وهامبورغ. مرة، وقد أسرهم الحنين إلى بريق المجهول، التحقوا بإحدى البواخر في ميناء عدن كوقادين وموضبي فحم. لقد خرجوا إلى عالمهم المألوف، واستسلموا إلى ضمة عالم جديد غريب فوق التصور. ولكن الباخرة ستعود سريعاً إلى عدن، وتتقهقر تلك الأيام إلى الماضي. إنهم سيستبدلون بالقبعة الغريبة العمامة أو الكوفية، ويحتفظون بالأمس كذكرى فحسب، ويعود كل منهم إلى قريته في اليمن، فهل يعودون كما خرجوا، أو يتبدلون فيصبحون غيرهم عندما غادروا الوطن؟ هل أسر الغرب أرواحهم، أو لامس مشاعرهم مجرد ملامسة؟

والواقع أن مشكلة هؤلاء الرجال قد احتلت حيزاً عميقاً من تفكيري، حتى أنها جعلتني أفكر في مشكلة أعم وأوسع.

إن عالمي الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب، أحدهما من الآخر، كما هما اليوم. وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتغضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية. إنهم يتركون أنفسهم يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب أن لا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية. إنهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً ولا يكبرون: ذلك أن كل تقليد ثقافي، بخلاف الخلق والإبداع لا بدّ أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها.

أنا لا أعني أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب، وبخاصة في

مجالي العلوم والفنون الصناعية، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس في الحق «تقليداً» وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد. إن العلم لا غربي ولا شرقي، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله. إن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه، سواء كانوا من بني أمته أو من أبناء أمة غيرها. وعملية البناء والاصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر، من إنسان إلى إنسان ومن عصر إلى عصر، ومن مدينة إلى مدينة: بحيث إن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقاً أن يقال إنها «تخص» أو «تعود إلى» ذلك العصر أو تلك المدنية، فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما، أمضى وأشدّ همة من غيرها، بنصيب أكبر في صندوق المعرفة، ولكن الجميع، مع الزمن يشتركون، وبصورة شرعية صحيحة، في هذه العملية. لقد جاء حين كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوروبا، فنقلت إلى أوروبا كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية، وأكثر من هذا: مبادىء «تلك الطريقة العلمية» نفسها التي يرتكز إليها العلم الحديث والمدنية الحديثة. ومع ذلك فإن اكتشافات جابر بن حيان الكيماوية لم تجعل من الكيمياء علماً «عربياً». كذلك لا يمكن أن يقال إن الجبر وعلم المثلثات هما علمان «إسلاميان» مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمي والثاني البتاني، وكلاهما كانا مسلمين: تماماً كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية «الانكليزية» مع أن صاحبها كان إنكليزياً. كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله، وإذن فإن المسلمين إذ تبنوا، كما هو من واجبهم أن يفعلوا، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية فإنهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم. ولكنهم إذا تبنوا ـ وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك ـ أشكال الحياة الغربية، والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية، فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً: ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه.

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع . . .

* * *

كان من بين اليمينيين على ظهر الباخرة رجل قصير له أنف كأنف النسر ووجه ينم عن القسوة والبأس الشديدين، إلا أن حركاته كانت هادئة ومتزنة. وعندما عرف أنني كنت حديث الإسلام أظهر لي مودة خاصة. كنا نجلس معاً ساعات طويلة على ظهر السفينة، كان يتحدث لي فيها عن قريته في جبال اليمن. أما اسمه فقد كان محمد صالح.

وفي ذات مساء زرته في مكانه تحت ظهر السفينة، وكان أحد أصدقائه مصاباً بالحمى وممدداً على سريره الحديدي وعلمت أن طبيب الباخرة لم يكن ليزعج نفسه بالنزول إلى مكان ركاب الدرجة الثالثة تحت الظهر. وإذ تبين لي أنه كان مصاباً بالملاريا، فقد أعطيته بعض حبات الكينا، وبينما أنا منهمك به أحاط اليمنيون الآخرون في زاوية بمحمد صالح، وأخذوا يتهامسون ويتشاورون وهم ينظرون إليّ نظرات جانبية. وأخيراً تقدم واحد منهم ـ وكان رجلاً طويلاً ذا وجه أسمر وعينين سوداوين ناريتين ـ وقدم إليّ حزمة من الفرنكات المتغضنة.

ـ «لقد جمعنا هذا من بيننا. نأسف أنه ليس بالمبلغ الكبير، ولكن نرجو أن تقبله منا».

ورجعت إلى الوراء مذهولاً، ثم أوضحت لهم أنني لم أعط صديقهم الدواء من أجل المال.

ـ «كلا؛ كلا، إننا نعرف هذا، ولكن مع ذلك، نرجو أن تأخذ هذه الدراهم. إنها ليست أجراً بل هدية ـ هدية من إخوان لك. إننا مسرورون منك، ولذلك نعطيك الدراهم. أنت مسلم، وأخ لنا. وأنت أفضل منا جميعاً، ذلك أننا ولدنا مسلمين. كان آباؤنا وأجدادنا مسلمين، أما أنت فقد عرفت الإسلام بقلبك... تقبل منا هذه الدراهم أيها الأخ، بجاه رسول الله».

ولكنني إذ كنت لا أزال متأثراً بتقاليدي الأوروبية، أصررت على الرفض ودافعت عن نفسي قائلاً: «لا يمكنني بأي حال أن أقبل هدية لقاء خدمة قمت بها نحو صديق مريض... وفضلاً عن ذلك فإن لديّ من المال ما يكفيني، ولست أشك في أنكم تحتاجون إليه بأكثر مما أحتاج إليه أنا. ومع ذلك، فإن كنتم تصرون على إعطائه، فإن بوسعكم أن تتصدقوا به على بعض الفقراء في بور سعيد».

فأجاب اليمني: «كلا... أقبله أنت منا، وإذا لم تشأ أن تحتفظ به فأعطه باسمك أنت إلى الفقراء».

وكان من نتيجة إلحاحهم عليّ بقبول المال وإصراري على رفضه أن ران عليهم الصمت وبدا على وجوههم الحزن، كأنما رفضي لم يكن لما قدموه إليّ من مال بل لقلوبهم ومحبتهم جميعاً، وعندئذ فقط أدركت فجأة: أنه من حيثما جئت كان هناك أناس اعتادوا أن يقيموا الجدران بين «أنا» و «أنت» أما هنا فأمة لا تفصل بين أفرادها الجدران. . .

ـ «هاتوا الدراهم، أيها الإخوان. إنني أتقبلها منكم، وأشكركم».

ـ ٣ ـ

ـ ««غداً، إن شاء الله، نكون في مكة. إن هذه النار التي نوقدها الآن، يا زيد، ستكون الأخيرة. إن رحلتنا تكاد تقترب من نهايتها».

ـ «ولكننا بالتأكيد؛ يا عمي، سنوقد نيراناً أخرى، وسيكون هناك دائماً رحلة أخرى أمامك وأمامي؟»

ـ «قد يكون ذلك، يا زيد، يا أخي. ولكنني أشعر، بوجه ما، أن تلك الرحلات الأخرى لن تكون في هذه البلاد. لقد مضى عليّ وقت طويل جداً وأنا أطوف وأرتحل في جزيرة العرب حتى أنها امتزجت بدمي، وأخشى أنني إن لم أغادرها الآن فلن أتمكن من مغادرتها بعد ذلك أبداً. . . ولكن عليّ أن أسافر يا زيد: ألا تذكر المثل الذي يقول بأن الماء يجب أن يجري ويسيل إذا أريد له أن يبقى صافياً رقراقاً؟ إنني أريد، وأنا شاب ما أزال، أن أرى كيف يعيش إخواننا المسلمون في أصقاع أخرى من هذا العالم ـ في الهند، في الصين، في جاوه. . .».

وأجاب زيد مذعوراً: «ولكنك بالتأكيد، يا عمي، لا تزال تحب بلاد العرب؟»

ـ «اطمئن يا زيد، فأنا لا أزال أحبها كما أحببتها دائماً، ولعلي أحبها بأكثر قليلاً مما ينبغي لي ـ أحبها حباً جماً بحيث يؤلمني أن أفكر فيما عساه يخبئه لها المستقبل. لقد قيل لي إن الملك ينوي أن يفتح صدر بلاده للفرنج كيما يربح منهم الأموال: إنه سيسمح لهم بأن ينقبوا عن الزيت في الأحساء، وعن الذهب في الحجاز ـ والله وحده يعلم ما سيجر هذا على البدو. إن هذه البلاد لن تكون هي نفسها كرة أخرى. . .».

وقطع حبل السكون في تلك الليلة الصحراوية صوت هجين يسرع في خطوه نحونا، وما لبث أن اندفع إلى مضربنا راكب متوحد كانت عباءته ترفرف في الهواء،

وأوقف هجينه فجأة وقفز من على ظهره دون أن ينتظره حتى يربض على الأرض. وبعد أن ألقى علينا السلام بصورة مقتضبة شرع، دون أن ينطق بكلمة، بإنزال الشداد عن الهجين ورصف الخرج بالقرب من النار، ثم جلس وهو ما يزال معتصماً بالصمت متفادياً النظر إلينا. وقال زيد ـ وكان على ما ظهر يعرف الرجل ـ: «حياك الله يا أبا سعيد». ولكن الرجل الغريب ظل غارقاً في صمته، وعندئذ استدار إليّ زيد وقال: «هذا الشيطان من «رجاجيل» ابن سعود...».

وكان أبو سعيد مكتئباً، وكانت شفتاه الغليظتان وشعره الأجعد وسمرته الشديدة تدل على أنه من أصل أفريقي. كان متأنقاً في لباسه إلى أبعد الحدود، وكان الخنجر الذي يحمله في وسطه ـ ولعله كان هدية من الملك ـ محلى بالذهب، كما كانت مطيته من مطايا الشمال الممتازة ذات اللون العسلي، دقيقة الأطراف ضيقة الرأس قوية الكتفين والردفين.

ـ «ما بك يا أبا سعيد؟ لماذا لا تكلم أصدقاءك؟ هل ركبك عفريت؟»

وهمس أبو سعيد: إنها نورة... وبعد قليل، عندما فكت القهوة الساخنة عقال لسانه، أخذ يخبرنا عن نورة، تلك الفتاة النجدية من بلدة الرأس (وذكر اسم أبيها وصدف أنني كنت أعرفه جيداً). كان يراقبها خلسة من فوق سور الحديقة بينما كانت تسحب الماء ومعها غيرها من النساء ـ «وشعرت كأن جذوة متقدة من النار قد سقطت في فؤادي. إنني أحبها، ولكن أباها ذلك الكلب، لم يشأ أن يزوجني من ابنته، الشحاذ ـ وقال إنها كانت تخافني! لقد عرضت أن يكون صداقها مبلغاً عظيماً من المال، وقطعة من الأرض أيضاً، ولكنه تمادى في رفضه. وأخيراً زوجها من ابن عمها، عليه وعليها لعنة الله!»

كنا نرى جانباً واحداً من وجهه القوي الأسود على ضوء النار. كان كالبركان الثائر لا يستطيع أن يهدأ في مكانه طويلاً. وفجأة قفز واقفاً وشغل نفسه لحظة واحدة بشداده ثم عاد إلى النار، وما لبث أن اندفع راكضاً في الظلام الفارغ. لقد استطعنا أن نسمعه وهو يركض في دوائر واسعة حول مضربنا ويصيح:

ـ «نار نورة تحرقني! نارها تتأجج في ضلوعي!» ـ ثم يردف متنهداً: «نورة، نورة!»

واقترب من النار مرة أخرى وأخذ يركض حولنا، وزبونه يرفرف كطائر من طيور الليل المخوفة.

وما لبث أن عاد إلينا ورمى بنفسه على الأرض ـ لقد استطعت أن أرى الاشمئزاز يعلو وجه زيد لرؤيته مثل هذا الهياج الخليع المتهتك ـ ذلك أنه ليس كمثل هذا الفقدان للسيطرة على العواطف والانفعالات شيء أجدر بالازدراء والسخرية في عيني العربي الصميم ذي المزاج الارستقراطي ـ ولكن قلب زيد الطيب؛ سريعاً ما تغلب عليه فجذب أبا سعيد من كمه وقربه منه بلطف بينما رفع أبو سعيد بصره إليه وأخذ يحدق فيه بعينين خاويتين.

ـ «يا أبا سعيد، كيف تستطيع أن تنسى نفسك على هذه الصورة؟ إنك لمحارب يا أبا سعيد. . . لقد قتلت الرجال، وكثيراً ما كاد الرجال يقتلونك، والآن تصرعك امرأة؟ هناك في العالم نساء كثيرات غير نورة. . . يا أبا سعيد، يا مقاتل. . . يا مجنون. . .».

وبينما كان أبو سعيد يئن أنيناً خافتاً مغطياً وجهه بكلتا يديه تابع زيد قائلاً:

ـ «أصمت يا أبا سعيد. . . ارفع بصرك: ألاترى ذلك الطريق المضيء في السماء؟»

ورفع أبو سعيد بصره دهشاً، وتبعت أنا بصورة لا إرادية، إصبع زيد وهي تشير إلى السماء، ووقعت عيناي على ذلك الطريق الشاحب الوعر الذي يمتد في السماء من أفق إلى أفق. إنك تدعوها المجرة، ولكن البدو في حكمتهم الصحراوية يعرفون أنها ليست سوى سبيل ذلك الكبش السماوي الذي أرسل إلى إبراهيم عندما أراد أن يطيع ربه فرفع مديته ليضحي بابنه البكر، وبقي الكبش ظاهراً في السماء إلى الأبد رمزاً للرحمة والنعمة، وتذكاراً للنجدة التي أرسلت لإبراء قلب إنساني من ألمه، وبالتالي عزاء لمن سيأتون من بعد: لأولئك المتوحدين أو التائهين في الصحراء، ولغيرهم ممن يتعثرون باكين يائسين في قفار حياتهم وفلواتها.

وتابع زيد كلامه، ويده ما تزال مرتفعة نحو السماء، برزانة واتضاع لا يتكلم بها إلا عربي، فقال:

ـ «هذا هو سبيل الكبش الذي أرسله الله إلى سيدنا إبراهيم عندما كان على وشك أن يذبح ابنه البكر. وهكذا أنزل الله على عبده الرحمة. . . فهل تظن أنه ينساك؟»

وهدأ أبو سعيد بتأثير كلمات زيد المشجعة وانفرجت أساريره، وكان ينظر

بانتباه، كتلميذ يتبع أستاذه، نحو السماء، محاولاً أن يجد فيها ما يعيد إلى نفسه الأمل.

ـ ٤ ـ

إبراهيم وكبشه السماوي... مثل هذه الصورة تخطر بالبال بسهولة في هذه البلاد، وأنه لمن الجدير بالملاحظة والاعتبار كيف أن ذكرى ذلك الشيخ الجليل لا تزال حية قوية عند العرب ـ حية قوية بأكثر منها عند المسيحيين في الغرب، الذين يقيمون تخيلهم الديني في الدرجة الأولى على العهد القديم، وحتى عند اليهود أنفسهم، الذين يشكل العهد القديم في نظرهم بدء كلمة الله إلى الإنسان ونهايتها. إن المرء ليحس دائماً بوجود إبراهيم روحياً، في بلاد العرب وفي جميع أقطار العالم الإسلامي، لا في كثرة ما يردد اسمه على مسامع صغار المسلمين فحسب، بل أيضاً في الذكرى المتكررة في القرآن وفي صلوات المسلمين اليومية، للدور الذي لعبه ذلك الشيخ الجليل كأول مبشر واع بوحدانية الله: مما يفسر أيضاً الأهمية العظمى التي يعطيها الإسلام للحج السنوي إلى مكة، هذا الحج الذي ما يزال منذ قديم الأزمنة وطيد الصلة بقصة إبراهيم. إن محمداً لم يدخل إبراهيم ـ كما يعتقد الكثيرون من الغربيين خطأً ـ في مدار التفكير العربي محاولة منه «لاستعارة» الأوليات الدينية من اليهودية: ذلك أنه من الثابت تاريخياً أن شخصية إبراهيم كانت معروفة من العرب قبل الإسلام بزمن طويل، كما أن جميع الإشارات الواردة في القرآن عن إبراهيم مصوغة بحيث لا يبقى مجال للشك في أنه كان راسخاً في أذهان العرب قبل عهد النبي ﷺ بعصور عديدة: فاسمه ومجمل حياته إنما يؤتى على ذكرهما دون أية مقدمات أو إيضاحات مما يقيم الدليل على أنهما كانا مألوفين جداً حتى من أوائل المستمعين إلى القرآن... والحق أن إبراهيم كان قد احتل، في عصور ما قبل الإسلام، مكانة مرموقة في أنساب العرب، ذلك أنه كان الجد الأعلى، عن طريق إسماعيل ابن هاجر، لتلك الجماعة العربية «الشمالية» التي تشمل اليوم أكثر من نصف الأمة العربية كلها، والتي تنتمي إليها قبيلة محمد نفسه: قريش.

والعهد القديم لا يأتي على ذكر القسم الأول من قصة إسماعيل وأمه، ذلك أن تطوراتها في ما بعد لا علاقة مباشرة لها بمصائر الأمة اليهودية التي خصص لها العهد القديم كله تقريباً، ولكن للروايات العربية حتى قبل الإسلام مزيداً من الكلام عن هذا الموضوع.

إنها تروي كيف جاء إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى المكان الذي فيه مكة اليوم، ذلك الوادي القائم بين التلال الصخرية، العاري الأجرد تحت الشمس الملتهبة، الذي تكتسحه رياح الصحراء الحارة، والذي تتجنبه حتى الطيور الجارحة. وكيف وضعهما هناك ووضع بجانبهما جراباً فيه تمر وزقاً فيه ماء، ثم تركهما وسار نحو الشمال قاطعاً مدين إلى أرض كنعان.

ويروي التاريخ كيف أن هاجر قضت هناك يوماً وليلتين إلى أن نفد الماء وأخذ الطفل يصرخ من العطش، وكيف أن اليأس قد استبدّ بالأم، فركضت بين رابيتين منخفضتين سبع مرات ـ ولذلك يسعى الحجاج بينهما اليوم ـ وظلت تصرخ: «يا أرحم الراحمين، من يرحمنا إن لم ترحمنا؟» حتى جاءها الجواب: لقد انبثق الماء وسال فوق الرمل. وصاحت هاجر صيحة الفرح وضغطت وجه ابنها فوق السائل الثمين كيما يرتوي وشربت معه هي حتى ارتوت وهي تصيح: «زمي، زمي!» وهي كلمة لا معنى لها: مجرد تقليد لصوت الماء ينبع من الأرض، كأنما تقول: «انبعي، انبعي!» وخوفاً من أن يذهب الماء في الأرض؛ بنت هاجر جدراناً من الرمل حول النبع، وعندئذ توقف جريانه وأصبح بئراً عرف منذ ذلك الحين ببئر زمزم.

ويروي التاريخ كيف أن جماعة من بدو اليمن من قبيلة جرهم مروا بعد ذلك مع عائلاتهم ومواشيهم في طريقهم من أوطانهم إلى مراعٍ جديدة. وعندما رأوا الطيور تدور فوق الوادي أدركوا أن هناك ماء فأرسلوا بعضهم يستطلع فوجد هاجر وابنها، وعندئذ استأذنوها في سكنى واديها فأذنت لهم شرط أن تظل زمزم ملكاً لإسماعيل وذريته من بعده.

أما إبراهيم فيقول التاريخ: إنه عاد إلى الوادي بعد حين ووجد هاجر وابنها في قيد الحياة كما كان الله قد وعده. ومنذ ذلك الحين أخذ يزورهما باستمرار، حتى شب إسماعيل وتزوج من فتاة من القبيلة. وبعد سنوات أمر الشيخ في الحلم بأن يبني مسجداً لربه بجوار بئر زمزم فساعده اسماعيل في ذلك حتى أنجزه، وبينما كانا يقطعان الأحجار لبناء أول بيت أنشىء لعبادة الله الواحد الأحد ولى إبراهيم وجهه شطر السماء وهتف: «لبيك، اللهم، لبيك!» ولهذا يصيح المسلمون عندما يحجون إلى مكة ـ إلى أول بيت أنشىء لعبادة الله الواحد الأحد ـ «لبيك، اللهم، لبيك!» ويقتربون من المدينة المكرمة.

— ٥ —

«لبيك، اللهم، لبيك. . .» كم من مرة سمعت هذه الصيحة في أثناء حجاتي الخمس إلى مكة! ولقد بدا لي كأني أسمعها الآن، وأنا ممدد بالقرب من زيد، وأبي سعيد إلى جانب النار.

وأغمضت عيني، فاختفى القمر والنجوم. ووضعت ذراعي فوق وجهي ولم يعد حتى ضوء النار يستطيع الآن أن يخترق أجفاني. وتلاشت أصوات الصحراء جميعاً، ولم أعد أسمع شيئاً سوى صوت «لبيك» في عقلي، ودوي الدم وهديره في أذني: لقد كان يدوي، ويهدر، ويضج كضجيج أمواج البحر إذ تلطم جسم السفينة، وكهدير المحرك. لقد استطعت أن أستمع إلى المحركات وهي تهدر، وأن أشعر بارتعاش ألواح السفينة الخشبية من تحتي، وأن أشم رائحة دخانها وزيتها، وأن أسمع صيحة «لبيك، اللهم، لبيك» تنبعث من مئات الحناجر على السفينة التي حملتني كيما أؤدي أول حجة لي، منذ ست سنوات تقريباً (١٩٢٧)، من مصر إلى جزيرة العرب، عبر البحر الذي يدعى بالأحمر، دون أن يدري أحد السبب في هذه التسمية، ذلك أن مياهه ظلت شهباء طيلة إبحارنا عبر خليج السويس، تكتنفها من الجانب الأيمن جبال القارة الإفريقية، ومن الجانب الأيسر جبال شبه جزيرة سيناء، وكلها سلاسل عارية، صخرية جرداء كانت تبتعد بعضها عن بعض، كلما تقدمنا، وتزداد اكفهراراً جعل الأرض تحس بأكثر مما ترى. وعندما أصبحنا، في أواخر الأصيل، في عرض البحر الأحمر، أصبحت مياهه زرقاء كمياه البحر الأبيض المتوسط تحت لمسات الهواء العليل.

لم يكن في السفينة مسافرون غير الحجاج، وكان هناك منهم عدد كبير جداً بحيث إن الباخرة قد ضاقت بهم. ذلك أن شركة البواخر، إذ كانت تحرص، مدفوعة بجشعها ونهمها، على الاستفادة إلى أبعد الحدود من موسم الحج القصير، قد حشرت المسافرين حشراً، ضاربة براحتهم ورفاهيتهم عرض الحائط. لقد حشرتهم على السطح، وفي الغرف والممرات، والسلالم، وغرف الطعام من الدرجتين الأولى والثانية، والعنابر التي أفرغت من الحمولة لهذا الغرض وزودت بسلالم مؤقتة: وفي كل مكان أو زاوية توفرت لديها. وكان المسافرون، في معظمهم، حجاجاً قادمين من مصر وأفريقيا الشمالية، احتملوا، باتضاع عظيم، وواضعين نصب أعينهم هدف الرحلة من دون أي شيء آخر، كل ذلك الضيق، دون تذمر أو شكوى. كل من قدر له أن يراهم كيف كانوا يجلسون القرفصاء على ألواح الظهر الخشبية، جماعات

جماعات متراصة، رجالاً ونساء وأطفالاً. وكيف كانوا يعدون طعامهم بصعوبة وعسر (ذلك أن الشركة لم تكن لتقدم لهم أي طعام)، وكيف كانوا يسعون دائماً، جيئة وذهوباً، طلباً للماء في صفائح من تنك أو أوعية من الخيش، وكل حركة من حركاتهم في هذا الخضم البشري عذاب مقيم، وكيف كانوا يزدحمون خمس مرات في اليوم حول حنفيات المياه ـ التي لم يكن هنالك منها سوى عدد قليل جداً لمثل هذا الخلق العظيم ـ كيما يؤدوا فريضة الوضوء قبل الصلاة، وكيف كانت أنفاسهم تضيق في هواء العنابر العميقة ـ طابقين تحت السطح ـ حيث تشحن البالات والصناديق في العادي من الأحوال. إن كل من قدر له أن يرى ذلك لم يكن ليجد مفراً من إدراك قوة الإيمان التي كانت تعمر صدور هؤلاء الحجاج. لم يكن يبدو عليهم أنهم كانوا يشعرون بما يقاسونه من آلام، ذلك أنهم كانوا مستغرقين إلى أبعد حدود الاستغراق في التفكير في مكة، ولم يكن لهم من حديث سوى حجهم. والحق أن الانفعال الذي به كانوا يتطلعون إلى مستقبلهم القريب قد أضاء منهم الوجوه، وكانت النسوة ينشدن معاً أناشيد المدينة المقدسة، ومرة بعد أخرى سمعت اللازمة: «لبيك، اللهم، لبيك!»

وعند ظهر اليوم التالي تقريباً دوت صفارة الباخرة، دلالة على أننا وصلنا إلى رابغ، وهي ميناء صغير إلى الشمال من جدة. هنا، كما تقضي بذلك التقاليد القديمة، ينبغي للحجاج القادمين من الشمال أن يطرحوا ثيابهم اليومية، وأن يضعوا على أجسامهم لباس الإحرام، وهو يتألف من قطعتين غير مخيطتين من القماش الصوفي أو القطني الأبيض يلف الحاج إحداهما حول وسطه بحيث تصل إلى ما تحت الركبتين، في حين تتدلى الأخرى حول الكتف، ويبقى الرأس مكشوفاً. أما السبب في هذا اللباس، وهو من تعاليم الرسول ﷺ، فهو أنه في إبان الحج يجب أن يتجرد كل زائر لبيت الله من كل شعور بالفرق بين الأمم والأجناس، أو بين الغني والفقير، والرفيع والوضيع، لكي يعلم الجميع أنهم أخوة سواسية أمام الله والناس. وإذن فسريعاً ما اختفت جميع ألبسة الرجال الزاهية، ولم يعد باستطاعتك أن ترى الطرابيش التونسية الحمراء، أو البرانس المراكشية الفاخرة، أو جلابيات الفلاحين المصريين الكثيرة الزخرف: وفي كل مكان من حولك لم يكن هناك سوى هذا اللباس الأبيض المتواضع، مجرداً من أي زينة، تتشح به الأجسام التي أخذت تمشي الآن بقدر أكبر من الاعتدال والعزة وقد أثر بها هذا الانتقال إلى حالة الحج. ولما كان لباس الاحرام من شأنه أن يعرض الكثير من أجسام النساء، فإنهن يحتفظن بألبستهن العادية. ولكن بما أن هذه لم تكن كما في سفينتنا ـ إلا بيضاء أو سوداء: الثياب السوداء على

المصريات والبيضاء على نساء افريقيا الشمالية، فإنها لم تضف لوناً زاهياً على الصورة.

وفي فجر اليوم الثالث ألقت السفينة مراسيها عند شاطىء جزيرة العرب، ووقف معظمنا عند حاجز السفينة، وحدقوا بأبصارهم إلى الأراضي التي كانت ترتفع ببطء من بين ضباب الصباح.

ولقد كان باستطاعة المرء أن يلمح، في جميع الجهات، أشباح سفن الحجاج، وبينها وبين اليابسة أقلام صفراء فاقعة وخضراء زمردية في الماء: شطوط مرجانية غائصة في الماء تؤلف جزءاً من تلك السلسلة الطويلة الممتدة أمام الشاطىء الشرقي من البحر الأحمر، ووراءنا، نحو الشرق، كان هنالك شيء يشبه الكثيب، مسود ومنخفض، ولكن ما أن ارتفعت الشمس من ورائه حتى انقلب إلى بلدة عند البحر، تزداد بيوتها ارتفاعاً من طرفها إلى وسطها فتشكل بناء دقيقاً من الأحجار المرجانية الحمراء والصفراء الداكنة: ميناء جدة. وشيئاً فشيئاً أصبح باستطاعتك أن تميز النوافذ المنقوشة والمشبكة، وستائر الشرفات الخشبية التي خلع عليها الهواء الرطب على مر السنين لوناً أخضر داكناً. وفي الوسط برزت منارة بيضاء مستقيمة كإصبع منتصبة.

ومرة أخرى ارتفعت صيحة «لبيك، اللهم، لبيك!» ـ صيحة سرور من التسليم والاندفاع انطلقت من الحجاج المتحمسين في لباس الإحرام الأبيض على ظهر السفينة فوق المياه إلى أرض أمانيهم القصوى.

أمانيهم هم، وأمانيَّ أنا: ذلك أن منظر شاطىء الجزيرة العربية؛ كان بالنسبة إليّ، ذروة سنوات من البحث. ونظرت إلى زوجتي ألسا التي كانت رفيقتي في حجتي تلك فقرأت في عينيها الشعور نفسه. . .

ومن ثم رأينا جيشاً من الأجنحة البيضاء يندفع نحونا من البر: الزوارق العربية التي مخرت بأشرعتها المياه الهادئة، وشقت طريقها بصمت بين الشواطىء المرجانية غير المنظورة ـ أول رسل جزيرة العرب، مستعدة لاستقبالنا. وإذ اقتربت رويداً رويداً من السفينة لتزدحم، آخر الأمر بسواريها المتمايلة إلى جانبها، انطوت أشرعتها الواحد تلو الآخر كأنها أجنحة طيور تصفق فرحاً بعثورها على الطعام، وانبعث من صمت اللحظة المنصرمة صراخ وصياح من وسطها، صياح الملاحين الذين أخذوا يقفزون من زورق إلى زورق واندفعوا إلى سلم السفينة ليفوزوا بأمتعة الحجاج. والحجاج، الذين أخذوا، كما لم يؤخذوا قط من قبل، برؤية الأراضي المقدسة، تركوا الأمور تجري دون أن يبدوا أية مقاومة أو دفاع عن النفس.

وكانت القوارب ثقيلة واسعة، وكانت خراقة أجسامها تظهر بشدة جمال سواريها المرتفعة وأشرعتها البيضاء. ولا بدّ أن السندباد البحري الجريء، إنما قام بمغامراته في قارب من هذه القوارب أو أكبر قليلاً. وفي قوارب شبيهة بها أيضاً، أبحر الفينيقيون، قبل سندباد بزمن طويل، جنوباً عبر هذا البحر الأحمر نفسه ومنه عبر بحر العرب، في طلب أفاويه جنوب جزيرة العرب وكنوزها.

وها نحن أولاء، خلفاء أولئك البحارة المغاوير، نبحر عبر البحر المرجاني، نتفادى الشطوط المرجانية الغائصة تحت البحر، بخطوط متعرجة، حجاجاً بألبستهم البيضاء، محشورين بين العلب والصناديق والبالات، جيشاً أخرس يرتعش رجاء، وأملاً.

وأنا أيضاً، كنت مليئاً بالرجاء، والأمل. ولكن كيف كان يتأتى لي، وأنا جالس في مقدمة الزورق، ويد زوجتي في يدي، أن أتنبأ بأن باستطاعة مهمة الحج البسيطة أن تبدل من حياتنا هذا التبديل العميق، الكامل؟ وأضطر مرة أخرى إلى التفكير في السندباد عندما غادر شطآن وطنه. لم يكن له ـ شأني أنا ـ أية فكرة عما يخبيء له المستقبل. لم يتنبأ، ولم يرغب، في كل تلك المغامرات الغريبة التي كان مقدراً أن يتعرض لها: بل أراد أن يتاجر فحسب، وأن يربح الأموال، في حين أني لم أرد إلا أن أؤدي فريضة الحج. إلا أنه عندما حدثت له ولي فعلاً تلك الأمور التي كان مقدراً لها أن تحدث لنا، لم يستطع أي منا من بعد أن ينظر إلى العالم بعينيه السابقتين.

صحيح أنني لم ألتق أي شيء غريب الشكل من مثل الجن والنساء المسحورات والطائر الذي كان على البحار البصراوي أن يناضله: إلا أن تلك الحجة الأولى، مع ذلك، كان مقدراً لها أن تحدث في حياتي تأثيراً أعمق من كل ما أحدثته رحلاته كلها في نفسه. فأما زوجتي ألسا فقد كان الموت ينتظرها، ولم يعلم أحد منا إلى أي حد كان وشيك الوقوع. وأما أنا فقد عرفت أنني غادرت الغرب لأعيش بين المسلمين، ولكنني لم أعرف أنني خلفت ورائي ماضيّ كله. فمن دون أيما إنذار، كان عالمي القديم يقترب من نهايته، عالم الفكرات والمشاعر والمساعي والتخيلات الغربية. كان هناك باب يقفل ورائي بهدوء، بهدوء كبير إلى درجة أني لم أشعر به ولم أدركه. ولقد ظننت أنها ستكون رحلة كسائر الرحلات السابقة عندما كنت أجول في البلدان والأراضي الغربية، لأعود دائماً إلى ماضي: ولكن الأيام كان لا بدّ من أن تتبدل بالكلية، ومن أن يتبدل معها اتجاه الرغائب جميعاً.

* * *

وفي ذلك الحين كنت قد رأيت كثيراً من بلدان الشرق. لقد عرفت إيران ومصر بأكثر مما عرفت أي بلد في أوروبا. وكابل انقطعت منذ زمن طويل عن أن تكون بالنسبة إليّ بلداً غريباً، كما ألفت أسواق دمشق وأصفهان. وهكذا لم أستطع إلا أن أشعر «بمقدار الضآلة» عندما مشيت لأول مرة في سوق جدة، ورأيت مزيجاً سائباً وتكراراً غير منتظم لما يلاحظه المرء في أماكن أخرى من الشرق على جانب أعظم من الكمال. كانت السوق مسقوفة بالألواح وقماش الأكياس وقاية من الحر اللاهب، ومن بين الثقوب والشقوق كانت أشعة الشمس الأنيسة تنساب فتطلي نور الغسق بنور الذهب. مطابخ مكشوفة أمامها كان الأولاد الزنوج يشوون قطعاً من اللحم على سياخ فوق فحم متقد، ومقاهٍ فيها الأواني النحاسية المصقولة والمقاعد المصنوعة من جذوع النخل، وحوانيت صغيرة ملأى بالتوافه الأوروبية والشرقية. في كل مكان حرارة رطبة ورائحة سمك وغبار. في كل مكان جماهير من الناس ـ حجاج لا عد لهم ولا حصر، في ثياب الإحرام، وأبناء جدة الذين اجتمعت في وجوههم وطرائقهم كل بلدان العالم الإسلامي: لربما أب ما من الهند، في حين أن الجد للأم ـ ولربما هو نفسه مزيج من أهل الملايو والعرب ـ قد يكون تزوج جدة أبوها من تركستان وأمها من الصوماليين: آثار حية من قرون من الحج ومن البيئة الإسلامية التي لا تعرف حواجز اللون ولا تعترف بالتمييز بين العناصر. وبالإضافة إلى هذا التزاوج بين السكان المحليين ومن يقذف بهم الحج إلى الديار المقدسة فقد كانت جدة في تلك الأيام (١٩٢٧) المدينة الوحيدة في الحجاز التي كان يسمح لغير المسلمين أن يقيموا فيها. ولقد كان في مكنتك أن ترى بين حين وآخر لوحات علقت فوق الحوانيت مكتوبة بلغات أوروبية، وأناساً يرتدون اللباس الخفيف الأبيض وخوذات الشمس أو القبعات على رؤوسهم، والأعلام الأجنبية ترفرف فوق دور القناصل.

كل هذه المظاهر كانت نتيجة لتأثيرات بلدان غريبة: وكنت ترى تلك التأثيرات في أصوات الموانىء وروائحها، في السفن الراسية وراء شعب المرجان، في زوارق صيادي السمك ذات الأشرعة المثلثة البيضاء ـ بالاختصار، عالم لا يختلف كثيراً عن عالم البحر الأبيض المتوسط. ولكن البيوت، مع ذلك، كانت تختلف قليلاً، بواجهاتها المزخرفة المكشوفة لنسيم البحر، بمشربياتها الخشبية المنقوشة وشرفاتها المحجبة بستائر خشبية مشبكة تمكن السكان من رؤية الخارج وتمنع المارة من رؤية الداخل. كل هذه القطع الخشبية استقرت كوشي رمادي ضارب إلى الخضرة على أحجار وردية مرجانية. إن هذا لم يعد الآن عالم البحر الأبيض المتوسط، ومع ذلك فلم يصبح بعد عالم الجزيرة العربية تماماً، لقد كان عالم شاطىء البحر الأحمر الذي

تقع العين فيه على مبانٍ متشابهة على كل من جانبيه.

إلا أن جزيرة العرب قد دللت على نفسها من بعد بسمائها الفولاذية، وكثبانها الرملية العارية وتلالها الصخرية نحو الشرق، وفي تلك النفحة من العظمة وذلك الجدب العاري، اللذين يمتزجان دائماً ذلك الامتزاج الغريب في جزيرة العرب.

* * *

وفي أصيل اليوم التالي سارت قافلتنا في طريق مكة، تتلوى بين جماهير الحجاج، والبدو، والجمال التي تعلوها الهوادج، والهجن، والحمير بحلاها الزاهية، نحو الباب الشرقي. وكانت السيارات تمر بنا بين حين وآخر ـ سيارات جزيرة العرب

وفي أصيل اليوم التالي سارت قافلتنا في طريق مكة، تتلوى بين جماهير الحجاج، والبدو، والجمال التي تعلوها الهوادج، والهجن، والحمير بحلاها الزاهية، نحو الباب الشرقي. وكانت السيارات تمر بنا بين حين وآخر ـ سيارات جزيرة العرب الأولى ـ تحمل الحجاج وتزعق أبواقها مبددة صمت المكان. وقد بدا لي أن الإبل كانت شاعرة بأن السيارات عدوة لها، ذلك أنها كانت تجفل كلما اقتربت منها سيارة، وتدير رؤوسها باحتدام وغيظ نحو جدران المنازل، وتحرك أعناقها ذات اليمين وذات اليسار، وقد بدا عليها الاضطراب واليأس. لقد كان هنالك زمن جديد يقترب مهدداً تلك الحيوانات الشامخة الصابرة، فيملأها خوفاً وتشاؤماً.

وبعد هنيهة خلفنا وراءنا أسوار جدة البيضاء، ووجدنا أنفسنا فجأة في الصحراء ـ في سهل عريض أشهب متوحد منقط بالعليق الشائك والحشائش والتلال المنخفضة المعزولة التي كانت ترتفع منه جزر في البحر، مصونة من الشرق بسلاسل صخرية أكثر ارتفاعاً بعض الشيء، جرداء لا أثر فيها لأي حياة. وفوق ذلك السهل المهيب كله كانت القوافل تشق طريقها بعناء وفي مواكب طويلة، مئات وألوف من الجمال ـ واحداً بعد آخر في صف واحد، محملة بالهوادج والحجاج والأمتعة، تختفي أحياناً وراء التلال لتظهر مرة أخرى. وبصورة تدريجية التقت مسالكها في طريق رملي واحد اختطته قوافل مماثلة عبر قرون متطاولة.

وفي صمت الصحراء الذي كان يتخلله وقع خفوف الجمال، ونداءات سائقيها البدو بين حين وآخر، والغناء المنخفض من هذا الحاج أو ذاك، استحوذ عليّ شعور غريب جداً إلى درجة أستطيع معها أن أدعوه رؤيا: رأيت نفسي على جسر فوق لجة

غير منظورة: جسر طويل جداً بحيث إن الطرف الذي شرعت في مسيري منه قد غاب عن ناظري في الضباب البعيد، في حين أخذ طرفه الآخر يتبدى الآن لعيني. ووقفت في وسط الجسر، وتقلص فؤادي من الخوف عندما وجدت نفسي في منتصف الطريق بين طرفي الجسر ـ بعيداً جداً عن أحدهما بحيث استحالت عليّ العودة إليه وغير قريب من الآخر إلى درجة كافية ـ وخيل إليّ، لثوان طويلة، أن عليّ أن أظل هكذا بين الطرفين، دائماً فوق اللجة الدوارة ـ عندما انبعث من قم امرأة مصرية على المطية التي كانت أمام مطيتي صيحة الحج القديمة «لبيك، اللهم، لبيك!» وهكذا انقطعت الرؤيا.

ولقد كان باستطاعتي أن أسمع الناس، في جميع الجهات، يتكلمون ويتهامسون بلغات كثيرة. وأحياناً كان بعض الحجاج يرددون «لبيك، اللهم، لبيك!» ـ أو تنشد فلاحة مصرية نشيداً في مدح الرسول ﷺ، وعندئذ تطلق فلاحة أخرى صيحة سرور تدعى في مصر «زغروطة»، وفي جزيرة العرب «غطرفة»، تطلقها نساء العرب في جميع المناسبات البهيجة مثل الزفاف والولادة والطهور والحفلات الدينية، وطبعاً الحج. في أيام العرب القديمة، عندما كانت بنات شيوخ القبائل يركبن إلى الحرب مع رجال قبائلهن كي يبعثن في نفوسهم الإقدام والشجاعة (ذلك أنه كان يعتبر عاراً كبيراً أن تقتل البنات أو تسبى، وذلك، كان ادهى وأمر، على يدي الأعداء) كثيراً ما كانت تسمع تلك الزغردة في ساحات القتال.

كان معظم الحجاج يركبون الهوادج ـ أي هودجين على كل مطية واحدة ـ وكانت حركة المطايا اللفافة تصيب الإنسان بالدوار وتهلك الأعصاب. وكان التعب يأخذ من أحدنا كل مأخذ فيغفو بضع لحظات ليصحو على رجة مفاجئة، ثم يغفو ثانية، ليستيقظ كرة أخرى. ومن آن إلى آخر كان سائقو الجمال، الذين كانوا يرافقون القافلة مشياً على الأقدام، ينادون حيواناتهم، أو يغني أحدهم، بين الفينة والأخرى، على خطوات المطايا الطويلة.

ووصلنا إلى البحرة مع الصبح تقريباً، فتوقفت القافلة لقضاء النهار، ذلك أن الحر لم يكن يسمح بالمسير إلا أثناء الليل.

هذه القرية، التي لم تكن في الحقيقة سوى صف مزدوج من الأكواخ، والمقاهي، وبعض البيوت الحقيرة المصنوعة من سوق النخيل، ومسجد صغير: كانت المكان التقليدي الذي اعتادت القوافل ان تتوقف فيه إذ كان في منتصف الطريق بين جدة ومكة. منذ أن تركنا الساحل ظلت الأرض نفسها تقريباً: صحراء مع تلال

متوحدة هنا وهناك، وجبال زرقاء في الشرق تفصل تهامة عن نجد. بيد أن كل تلك الصحراء من حولنا كانت أشبه الآن بمعسكر كبير جداً من الخيام، والمطايا، والهوادج التي لا عد لها ولا حصر، وخليط من اللغات المتعددة ـ العربية والهندوستانية والفارسية والصومالية والتركية إلى غير ذلك من اللغات التي لا يعلم عددها إلا الله. كان ذلك في الحق مجموعة من الأمم، غير أنه لما كان كل فرد يرتدي لباس الإحرام فإن المرء لم يكن يلحظ أيما فرق بين مختلف الأجناس التي بدت وكأنها أمة واحدة ليس غير.

ولقد كان الحجاج متعبين بعد تلك الليلة التي قضوها في المسير. ولا شك في أن السفر، بالنسبة إلى معظمهم، كان مهمة غير عادية إلى حد بعيد، وأن تلك الرحلة الأولى من نوعها في حياة بعضهم ـ وأية رحلة، نحو أي هدف! كان لا بد أن يستبد بهم القلق، وكان لا بدّ أن لا يستقروا في مكان واحد، كما لم يكن بد لأيديهم من أن تأتي شيئاً ما، حتى ولو لم يكن سوى فتح أكياسهم وصررهم وإعادة حزمها من جديد: وإلا لكتب عليهم أن ينتشوا بسعادة غير أرضية.

والظاهر أن هذا هو ما حدث للعائلة في الخيمة المجاورة لخيمتي، وكانوا كما بدا لي، قادمين من قرية من قرى البنغال. إنهم لم ينطقوا بكلمة، بل جلسوا القرفصاء على الأرض وأخذوا يحدقون بعيون ثابتة إلى الشرق، باتجاه مكة، إلى الصحراء التي كان يغمرها القيظ المتلألىء اللماع. كانت وجوههم تنطق بذلك الأمن البعيد بحيث إنك تشعر أنهم كانوا فعلاً أمام بيت الله، وعلى قاب قوسين أو أدنى من الله. كان الرجال بارعي الحسن. تدلت شعورهم الطويلة على أكتافهم، ونبتت لحاهم السوداء اللامعة في وجوههم. كان أحدهم مريضاً ممدداً على بساط؟ وإلى جانبه ربضت امرأتان يافعتان كانتا أشبه بطائرين صغيرين زاهيي الألوان في سراويلهما الحمراء والزرقاء وقميصيهما المطرزين بالخيوط الفضية، وضفائرهما الغليظة السوداء المتدلية فوق ظهريهما، وكانت صغراهما تحلي أنفها بخاتم ذهبي رقيق.

وتوفي الرجل المريض بعد ظهر ذلك اليوم، فلم تصدر عن المرأتين ولولة واحدة كما هي العادة في البلدان الشرقية، ذلك أن هذا الرجل قد مات وهو يؤدي فريضة الحج، في أرض مقدسة، فتوفي شهيداً. وغسل الرجال الجثمان ولفوه بالقماش الأبيض نفسه الذي ارتداه الرجل لآخر مرة في حياته، ومن ثم وقف أحدهم أمام الخيمة وكور يديه حول فمه وأذن للصلاة بصوت مرتفع: «الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!... الصلاة على الميت!

وليرحمكم الله جميعاً!» وتجمع الناس من جميع الجهات بلباس الإحرام ووقفوا في صفوف، وراء الإمام كأنهم جنود جيش عظيم. وعندما فرغوا من الصلاة احتفروا قبراً وتلا رجل عجوز بضع آيات من القرآن، ثم غطوا بالرمل جثمان الحاج الميت بعد أن أرقدوه على جنبه، وأداروا وجهه نحو مكة.

* * *

وقبل شروق شمس اليوم التالي ضاق السهل الرملي واقتربت التلال بعضها من بعض. وعبرنا مضيقاً ورأينا على ضوء الفجر الشاحب أول بيوت مكة، ثم دخلناها مع شروق الشمس.

كانت البيوت تشبه بيوت جدة بنوافذها البارزة وشرفاتها المحصورة، ولكن الحجارة التي كانت مبنية منها كان يبدو أنها أثقل وزناً وأضخم جسماً من حجارة جدة المرجانية الخفيفة اللون. كان الصباح باكراً ما يزال، ومع ذلك كانت الحرارة الشديدة آخذة في الازدياد. وأمام الكثير من البيوت كانت هنالك مقاعد عليها كان يرقد رجال متعبون. وأخذت الشوارع غير المرصوفة تضيق شيئاً فشيئاً، بينما كانت قافلتنا تتخطاها إلى وسط المدينة. وإذ لم يبق للحج إلا أيام معدودات، فقد كانت الجماهير غفيرة جداً في الشوارع، حجاج لا عد لهم ولا حصر بلباس الإحرام، وآخرون ارتدوا مؤقتاً ثيابهم العادية - ثياباً من جميع أرجاء العالم الإسلامي، وسقاة منحنون فوق قربهم أو تحت نير تتدلى من كل من طرفيه صفيحة كاز قديمة تستخدم بدلاً من الدلو، وسائقو حمير مع حميرهم ذات الأجراس الرنانة وسرجها البهيجة المبهرجة، ومطايا قادمة من الجهة المقابلة محملة بالهوادج الفارغة، تعج بنغمات مختلفة. ولقد كان هنالك هرج ومرج وضوضاء عظيمة في الشوارع الضيقة بحيث كان يخيل إليك أن الحج لم يكن شيئاً يحدث سنوياً منذ قرون، بل مفاجأة لم يكن الناس قد أعدوا لها عدتها، ولم تعد قافلتنا قافلة بمعنى الكلمة بل خليطاً مضطرباً من الإبل والهوادج والأمتعة، والحجاج، وسائقي الجمال، والضجيج.

وكنت، من جدة، قد دبرت أمر إقامتي في منزل مطوف معروف يدعى حسن عابد، إلا أنه بدا لي أنه لم يكن هنالك كبير أمل في العثور عليه وسط ذلك الجمع المضطرب. غير أن أحدهم صرخ فجأة: «حسن عابد! أين أنتم يا حجاج حسن عابد؟» - وكجنيّ يفلت من قمقم انتصب أمامنا شاب انحنى لنا انحناءة عميقة ورجانا أن نتبعه، فقد كان رسول حسن عابد ليأخذنا إلى منزله.

وبعد فطور سخي قدمه إلينا المطوف، خرجت إلى المسجد الحرام، وكان دليلي إليه الشاب نفسه الذي سبق له أن استقبلنا من قبل، فمشينا خلال الشوارع المكتظة الصاخبة، ومررنا بحوانيت القصابين وقد علقت أمامها صفوف الخرفان المسلوخة، وباعة الخضار وقد نشروا بضاعتهم فوق حصائر من قش فرشت على الأرض، وبين أسراب الذباب ورائحة الخضار، والغبار، والعرق، ومن ثم خلال سوق ضيقة مسقوفة لم يكن فيها غير حوانيت باعة الثياب من كل نوع ولون. وكانت الحوانيت، شأنها في أسواق أخرى في آسيا الغربية وأفريقيا الشمالية، كوى صغيرة ترتفع مقدار متر واحد عن أرض السوق، فيها يجلس صاحب الحانوت متربعاً وقد أحاط نفسه بأكوام الأقمشة من مختلف الألوان، في حين تتدلى فوق رأسه جميع أصناف الألبسة لجميع أمم العالم الإسلامي.

وكان هناك، أيضاً، أناس من جميع الأجناس والهيئات، بعضهم يلبسون العمائم وبعضهم مكشوفو الرؤوس، بعضهم يمشون صامتين وقد أحنوا رؤوسهم. ولربما أمسكوا المسابح بأيديهم، وغيرهم يهرولون بخفة بين الجماهير، صوماليون ذوو أجسام لدنة سمراء، تلمع كالنحاس من بين ثنايا أثوابهم الشبيهة بالشملات التي كان يشتمل بها الرومان واليونان، وعرب من نجد ذوو قامات مائلة ووجوه ضيقة وسمات شماء، وتركستانيون مكتنزون غلاظ الأطراف من بخارى، ظلوا يرتدون، رغم هذا القيظ الشديد في مكة قفاطينهم المضربة وجزماتهم الجلدية الطويلة التي تبلغ الركبتين، وفتيات من جاوا لوزيات العيون غير متحجبات، ومراكشيون يخطرون ببطء واعتزاز في برانسهم البيضاء، ومكيون بأثوابهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة بالطاقيات الصغيرة، وفلاحون مصريون على وجوههم آثار الحماسة، وهنود بأثوابهم البيضاء وعيونهم السوداء تتطلع من تحت عمامات ضخمة بلون الثلج، وهنديات تغطي ألبستهن البيضاء أجسامهن جميعاً فلا يمكن للنظر أن ينفذ إليها وبحيث يبدون وكأنهن خيام سيارة، وزنوج ضخام من تومبوكتو أو داهومي يرتدون ألبستهم النيلية - الزرقاء، وطاقياتهم الحمراء، وسيدات صينيات دقيقات البنية كالفراشات المطرزة يمشين برشاقة على أقدام صغيرة تشبه حوافر الغزلان. هرج ومرج وضجيج وعجيج من كل جانب بحيث تشعر أنك وسط أمواج متكسرة وتستطيع أن ترسم بعض خطوطها ولا تستطيع أن تأخذ لها أبداً صورة كاملة. كان كل شيء يطفو وسط أزيز من لغات لا تحصى وحركات سريعة - إلى أن وجدنا أنفسنا، فجأة، أمام إحدى بوابات الحرم.

كانت بوابة مثلثة العقود تؤدي إليها درجات من الحجر، وعند العتبة جلس شحاذ هندي نصف عريان، ماداً إلينا يده النحيلة. ومن ثم رأيت لأول مرة المربع

داخل الحرم، الذي يقع تحت سطح الشارع أدنى كثيراً من العتبة ـ وهكذا يكشف نفسه للعين كسلطانية: ساحة مربعة ضخمة يحيط بها من كل جانب أروقة ذات أعمدة كثيرة وعقود نصف دائرية، وفي وسطها مكعب علوه أربعون قدماً تقريباً، مكسو بقماش أسود له حاشية عريضة طرزت عليها بخيوط من ذهب آيات قرآنية تحيط بالجزء العلوي من الغطاء: الكعبة. . .

هذه، إذن، كانت الكعبة، التي كانت ولا تزال محط أشواق الملايين الكثيرة من الناس قروناً عديدة. إن حجاجاً لا يحصون ولا يعدون قد بذلوا تضحيات عظيمة عبر العصور للوصول إلى هذه المحجة، فمات الكثيرون منهم على الطريق وبلغها الكثيرون منهم بعد مشقة كبرى، وفي أعينهم جميعاً كان ذلك المبنى المربع الصغير ذروة آمالهم وغاية أحلامهم.

هناك انتصبت الكعبة، مغطاة بكاملها بالنسيج الحريري الأسود، جزيرة هادئة وسط ساحة المسجد المربعة الواسعة: أبسط كثيراً من أي أثر معماري آخر في العالم. ويكاد يبدو أن أول من بنى الكعبة ـ فقد أعيد بناء الكعبة بالشكل نفسه مرات عديدة منذ إبراهيم ـ قد أراد أن يوجد رمزاً لضعة الإنسان أمام الله. لقد عرف من بنى الكعبة أنه ما من جمال في تناسق البناء وما من كمال في خطوطه، مهما كان عظيماً، يمكن أن يوفي الفكرة الإلهية حقها: وهكذا قصر نفسه على أبسط شكل مثلث الأبعاد يمكن أن يتصوره العقل ـ مكعب من الحجر.

لقد سبق لي أن رأيت في بلدان إسلامية مختلفة مساجد أبدعت في بنائها أيدي الفنانين من المهندسين المعماريين العظام. رأيت مساجد في افريقيا الشمالية، معابد تتألق بالرخام والمرمر الأبيض، وقبة الصخرة في القدس، قبة كاملة فوق بناء دقيق، حلم من الخفة والثقل اتحدا دونما أثر للتناقض، ومباني استانبول الفخمة، السليمانية ويني والدة ومسجد بيازيد، ومساجد بورصة في الأناضول، ومساجد الصفوية في إيران، روائع ملكية من حجارة زاهية وبلاطات ملونة وأبواب مطعمة بالفضة، وخرائب مساجد تيمورلنك الجبارة في سمرقند، الرائعة حتى في انحلالها.

كل هذه سبق أن رأيتها ـ ولكن شعوري لم يكن قط قوياً كما كان الآن ـ أمام الكعبة ـ بأن يد الباني كانت على مثل ذلك القرب من مفهومه الديني. ففي بساطة المكعب المطلقة، في الإنكار التام لكل جمال للخط والشكل نطقت هذه الفكرة تقول:

«إن أيما جمال قد يستطيع الإنسان أن يخلقه بيديه، يكون من الغرور اعتباره

جديراً بالله، وإذن فكلما كان ما يستطيع الإنسان أن يتصوره بسيطاً كان ما يستطيع فلعله لتمجيد الخالق أعظم ما يكون».

إن شعوراً مشابهاً قد يكون السبب في البساطة الرياضية للأهرامات المصرية. ولو أن غرور الإنسان هناك قد وجد على الأقل منفذاً في الأبعاد الهائلة التي أعطاها لبنيانه. ولكن هنا، في الكعبة، حتى الحجم كان ينطق عن الإنكار الإنساني والاستسلام. فهذا التواضع الفخور في هذا البناء الصغير لم يكن له مثيل على الأرض.

ووقفت هناك، أمام معبد إبراهيم، وأخذت أحدق إلى عظمته دون تفكير (إذ إن الأفكار والخواطر جاءت بعد ذلك بوقت طويل)، ومن صميمي طفحت سعادة كأنها أغنية صامتة. . .

كانت قطع الرخام الناعمة، التي تتراقص عليها أشعة الشمس، تغطي الأرض في دائرة واسعة حول الكعبة، وفوق هذه القطع الرخامية طاف أناس كثيرون، من الرجال والنساء، ببيت الله المكسو بالقماش الأسود، ومن بينهم كان أناس يبكون، وآخرون يبتهلون إلى الله بالدعاء بأصوات مرتفعة، وآخرون لم يستطيعوا نطقاً ولا بكاء، وكان كل ما قدروا عليه أن يمشوا مطأطئي الرؤوس.

إن جزءاً من فريضة الحج أن تطوف بالكعبة سبع مرات: لا احتراماً لقدس الإسلام المركزي فحسب بل لتذكير النفس بالمطلب الأساسي للحياة الإسلامية. إن الكعبة هي رمز وحدانية الله، وحركة الحاج الجسمانية من حولها هي التعبير الرمزي للنشاط الإنساني ومضمونه أن أفكارنا ومشاعرنا ـ وكل ما يشمله تعبير «الحياة الباطنية» ـ ليست هي وحدها التي يجب أن يكون محورها الله، بل كذلك حياتنا الخارجية الناشطة وأفعالنا ومساعينا العملية.

وتقدمت أنا أيضاً، وأصبحت جزءاً من ذلك السيل الدائري حول الكعبة. وكنت بين الفينة والأخرى أشعر بوجود رجل أو امرأة بقربي: صور منفردة تبدت لعيني لتختفي من بعد عنهما. كان هنالك زنجي ضخم الجثة بلباس الإحرام، تدلت حول معصمه القوي الأسود سبحة خشبية كأنها سلسلة. ومشى إلى جانبي جاوي عجوز بعض الوقت، وكانت ذراعاه مسترخيتين، كأنما كان في حيرة لا حول له ولا طول. ومن بين الناس الكثيرين أمام البحر الأسود، امرأة هندية شابة كان مرضها واضحاً، وكان في وجهها الضيق الدقيق حنين غريب مكشوف تراه عين المشاهد كما ترى الأسماك أو الطحلب في أعماق بركة بلورية المياه. وكانت يداها، وراحتاهما إلى

الأعلى، ممدودتين نحو الكعبة، وأصابعها ترتعش كأنما تصاحب دعاءً صامتاً. . .

وتابعت طوافي، ومرت الدقائق، وأخذ كل ما كان تافهاً مراً في قلبي يزايل قلبي، وأصبحت جزءاً من سيل دائري - آه، هل كان هذا معنى ما كنا نفعل: أن نصبح واعين أن المرء جزء من حركة في مدار؟ هل كان ذلك نهاية كل حيرة؟ وتلاشت الدقائق، وهدأ الزمن نفسه، وكان هذا المكان محور العالم. . .

* * *

بعد تسعة أيام ماتت زوجتي ألسا.

لقد ماتت فجأة، بعد مرض دام أقل من أسبوع وبدا بادىء الأمر وعكة نشأت عن القيظ والأطعمة التي لم تكن قد اعتادتها بعد، ولكنه انقلب من بعده إلى مرض استوائي غامض وقف عنده الأطباء السوريون في مستشفى مكة عاجزين، وأطبق عليّ يأس وظلام عظيمان.

ودفنت في مقبرة مكة الرملية، ووضع حجر فوق قبرها. لم أرد أن يكتب على الحجر شيء، ذلك أن التفكير في شيء يكتب كان بمثابة التفكير في المستقبل: ولم أكن آنذاك أستطيع أن أتصور أي مستقبل.

وبقي معي أحمد، ولدي الصغير من ألسا، أكثر من سنة، وصحبني في أول رحلة لي، إلى داخلية جزيرة العرب - فكان رفيقاً بطلاً في العاشرة من عمره. إلا أنه كان عليّ أن أودعه أيضاً بعد مضي وقت قصير، ذلك أن عائلة أمه أقنعتني أخيراً بوجوب إرساله إلى مدرسة في أوروبا، فلم يبق عندئذ من ألسا غير ذكراها وحجر في مقبرة في مكة، وظلمة لم تنقشع إلا بعد ذلك بزمن طويل، أي بعد زمن طويل من استسلامي لمعانقة جزيرة العرب.

- ٦ -

تقدم الليل، ولكننا ما زلنا جالسين حول بصيص النار. لقد هدأت ثورة أبي سعيد، وبدأت أمارات الحزن والتعب على عينيه، وكان يحدثنا عن نورة كما يتحدث المرء عن شخص عزيز عليه مات منذ زمن طويل.

- «إنها لم تكن جميلة، ولكنني أحببتها. . .».

* * *

وبقينا كذلك إلى أن خبت النار، ونام زيد وأبو سعيد بينما تمددت مطايانا الثلاث على الرمل مجترة ما في أجوافها بصوت ناعم، متمهلة بين الفينة والأخرى ـ إنها حيوانات طيبة.

ولم أستطع أن أنام، ولذا أخذت أتمشى حتى ابتعدت عن المضرب، وتسلقت إحدى الروابي القريبة. كان القمر على ارتفاع منخفض فوق الأفق الغربي، وكان يضيء التلال الواطئة الصخرية المنتصبة كالأطياف من السهل الميت. من هنا تبدأ تهامة الحجاز الساحلية تسيل غرباً بانحدار سهل: سلسلة من الوديان يقطعها كثير من مجاري الجداول الجافة الملتوية، لا أثر فيها لأي حياة، خالية من القرى والبيوت والأشجار ـ صارمة في ظلمتها تحت ضوء القمر. ومع ذلك فمن هذه الأرض اليباب الميتة، من وسط هذه الوديان الرملية والتلال الجرداء انبثق أعظم دين مؤكد للحياة في تاريخ الإنسان.

وعلى مقربة من هنا، ولكنني لا أستطيع أن أراه وسط هذا القفر الميت من الوديان والتلال، يقع سهل عرفات، حيث يتجمع جميع الحجاج الذين يأتون إلى مكة في يوم من أيام السنة كيما يذكروا ذلك «اليوم الآخر» عندما يتعين على الإنسان أن يؤدي لخالقه حساباً عن كل ما أتاه في هذه الحياة الدنيا. كم وقفت هنا، أنا نفسي، عاري الرأس، في ثوب الإحرام الأبيض، بين حشد من الحجيج المرتدين الثياب البيضاء، العاري الرؤوس، من قارات ثلاث، مولين وجوهنا نحو جبل الرحمة المنتصب من السهل الفسيح: واقفين متربصين حتى الظهر، حتى الأصيل، نتفكر في ذلك اليوم الذي لا مفرّ منه، يوم الحساب...

وإذ وقفت على رأس التلة أحدق إلى أسفل نحو سهل عرفات الغائب عن ناظري، شعرت كأن زرقة الأرض أمامي، التي كانت ميتة منذ لحظة، قد دبت فيها الحياة من جديد بتلك التيارات من الأنفس البشرية التي مرت عبرها، وامتلأت بالأصوات الغريبة تصدر عن ملايين الرجال والنساء الذين مشوا أو ركبوا ما بين مكة وعرفات في أكثر من ألف وثلاثمئة حجة منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة. إن أصواتهم وخطواتهم وأصوات حيواناتهم، وخطواتها، تستيقظ وتسمع من جديد: إني أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون ـ كل تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمئة عام. إني أسمع أصوات أيامهم المقتضية، وأجنحة الإيمان الذي جذبهم معاً إلى هذه الأرض من الصخور والرمال فينبض الموت الظاهر مرة أخرى، بدفء الحياة فوق قوس القرون، ويجذبني صفيق الجناح القوي إلى مداره ويجذب ما تقضى من

أيامي إلى الحاضر. ومرة أخرى أراني راكباً فوق سهل عرفات ـ راكباً في عدو راعد فوق السهل، وسط ألوف وألوف من البدو في ثياب الإحرام، عائدين من عرفات إلى مكة ـ نقطة دقيقة تافهة من تلك الموجة العارمة المزمجرة من الرجال والإبل الذين لا عدّ لهم ولا حصر، بينما البيارق القبلية على صواريها العالية تدق كالطبول في الهواء وتشق عنان السماء صرخاتهم الحزبية القبلية «يا روقة، يا روقة!» من قبيلة عتيبة و «يا عوف، يا عوف!» من قبيلة حرب، فيأتيها الجواب «شمر، يا شمر!» من الجناح إلى أقصى اليمين!

وتتابع ركوبنا، هاجمين طائرين فوق السهل، ويخيل إليّ أننا طائرون مع الريح، منغمسون في سعادة لا تعرف نهاية ولا حدوداً... وتزعق الريح في أذني بنشيد النصر: «إنك لن تكون غريباً بعد الآن، أبداً أبداً!»

إخوان لي عن اليمين، وإخوان لي عن اليسار، كلهم لا أعرفهم ولكن أحداً منهم ليس غريباً عني: فنحن في فرحة سباقنا المضطربة جسم واحد يسعى إلى هدف واحد. إن العالم أمامنا لفسيح، وفي قلوبنا تتألق شرارة من النار التي اشتعلت في قلوب صحابة النبي ﷺ. إنهم يعرفون، إخواني عن يميني وإخواني عن يساري، إنهم قد قصروا عما كان ينتظر منهم، وإن قلوبهم قد تضاءلت عبر القرون: ومع ذلك فإن وعد الله الحق لم يَنتزع منهم... منا...

ويتخلى واحد من الحشد عن صرخته القبلية فيصيح: «يا إخوان من أطاع الله!» ويجيبه آخر «الله أكبر! الله أكبر».

وتردد جميع الفصائل البدوية الصيحة نفسها، إنهم لم يعودوا بدواً نجديين يقصفون في تعصبهم القبلي: إنهم رجال يعرفون أن أسرار الله إنما تنتظرهم... تنتظرنا... ووسط الضوضاء التي تصم الآذان من خطوات الألوف من الإبل المندفعة والمئات من البيارق المصفقة، تنمو صرختهم إلى زمجرة منتشية ظافرة: «الله أكبر!»

وتسيل هذه الزمجرة في موجات عارمة قوية فوق رؤوس الألوف من الرجال فوق السهل الفسيح، إلى أطراف الأرض جميعاً: «الله أكبر!» لقد سما هؤلاء الرجال فوق حيواتهم الصغيرة، وها أن إيمانهم يدفعهم الآن دفعاً إلى الأمام، كأنهم بنيان واحد نحو آفاق غير محدودة... والحنين لم يعد بحاجة إلى أن يبقى تافهاً مكتوماً فلقد وجد يقظته، وجد وعد الله متمماً. في هذا الإتمام يخطو الإنسان خطوات واسعة بكل ما وهبه الله من بهاء وسناء: خطوه بهجة، ومعرفته حرية، وعالمه دائرة دونما حدود...

رائحة أجسام الإبل، ولهثها، وزنخرتها، ودوي خفوفها التي لا عدّ لها ولا حصر. صياح الرجال، وصليل البنادق المعلقة على غزالات الشداد، والغبار والعرق اللذان يعلوان الوجوه المهتاجة من حولي: وفجأة هدوء بهيج في فؤادي.

وأستدير في شدادي فأرى خلفي الألوف من الفرسان بثيابهم البيضاء، ووراءهم الجسر الذي جئت عليه: لقد خلفت الآن آخره ورائي، في حين ضاع أوله في ضباب المسافات والأبعاد.

فهرست

هذا الكتاب

إن القصة التي يرويها هذا الكتاب ليست تاريخاً لحياة رجل اشتهر بدورٍ لعبه في الشؤون العامة ، وليست سرداً لمغامرة قام بها ، ولكنها عرض لاكتشاف رجل أوروبي للإسلام ، ولصيرورته جزءًا لا يتجزء من البيئة الإسلامية .

لقد نُشر هذا الكتاب باللغات الإنكليزية والألمانية والهولاندية والسويدية والفرنسية والأوردية ، والقارئ لعربي أولى من أي قارئ آخر بأن يطّلع على موضوع هام قاد مؤلفه من دين إلى دين ، ومن أوروبا إلى مكة والمدينة وباكستان . . .